عبد الرحمن عزام

روبنسون كروزو المسلم

سيرة فرناو لوبيز العجيبة

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

روبنسون كروزو المسلم

عبد الرحمن عزام

عن الكتاب..

في عام 1506 أبحر النبيل البرتغالي فيرناو لوبيز مع جيش بلاده إلى الهند بحثًا عن الشرف والثروة، لكنه اعتنق الإسلام هناك، وتزوَّج مسلمة، وحارب أبناء بلده السابقين. قُبض عليه في النهاية، وجُدع أنفه وقُطعت يده اليمنى وإبهام يده اليسرى وسط حشد من الناس جزاء الخيانة، ثم وُضع على ظهر سفينة كي تعيده إلى البرتغال، لكنه تركها في جزيرة سانت هيلانة المهجورة الموحشة (وهي الجزيرة نفسها التي قرر الإنجليز لاحقًا أن تكون منفى نابليون بونابرت بعد هزيمته). تناهت أخبار لوبيز إلى ملك البرتغال، فأرسل سفينة خاصة لإحضاره. وقد أثار لوبيز إعجاب الملك والبابا في روما، وعندما عرض عليه الملك أن يطلب ما يشاء، طلب العودة إلى سانت هيلانة!

هذا الكتاب الممتع، الذي نقله إلى العربية ببراعة واقتدار المترجم الكبير أنور الشامي، مغامرة تاريخية مثيرة، وتأمُّل في أحوال العزلة في الوقت نفسه، يحكي قصة عن الخلاص في إحدى الفترات الحالكة التي مرت بها أوروبا، ويروي حكاية عن علاقة الإنسان المعقدة بالطبيعة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إهداءٌ..

إلى والدتي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مقدمة لا بُدَّ منها

«يرتبط الإنسان منذ مولده برحلتَين. الأولى لا مفر له منها؛ فهي رحلة العمل والتجربة ويمضي فيها مع تيار الحياة... أما الرحلة الثانية فتمضي ضد التيار مستخدمة الزمان والمكان باعتبارهما نقطتَي انطلاق وحسب، حتى تتجاوز نطاقهما. وهذه هي الرحلة التي تأتي على ذكرها خرافات وأساطير لا حصر لها، وهي الطريق الشاق المحفوف بالمخاطر الذي يسلكه الإنسان للوصول إلى جوهر الوجود، والانتقال من الوهمي والزائل إلى الحقيقي والأبدي».

تشارلز لو جاي إيتون، «ملك القلعة» (King of the Castle)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الرحلة الأولى

«نفسي تنتظر الرب بلهفة أكثر من الحراس الذين يترقبون الصبح».
مزمور ١٣٠: ٦

الفصل الأول

مملكة في أقاصي الأرض

تبدأ وقائع قصتنا في آخر القرن الخامس عشر، عندما كانت البرتغال تقع في آخر الدنيا، ولا تطل سوى على المجهول. وفيما وراء ساحلها كان المحيط ولا شيء بعده، بل ولا حتى جُزر. وكانت ذات يومٍ إحدى «الممالك الخمس» التي تضمها شبه الجزيرة الإيبيرية. أربعٌ مسيحية وهي البرتغال وقشتالة وأراجون ونافارا، وواحدة مسلمة هي غرناطة. وفي مطلع القرن السادس عشر، استولت قشتالة على غرناطة ونافارا، ثم اتحدت مع أراجون، لتنبثق عن ذلك مملكة إسبانيا العظمى. وأما المملكة الخامسة، وهي البرتغال، فكانت بلدًا يُعرف بخصائصه التي تميزه عن غيره من البلدان بقدر ما يُعرف بما ليس من خصائصه. لم تصبح البرتغال إسبانيا، بالرغم من منطق الجغرافيا الذي كان يقتضي خلاف ذلك. ولم يكن ثمة تفسير مقنع يُبيِّن لماذا ينبغي للبرتغال أن تختلف عن بقية شبه الجزيرة الإيبيرية، وهي حقيقة دفعت مؤرخًا برتغاليًّا معاصرًا لوصف استقلالها بأنه «عبث جغرافي». ولم تصبح البرتغال إسبانيا، بالرغم من علاقات المصاهرة الوثيقة والشائعة للغاية، حتى إنه يمكن الزعم بأن مملكتَي البرتغال وقشتالة ظلتا خاضعتين في حكمهما لسُلالة واحدة خلال العصور الوسطى كلها. ولا شك أن وجود لغة وطنية مختلفة، تأثرت تأثرًا كبيرًا باللغتين اللوسيتانية والعربية، ساعد في ترسيخ هويتها المنفصلة. وبالمثل، فإن برتغاليًّا من العصور الوسطى بوسعه أن يتعرف على بلده اليوم، فقبل ٥٠٠ عام من الآن، اكتسبت البرتغال بالفعل شكلها السياسي الذي لا تزال عليه حتى اليوم تقريبًا، وهي، إلى حدٍّ بعيد، البلد الأوروبي الأول في ذلك.

وعلى الرغم من كون البرتغال أطلسية من جهة الجغرافيا، فإن روحها متوسطية وشعبها أقرب في سماته إلى شعب اليونان منه إلى شعبَي البرايتون أو الباسك. في الشمال منها، كانت الأمطار تهطل فوق سلاسل الجبال والأودية ساحرة الجمال، فتكسو الأرض باللون الأخضر وتلطف من حرارة الصيف. واعتاد الناس في هذه المناطق أن يشربوا البيرة لا النبيذ، وأن يطهوا طعامهم بالزبد لا بزيت الزيتون، وهو تقليد ورثوه عن شعب السلتيك. ومع الاتجاه جنوبًا، تنحسر الجبال وتنبسط الأرض وترتفع حرارة الصيف حتى تبلغ حدًّا خانقًا لا يُطاق. وهنا كان المرء يجد وفرة في العنب والحمضيات والتين وكذلك النبيذ والزيتون وشجر الفلين. وسواء في شمالها أو جنوبها، كانت البرتغال بلدًا مُفقَرًا، ويغلب عليها الطابع الريفي، وتضم بلداتٍ صغيرة محاطة بالأسوار في معظمها، مما جعل الاتصال بينها ضعيفًا، وكانت تلك المطلة منها على الأنهار هي وحدها التي بإمكانها تصدير محاصيلها الزراعية. لم تكن بها طرقات معبَّدة إلا فيما ندر، ولم يكن للعربات فيها وجود. وكان

الناس في تنقلاتهم يستخدمون الخيل أو البغال أو الحمير، فيما يسافر كثيرون مشيًا على أقدامهم. ولم يكن لديهم بديل عن البحر اللامتناهي الذي يحيط بأرضهم، حيث اعتاد الصيادون أن يلقوا بشباكهم في الشواطئ القاتمة التي تعصف بها الرياح، وعند مصبات الأنهار، بحثًا عن السردين وسمك القُد والرنجة. كان بلدًا قليل السكان، وكان ذلك وراءه سبب رهيب. ففي ذلك الوقت كان الطاعون، المعروف باسم «الموت الأسود»، قد فعل فعلَه فيه في عام ١٣٥٢، وحصد أرواح أكثر من ٣٠ في المائة من سكان البرتغال. ولم يَقنَع الطاعون وعاود الكَرَّة مرةً تلو مرة، حتى التهم كل مَن وجدهم في طريقه. ولم ينجُ من الوباء لا الأثرياء ولا الفقراء. وكذلك الأتقياء الورعون ممن راحوا يتضرعون إلى القديس سيباستيان كي يتشفع لهم، فلم تغنِ عنهم الضراعة ولا عقاقير الأطباء شيئًا. وحينما اجتاح الطاعون دير «ساو بيدرو» في مدينة كويمبرا، قضى على كل مَن كانوا بداخله. وحتى حينما خفَّف أخيرًا من قبضته الرهيبة على البلاد، كانت هنالك كوارث أخرى في انتظار البرتغال، ففي الفترة من عام ١٣٠٩ إلى عام ١٤٠٤ ضرب البرتغال أحد عشر زلزالًا، وتعرضت المنطقة لاثنتين وعشرين مجاعة. وبحلول عام ١٤٥٠، انخفض عدد سكان البرتغال من ١.٥ مليون نسمة إلى قرابة ٩٠٠ ألف.

نشأ فرناو لوبيز، الذي وُلد في لشبونة في مطلع ثمانينيات القرن الخامس عشر الميلادي، خلال ما يسمى بـ«العصر الذهبي للبرتغال»، وهي الحقبة الخالدة في تاريخ البلاد، ولم تشهد البرتغال مثلها. كان ذلك عصر بارتولوميو دياز، وهو أول أوروبي يبحر حول الطرف الجنوبي لأفريقيا، وعصر فاسكو دا جاما، وبيدرو ألفاريس كابرال الذي اكتشف البرازيل. بدأت البرتغال إمبراطوريتها وكأنها علاقة غرام تحت تأثير الشراب، فجاءت مشوبة بالفوضى والعشوائية والنزق والقسوة. وحينما كان لوبيز في ريعان شبابه تمكَّن بحارة البرتغال ـ وكانوا فيما سبق صيادين مُعدمين يعيشون على صيد السردين ـ من الدوران حول رأس الرجاء الصالح ومن ثَمَّ الإبحار إلى الهند، وأنشأوا المستعمرات والمراكز التجارية في بلدان بعيدة بُعد البرازيل وأفريقيا وأرخبيل الملايو وماكاو واليابان. ولأنه كان إنجازًا ينبئ عن جسارة مذهلة، فقد جاءت هذه الإمبراطورية تجسيدًا للشخصية البرتغالية. ويرجع ذلك إلى العقيدة والإيمان بالعالم الآخر بما يقوم عليهما الدين المسيحي، وكان أيضًا مدفوعًا بالرغبة في الفوز بالغنائم التي تجلبها أعمال القرصنة والمكاسب التي يحققها المغامرون الشجعان. وكانت إمبراطورية شهدت أنهارًا من الذهب تتدفق عليها ثم تلاشت. كان التوسع البرتغالي فيما وراء البحار نتاجًا لخليط من العناصر، وبمثابة ملحمة لملوك طموحين وتجار جشعين ورجال دولة بارزين ورحَّالة وحُجاج مسيحيين، وهم جميعًا كانوا يبحثون عن الفرص.

ولأنه وُلد وترعرع في لشبونة، كان لوبيز أحد أبناء المدينة التي أسماها البرتغاليون «سيدة البحار وملكتها». كانت لشبونة تطل من جهة واحدة فقط على المحيط، فيما هيمنت خمسة تلال على جهاتها الثلاث الأخرى، مما أعطى المدينة شكلًا غير متسق، فلا هي مستوية تمامًا ولا هي وعرة. وحينما كان عدد سكانها يبلغ ٥٠ ألف نسمة تقريبًا، كانت لشبونة تعادل في مساحتها مدينة بروج في الوقت الحاضر، وتعادل نصف مساحة لندن وربع مساحة مدينة البندقية. وبفضل بيئتها التي تشمل سفوح التلال المطلة على نهر تاجا والأراضي الخصبة والمرفأ ذي المياه العميقة، اجتذبت المدينة كبار التجار وصغارهم من شتى أنحاء أوروبا. ففي شوارعها، كان يتزاحم الإنجليزي والفرنسي والفلمنجي بحثًا عن مكان مع البحارة والصيادين والتجار القادمين من جنوة. وفوق أهم تلالها شُيدت قلعتها الملكية، فيما بقيت البيوت والأديرة بالأسفل على المنحدرات. كانت تزدحم بالكنائس، التي لم تكن دورًا للعبادة وحسب، ولكنها أيضًا أماكن يلتقي فيها الناس، بل وحتى أماكن ترفيه يُقام فيها الرقص ويُستمع فيها لقصائد الشعراء الجوالين ونوادر المهرجين. كان الناس في الكنائس يأكلون ويشربون وينامون ويتحدثون ويضحكون ويتجادلون بأصوات عالية، وكانوا يفعلون كل ذلك وهم وقوف؛ فلم تَدخل المقاعد إلى الكنائس حتى منتصف القرن الخامس عشر. وفي سفح القلعة كانت توجد ثلاثة أحياء يهودية تُوصَد أبوابها ليلًا، وكذلك كان للمسلمين أحياؤهم السكنية التي تقع بالقرب من الأسوار المحصنة للمدينة أسفل القلعة مباشرة. وفي مواجهة القلعة، كان يوجد دير «كرملي»، وعلى التل نفسه كان يوجد دير «الرهبان»، وهو مبنى لو قُدِّر للشاب لوبيز أن يزوره، لأبدى إعجابه بالتمساح المحنط المعلق في جوقة الدير. في عام ١٤٩٢، زار هيرونيموس مينزر ـ وهو رسَّام خرائط نمساوي وصاحب نزعة إنسانية ـ لشبونة خلال جولته في شبه جزيرة إيبيريا وأشار إلى وجود التمساح المحنَّط، من دون أن يقدم تفسيرًا لوجوده في هذا المكان.

كانت المدينة تعج بالحركة والنشاط في جميع أنحائها. بدايةً من حي ألفاما، الملاصق لمنحدرات جبل مونتي دو كاستيلو حيث ولد لوبيز على الأرجح، وصولًا إلى حي بايشا بشوارعه المزدحمة والنابضة بالحياة ومنازله التي كان بعضها يرتفع حتى أربعة طوابق أو خمسة، وحيث كان يمكن ابتياع ومقايضة السلع الكمالية بكل أنواعها مثل الذهب والتوابل والببغاوات البرية، وحي براسا دو روسيو، حيثما كان لوبيز، وهو طفل صغير، يشاهد على الأرجح سباقات الخيل ومصارعة الثيران وعمليات الإعدام التي تُنفذ على الملأ فيما يمضغ اللوز والتين. وبالرغم من أنه لا توجد سجلات توضح كيف كانت حياة لوبيز تمضي في لشبونة، فقد عُرفت البيوت البرتغالية بإضاءتها الضعيفة وتهويتها الرديئة، وبعدم حفظها للخصوصية. ولذلك كان معظم الأشخاص

يَقضون النهار كله بعيدًا عن منازلهم. وكانت المنازل صغيرة المساحة، ويندر أن تجد منزلًا يضم أكثر من أربع غرف، ولا يكون ذلك إلا لكبار الأثرياء. وفي العديد من المنازل، لم يكن للغرف حوائط ولكن تُقسَّم عبر ستائر أو ألواح خشبية. وأما المفروشات في المنازل فكانت في غاية البساطة، واستُخدمت الصوفية منها للوقاية من برد الشتاء وحرارة الصيف. وكانت الأرضُ تُفرش بالسجاد، أما الأقل ثراء فكانوا يستخدمون الحصير. كانت مواد البناء السائدة هي الخشب والمسامير والأرضيات الصلبة والقرميد والحجر والطين والرمل والجير. وكان الأثرياء وحدهم بوسعهم البناء باستخدام الألواح الحجرية.

في بعض الأحيان كان لوبيز يزور سوق السمك حيث تفوح رائحة السردين في كل مكان، وحيث يجلس العبيد في خمول قرب سلال فارغة في انتظار وصول قوارب الصيد. كانت الأسماك تُستهلك بكميات كبيرة في لشبونة، ولا سيما خلال الأعياد الدينية. ولم تكن السوق تضم صيادي السمك وحسب، بل يوجد بالقرب منهم أيضًا بائعو الخضراوات وبائعو الحلوى والقصَّابون والخبَّازون وصانعو الفطائر الذين يتزاحمون فيما بينهم لبيع سلعهم. كانت الفاكهة وفيرة، ولكن البرتقال كان لاذع الطعم ويُستخدم باعتباره ليمونًا، لأن البرتقال الحلو لم يأتِ إلى البرتغال إلا بعد قرن من ذلك الزمان. وبالرغم من توفر خضراوات مثل السبانخ واللفت والفجل والخس والجزر والخيار والهليون وفطر عيش الغراب واليقطين، كان الفقراء وحدهم هم من يُقبلون على شرائها لأنهم لا يستطيعون تحمل ثمن اللحوم. وربما كان النبيذ يُخفَّف بالماء جريًا على العادة، ولم يكن لوبيز يشرب الشاي أو القهوة لأنهما لم يكونا معروفَين بعد. وكشأن الغالبية كان يستطيب مذاق السكر، الذي كان يُعتبر نوعًا من التوابل باهظة الثمن، حيث كان سعره يعادل ٥٠ ضعفًا لسعر العسل. ومنذ سن باكرة، ومثل معظم البرتغاليين ممن في عمره، لعله اكتسب عادة غسل اليدين قبل تناول الطعام من العرب، ولم يأكل قَطّ بالسكين التي كان يحملها. والتي لم يكن أحد يغادر بيته من دون وجودها معه، وحتى رجال الدين كانوا يحملونها كسلاح. كانت لشبونة مدينة قذرة. بالرغم من وقوعها على ضفتَي نهر، فإن أحدًا لم تخطر له فكرة أن يشق قناةً للتخلص من القذارة عبرها. وبدلًا من ذلك، كان العبيد يحملون دِلاءً من الغائط كي يلقوا بها في البحر خلال ساعات النهار، ودائمًا ما كان ينسكب بعضه على الأرض. وكما أشار أحد البرتغاليين المعاصرين بمرارة: «يبدو أن ذوي الحكمة والتدبير ممن يضيعون أوقاتهم في سَن قوانين حول سفاسف الأمور، لم يجدوا وقتًا بعد كي يصدروا أمرًا واحدًا يقضي بحمل هذه الفضلات ليلًا». وكان المسك والعنبر واللُّبَان، وقد جُلبت جميعها من الهند مؤخرًا، تُحرق دائمًا لإخفاء الرائحة. وفي بعض الأحيان كانت هذه الرائحة الكريهة تخف حدتها

بفضل رائحة طهي اللحم أو شوائه التي تنبعث من الأكشاك الموجودة في الشارع.

كان وجه المدينة التي يعيش فيها لوبيز يتغير بوتيرة متسارعة، ولم يكن ثمة دليل أوضح على ذلك من شارع روا نوفا، وهو أول شارع يحمل اسمًا في لشبونة. وكان اسمه الكامل «روا نوفا جراندي دوس ميركادوريز» يكشف عن الغاية والغرض منه: «شارع التجار الجديد الكبير». كان الشارع الذي يشق حي بايشا، ويربط بين اتجاهات المدينة الأربعة، يقع بين أغنى أَبْرَشِيتين في لشبونة، وهما كنيسة «ساو جولياو» المعروفة بساحاتها الثلاث في الجهة الشمالية، وكنيسة «مادالينا» في الجهة الشرقية. والأهم من ذلك، كان شارع روا نوفا موازيًا للواجهة البحرية لنهر تاجا، حيث اعتادت أن ترسو السفن المتجهة إلى الهند والقادمة منها. ويقع الشارع على مسافة قصيرة من رصيف الميناء بالقرب من ساحة روسيو حيث توجد السوق وتُقام المزادات العامة على السلع والأثاث والعبيد. وفي عام ١٥١٧، أعلن الكاتب المسرحي توريس نهارو في مسرحيته «بروبالاديا» على لسان راعٍ برتغالي أن «الرب برتغالي، ويسكن في وسط شارع روا نوفا». إنه قطعًا ادعاء يعكس روحًا مفعمة بطموح مبالغ فيه نحو شارع، حتى وإن كان يقع في قلب عاصمة لإمبراطورية تجارية. لكن ملوك البرتغال كانوا يرون أنه يتحتم بناء «أورشليم جديدة» على ضفتَي نهر تاجا، وهو ما كان يدعم زعمهم بأنهم ملوك العالم، وفي قلب هذه المدينة سوف تتجسد في شارع روا نوفا الهوية المعمارية وتتجلى الرؤية الملكية. ولذلك السبب، أصدر جواو الثاني مرسومًا يقضي بقياس طول الشارع وعرضه بدقة، وتسجيل ارتفاع المباني بشكل دقيق. وفي عام ١٥٠٠، حظي روا نوفا بتكريم ملكي حينما قرَّر الملك أن ينتقل إليه تاركًا قصره الكائن بمنطقة ألفاما الذي بُني في العصور الوسطى. رأى لوبيز أعمال التشييد تجري على قدمٍ وساق في القصر الجديد. وأُنشئ القصر في موقع استراتيجي لا تفصله سوى خطوات قليلة عن مركز لشبونة التجاري، وفي الطوابق السفلية منه أُنشئت دائرة الجمارك الخاصة بالبضائع القادمة من أفريقيا والهند، وكانت تقع أسفل مسكن الملك. وفي غربي القصر كان يوجد حوض السفن ريبيرا داس نوس. كان وجود القصر الجديد يعني أن شارع روا نوفا أصبح الآن أرقى مكان للعيش في لشبونة، وباتت أسعار العقارات والإيجارات به هي الأغلى بالمدينة. وفيه بإمكان المرء أن يَرى ويُرى، وفيه يعيش أغنى التجار، وكان كثير منهم من الألمان والفلامنديين.

وربما كان الصبي لوبيز يجتاز شارع روا نوفا يوميًّا، فيرى التجار يجلسون على مقاعد خشبية وُضعت أمام متاجرهم وقد انخرطوا في أحاديث ينصتون خلالها إلى كل قولٍ يمكن أن يعزز مكاسبهم من دون الكشف عن نواياهم. وفي هذا الشارع الصاخب، كان يبرز منزل واحد رائع الجمال. ولعل الشاب الصغير

لوبيز كان أحد الذين وقفوا على أبوابه وقد أبهرتهم عظمته. لم يكن بحاجة إلى السؤال عمَّن يعيش بداخله لأن ساكنه كان معروفًا في لشبونة. إنه التاجر الفلورنسي بارتولوميو ماركيوني، وقد أصبح الآن مواطنًا برتغاليًّا، وهو رجل بالغ الثراء منحه التاج البرتغالي حق احتكار التجارة. وكان أغنى رجال عصره، ومن المقرَّبين لدى الملك، الذي كان يستأجر منه أملاكه. ومن الصعب تصور أن أحدًا سوى الملك يمكن أن يمتلك هذه الثروة الهائلة ويحظى بهذا السؤدد، واعتاد العديد من سكان لشبونة خلال تأديتهم أعمالهم اليومية أن يروا هذا المنزل ويتساءلوا: كيف أمكن لهذا الرجل أن يحقق كل هذا الثراء الكبير؟ لكن كل مَن عاش في لشبونة كان يعرف بالفعل أن الهند هي جواب سؤالهم.

نشأ فرناو لوبيز في برتغال منشغلة بسؤالٍ مُلح وهو: لماذا لا تكون لشبونة هي العاصمة التجارية لأوروبا بدلًا من البندقية أو جنوة؟ ولم يكن البرتغاليون قد عجزوا لسنوات عن ملاحظة أن قنطارًا من الفُلفُل يبلغ ثمنه ثلاثة «دوكادو» في مالابار يمكن بيعه في لشبونة بـ٤٠ «دوكادو»، ولا يمكن أن يكونوا قد جهلوا حقيقة أن تجارة الشرق المربحة من الذهب والتوابل كانت سببًا واضحًا وراء الازدهار الذي تعيشه البلدان الإسلامية والجمهوريات البحرية الإيطالية. وكان الطريق البري المؤدي إلى الشرق واقع تحت سيطرة دولة المماليك المسلمة، وهي لسلالة من العبيد أطاحوا بالدولة الأيوبية وظلوا يحكمون مصر حتى هزيمتهم أمام العثمانيين في مطلع القرن السادس عشر. وبعد سقوط القسطنطينية في أيدي العثمانيين في عام ١٤٥٣، قُطعت الطرق التي تمر عبر سوريا ومصر شيئًا فشيئًا في وجه غير المسلمين. وأضحى جليًّا أنه لا يمكن أن تقوم تجارة مع الهند عبر طريق بري لا يمر عبر بلدان إسلامية. ولكن ماذا لو وُجدت طريقة يتفادون بها الطريق البري ويشقون بها طريقًا بحريًّا يربط أوروبا بالهند والأراضي الواقعة إلى الشرق منها، ومن ثَمَّ يقضون على احتكار العرب للتجارة؟ وبعبارة أخرى، ماذا لو كانت هناك طريقة لاستبعاد الوسيط والاتجار مباشرة مع المنتِج وبشكل يُدر أرباحًا أكبر بكثير؟ وابتداءً من عام ١٢٩١، حاول بحاران من جنوة، وهما الأخوان فيفالدي، شق طريق بحري إلى الشرق، وذلك بإبحارهما بمحاذاة الساحل المغربي، ولكن لم يظهر لهما أثر بعد ذلك. ولكن الفكرة لم تمت بموت الأخوين فيفالدي، بل استمرت وترسخت.

كان الصِّبية الصغار في أيام لوبيز يرون في البطل العظيم الأمير هنري مَثَلَهم الأعلى، الذي يُعرف بيننا اليوم باسم «هنري الملاح» (١٣٩٤-١٤٦٠)، وقد تَربوا على سماع قصص بطولاته التي تطرب لها أسماعهم. كان هنري، وهو أحد أمراء الأسرة المالكة وراعي المستكشفين، مقتنعًا بأن الهند أقرب إلى شرق البرتغال من غربها، ومُصِرًّا على إثبات ذلك. كان البحارة والملاحون قبل

هنري يبحرون نحو أفريقيا فيما يتملكهم خوف عظيم ورهبة شديدة. ولم يستطع أي بحار برتغالي قَطُّ أن يبحر جنوب دائرة العرض الشمالية ٢٧ درجة، لأنه فيما وراء ذلك كان يوجد «بحر الظلمات» الذي تنتظر البحارة فيه وحوشُ البحر الضارية والمياهُ الساخنة حد الغليان. لكن هنري الذي تملكه الفضول لمعرفة مدى امتداد الساحل أرسل أربع عشرة رحلة استكشافية إلى «بحر الظلمات»، مدفوعًا بأسباب كان من بينها اكتساب المزيد من المعرفة الجغرافية والعلمية ونشر المسيحية والبحث عن الكاهن يوحنا الأسطوري، الذي كان يُشاع أنه مَلك يحكم إمبراطورية مسيحية عظيمة في إثيوبيا الواقعة خارج الأراضي الإسلامية. كان هنري أيضًا متعطشًا للحصول على ذهب غينيا، وتمنى لو سيطر على مصادره في أعالي نهرَي النيجر والسنغال، فضلًا عن رغبته في تعزيز تجارة الرقيق المربحة. وفي عام ١٤٢٤ تمكن أحد مرافقيه وهو جيل إيانيز، من الدوران حول رأس بوجادور في قارب صغير مزوَّد بزوايا مربعة، ما اعتُبر وقتها خطوة هائلة للأمام. وبحلول عام ١٤٤١، كان القباطنة البرتغاليون، الذين أبحروا بمحاذاة ساحل تحفه المخاطر وتعصف به رياح البحر وواجهوا رياحًا عكسية وتيارات بحرية معاكسة، قد وصلوا إلى الصخور البيضاء الواقعة على ساحل موريتانيا، وبحلول منتصف أربعينيات القرن الخامس عشر، وصلوا إلى مياه غينيا العليا. ومع ذلك، ظلَّت وتيرة تقدمهم بطيئة وبقيت المخاطر تحدق بهم من كل جانب، إما بسبب المياه الضحلة الخادعة وإما بسبب السهام المسمومة التي كان المحاربون الأفارقة يستقبلون بها البرتغاليين. وسرعان ما أدرك البرتغاليون، وقدَّروا أنهم إذا أبحروا بعيدًا عن الساحل وكانت الرياح مواتية فسوف يصلون إلى منطقة رياح تخفف من مشاق رحلتهم. وبحلول عام ١٤٦٠، تمكنوا من بلوغ سيراليون وخليج غينيا، الذي حسبوه الطرف الجنوبي الأقصى لأفريقيا. بيد أنه وبعد عام واحد، استطاع بيدرو دي سينترا أن يمضي بمحاذاة شواطئ سيراليون ويتصل بسكان ما يُسمى «ليبيريا» اليوم. وبعد ذلك، وصل البرتغاليون في ثمانينيات القرن الخامس عشر إلى تمبكتو ومالي، وفي عام ١٤٨٦، رافق رئيس مدينة أوجوتون في بنين جواو أفييرو في عودته إلى لشبونة، ما أحدث ضجة كبيرة داخل البلاط الملكي البرتغالي. لقد فتحت فرص التجارة مع غرب أفريقيا عيون الجميع. وسرعان ما لم يعد التاج البرتغالي أو النبلاء وحدهم من يسعون لتحقيق الثراء، بل انضم إليهم برتغاليون من جميع الطبقات ممن بدأوا يزاولون أشكالًا متنوعة من التجارة لتعزيز العوائد الهزيلة التي تدرها عليهم أعمال الزراعة التي أعالت أجيالًا قبلهم. وبدأ الصيادون والتجار والعاملون في بناء السفن الآن يُولون وجوههم جميعًا شطر البحر.

في عام ١٤٨١ اعتلى سُدة العرش الملك جواو الثاني، وهو صاحب الفضل الحقيقي في إطلاق عصر الكشوف العظيمة في البرتغال. وقبل اعتلائه

العرش، كانت عمليات التوسع والرحلات الكشفية تجري على امتداد ساحل غرب أفريقيا برعاية من أعضاء صغار في العائلة المالكة أو تجار تدفعهم روح المغامرة. وأما في عهد جواو، فقد أصبح للتاج البرتغالي دور رائد للمرة الأولى في تنظيم الرحلات الكشفية وتمويلها، وبذلك تحقق الحلم الذي طالما راود هنري. وفي عام ١٤٨٢، ثم مرة أخرى في عام ١٤٨٥، أرسل جواو ديوجو كاو، وهو أول أوروبي رأى نهر الكونغو بحسب السجلات، للإبحار جنوبًا عبر ساحل أفريقيا. وفي عام ١٤٨٦ حينما رفع كريستوفر كولومبوس إلى جواو مقترحًا يبتغي بموجبه طريقًا إلى الهند عبر الإبحار غربًا، رفضه ملك البرتغال، لا لأنه كان جاهلًا بإمكانية ذلك أو لعدم اهتمامه، ولكن لأنه كان مقتنعًا بوجود طريق آخر مباشر. وكان جواو قد أرسل مبعوثين استطاعوا الوصول برًّا إلى شرق أفريقيا والهند عبر البحر المتوسط، وكان واثقًا بأن الطريق البحري قابل للملاحة. وفي السنة نفسها التي رفض فيها جواو مقترح كولومبوس، كلَّف أسطولًا من السفن بمهمة الوصول إلى نهاية أفريقيا. وبعد مغادرته البرتغال في عام ١٤٨٦، قاد الملاح بارتولوميو دياز سفنه إلى أقصى الجنوب عبر الساحل، وكان حريصًا على تسجيل وتسمية كل نقطة جديدة يمر بها. وفي إحدى هذه النقاط، أعاقت رياح عاتية ومعاكسة تهب من جهة جنوب الجنوب الشرقي سُفنه عن مواصلة الرحلة، فقرَّر الابتعاد عن الساحل الأفريقي، والإبحار غربًا لمدة خمسة عشر يومًا، ثم جنوبًا، وأخيرًا شرقًا باتجاه ساحل أفريقيا مرة أخرى. ومع مواصلته ذلك، بالرغم من الرفض الشديد الذي أبداه طاقم بحَّارته، تمكن دياز أخيرًا من الالتفاف حول رأس أسماه البرتغاليون «رأس العواصف»، الذي وضع أخيرًا نهاية لأفريقيا. وأُعيدت تسميته لاحقًا ليصبح «رأس الرجاء الصالح». ولكن بعد ذلك، وبالرغم من أنه بدا أن الجائزة التي طال انتظارها منذ زمن باتت أخيرًا في المتناول، لم تُرسَل أي سفن أخرى من لشبونة، حيث انشغل جواو بأمور أهم.

«وكان الملك جواو رجلًا يعيش حياة بسيطة، ولا يعرف البذخ بأي حال، ويعرف كيف يستغل كل شيء أحسن استغلال»، هكذا وصفه رسام الخرائط هيرونيموس مينزر في عام ١٤٩٢ أنه كان أحد أعظم ملوك أوروبا في ذلك الزمان، إن لم يكن أعظمهم. وكانت مُنافِسته، إيزابيلا ملكة قشتالة، تراه أعظم الرجال، واعتبره معاصروه «رجلًا يقود غيره ولا يقوده أحد». وكان الملك يفرض سلطانه على مملكته الكاثوليكية، ويضطلع بمسؤوليات واضحة إزاء الجميع وأمام الرب، وهي إقامة العدل والدفاع عن مملكته والحفاظ على صحيح العقيدة الدينية. وكان بمثابة رمانة الميزان بين المجموعات المتصارعة وأصحاب المصالح من الذين يعيشون في المناطق الداخلية وأولئك الذين يعيشون في المناطق الساحلية، وبين هؤلاء الذين يؤيدون إقامة علاقات أوثق مع قشتالة والذين يعارضونهم، وبين النبلاء المتنافسين في كل مكان. ولم

تكن سلطة الملك تستند إلى مبدأ التفويض الإلهي، ولم تكن سلطة مطلقة، كما هو النظام الملكي في إنجلترا وفرنسا، حيث كان يتعين تتويج الملك وتنصيبه، حقًّا يكتسبه الملك. وحتى يحظى بالتاج كان عليه أن يقنع الشعب، أو بالأحرى النبلاء، بأنه صاحب الحق الشرعي في الحكم. وكانت الطريقة الأساسية التي تتيح له ذلك هي توسيع بلاطه الملكي وضم عدد أكبر من النبلاء إلى خدمته. ولذلك، وعلى الرغم من الظروف الاقتصادية القاسية، لا يُتصور أن يكون لمَلك بلاط صغير، لأن ذلك كان علامة على أنه ليس صاحب قوة ومَنعة وليس كريمًا في هباته وعطاياه. وكان ذلك أيضًا ينتقص من قَدْر الملك الذي كان رغم كل شيء هو ظل الإله على الأرض، وليس مقبولًا أن يكون الإله فقيرًا.

كانت العقيدة المسيحية والجود والعطاء من أهم خصال الملك الرشيد، وكذلك الحكمة. وكان التاج يمنح النبلاء الألقاب والإقطاعيات، كما بإمكانه تجريدهم منها. وكان يحق لأصحاب الإقطاعيات إقامة محاكم محلية وجباية الإيجارات، ولكن إذا أراد التاج جمع الضرائب، فعلى هؤلاء النبلاء الانصياع للإرادة الملكية. وإذا قررت المملكة الدخول في حرب، فعليهم المساهمة في تكوين الجيش. كان عقدًا اجتماعيًّا ورباطًا يقوم على الثقة: كان النبلاء يمنحون الملك صلاحيات كبيرة لتمكينه من حفظ النظام وإقامة العدل وسن القوانين وسك النقود، وفي المقابل ينتظرون حقوقًا وامتيازات تليق بهم. وكانت قوة الملك تتعلق بمدى قدرته على منع النبلاء من إعاقة سلطته أو حتى التعدي عليها، ولذا ظل التوتر والصراع أمرًا محتومًا، لأن الملك الفقير ملك ضعيف. وورد أن جواو اشتكى ذات يوم من أنه لم يعد «ملكًا إلا على الطريق». ولأنه كان عازمًا على مجابهة التحديات التي تواجه سلطانه من قِبل العائلات الأرستقراطية القوية، فقد فرض جواو على رعاياه يمين ولاء يجثون بموجبه على رُكبهم ويقسمون بأن يُسلِّموا له أي قلعة أو بلدة في حوزتهم عند الطلب. وكان دوق براجانزا (وهو أيضًا صهر جواو) وكذلك دوق فيسيو الذي أُوكلت إليه مسؤولية حماية الحدود مع قشتالة وجمَع ثروة طائلة من وراء الاحتكارات، مِن ألد خصوم الملك. وأدرك جواو أنه لن يستطيع أن يُثبِّت دعائم سلطانه إلا إذا أظهر بأسه وشدته للعيان، ولذلك أمر بقطع رأس دوق براجانزا أمام الأشهاد بعد اتهامه بالخيانة. ولم يكن له أن يُظهر أي علامة ضعف، إذ لم تمضِ سوى فترة وجيزة على ذلك حتى طعن بنفسه دوق فيسيو حتى الموت. كان التصرفان مُروعين بقدر ما كانا عنيفين، والأرجح أن جواو شعر بعد ذلك بالندم، حيث استدعى الشقيق الأصغر لدوق فيسيو، واسمه مانويل، ولم يكن قد تجاوز الخامسة عشرة من عمره، للمثول بين يديه. وأعلن جواو أنه أحب مانويل حب الأب لابنه وتعهد أن يجعله وريثًا لعرشه إنْ هو لم ينجب وريثًا شرعيًّا. كانت لفتة عظيمة. ولا يمكن أن تعرف المشاعر

التي اعترت مانويل بعد موت أخيه على يد الملك، فقد آثر الصمت فطنةً منه، ورغم توسلات جواو الباكية، أدرك مانويل أنها عديمة القيمة. فهناك ستة آخرون غيره يحق لهم المطالبة بالعرش أكثر منه، وفي كل الأحوال كان الملك ينعم بالصحة والعافية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني

«ادهن نفسك بالزيت واحفظها في خزانة»

إن ما يعتبره التاريخ حظًّا، يراه الإنسان عنايةً إلهية. فمن عجائب الأقدار، أنه في عام ١٤٩٥، حينما كان لوبيز في الخامسة عشرة من عمره تقريبًا، اعتلى عرش البرتغال مانويل الأول، المعروف بـ«مانويل المحظوظ»، الذي كان شقيقه قد طُعن حتى الموت بأيدي الملك السابق للبرتغال. ولأنه لم يكن يتخيل أن يصبح ملكًا قَطُّ، فقد كان يُتوقع أن يتخلى مانويل عن الحكم ويلتحق، بحكم طبائعه، بسلك الكهنوت. ما من شك أن اعتلاءه العرش كان أمرًا مُعجزًا، واعتبره هو نفسه قدرًا إلهيًّا، وحينما يعتلي العرشَ أحدٌ بهذه الطريقة فلا عجب أن يسود الاعتقاد بأن ذلك لم يكن إلا لسبب وغاية. كان مانويل شديد التدين والورع، ومنذ صغره أظهر حماسةً لأفكار يواكيم الفلوري، وهو ناسك عاش في القرن الثاني عشر كان يرى أن النصوص النبوئية، ولا سيما سفر «الرؤيا» هي السبيل لفهم مقاصد الرب للبشرية. وكانت أفكار يواكيم تدور في جوهرها حول حاكم يظهر في المستقبل ويُعيد العالم إلى الطريق المستقيم وينقذ شعبه ويقهر قوى الإسلام. لا يُعرف بوضوح في أي مرحلة بدأ مانويل يرى أن الروح القُدس هو مَن يلهمه ويرشده، وأنه مبعوث العناية الإلهية المنوط به هداية العالم عبر الغزو والتبشير. ولكن مما لا ريب فيه أنه كان مخلصًا فيما يؤمن به من اعتقاد. كان اعتقادًا غير عادي، ولكن عصره من ناحية أخرى كان عصرًا غير عادي. ويشير إدواردو لورينسو، وهو كاتب معاصر وفيلسوف برتغالي شهير، إلى أن الهوية البرتغالية تحمل في طياتها «إحساسًا بضعف فطري وقناعة غيبية بحماية إلهية مطلقة... وهو ما يتداخل بعمق مع مفهوم المصير الخاص». ولم يظهر هذا المزيج الجميل على السطح قَطُّ مثلما ظهر في عهد مانويل. وخلال السنتين ما بين عام ١٤٩٨ حينما تمكن فاسكو دا جاما من الدوران حول رأس الرجاء الصالح، وعام ١٥٠٠ حينما وصل بيدرو كابرال إلى البرازيل، نجحت البرتغال في تأسيس إمبراطورية بحرية عالمية. وحتمًا إذا لم يكن ذلك علامة على مباركة إلهية وتحقق النبوءات الإنجيلية، فماذا عساها أن تكون؟

كانت البرتغال التي نشأ فيها لوبيز، ويحكمها مانويل الآن، هي إحدى البقاع التي امتزجت فيها قصص الفروسية بالنبوءات الإنجيلية، واختلطت الأساطير القديمة بالنصوص المسيحية الرؤيوية. وبرزت على وجه الخصوص أسطورتان تتنبآن بدورها الإلهي، وكلتاهما ترتبطان بالمسلمين. الأولى تتعلق بقصة أفونسو هنريك، الذي سيُعرف لاحقًا بـ«أفونسو الأول»، وهو أول ملك في تاريخ البرتغال. فقد رأى أفونسو عشية معركة حاسمة واجه خلالها جيش المسلمين في عام ١١٣٩ نورًا ساطعًا في السماء تجلَّى خلاله الصليب وعليه

المسيح المصلوب محاطًا بالملائكة. وما كان من أفونسو إلا أن خرَّ ساجدًا أمام هذه الرؤية التي طمأنته أن النصر سيكون حليفه وأنه سوف يؤسس مملكة تحظى بمباركة الرب: «وأريد أن أقيم عليك وعلى ذريتك مملكةً لي، حتى يصل اسمي إلى الشعوب الأخرى في الأرض». أصبحت هذه الأسطورة هي الأسطورة المؤسِّسة للبرتغال، وهي أسطورة تشير إلى ألوهية تأسيسها وإلى الغاية التي لأجلها تأسست المملكة. كان مانويل يؤمن بها إيمانًا عميقًا، ولم يكد يعتلي العرش حتى أصدر مرسومًا بإعادة تأبين جثة أفونسو هنريك في كويمبرا. أما الأسطورة الثانية، فسوف أتطرق إليها لاحقًا، نظرًا إلى ما تثيره من مرارة شديدة بشأن قصتنا التي نحن بصددها.

كان أفضل ما يمكن للمرء أن يحلم به في البرتغال هو أن يصبح فيدالجو. وفي برتغال القرن الخامس عشر لم يظهر مصطلح «النبلاء» إلا نادرًا، ولم يُعرَّف على الإطلاق، اللهم إلا عبر إشارات مبهمة لرجال «ذوي نسب رفيع» يُشار إليهم بأنهم «شرفاء» إما بسبب الوراثة وإما لخدمات جليلة أدَّوها. ومع ذلك، فإن واحدًا من كل عشرة أشخاص كان يمتاز عن بقية أفراد المجتمع. وهؤلاء يُشار إلى الواحد منهم بكلمة «فيدالجو»، وهي تعني «ابن الناس». لم يكن مصطلح «فيدالجو» لقبًا، بل تمييز يثبت لصاحبه امتيازًا معينًا. ولكن هؤلاء الذين يُشار إليهم بأنهم «أبناء الناس» لم يكونوا سواسية. كان «علية القوم» الذين لا يزيدون على ٥٠ عائلة، هم الأعلى قدْرًا في البلاد ويحملون لقب «دوم»، الذي يُسبغه عليهم الملك. كان هؤلاء هم الأعلى شأنًا، وهم الذين يجالسون الملك في مجالسه الخاصة وفي البرلمان، ولهم كلمة مسموعة لدى الملك. ويلي هؤلاء على السلم الاجتماعي طبقة «الفرسان»، ويليهم «مرافقو الفرسان»، وهؤلاء يرتبطون بالعائلة الحاكمة ويتطلعون إلى شَغل وظائف إدارية أو تقلد مناصب عسكرية. وبعد ذلك يأتي «النبلاء البسطاء» وهم الفرسان الذين لا يمتلكون سوى حصان، والقضاة وأعضاء المجالس والموظفون العموميون، وكانوا يعيشون عيشة «كريمة». كان جميع النبلاء خُدَّامًا للملك، وهم جميعًا ينتمون إلى فئة الفيدالجو.

ونظرًا لأن المعنى العام لكلمة «فيدالجو» هو «ابن الناس»، فقد كان لهوية الفرد أهمية كبيرة، بل إن «رفعة النسب» كانت أهم من الثروة، وكان الفيدالجو من أبناء العائلات النبيلة أعلى شأنًا من الذين نالوا هذه المنزلة اكتسابًا بفضل خدمة أدَّوها للملك. وفي مجتمع يتملكه ولع كبير بفكرة الحفاظ على «نقاء الدم» وتأكيده، أصبح هنالك اهتمام كبير بتتبُّع الأنساب، فكانت أسماء المواليد الجدد تُسجل في دفتر كي لا تَفقد معناها الاجتماعي والسياسي. ووُجد نسَّابون كثيرون يفتقرون إلى النزاهة ويساعدون الأُسر في تسجيل أنسابها، حيث كانت أقلامهم جاهزة للاستفاضة والإسهاب بل والتزوير في كثير من الأحيان حتى يتيحوا لأسرة ما أن ترث لقبًا نبيلًا لم يكن ملكًا لها

في حقيقة الأمر. وكانت المسألة مجرد تفاخر بالأنساب أو تسلق للسلم الاجتماعي. بالنسبة إلى الأسر، كانت مستويات الثروة والسلطة ودرجات الشرف تعتمد على كينونتها ووضعيتها الاجتماعية، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الضعة والعار والخزي. كان أمرًا مهمًّا، بل مهم للغاية، وإلا فلماذا يتنازع حكام بومبيرو في المحاكم، على مدى أجيال، حول خطأ في النسب يتعلق بجدٍّ عاش قبل ٣٠٠ عام؟ ولماذا كان على أندريه أمارال أن يثبت أن جده الأكبر كان نبيلًا قبل أن يُسمح له بإضافة شعار النبالة إلى سجل شعارات النبالة في أبريل ١٥١٥؟

كانت البيانات الملكية في أواخر العصور الوسطى دائمًا ما تتوجه في خطابها إلى فئات الفيدالجو والفرسان ومرافقي الفرسان، وإلى هذه الفئة الأخيرة كان لوبيز ينتمي. كان دور مرافق الفارس في الأساس هو مساعدة الفارس في حمل درعه، مثلًا. ومع ذلك، لم يعد يُنظر إلى منصب مرافق فارس في الزمن الذي عاش فيه لوبيز بأنه مجرد منصب مؤقت أو تحضيري، وأصبح له وجود راسخ في حدِّ ذاته، ويمنح صاحبه مربط خيل وحاشية. وربما كان فرناو لوبيز مرافق فارس، ولكنه لم يكن ينتمي إلى سلالة نبيلة. وكان يحق للملك أن يصدر، في بعض الأحيان، مرسومًا يُنصِّب بموجبه مرافقي فرسان ممن ليسوا من نسل نبيل. وكان ذلك يجري غالبًا لأغراض سياسية مثل موازنة قوة الطبقة الأرستقراطية والنبلاء الإقطاعيين الذين كانوا دائمًا ما يَتحدَّون سلطة الملك. وكانت الصيغة الافتتاحية في معظم مراسيم مرافقي الفرسان هي: «نحن [الملك] نقبل [فلانًا وفلانًا] مرافقي فرسان، ونشملهم بحمايتنا الخاصة وتزكيتنا». كان لوبيز أحد هؤلاء الذين حددهم المرسوم، وأصبحت منزلته تؤهله الآن لأن «يعيش حياة نبيلة». وباعتباره مرافق فارس، سُجل اسمه في «سجل انتساب» اعترف بالتحاقه بالخدمة في البلاط الملكي وأصبح بموجبه يحصل على «مورارديا»، وهو راتب ثابت يُجريه عليه الملك. كان ذلك يعني أن لوبيز دخل في خدمة الملك، وكانت الدرجة الأولى على السلم الاجتماعي هي «صبي الغرفة»، وبهذا اللقب ظهر لوبيز للمرة الأولى في سجلات البلاط الملكي. كان لوبيز يرى نفسه فيدالجو، والأهم من ذلك أنه كان يُنظَر إليه على أنه كذلك، وعلى الرغم من أن الكلمة تعني حرفيًّا «ابن الناس» مع الافتراض ضمنيًّا أن هذا الشخص كان يحظى بمكانة متميزة، فإنه كان في أحيان كثيرة لقبًا غير رسمي: يضع صاحبه في فئة اجتماعية ما من دون أن يمنحه رتبة محددة. ولا شك أنه كانت توجد درجة من المرونة حول مَن يكون فيدالجو، بالرغم من أن «مرافق فارس» و«دوم» لم يكونا سواءً، وكذلك لم يكن هؤلاء الذين يُصدر لهم مرسوم يصبحون بموجبه ضمن فئة الفيدالجو يتساوون مع أولئك الذين وُلدوا بدماء نبيلة. ومع ذلك، كان مهمًّا للغاية أن يكون المرء فيدالجو. وهذا هو كل ما يهم.

كان الشعور السائد هو أنه يتعين تشجيع النبلاء الشباب على مواصلة تعليم من نوع ما، ونصَّ مرسوم يعود إلى عام ١٥٠٠ على أن مرافقي الفرسان يجب ألا يتلقوا رواتبهم ما لم يحصلوا على شهادة من معلم يتولى تعليمهم قواعد اللغة، تفيد بأنهم يواظبون على الدروس ويحرزون تقدمًا مُرضيًا فيها. وعليه، فإن لوبيز، الذي ربما كان في أوائل سنوات المراهقة (وللمرء أن يتخيل صدمته إزاء ذلك) كان عليه أن يجتاز الصعوبات التي يفرضها تعلم قواعد اللغة اللاتينية. ودرس أيضًا الأعمال الكلاسيكية التي من بينها أعمال هوميروس وفيرجيل وأوفيد وبليني وشيشرون، وقرأ تاريخ الملوك والقادة العظام. وكذلك درس الكتاب المقدس وعلم النجوم ونظرية الكواكب. ويبدو أن تعليم الفتيان من ذوي الأصول النبيلة كان مهمة تتولاها المدارس الملحقة بالجامعة، وكذلك بعض الأشخاص التابعين للجامعة ممن كانوا مرتبطين بكنيسة القصر الملكي. لم يكن ذلك مفاجئًا، نظرًا إلى القرب بين القصر الملكي والجامعة. ويُعزى الفضل في التعليم المبكر والشامل الذي تلقاه لوبيز إلى حدٍّ بعيد إلى تأثير تقنية الطباعة التي ظهرت في أواخر القرن الخامس عشر. ففي حين كانت الكتب سابقًا باهظة الثمن ويصعب الحصول عليها، أتاحت الطباعة للنبلاء الأقل غنى قدرة أكبر على الوصول إلى الكلمة المكتوبة. كانت المطابع تجني أموالها من الإنتاج الضخم وتطبع ما بين ٢٥٠ و٥٠٠ نسخة. وفي لشبونة أُنشئت إحدى أولى المطابع في البرتغال، وكان كلٌّ من فالنتيم فرناندِز وجواو بيدرو دي كريمونا الطبَّاعَين الرئيسيين للتاج البرتغالي. وضمَّت أولى مطبوعاتهما كتبًا في قواعد اللغة وصلوات الساعات أو كتب الصلوات الخاصة.

وبصفته مرافق فارس يستظل بـ«حماية الملك الخاصة وتزكيته» وهو ما يعني فعليًّا نشأته تحت رعايته وفي خدمته، كان أمام لوبيز مساران مهنيان وهما أن يشغل وظيفة إدارية أو يتقلد منصبًا عسكريًّا. ولكن حلمًا واحدًا لا غير كان يراوده وهو أن يصبح فارسًا يجسد معاني الشرف والنبل والعدل. وبالنسبة إلى شابٍّ يعيش في زمن لوبيز، كانت حياة الشجاعة التي تتجلى في ساحات القتال هي الحياة ذات الشأن، بل إنها هي الحياة الوحيدة التي تستحق أن تُعاش، وحالما أصبح لوبيز مرافق فارس، كان عليه أن يخضع لتدريبات عسكرية صارمة. وأخذ يتلقى دروسًا في المبارزة بالسيف الذي يُمسَك بكلتا القبضتين، وتعلَّم كيف يوجه ضربات خاطفة وقوية، وكيف يراوغ ويتفادى الضربات، وقبل كل شيء كيف يصد ويضرب في آنٍ واحد. وتعلم أيضًا كيف يقاتل بـ«المِطرد»، وهو رمح مزود برأس فأس. كان سلاحًا رهيبًا، وسوف يتعين على لوبيز أن يتدرب بقوة حتى يتمكن من استخدامه، ويتعلم كيف يطعن بالرمح أو يحطم بجانب المطرقة أو يجذ بجانب الفأس، وكيف يستخدم عمود الرمح في الصد أو في إسقاط راكب الحصان. خضع لوبيز لتدريبات

قاسية وشاملة، حيث كان البرتغاليون قد اكتسبوا على مدى عقود خبرات واسعة بالقتال في ميادين الحرب. ومنذ عام ١٤١٥، حينما استولى جواو الأول على مدينة سبتة كانوا يصقلون مهاراتهم القتالية في المغرب عبر طرق متنوعة أو مناوشات صغيرة أو حرب حصار أو غارات غايتها النهب أو عبر غزوهم مدنًا جديدة. وأصبح المغرب من نواحٍ عدة بمثابة ميدان لتعليم البرتغاليين الحياة العسكرية، والمكان الذي يتوجه إليه النبلاء الشباب ومَن ليسوا شبابًا لممارسة فنون الحرب والقتال وإتقانها.

كان ذلك زمنًا يستمد الفرسان فيه شرفهم العسكري من القتال وجهًا لوجه، وفي أي معركة عادةً ما يكون هجوم الفرسان هو العامل الحاسم. ولكن ذلك الزمن كان في سبيله للزوال مع ظهور قوة البارود ـ حيث بدأت الأسلحة النارية الصغيرة تحل بدرجة كبيرة محل النبال ـ ما أحدث تحولًا في الأساليب التقليدية للحرب. ومع ذلك، ومع تغير طريقة الحرب، بذل الفرسان جهدًا جهيدًا حتى يتأقلموا، فقد ظلوا على مدى قرون يتشربون فضائل الفروسية ويُلقَّنون فكرة ازدراء مشاة الجيش. وكانت فكرة قتل شخص ما من بعيد تبدو عملًا جبانًا يفتقر إلى الشرف لدى الفارس، بيد أنهم أُجبروا شيئًا فشيئًا على القبول بفكرة أن هؤلاء المشاة قد يحلون محلهم باعتبارهم السلاح الأول في ميدان المعركة. وبعبارة أخرى، كان على الفرسان أن يتخلوا بشكل متزايد عن نمط الحياة، وقد فعلوا ذلك بأكبر قدر ممكن من التمنع. وبطبيعة الحال، فإن دون كيشوت هو أشهر مثال للمقاتل النبيل الذي لا يستطيع القبول بأن العالم تغيَّر. وبطريقة مشابهة، عبَّر بالداساره كاستيليونه، وهو شخص عاصر لوبيز، عن تأثير هذه التغيرات في حوار ورَد في «كتاب رجال البلاط»:

ولكن حينما يتعلق الأمر بالتفاصيل الدقيقة، فإنني أرى أن المهنة الأولى والحقيقية لرجل البلاط هي مهنة الأسلحة...

ردت السيدة: «حسنًا، بما أنك لست في حرب الآن، ولا تشارك في قتال، فادهن نفسك بالزيت واحفظها في خزانة ومعها جميع عُدتك القتالية، سيكون ذلك أجدر بك، كي لا تصدأ أكثر مما صدأت بالفعل».

سرعان ما اكتشف لوبيز بصفته مرافق فارس أن الحياة في البلاط الملكي باهظة الكلفة. وإذا كان يطمح إلى أن يكون فارسًا فإن المهارة العسكرية وحدها لن تكفي: كان عليه أيضًا أن يكون حسن المظهر، وأن يطعم الفقراء بسخاء، وأن يكون له أتباع. وكان عليه أن يتعلم ويصبح واسع الاطلاع وداعمًا للفنانين. كانت توجد بالفعل طريقة وحيدة تجعله يتحمل تكاليف كل ذلك: وهي أن يكون مقربًا من الملك قدر الاستطاعة حتى يحظى بالرعاية، وكي يتحقق له ذلك، كان وجوده في البلاط مسألة ضرورية، لأن وظيفة مناسبة له تعني وجاهة وعطايا مالية. وفي البلاط حيث يوجد خط دقيق يفصل بين ما هو

رسمي وما هو دون ذلك، فإن نيل الحظوة لدى الملك يمكن أن يجعل نجمه يعلو سريعًا، ولذلك كان أفراد البلاط شديدي الاهتمام بمظهرهم الخارجي. فكان بعضهم يُجعِّد شعره فيما ينتف آخرون حواجبهم. وكان بعضهم يرتدي ثيابًا من القطيفة والسَّاتان والتافته، فيما يُطرِّز آخرون ثيابهم بالجواهر والأحجار الكريمة. وحينما يحدث ويغيِّر الملك الهيئة التي يشذب بها لحيته ويختار هيئة فرنسية أكثر حداثة، كان على حلَّاقي لشبونة أن يعملوا فوق طاقتهم، لأن أفراد البلاط جميعهم كانوا يشذبون لحاهم على الهيئة نفسها بين عشية وضحاها. لكن الأمر لم يكن مسألة أناقة وحُسن مظهر وحسب: فقد يستدعي إهمال المظهر أو عدم الاهتمام بالملبس تقريعًا علنيًّا من الملك نفسه. ولكن الأخلاق الرفيعة والملابس الأنيقة وروح الدعابة في الأحاديث لا يمكنها أن تخفي مكائد أفراد البلاط الماكرين الذين كانوا يبقون أعينهم مفتوحة على الملك، وكذلك على منافسيهم.

أصبح البلاط الملكي مكانًا تسوده بشكل متزايد أجواء ثقافية، وكثرت مجالس الملك التي يستمع فيها إلى الشعراء وهم يُنشدون أغاني تعود بجذورها لتراث الشعراء الجوالين في جِلِّيقية والبرتغال خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وقد جُمِعت فيما بعد في ديوان «كانسيونيرو جيرال». وفي أيام الآحاد وأيام الأعياد الدينية، كان الملك يستمع إلى العزف على المزامير والأبواق والقيثارات وضرب الطبول والكمان. وكان يحب أيضًا الاستماع إلى الموسيقى المورية([1])

في أثناء تناوله الطعام، وهي مناسبة كان يُطلب فيها من مرافقي الفرسان من أمثال لوبيز الحضور إلى البلاط لأداء بعض الرقصات. وفي البلاط سوف يلاحظ لوبيز أن مانويل لديه ميول واضحة نحو كل ما هو موري. فلم تكن النساء والأطفال يجلسون على الكراسي بل على الوسائد، وكان الراقصون وعازفو الموسيقى من المسلمين يشاركون في حفلات البلاط في عهده. وتجلَّى التأثير الإسلامي أيضًا في الفصل الصارم بين أماكن سُكنى الرجال والنساء، حتى إنه لم يكن يُسمح للرجال بمجرد المرور من أمام عتبة مهاجع النساء. شهدت الملكية في البرتغال تحولات كبيرة في عهد مانويل. جاءت خطوات التطور بطيئة ولا تكاد تُحس في أول الأمر، فقد وُضع كرسي الملك ومائدة طعامه فوق منصة لتمييزهما. ولكن سرعان ما أصبح محظورًا على المرء أن يجلس في حضرة الملك أو يعتمر قبعة عند مخاطبته. وأصبح التكلف في عهد مانويل أكثر إثارة ووضوحًا، فكان أول ملك برتغالي يتخذ لقب «صاحب الجلالة»، وحينما يسافر كان يمتطي صهوة جواد تُثبت عليه مظلة من الديباج الفاخر. وفي مناسبات معينة، كان يصطحب في موكبه مجموعة من حيواناته الغريبة وهي خمسة أفيال ووحيد القرن، بالإضافة إلى حصان فارسي جلس عليه وَشق يستخدمه في الصيد.

علت منزلة لوبيز الاجتماعية، والفضل في ذلك يعود إلى مانويل. ولا ندري كيف نال الشاب لوبيز حظوة لدى الملك، ولكنه منذ لحظة تنصيبه مرافق فارس، بات مدينًا بمستقبله المهني للعائلة المالكة. كما أنه مدين للعائلة بولائه وإخلاصه، لأنه يتقاضى راتبه وترقيته وتكريمه من الملك مباشرة. كان مانويل هو المسؤول عن تعليم لوبيز وحمايته وإمداده بالسلاح. وكان طبيعيًّا أن يبارك الملك الزيجات، وبالرغم من أنه لم يقع بأيدينا أي سجل لذلك، فإن بوسعنا أن نفترض أنه كان سيبارك زواج لوبيز في لشبونة. بالإضافة إلى ذلك، كان ملك البرتغال هو مَن سيرسل لوبيز إلى الهند لاحقًا باعتباره ضابطًا يتلقى راتبه منه. وكان الملك يدرك أكثر من أي أحد آخر إلى أي مدى يمكن أن يكون الصراع المدمر بين النبلاء دمويًّا، وأنه بحاجة إلى نبلاء يكون ولاؤهم الأول له. وبما أن لوبيز لم يكن في الأصل من سلالة نبيلة، فقد استند ارتقاؤه إلى درجة النبالة بشكل خالص إلى الصلاحيات التي يتمتع بها مانويل. وفي المقابل كان مانويل ينتظر من مرافقي الفرسان أن يدينوا له بالولاء والطاعة، ويدخلوا في عهد ما كانوا ليجرؤوا على نكثه.

بينما كان القرن الخامس عشر يقترب من نهايته، كانت الأوضاع في البرتغال قد أصبحت في غاية الوضوح والبساطة، حيث استقرت حدودها مع قشتالة، وتم لها طرد المسلمين ولم تعد لديها حروب تخوضها. ولكن إذا لم يجد الملك حربًا يشنها، فقد لا يستطيع أن يمنح النبلاء أرضًا أو مناصب أو ريعًا يلائم مكانتهم المرموقة. ومن ثَمَّ بدأ العديد من النبلاء يتطلعون إلى مكان آخر يثبتون فيه قدراتهم العسكرية ويترقون في المكانة وينالون الشرف. وعلى الرغم من أن الاشتغال بالتجارة لم يكن يليق بالنبلاء، فإن ممارستها باسم الملك والتعامل مع الاحتكارات التي يمارسها التاج كانا أمرًا آخر. ولذلك أصبح نبلاء كُثر يعملون كوكلاء يشرفون على بيع البضائع في الخارج من خلال عملهم كموظفين إداريين وتجاريين. وحينما أخذ النبلاء يتجهون إلى المستوطنات الجديدة الواقعة في الجزر التي اكتشفها البرتغاليون، بدأوا يحصلون على الأراضي، وما كان محالًا داخل المملكة القديمة بات الآن ممكنًا خارجها. وأصبحوا يجنون أرباحًا مما تُدره تجارة الذهب والعبيد والعاج التي تأتي من ساحل غينيا، ومن مزارع قصب السكر في جزر الرأس الأخضر، ومن الحبوب التي يجلبونها من المغرب. كما أصبح يُنظر إلى الخدمة العسكرية في شمال أفريقيا باعتبارها عملًا فيه تكفير للآثام وتأديب للنفس، بل ويمكنها المساعدة في تحسين السمعة الملطخة لأحد النبلاء. وفي عام ١٥١٣، قَتل دوم جايمي، وكان وقتها دوق براجانزا، زوجتَه بعد أن ظن بها السوء واتهمها ظلمًا بالخيانة. ولأن شعورًا عميقًا بالندم استبد به، فقد راح يبحث عن عمل يكفِّر به عن إثمه، فجمع بنفسه جيشًا قوامه أكثر من ٤ آلاف

جندي وقاده إلى مدينة أزمور المغربية. وفي كل الأحوال، أي عمل يمكن أن يكون أعظم تكفيرًا للآثام من محاربة المسلمين؟

وأما بالنسبة إلى الملك، فكان الدخول في مغامرات وحروب خارجية هو أفضل سبيل يسلكه لإلهاء النبلاء ومنحهم وسيلة للترقي الاجتماعي، والحفاظ على ولائهم للتاج. منحت المغامراتُ الخارجية النبلاءَ الفرصةَ لعيش حياة ما كان لهم حتى أن يتخيلوها، وأن يبلغوا مكانة اجتماعية ما كان لهم أن يبلغوها أبدًا فيما لو بقوا في البرتغال. والأهم من كل ذلك، كان النبلاء الأقل شأنًا (وكان فرناو لوبيز أحدهم) هم مَن سعوا إلى إثبات قدراتهم العسكرية ونيل الشرف والحصول على الممتلكات أو الإيجارات الجديدة. وكان عدد قليل للغاية من النبلاء الأعلى شأنًا يغادر البرتغال، أو على الأقل من الأبناء البكر في أسرهم. وبدلًا من ذلك، كان النبلاء الأقل شأنًا مثل مرافقي الفرسان والفرسان، هم مَن يقودون السفن ويحاربون ضمن طواقمها وكانوا أيضًا مسؤولين إداريين وتجاريين. والأهم أنهم هم مَن يسعون لإثبات قدرتهم على خدمة التاج في ميدان القتال. وكان هؤلاء هم النبلاء الشباب وقد حان زمانهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث

أبناء البرتغال المفقودون

لا بد للملك أن يتخذ ملكة، ولمَّا كان من عادة ملوك البرتغال أن يتزوجوا بأميرات قشتاليات، فقد بدأ مانويل التفاوض للزواج بابنة الملِكين الكاثوليكيين فرديناند وإيزابيلا. ولكنهما رفضا قَبول أي عرض للزواج حتى يحذو مانويل حذوهما ويُخلِّص البرتغال من يهودها. كان ذلك هو الثمن الذي تعيَّن على مانويل أن يدفعه حتى تتم له هذه المصاهرة، ولم يكن ما أعقب ذلك سوى إحدى أكثر الحوادث المشينة والمثيرة للجدل في تاريخ البرتغال. وعمومًا، كان يهود البرتغال، المنتشرون في أنحاء المملكة، بدايةً من حدودها مع جِلِّيقية شمالًا وحتى مُدن ما يُسمى بـ«منطقة الغرب» في الجنوب، يعيشون في الأحياء اليهودية التي تضم قصَّابيهم ومشافيهم ومدارسهم وحمَّاماتهم الخاصة، وفي بعض الحالات مواخيرهم وسجونهم. وعلى الرغم من أن جميع اليهود أُمروا بأن يضعوا على ثيابهم علامة حمراء تميزهم أو علامة صفراء على قبعاتهم، فقد ظلت حريتهم في ممارسة طقوسهم الدينية مكفولة، وظل إكراههم على التحول إلى الكاثوليكية أمرًا محظورًا تمامًا، وكان مَن يقضي فيهم هم حاخاماتهم وقُضاتهم. وفي الواقع لم تكن حرية ممارسة الشعائر اليهودية (وكذلك شعائر الدين الإسلامي) معترفًا بها وحسب، ولكنها كانت مكفولة أيضًا بموجب القانون. وعليه، فإن أول مجموعة من القوانين البرتغالية المدوَّنة، «أوردناسويس أفونسيناس»، التي أعلنها الملك أفونسو الخامس في منتصف القرن الخامس عشر، حظرت تحويل اليهود قسريًّا إلى المسيحية. كان اليهود يحتكرون تقريبًا المعاملات المالية مثل جمع إيرادات الدولة وعائدات الإقطاعيين وإدارة الجمارك والمكوس. وكان جميع القائمين على أموال الخزانة في المملكة تقريبًا من اليهود، وكذلك مسؤولو مصارف المال في المملكة، وجُل أطباء البلاط الملكي. كان أبناء الطائفة اليهودية أيضًا متعلمين: فأول كتاب طُبع في البرتغال هو التوراة العبرية، ومن بين الكتب الخمسة عشر الأولى التي طُبعت في البرتغال كان اثنا عشر منها من الكلاسيكيات الدينية المكتوبة بالعبرية، وتولى طباعتها يهودٌ للطائفة اليهودية. والحقيقة هي أن البرتغال كانت ملاذًا آمنًا يتوافد عليه يهود إسبانيا، ولا سيما بعد اندلاع أعمال الشغب المناوئة لليهود في إشبيلية عام ١٣٩١ ثم انتشارها عبر شبه الجزيرة الإيبيرية، حيث قُتل فيها آلاف من اليهود وأُجبر آلاف آخرون منهم على اعتناق المسيحية. وبعد قرنٍ من ذلك، أي في عام ١٤٩٢، ومع صدور المرسوم الإسباني للطرد، الذي أعطى اليهود مهلة مدتها أربعة أشهر للتحول إلى المسيحية أو مغادرة البلاد، فرَّ اليهود مرة أخرى صوب البرتغال.

ومع ذلك أصر فرديناند وإيزابيلا على رأيهما. إذا رغب مانويل في الزواج بابنتهما، فإن طرد اليهود هو الثمن الذي عليه أن يدفعه لقاء هذه المصاهرة. ونتيجة لذلك صدر في ديسمبر ١٤٩٦ المرسوم البرتغالي للطرد. بدا قرارًا بالغ القسوة، ولكن معظم المؤرخين لا يعتقدون أن مانويل كان ينوي فعلًا طرد يهود البرتغال. وبحسب تعبير أحد الكُتَّاب المعاصرين: «حينما سمع الملك بأنهم ينوون المغادرة، خشي أن تصبح المملكة كشبكة صيد فارغة، لأن اليهود كانوا موجودين بأعداد كبيرة، ويحوزون معظم ثروة المملكة». وحتمًا لم تكد تمر أيام قلائل على صدور المرسوم، حتى حظر الملك أي خروج من مملكته ما لم يكن ذلك على متن سفن تحت إمرته، وبما أنه لم تُوفَّر أي سفن لذلك الغرض، فلم تحدث أي عمليات طرد. لكن ذلك لم يكن يعني أن الملك ليست لديه خطط أخرى. وظهرت الإشارة الأولى إلى أن مانويل ينتوي إجبار اليهود على التحول الديني حينما أصدر مرسومًا قضى بمصادرة جميع كتبهم. وروى حاخام فقد مكتبته، وهو أبراهام سابا، حكايته الشخصية التي لا تزال تثير اللوعة:

وراح المنادي يجوب أنحاء البلاد معلنًا أن عليهم إحضار جميع الكتب إلى الكنيس الكبير في لشبونة وأن مَن يتخلف سيكون جزاؤه الموت. واقتادوا يهوديًّا واحدًا تشبث بكتبه وأوسعوه ضربًا بالسياط... وبينما كنت أستمع لذلك، قمت وأنا أرتعش، ومشيت خائفًا مرتعدًا، ثم حفرتُ في منتصف شجرة زيتون ضخمة ذات جذور كثيرة ضاربة في الأرض، وخبأتُ هذه الكتب التي كنت قد كتبتها.

ثم أُحرقت أمام الملأ معظم الكتب التي صادرها التاج، وإن كان بعضها، وعلى نحو بالغ الغرابة، انتهى به المطاف في بلاد نائية مثل الهند. ففي عام ١٥٠٥، حصل فرانسيسكو بينهيرو على إذن ملكي ببيع خزانة ملأى بكتب عبرية، كانت قد صودرت من المعابد اليهودية، إلى الجالية اليهودية في مدينة كوتشي الهندية.

كانت مصادرة الكتب ضربة موجعة لليهود البرتغاليين، ولكن كان لا يزال ينتظرهم ما هو أسوأ بكثير، ففي مطلع عام ١٤٩٧ اتخذ مانويل خطوة أخرى نزلت عليهم كالصاعقة. ففي مرسوم جاءت نبرته إنجيلية واضحة، أمر الملك بانتزاع جميع الأطفال اليهود ممن تقل أعمارهم عن الرابعة عشرة من آبائهم وتوزيعهم في جميع أنحاء البلاد كي يُنَشَّأوا تنشئة مسيحية. وفي غضون بضعة أشهر، كما قيل، وبطريقة تقشعر لها الأبدان، وبموجب قانون بلدي صدر في ذلك الوقت، «تم انتزاع اليهود». وحُفظت السجلات الخاصة بذلك، ورغم أن معظم الوثائق تعرضت للتلف جراء الزلزال الذي ضرب لشبونة عام ١٧٥٥،

فقد تعرفنا على جانب من المأساة الإنسانية التي أحدثها مرسوم مانويل كما يلي:

فقدَ إسحاق دي رو وزوجته فيليدي ابنهما يعقوب الذي كان في الثامنة من عمره بعد أن سُلِّم إلى بارتولوميو أفونسو.

وفقدَ سانتو فيدالجو وزوجته أرابوا ابنهما أبراهام (٨ سنوات) وشقيقته رينا (سنتان). وسُميا «جونزالس دياز» و«جراسياس دياز» وتعهد بتربيتهما مسيحيٌّ قديم.

لكن كل ذلك لم يكن كافيًا لإرضاء مانويل ملك البرتغال. وبحلول أكتوبر ١٤٩٧، أصدر مرسومًا يقضي بتحويل جميع اليهود البالغين إلى المسيحية، حتى وإن اقتضى الأمر أن ينثر الكهنة الماء المقدس عليهم. وفي غضون أيام، تم «تحويل» جميع ساكنة البرتغال من اليهود إلى المسيحية، ولم يعد لليهود أي وجود رسمي في البرتغال. ومن الآن فصاعدًا، أصبح اليهودي «مسيحيًّا جديدًا»، وأباح مانويل لليهود المتحولين إلى المسيحية أن يتسمَّوا ببعض الأسماء التي ظلت حتى ذاك الوقت حكرًا على العائلات النبيلة. وصرَّح مانويل قائلًا: «إنه مما ينال رضانا أن يتساوى المسيحيون الجُدد في كل شيء مع المسيحيين القدامى، وأن يحظوا بمثل ما يحظون به من احترام ورعاية ومعاملة، وألا يختلفوا أو ينفصلوا عنهم في أي شيء». وهكذا بدأت لليهود حياة جديدة، وتسمَّوا بأسماء جديدة، ومن دون أي فروق قانونية بين المسيحيين القُدامى والمسيحيين الجُدد. وفي سبيل تعزيز هذا الاندماج، أُجبر المسيحيون الجدد على الزواج من عائلات لمسيحيين قدامى، للحيلولة دون وقوع أي انقسامات مجتمعية. وهو ما كان يعني أيضًا أنهم أصبحوا يتناولون نفس الأطعمة ويرتدون الثياب نفسها ويحتفلون بالأعياد نفسها. كان مانويل صادقًا فيما وعد به، وأصدر قانونًا آخر مفاده أن المسيحيين الجدد لن يُسمح لهم فقط بالاحتفاظ بجميع ممتلكاتهم، التي باتت الآن معفاة من ضرائب باهظة كان عليهم دفعها وهم يهود، ولكن أتيحت لهم الآن بموجب هذا القانون الحصول على جميع فرص التعلم وشغل المناصب التي كانت حتى ذلك الحين حكرًا على المسيحيين. كان ذلك يعني أن فئة من المسيحيين الجدد ممن يعملون أطباء وعطارين وصيدلانيين وكُتَّابًا وتجارًا قد نشأت وأدمجت في قلب المجتمع المسيحي.

لم يكن اليهود وحدهم الذين عانوا الاضطهاد في عهد مانويل، لأن مرسوم الطرد الصادر في ديسمبر عام ١٤٩٦ كان موجهًا بالقدر نفسه إلى مسلمي البرتغال. وإذا كان اليهود لاقوا عَنَتًا كبيرًا على أيدي البرتغاليين، فقد كان ذلك أخف وطأة مما لاقاه المسلمون من معاناة. بل إن طرد المسلمين من البرتغال لا يزال أمرًا محيرًا حتى يومنا هذا. كان عملًا غير مسبوق بكل تأكيد،

فقد ظل المسلمون يعيشون في شبه الجزيرة الإيبيرية تحت الحكم المسيحي في قشتالة ونافارا وأراجون. وفي ستينيات القرن الثالث عشر الميلادي (١٢٦٠) حينما طرد ألفونسو العاشر المسلمين من مُرسية والأندلس، استهدف هؤلاء الذين تمردوا على حكمه فقط، فيما لم يمس هؤلاء الموجودين في مناطق أخرى من مملكته مثل طُليطلة. ومهما يكن من أمر، فقد كان التمرد على حكمه هو ما حدد طبيعة تصرفه، أما في حالة مانويل الغريبة مع المسلمين فلم يحدث تمرد على حكمه أو استفزاز من أي نوع. كانت هذه هي المرة الأولى التي يقرر فيها حاكم مسيحي طرد جميع الرعايا المسلمين من مملكته من دون مبرر. وعلى النقيض مما جرى مع اليهود لم يُنتزع أي أطفال مسلمين من ذويهم أو يُعَمدوا، إذ كان اليهود يختلفون عن المسلمين. ربما كان يُنظر إلى اليهود باعتبارهم أشخاصًا منبوذين في مملكة مانويل الكاثوليكية، ولكنهم كانوا منبوذين نافعين ويمكن تحملهم. وربما أيضًا كانوا يشكلون تهديدًا لاهوتيًّا، ولكن كان بوسع البرتغاليين الكاثوليك تهميشهم. وأما مع المسلمين فالأمر مغاير، إذ كان للبرتغاليين، ولمانويل تحديدًا، ثأر مع المسلمين يجب تصفيته.

كانت البرتغال كلها ذات يومٍ خاضعة للحكم العربي. وعلى الرغم من أنه لا توجد اليوم سوى بعض الشواهد العابرة التي تشير إلى الحقبة التي حكم المسلمون خلالها البرتغال، فقد ظل الإسلام على مدى مئات السنين يمثل الهوية الأساسية للبلاد، وبقي صوت الأذان يُسمع فيها ويتردد صداه من شمالها حتى جنوبها خلال كل تلك السنين. وكانت العربية هي لغة الدواوين، ولم يكن المسلمون وحدهم مَن يتحدثونها، بل تتحدث بها جميع طوائف المجتمع الأخرى، بما في ذلك المسيحيون الذين كانوا يُعرفون عندئذ باسم «المستعربين». وأما ملوك البرتغال الكاثوليك، «أبطال المسيح»، فكانوا يرون في «حرب الاسترداد»، التي بدأت في أول الأمر بوتيرة متقطعة عقب دخول المسلمين إلى الأندلس في منتصف القرن الثامن الميلادي واستمرت حتى عام ١٤٩٢، حربًا صليبية مقدسة لا تقل شأنًا عن تحرير بيت المقدس. وليس ثمة ثناء يمكن أن يُسبَغ على ملك أعظم من أن يُقال إنه حرَّر أرضًا مسيحية من سيطرة العرب والموريين، وتتواتر في سجلات العصور الوسطى بشكل متزايد عبارة الإطراء: «وقد تم استرداد إسبانيا». وكتب فرناندو الأول موجهًا كلامه للمسلمين يقول: «نحن لا نطلب إلا استرداد أرضنا التي انتزعتموها منا فيما مضى من زمن في بداية تاريخكم. ولذلك اذهبوا إلى الجانب الآخر من المضيق [جبل طارق] واتركوا لنا بلادنا، لأن بقاءكم هنا معنا لن يعود عليكم بأي نفع بعد اليوم. ولأننا لن نرجع عنكم حتى يحكم الرب بيننا وبينكم».

كان التقدم الذي تُحرزه حرب الاسترداد بطيئًا ومتقطعًا وبسير من حافة نهر إلى تلك التي تليها، مصحوبًا بإعادة توطين للسكان في كل منطقة، وذلك لأنها كانت حربًا تؤججها الرغبة في توسيع رقعة الأراضي المملوكة وكذلك الصِّدام الديني بين الفريقين. وعلى الرغم من أن مصطلح «الحرب الصليبية» بات يشير اليوم إلى الجهود التي سعت إلى تحرير الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين، فقد كان ينطبق ذات يوم على شبه الجزيرة الإيبيرية. وإذا شئنا الدقة فربما يجوز للمرء أن يُسمي الحروب التي دارت رحاها في إسبانيا والبرتغال بـ«الحروب الصليبية البديلة»، حيث كان بوسع الفرسان الذين لا يسعهم السفر إلى فلسطين الحصول على إعفاء من البابا إذا ما ذهبوا للقتال بدلًا من ذلك في شبه الجزيرة الإيبيرية. لم تكن الغاية الرئيسية للحرب هي تحويل المسلمين إلى المسيحية، بل إخراجهم، وبحسب تعبير أحد مؤرخي القرون الوسطى «طرد البرابرة». وبالرغم من أنه أمر طبيعي أن نتحدث عن تعرض اليهود والمسلمين معًا للاضطهاد في عهد مانويل، فإن ثمة فرقًا مهمًّا في واقع الأمر ميَّز بين المصير المحزن الذي واجهه أتباع كلتا الديانتين. ويمكن أن نلمس هذا الفرق على نحو تقشعر له الأبدان في وثيقة أصلية تورد تفاصيل التعويض الذي تلقته الأرملة الموسرة الملكة ليونور عن الإيرادات التي فقدتها في عام ١٤٩٧، وهي تشير إلى الخسارة التي تكبدتها «بسبب تحويل اليهود إلى المسيحية وطرد المسلمين من مقاطعاتنا». مصيران مختلفان: التحويل الديني لأحدهما، والطرد للآخر. ولكنْ ثمة سؤال مثير للاهتمام يطرح نفسه: لماذا اختلف المصيران؟ يمكن للمرء أن يحاجج بأن مانويل بإكراهه اليهود على التحول إلى المسيحية، استطاع بذكاء أن ينال رضا فرديناند وإيزابيلا مع الاحتفاظ في الوقت نفسه بالمهارات التجارية والقدرات المهنية المؤكدة داخل البرتغال. ولكن لماذا لم يتبع المسار نفسه مع المسلمين؟ لماذا أصر على طردهم من البرتغال؟ وهنا نحن أمام سؤال معقد لا نستطيع حياله سوى التخمين. كان مانويل يدرك أن عدد المسلمين بات صغيرًا وأنهم ليسوا تهديدًا لمملكته بأي حال، وأن طردهم سوف يعزز صورته بين الملوك المسيحيين كملك صليبي. وربما كان يظن أيضًا أنه إذا أكره المسلمين على التحول إلى المسيحية، فقد يُولِّد ذلك ردة فعل عنيفة لدى ممالك المسلمين على الضفة الأخرى من المضيق. أما اليهود فلم يكن لديهم مثل هذا الظهير الجغرافي.

أعطى مانويل جميع مباني المسلمين وممتلكاتهم في لشبونة إلى «مستشفى جميع القديسين»، التي بدورها سارعت إلى تأجيرها لتحقيق المكاسب. أما الجامع الكبير في لشبونة، فقد تم تأجيره إلى أحد أفراد أسرة جارسيا فرناندیز. وحتى المقابر لم تَسلم، ففي عام ١٤٩٧ أعطى الملك مقابر المسلمين في لشبونة للسلطات البلدية كي تستخدمها كمرعى للحيوانات.

ومن الآن فصاعدًا يتعين على أي تاجر مسلم يمر عبر ميناء برتغالي أن يرتدي ثيابًا تميزه لئلا يُلقى القبض عليه.

تطلَّب الأمر ٢٠٠ عام، حتى بلغ منتهاه في عام ١٤٩٢، حينما طُرد آخر مسلم إلى شمال أفريقيا، وأخذت الحدود الفاصلة بين المسيحية والإسلام تنتقل شيئًا فشيئًا باتجاه الجنوب حتى وصلت إلى البحر المتوسط، ثم اجتازته إلى رمال شمال أفريقيا والساحل الغربي لأفريقيا قبل ظهورها مجددًا في المحيط الهندي. وعلى الرغم من أن مفهوم الحروب الصليبية كان قد تلاشى في مناطق أخرى من أوروبا الغربية وأصبح الإسلام لا يعدو أن يكون خطرًا بعيدًا، فقد بقي ذلك المفهوم يثير مشاعر متأججة لدى شعوب شبه الجزيرة الإيبيرية (ولدى مانويل على وجه الخصوص) ممن لم يكن يفصلهم عن الظهير الجغرافي للمسلمين سوى مضيق جبل طارق. وظلت المباركات البابوية تنفخ في نار الحرب، وفي مقابل الخدمات التي أدَّوها إلى الرب، أعطي ملك البرتغال وخلفاؤه عهد احتكار يخولهم حكم جميع الأراضي الجديدة باعتبارها مُلكًا لهم، بالإضافة إلى منحهم حقًّا حصريًّا في الاتجار مع سكان هذه الأراضي. وأما مانويل، فلم تهدأ لديه روح حرب الاسترداد، وظل هوسه بالحرب ضد الإسلام يمثل حجرَ زاويةٍ ثابتًا في عهده، وبلغ ذلك ذروته في خططه الجسورة لإطلاق حرب صليبية دولية «لتحرير» بيت المقدس والأراضي المقدسة. لكن شن حربٍ صليبية كان عملًا باهظ الكلفة لم يستطع نبلاؤه احتماله.

لم يكن الملك قد نسي الإمكانات الضخمة التي يمكن أن يوفرها له الدوران حول رأس الرجاء الصالح، لذلك وجه اهتمامه الآن صوب الطريق إلى الهند. وكان يرى أن الإيمان والربح والدين والتجارة هي أشياء يُكمل بعضها بعضًا. كان مانويل يختلف إلى حدٍّ بعيد عن ملوك البرتغال الآخرين. كان مثلهم يدرك حجم الثروات التي ستحملها تجارة الهند إلى لشبونة والأرباح التي سوف يجنيها تُجاره. لماذا يجني تجار البندقية وحدهم الربح رغم أنه هو الآخر يستطيع ذلك؟ لماذا لا تكون لشبونة هي البندقية الجديدة؟ ولكن الدافع الديني لدى مانويل لإيجاد الطريق المؤدي إلى الهند كان بارزًا وبنفس الدرجة من الأهمية. وعنده، وعند بعض رجال بلاطه، لم يكن إيجاد الطريق المؤدي إلى الهند يقل شأنًا عن شن حرب صليبية جديدة، تستهدف التبشير بالمسيحية وفي نهاية المطاف إعادة بيت المقدس إلى أحضان الأمة المسيحية. ورغم أن البعض في لشبونة، ممن هم على دراية بمدى هيمنة الدولة العثمانية، كانوا يعتبرون رؤية مانويل نوعًا من الحماقة المدمرة، فقد بقيت هذه الرؤية متجذرة في صميم معتقدات الملك. وتساءل أحد القساوسة مع انعطافة القرن الخامس عشر: «لو لم يكن التجار يذهبون إلى الشرق سعيًا وراء ملذات الحياة الدنيا، فمَن كان سيحمل إلى هناك المبشرين الذين

يطلبون الكنوز السماوية؟ فالمبشرون يحملون الإنجيل فيما التجار يحملون المبشرين». وكان مانويل واضحًا بشأن أهداف بعثاته، وقد كتب إلى ملك وملكة قشتالة يقول: «إن الدافع الرئيسي وراء هذا المسعى هو خدمة الرب إلهنا وخدمة مصالحنا». ومع ذلك، كانت تسود البلاط في لشبونة حالة من الخوف والقلق، فقد كان السعي للوصول إلى الهند عبر رأس الرجاء الصالح سعيًا محفوفًا بمخاطر جمَّة. وكان من شأن هذه المغامرة أن تؤدي قطعًا إلى استعداء تجار البندقية، وهم الوسطاء في تجارة البحر المتوسط المربحة (وكان معظمها يتم عبر قوافل الإبل) التي ينقلون من خلالها التوابل والمنتجات الفاخرة من الهند والصين والشرق الأقصى إلى أوروبا. ولا ريب أن أي محاولة برتغالية لتجنب طريق التجارة التقليدي سوف تواجه مقاومة شرسة، وبالمثل، فإن التعدي على البحر الأحمر، وكان بمثابة طريق عبور يربط المحيط الهندي بالبحر المتوسط، كان حتمًا سيواجه مقاومة عسكرية من سلطان دولة المماليك الذي كان يحرص حرصًا شديدًا على تأمين طرق الوصول إلى هذا البحر. ودفَع مستشارو مانويل بقولهم إن البرتغال بالعدد الضئيل لسكانها وضعف قدراتها العسكرية لا يمكنها أن تخوض وحدها هذه المغامرة. استمع مانويل، البالغ من العمر ٢٦ عامًا، إلى اعتراضات الذين اجتمعوا في مجلسه، بيد أنه لم يقتنع برأيهم وقال لهم: «لقد أورثني أسلافي مهمةً مقدسة»، وفي النهاية تحقق له ما أراد.

أُسندت قيادة الأسطول إلى فاسكو دا جاما، وكان نبيلًا برتغاليًّا في أواخر الثلاثينيات من عمره. وُلد دا جاما في عام ١٤٦٠ تقريبًا، ولا يُعرف عن حياته المبكرة سوى القليل. ولكنَّا نعرف أن والده، استيفاو، كان مستكشفًا وأن فاسكو تعلم الملاحة في الأسطول البحري الذي انضم إليه حينما بلغ السن المناسبة. وفي عام ١٤٩٢ أُرسل إلى جنوب لشبونة ثم إلى منطقة الغرب، حيث كُلِّف بالاستيلاء على السفن الفرنسية انتقامًا من فرنسا التي أعاقت حركة السفن البرتغالية في نقل التجارة البحرية. وفيما عدا ذلك لا يُعرف عنه على وجه اليقين سوى القليل، ولا يُعرف عنه سوى أنه الرجل الذي اختاره الملك مانويل لاكتشاف طريق بحري يؤدي إلى الشرق عبر رأس الرجاء الصالح. وبذلك أصبح أول شخص يبحر مباشرة من أوروبا إلى الهند. وبفضل بارتولوميو دياز، كان تحت تصرُّف دا جاما تقنية بحرية أحدث وأفضل. كان دياز قد أوصى بإجراء تعديلات في السفن البرتغالية التي أبحر عليها قبل بضع سنوات حينما وصل للمرة الأولى إلى الرأس الذي سيعرف لاحقًا باسم «رأس الرجاء الصالح»، بما يمنحها سِعة شحن أكبر وارتفاعًا أعلى في جزء السفينة الظاهر من الماء (وهو المسافة من خط الماء إلى مستوى سطح السفينة العلوي). وقال دياز لبناة السفن إنه يتحتم أن تظل السفينة بارزة لأعلى في المياه فيما لا تزال قادرة على الإبحار بموازاة السواحل. ونتيجة

لإصغائهم بعناية لما يقول، ابتكر نجارو السفن حراشف وسعات أكبر وأماكن لطاقم السفينة. وكانت النتيجة هي السفينة البرتغالية التي سوف يُشيدون بها إمبراطورية.

في ٧ يوليو ١٤٩٧، غادر فاسكو دا جاما لشبونة مع طاقم يضم ١٤٨ رجلًا، حيث أبحر أولًا إلى جزر الرأس الأخضر. ومن هناك، مضت السفن بمحاذاة الساحل الأفريقي، حتى تتجنب الرياح والتيارات المفاجئة كلما أمكن ذلك، ثم تنعطف إلى الجنوب الغربي حتى تصبح المسافة التي تفصلها عن اليابسة الرئيسية لأمريكا الجنوبية ٦٠٠ ميل، ثم تتحول إلى الجنوب الشرقي وتتراجع شيئًا فشيئًا أمام الرياح التجارية. وفي هذه المرحلة، كان دا جاما قد قطع ٤٥٠٠ ميل بعد جزر الرأس الأخضر من دون أن تلوح له أي أرض. وأخيرًا في ٢٢ نوفمبر، تمكن الأسطول من الدوران حول رأس الرجاء الصالح. وبعد مواجهة داء الإسقربوط، والصمود أمام العواصف الشديدة، والتوقف مرات عبر الطريق، وصل دا جاما وطاقمه إلى جزيرة موزمبيق (الواقعة قبالة سواحل موزمبيق الحالية) في ٢ مارس ١٤٩٨. وحظوا في أول الأمر باستقبال وديٍّ، حيث ظن العرب في موزمبيق أن الرحالة الأوروبيين مسلمون. أدرك دا جاما أنه لن يستطيع الوصول إلى كاليكوت (كوزهيكود في جنوب الهند) من دون مرشدٍ متمرس يستطيع الملاحة عبر تلك المياه. ولذلك ابتهج حينما أمده سلطان موزمبيق بمرشدَين، وإن كان أحدهما قد فرَّ منه حينما تبين له أن البرتغاليين يدينون بالمسيحية.

وبعد شهر واحد أمضاه في ماليندي، الواقعة في كينيا الحديثة، وجد دا جاما أخيرًا مرشدًا عربيًّا يمكن أن يرافقه إلى وجهته. وبعد رحلة رهيبة قطع خلالها أكثر من ١٢ ألف ميل، وصل هو ورجاله أخيرًا إلى كاليكوت. كانت كاليكوت هي المركز التجاري الأهم في جنوب الهند، وتحظى بمكانة بارزة في تجارة الفلفل والتوابل الأخرى مثل الهيل وخشب الصندل ومشروب العَرق والمكسرات وزيت جوز الهند. وبفضل مينائها الآمن، استقطبت اهتمام التجار وأصحاب الأعمال والبحارة والمغامرين والمبشرين الدينيين القادمين من بلدان بعيدة ومتنوعة. وأشار إليها الرحالة المسلم ابن بطوطة الذي نشأ في شمال أفريقيا في عام ١٣٤٢ قائلًا إنها تضم تُجارًا من جميع أنحاء الدنيا. وفي بداية القرن الخامس عشر، لاحظ الرحالة المسلم الصيني ماهوان وجودًا كبيرًا للعرب والصينيين، مشيرًا إلى أن ما سماه «كو-لي-فو» هي «أهم المراكز التجارية البحرية». لم تكن كاليكوت مكانًا غريبًا على دا جاما، فقد عرف أوصافها عن طريق نيكولاي دي كونتي، وهو بحار من البندقية زارها عام ١٤٤٤ ووصفها بأنها «مركز تجاري مهم لعموم الهند». ومع ذلك أصيب البرتغاليون بالذهول لما رأوه من ثراء فيها. وحينما استُدعي دا جاما للمثول بين يدَي زامورين، وهو الحاكم الهندوسي لكاليكوت، وقدَّم هداياه وهي صُرة

من السكر وبرميلان من الزَّبد وبرميل من العسل واثنا عشر معطفًا وست قبعات، لم يقابل الحضور ذلك إلا بضحكات الازدراء. وقيل له إن أفقر حاج يقدم أكثر من ذلك. كان واضحًا ما يريده زامورين حينما قال: «في بلادي يوجد الكثير من القرفة والكثير من القرنفل والزنجبيل والفلفل والأحجار الكريمة. وأما ما أريده من بلادكم فهو الذهب والفضة والمرجان والقماش القرمزي».

وبسفنه المحملة بالبهارات التي أهداها زامورين إلى الملك مانويل لبيعها في لشبونة، عاد فاسكو دا جاما من كاليكوت بحمولة تعادل قيمتها ٦٠ مرة ما جلبه معه. وبعد أربع سنوات، في ١٥٠٢، عاد إلى الهند. لكن هذه المرة، كان دا جاما على رأس أسطول يضم ٢٥ سفينة مسلحة بأقوى المدافع التي تمتلكها البرتغال. لم تكن غايته الآن، وغاية مَلكه، التجارة وحسب، بل الإخضاع، ولا سيما بعد أن بات واضحًا أن تجار المسلمين وحكامهم يرفضون دخول البرتغاليين إلى المشهد. وفي رحلته هذه، قصف دا جاما، المدن الواقعة على امتداد ساحل شرق أفريقيا. وفي أثناء إبحاره إلى الهند، سطا أسطوله على سفينة ابتهج البرتغاليون حينما عثروا فيها على غنائم قُدِّرت قيمتها بـ٣٠ ألف «كروزادو»، أي ما يعادل عُشر الدخل السنوي للتاج البرتغالي. كانت الأساليب التي لجأ إليها دا جاما ذات تأثير كبير، وراح يسطو على المزيد من السفن ثم يشوه أجساد طواقمها، ويبدو أنه لم يكن قد نسي دوافعه الصليبية. كان قد انضم في سن الشباب إلى جماعة «فرسان سانتياجو» الذين كانوا يُعرفون بثياب الرهبان البيضاء والصليب الأحمر المطرز عليها. تأسست هذه الجماعة الدينية العسكرية في قرابة عام ١١٦٠ بغرض محاربة المسلمين، وظلَّ الحماس الصليبي يتأجج بقوة في صدور فرسانها. لذلك عندما واجه دا جاما سفينة على متنها أكثر من ٧٠٠ حاج كانوا في طريق عودتهم من مكة إلى الهند، لم تأخذه بهم شفقة أو رحمة، ولم يعبأ بمناشدات الحجاج المتفجعين، وأزال كل البضائع الموجودة على ظهر السفينة ثم أحرقها بجميع ركابها، بما في ذلك النساء والأطفال. ووفقًا لمصدر برتغالي عاصر هذه الفترة: «قضى الموريون المساكين الليل كله وهم يستغيثون بمحمد، ولكن أنَّى للموتى أن يسمعوا صوت أتباعهم أو يغيثوهم». ووصلت حملة مانويل الصليبية إلى المحيط الهندي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع

الانتظار في بيليم

في السادس من أبريل ١٥٠٦، أبحر فرناو لوبيز من البرتغال قاصدًا الهند. ولن يعود إلى بلده قبل مرور ٢٤ سنة. لم تكن قد مضت سوى ثماني سنوات على الكشوف التي حققتها حملة فاسكو دا جاما الأولى التي أشاعت في لشبونة حالة من الحماسة المحمومة، ولذلك سرعان ما أعقبتها أساطيل أخرى أرسلها مانويل الذي أصبح يلقب نفسه الآن بـ«ملك البرتغال وسيد غينيا وسيد الفتوحات والملاحة وتجارة إثيوبيا وجزيرة العرب وبلاد فارس والهند». كان لقبًا لافتًا، ويفيض زهوًا وعظمة، ولكن أهم ما يلفت الانتباه فيه هو حقيقة أن الملك حينما اتخذه لم يكن يملك أي أرض على الإطلاق في إثيوبيا أو جزيرة العرب أو بلاد فارس أو الهند. ومن الواضح أن هذا اللقب كان يُبتغى من ورائه أن يعكس التصور المثالي المنشود، لا أن يقدم وصفًا حقيقيًّا لسلطانه، ولكنه كان حتمًا يتوافق مع رؤيته المسيحانية.

وسرعان ما أصبح الوصول إلى الهند هو الحلم الذي يداعب البرتغاليين. حينما كان في العشرينيات من عمره، ولأنه كان مشبعًا بروح المغامرة والرغبة في جمع الثروة، شعر لوبيز بعد إبحاره مع الرحلة المتجهة إلى الهند، بأنه في سبيله لتحقيق حلم حياته. وعلى الرغم من أن بعض الفيدالجو، مدفوعين بمشاعر معادية للمسلمين، كانوا يتوقون لإيصال روح الحروب الصليبية إلى المحيط الهندي، فإن غالبيتهم كانوا مدفوعين بدرجة أكبر بالرغبة في نيل الشرف في ميادين القتال والحصول على لقب فارس. ولكن مزاولة التجارة وجمع الثروة كانا حاضرَين أيضًا. ومن المؤكد أن أسماء وجهاتهم المحتملة، التي قُتلت بحثًا ونقاشًا في لشبونة، كانت غريبة على مسامعهم بقدر ما كانت تحمله من إغواء: فهنالك صوفالا حيث يكمن الذهب في شرق أفريقيا، وهرمز التي هي مفتاح أسواق آسيا الوسطى، وديو حيث تُتداول المنسوجات الحريرية، والقطنية في جوجارات. وكوشين التي تتيح لهم الوصول إلى فلفل مالابار، وجوا التي هي همزة الوصل في التجارة البحرية بين ممالك الدِّكَن والشرق الأوسط.

وعلى متن الأسطول الذي ضم خمس عشرة سفينة كانت قوام الأسطول البرتغالي الذي أبحر في عام ١٥٠٦، كان يهيمن شخصان على المشهد. قائد الأسطول تريستاو دا كونيا، وهو فيدالجو بارز ويحظى بثقة الملك مانويل، الذي رشحه قبل سنتين كي يكون أول نائب للملك في الهند البرتغالية. وتشير السجلات، على نحو يثير الاستغراب، إلى أن دا كونيا أصيب قبل إبحاره بمرض في رأسه وانتهى به الأمر إلى العمى. لكن الإصابة بالعمى كانت مؤقتة، وأبحر دا كونيا إلى الهند وواصل مسيرته الحافلة. وبعد سنوات عديدة،

ولدى عودته إلى البرتغال، أرسله مانويل سفيرًا إلى البابا ليو العاشر كي يطلعه على الفتوحات الجديدة التي حققتها الإمبراطورية البرتغالية. ولما كان مانويل مصممًا على أن يحظى بالإعجاب، فقد أمر دا كونيا بالحرص على إثارة إعجاب البابا، وهو ما فعله قطعًا المغامر البرتغالي. وأصدر تعليماته للوفد المرافق الذي بلغ عدده ١٤٠ شخصًا بأن يرتدوا ثيابهم على الطريقة الهندية، وضمَّ إلى موكبه ٤٣ نوعًا مختلفًا من الحيوانات كان من بينها خيول هندية نادرة وفهود ونمر أسود وبعض الببغاوات والديكة الرومية. وفي قلب الموكب وكهدية للبابا، قاد دا كونيا فيلًا اسمه «هانو»، وقد وُضع فوق ظهره مُجسَّم قلعة فضية بها خزانة تحتوي على اللؤلؤ والأحجار الكريمة وعملات ذهبية تم سكها خصوصًا لهذه المناسبة. لم يستطع البابا إخفاء إعجابه واستقبل الموكب في ضريح «كاستل سانت أنجلو»، الذي شيده الإمبراطور هادريان وحوِّل إلى حصن بابوي. تمتع دا كونيا بروح الدعابة ووفقًا لتقرير كتبه سكرتيره جارسيا دي ريزيندي، فقد أمر «هانو»، الذي اختار له هذا الاسم على سبيل الإهانة لهانيبال العظيم، بالركوع الآن أمام البابا. ثم أمره مرة أخرى أن ينثر الماء من خرطومه على الحشد والكرادلة (فيما عدا البابا). وكان مشهد رش الفيلة للناس بالمياه في العلن، على ما يبدو، مشهدًا شائعًا، لأن لوبيز نفسه سوف يرى مشهدًا مشابهًا في لشبونة.

كان هذا هو تريستاو دا كونيا قائد الأسطول والرجل الذي كلفه مانويل بتأمين وصوله إلى الهند. ورافق دا كونيا في هذه الرحلة ابن عمه، أفونسو دي ألبوكيرك العظيم الذي كان يقود سربًا يتألف من خمس سفن، وذات يوم سيكون له تأثير مدمر ورهيب في حياة لوبيز. وأصدر مانويل تعليمات إلى دا كونيا مفادها أنه إذا لم يستطع الأسطول الوصول إلى الهند قبل فصل الشتاء، فعليه أن يلتجئ إلى جزيرة سقطرى الواقعة قبالة الساحل الجنوبي لجزيرة العرب، وكلفه ببناء حصن للمسيحيين الذين كان يُعتقد أنهم يقيمون هناك، ولكن قبل كل شيء كان عليه أن يحول الجزيرة إلى قاعدة شتوية للأساطيل البرتغالية القادمة ووسيلة لعرقلة التجارة العربية مع الهند. كان الاعتقاد السائد هو أن سكان سقطرى اعتنقوا المسيحية على يد القديس توما الرسول، الذي غرقت سفينته قبالة الجزيرة، ونشر، في أثناء إصلاحها، تعاليم المسيحية بين القبائل الوثنية المحلية. وبعد ذلك كان الاتصال الوحيد بالجزيرة لا يتم إلا عبر عدد قليل من التجار العرب وربابنة السفن. وفي القرن الرابع، كانت هناك حكاية تشير إلى أن المبشرين جاءوا إلى اليمن قادمين من سقطرى، مما يدل على وجود مسيحيين في الجزيرة، وفي القرن العاشر، كتب الجغرافي العربي أبو زيد حسن أن غالبية ساكني الجزيرة من المسيحيين. وزار الجزيرة ماركو بولو، الذي زعم هو الآخر أن سكانها من المسيحيين، وأن رئيس الأساقفة لديهم يتبع رئيس أساقفة العراق. ودفع ذلك

بالعديد من الباحثين إلى الاعتقاد بأن سكان سقطرى كانوا نسطوريين. كما زعم ماركو بولو أن سكان الجزيرة لديهم القدرة على تسخير الرياح. وكتب:

هؤلاء المسيحيون هم الأبرع في أعمال السحر حول العالم. ولذلك يَحظر رئيس الأساقفة، بل ويعاقب هذه الممارسة، ولكن من دون جدوى... فعلى سبيل المثال، إذا رأوا سفينة تبحر مسرعة تدفعها رياح مواتية، فإنهم يثيرون رياحًا عكسية ويجبرونها على العودة.

وأشارت تقارير أخرى إلى أن سكان سقطرى كانوا يستعينون بأعمال السحر والتمائم لحماية أنفسهم، وذلك عبر حجب الجزيرة عن الأعين. وعلى الجزيرة كانت تنمو شجرة دم التنين التي تشبه نبات الفطر في شكله، ويبلغ طولها نحو خمس عشرة قدمًا، وهي ذات أوراق شائكة خضراء. وبحسب الأسطورة، فقد نبتت الشجرة من الدم الذي أريق في معركة جرت بين فيل وتنين. ولكن الوجود المسيحي على جزيرة سقطرى سوف يظل مثار جدل، لأن أسطول دا جاما حينما وصل إلى الجزيرة لم يجد بها ما يشير إلى وجود مسيحيين، ولا حتى كنيسة.

وصل فرناو لوبيز إلى بيليم الواقعة عند مصب نهر تاجا في أواخر شتاء عام ١٥٠٦. فمنها كان الأسطول البرتغالي سوف يبحر في قافلة من السفن كانت تسمى «رحلة الهند». كان البرتغاليون قد تعلموا بالفعل أن الأسطول يجب أن يغادر لشبونة في أواخر مارس أو أوائل أبريل حتى يمكنه الدوران حول رأس الرجاء الصالح ثم الوصول إلى مالابار مع نهاية سبتمبر. أما رحلة العودة إلى البرتغال، والتي تستغرق زهاء خمسة أشهر، فكانت تبدأ في أواخر ديسمبر أو أوائل يناير، لتصل إلى لشبونة في يونيو. وكان يتعين التقيد قدر الاستطاعة بهذا الجدول الزمني الذي تفرضه أحوال الطقس في المحيط الهندي، حيث تَحول الرياح الموسمية الجنوبية الغربية دون وصول السفن إلى الموانئ الواقعة على الساحل الغربي للهند خلال الفترة من مايو وحتى أوائل سبتمبر. لم يكن لدى لوبيز أي فكرة حقيقية عمَّا ينتظره هناك ولم يكن يدري كيف تبدو حقًّا بلاد الهند التي تتحدث عنها الأساطير، ولو فرض أنه كان يفهم ذلك، فإن ذلك كان على الأغلب عبر لغة مستمدة من الأساطير. ولكن لم يكن يساوره أدنى شك بأنه سوف يواجه صعوبات جمَّة خلال هذه الرحلة. وقد عانى كثيرون من قبله في تلك الرحلة. ومثل جميع سكان لشبونة، ربما كان يعتريه الرعب من حكاية يتم تداولها في المدينة وهي أنه في أثناء عودة دا جاما وطاقمه من الهند في عام ١٥٠٣، اضطروا إلى أكل القطط والكلاب التي كانت بالسفينة حتى يمكنهم البقاء على قيد الحياة. كانت رحلة تحفها الصعاب من دون شك، وكتب أحد الذين عاصروا تلك الفترة قائلًا: «كانت محفوفة بالصعاب حتى إن دموعك سوف تنفد قبل أن تنفد الأسباب التي

تدفعك لذرفها». واعتبرها جونسالو دي سيلفيرا، وهو مبشر يسوعي برتغالي خاض بنفسه أهوال هذه الرحلة الشاقة، رحلة إلى المجهول:

وبما أن المرء لا يمكنه أن يرسم صورة للموت حينما يواجهه شخص ما، وبما أن الشخص الذي يُحتضر هو وحده الذي يمكن أن يُكوِّن فكرة عن ذلك... فإننا بالمثل لا يمكننا أن نتحدث بأي شيء عن الذين يبحرون من البرتغال إلى الهند ولا أن نفهم ذلك؛ فهو أمر لا يعرفه سوى الذين يبحرون.

كانت رحلة محفوفة بمخاطر هائلة وتوشك أن تكون انتحارًا. وفيما بين عام ١٤٩٧ وعام ١٦١٢، غادرت ٨٠٦ سفن لشبونة متجهة إلى الهند فلم يعد منها سوى ٤٢٠ سفينة. ولأن هذه السفن كانت تبحر وهي مثقلة بالأحمال، لم تكن تستطيع تحمُّل العواصف، وكانت عيوبها المعروفة عنها في البناء تجعلها غير صالحة لمواجهة التغيرات المفاجئة في الظواهر الطبيعية مثل الرياح والتيارات البحرية. لذلك كانت السفينة غالبًا لا تصلح إلا لرحلة واحدة أو رحلتين. وكانت معدلات الوفيات مريعة: ففي السنوات الأولى من العبور إلى الهند كان يموت خلال الرحلة شخص واحد من بين كل شخصَين. وبما أن السفينة متوسطة الحجم كانت تحمل نحو ٦٠٠ شخص من أفراد طاقمها، كان يموت تقريبًا ٣٠٠ شخص من كل سفينة في مكان ما خلال الرحلة من لشبونة إلى الهند. وتُظهر الأرقام المجردة التي توردها السجلات البرتغالية صورة قاتمة لذلك. وخلال رحلته الثانية إلى الهند، خسر فاسكو دا جاما نصف طاقمه. وفي الأسطول الذي كان تحت قيادة نونو دا كونيا في عام ١٥٢٨، قضى أكثر من ٢٠٠ شخص بسبب الحمى، وفي الأسطول الذي كان تحت قيادة أنطونيو دي نورونيا في عام ١٥٧١، هَلك في الطريق ٢٠٠٠ شخص من بين ٤٠٠٠ شخص أبحروا على متن سفنه. كان المرض هو سبب الوفاة الأكثر شيوعًا، فلم يكن هناك التزام بالنظافة على متن السفن، كما أن الذين يمرضون كانوا يُتركون غارقين في قذاراتهم. وكانت كل سفينة لا تضم سوى جراح واحد، ولكن ماذا عساه أن يفعل وحده؟ ولم تكن هناك سوى طرق ثلاث للعلاج وهي فصد الدم والحقنة الشرجية والثقة برحمة الرب. وبالرغم من ذلك، كان لوبيز من بين هؤلاء المستعدين للتضحية في سبيل الوصول إلى الهند. وكان الأبناء الثواني داخل أسرهم في الشريحة العليا من النبلاء والشريحة الدنيا من النبلاء هم من انطلقوا في هذه الرحلة. أما الأبناء البكر وهؤلاء الذين ينتمون إلى الشريحة العليا من النبلاء فكانوا نادرًا ما يغادرون إلى الهند، وهو ما يرجع في بعض أسبابه إلى المخاطر التي تكتنف الرحلة، وكذلك لأنهم لم يكونوا بحاجة إلى ذلك. وباعتباره مرافق فارس وخادمًا للتاج، كان لوبيز مرسلًا إلى الهند من قبل الملك نفسه، الذي كان يتكفل براتبه وإليه يعود الفضل في ارتقائه السلم الاجتماعي. ومثل كثيرين غيره، كان لوبيز سوف يترك وراءه زوجته وابنًا صغيرًا، لإدراكه أن الهند ما هي إلا وسيلة لغاية.

وبعد بضع سنوات يمضيها خارج البرتغال، كان يُتوقع أن يعود إلى لشبونة حيث يُسند إليه منصب قيادي لمواصلة مسيرته المهنية. كان ذلك هو المسار الطبيعي للذين خدموا الملك. ومن النماذج التي عاصرت لوبيز، كان دوارتي كويلو بيريرا، الذي أبحر في عام ١٥٠٩ إلى الهند ومنها إلى الصين. ثم عاد إلى البرتغال، حيث عُيِّن سفيرًا لدى البلاط الفرنسي، ومنحه الملك بعد ذلك أرضًا يورثها لأبنائه من بعده. وبينما كان لوبيز ينتظر تجمع سفن الأسطول، كان يدرك أنه واحد من قلة محظوظة. لقد غادر الكثيرون البرتغال بالفعل بحثًا عن الثروة، ولكن قليلين فقط هم مَن حققوا أحلامهم وعادوا. أما الباقون فقد ماتوا بعيدًا عن ديارهم، وفي أماكن لم يحسبوا يومًا أن لها وجودًا.

كان لوبيز من نواحٍ عدة رمزًا للبرتغال الجديدة ذات الهمة التي كانت على طريق الصعود. كان بارتولوميو دياز وفاسكو دا جاما قد أطلقا عصرًا جديدًا ومجيدًا بفضل العلم التجريبي للملاحة السماوية ورسم الخرائط. وقد أثبتا أنه لا وجود لأي ثعابين تتربص بالبحارة تحت مياه المحيط، ولا للمياه الساخنة حد الغليان التي تنتظر البحارة الذين يعبرون خط الاستواء. وحذا حذوهما الآن الشباب البرتغالي الممتلئ طموحًا، وهم متعطشون لتحقيق الثروة وخوض المغامرة ومسلحون بتفاؤل لا يتزعزع ويقين بأن عصرًا برتغاليًّا جديدًا في طريقه للبزوغ. كانوا يشعرون بأنهم خُدَّام للرب، وقد اصطفاهم للنهوض بمهمة إلهية وكانوا مستعدين لتحمل عواقبها التطهيرية. كانوا يعرفون ويدركون أنهم سوف يعانون أشد العناء خلال الرحلة، ولكن عزاءهم يكمن في إدراكهم أن الرب اصطفى البرتغاليين باعتبارهم شعبه المختار الجديد، وورثة عهد نبيه إبراهيم. ولكن، وعلى الرغم من الثروات الموعودة التي كانت في انتظارهم، لم يستطع لوبيز أن يتخلص من هواجسه النابعة من أن كل ما في هذا الملكوت السماوي للبرتغال لم يكن كما ينبغي أن يكون. وزاد من هذه الهواجس، تفشي وباء الطاعون مرة أخرى في لشبونة، ما أشاع لدى الذين يقرأون العلامات في مثل هذه الأشياء، شعورًا بعدم الارتياح وبأن هناك عاصفة تقترب نُذرها.

في تلك الأثناء في بيليم، وفيما كان يُجهز للأسطول على مهل، كان تريستاو دا كونيا يشعر بقلق بالغ. فالأخبار التي تأتيه مزعجة، وبدا له أن العملاق المسلم استيقظ من سُباته. لم تمر الفظائع التي اقترفها البرتغاليون ضد الحجاج المسلمين من دون رد، فقد أرسل السلطان المملوكي رسالة غاضبة إلى البابا يهدد فيها بالانتقام من الحجاج المسيحيين في المقابل. لذلك، أحال البابا القلِق يوليوس الثاني رسالة السلطان إلى مانويل. كانت الهواجس التي انتابت السلطان المملوكي تُعزى أيضًا بالقدر نفسه إلى أسباب ذات طبيعة براجماتية، لأن الأنشطة البرتغالية كانت تمثل تهديدًا لإيرادات دولته وللازدهار التجاري الذي تعيشه القاهرة، وإذا كان لذلك أن يثير قلقه، فكذلك هي الحال

مع تجار البندقية الذين كانوا يهيمنون على طريق التجارة الداخلي. لقد تغيَّرت الأمور بسرعة كبيرة وعلى نحو يصب في مصلحة البرتغاليين. ففي عام ١٤٩٨، كانت بأسواق الإسكندرية كميات كبيرة من الفلفل حتى إن تجار البندقية لم يتمكنوا من جمع الأموال اللازمة لشرائها كلها. لكن وبعد أربع سنوات فقط، في عام ١٥٠٢، لم يجدوا ما يكفي من الفلفل لتحميل سفنهم، ومن ثَمَّ أُجبروا على تقليل عدد القوادس في أسطولهم التجاري من ثلاثة عشر إلى ثلاثة. لم يكن لهذا الوضع أن يستمر، فقد طالب سفراء البندقية لدى القاهرة السلطان بالقيام بعمل عسكري ضد البرتغاليين، ووعدوه بتقديم الأسلحة والرجال في سبيل ذلك. حاصر بينيديتو سانوتو، مبعوث البندقية، السلطان بالكلام عن «مدى أهمية ألا تصل التوابل إلى البرتغال عبر الطريق الجديد». ونتيجة لذلك، شرع السلطان في بناء أسطول بحري ضم اثنتي عشرة سفينة يتولى تشغيلها ٩٠٠ رجل من المماليك والبنادقة والتُّرك، وكانت مهمتهم إعادة فرض النظام في مياه البحر الأحمر التي بدأت تضربها فوضى متزايدة. وبحلول شهر أغسطس، وصل هذا الأسطول إلى جدة، وهي الميناء الرئيسي المرتبط بمكة، وبحلول عام ١٥٠٧، دخل إلى المحيط الهندي. وردًّا على ذلك ولمواجهة التهديد الإسلامي المرتقب، قرر الملك مانويل إنشاء وجود برتغالي دائم في الهند، وهو ما أصبح يعرف باسم «الإستادو دا إنديا». أثار قرار مانويل الدهشة حقًّا. وكان الجانب الأكثر لفتًا للانتباه في هذا المسعى كله هو أن هذا الوجود كان يُنظر إليه باعتباره مشروع الملك. كان كل الذين يتجهون شرقًا ـ بدايةً من نائب الملك ونزولًا إلى أدنى الرُّتب ـ خدَّامًا للتاج. وكان يتعين حساب جميع المدفوعات والأنشطة التجارية في لشبونة، والاحتفاظ بسجلات مفصَّلة لكل بند، بما في ذلك المرتبات التي تُدفع للجند والمبالغ التي تخصص لشراء الفلفل وحتى الأثاث الخاص بإقامة الشعائر الدينية في الكنيسة. كانت البرتغال في واقع الأمر دولة عسكرية تمولها بيروقراطية ملكية ذات طموح كبير. لم تكن البرتغال، رغم فقرها وعزلتها والتصاقها البائس بشاطئ الأطلسي، تحاول إنشاء دولة على بُعد آلاف الأميال وحسب، بل سعت أيضًا إلى فرض إرادتها على ممالك بعيدة وغنية ومكتظة بالسكان. وإذا لم يكفِ ذلك فإن البرتغال كانت تطالب بفرض هيمنتها على طريق البحر المؤدي إلى الهند. وعلى الرغم من أن البحار كانت مفتوحة أمام الجميع نظريًّا (وفقًا لمرسوم بابوي أضفى الشرعية على البعثات البرتغالية) فإن ذلك لم يكن ينطبق إلا على الأوروبيين والمسيحيين، الذين يخضعون للقانون الروماني، أما المسلمون فلم يشملهم هذا التشريع.

كان مانويل يرى أن الحرب قد يتعين خوضها في البحر، ولكن تحقيق النصر النهائي فيها سيكون في البر. وأدرك أن وصولهم إلى المحيط الهندي عبر رأس الرجاء الصالح، بالإضافة إلى أهميته الاستراتيجية، يعتبر مصدر فخر كبير

للبرتغاليين. ولكنه أدرك أيضًا أنه لم يكن أسرع ولا أرخص من طرق العبور التقليدية والممتازة التي تمر عبر البحر الأحمر والخليج العربي، وأنه لا يمكن أن يحل محلها. وكان يأمل أن يوجه ضربة قاصمة للمماليك بفرضه الحصار على البحر الأحمر، تمهيدًا لغزو الأراضي والاستيلاء على القاهرة والإسكندرية وتحرير بيت المقدس في نهاية المطاف. وفي بعض الأحيان كان ألبوكيرك يفاخر بإمكانية الاستيلاء على مكة نفسها. لكن فرض حصار برتغالي على الدخول إلى البحر الأحمر والخروج منه لا يمكن أن يحدث من دون أن يؤجج المشاعر الدينية في البلدان الإسلامية، لأن الحجاج المسلمين كانوا يستخدمون هذه الطرق البحرية التقليدية للوصول إلى مكة لأداء الركن الخامس من أركان الإسلام وهو الحج. ولما كانت سيطرة المماليك (ومن بعدهم العثمانيون) على المنطقة تستند إلى لقب «حامي الديار المقدسة»، فإن هذا يعني أن حماية جدة والأماكن المقدسة من الغارات البرتغالية وإبقاء الممرات البحرية آمنة لمرور الحجاج والتجار المسلمين كانت تمثل واجبًا دينيًّا. إن ادعاء الملك البرتغالي بأنه «بطل المسيح» كان يضاهيه الآن زعم خليفة المسلمين بأنه «حامي الديار المقدسة». كان العثمانيون، الذين سوف يقوِّضون الحكم المملوكي في عام ١٥١٦، يدركون أن الجغرافيا منحازة إليهم، إذ كانوا يسيطرون على أقصر الطرق التي تؤدي مباشرة إلى المحيط الهندي، ولم تكن تتطلب حصارًا بحريًّا ودوريات ساحلية وحاميات. وهي ميزة ذات أهمية بالغة، لأن مَن تنحاز إليه الجغرافيا تنحاز إليه السوق أيضًا. وكما قال المؤلف الإنجليزي بول ريكوت ممتعضًا في منتصف القرن السابع عشر: «لقد منح الربُّ البحرَ للمسيحيين والبرَّ للمسلمين».

وفي عام ١٥٠٥، حينما تعرَّض دا كونيا لعجزٍ مؤقت بسبب العمى، عيَّن مانويل فرانسيسكو دي ألميدا في منصب نائب الملك بالهند لثلاث سنوات، وبعث له ٢١ سفينة لإنشاء الحصون في المواقع الحيوية. والأهم أنه كان على ألميدا أن يحرم المسلمين من الوصول إلى البحر الأحمر. وكان مانويل قد أصر على ذلك «كي لا يستطيع المسلمون نقل أي نوع من التوابل إلى أراضي دولة المماليك، وكي يتخلى جميع مَن بالهند عن الوهم بأنهم قادرون على التجارة مع أي أحد غيرنا». كان ألميدا، المعروف باسم «الدوم العظيم فرانسيسكو»، صاحب سجل عسكري مميز، وحارب في حصار غرناطة، الذي انتهى في عام ١٤٩٢ بطرد المسلمين. وحمل معه الآن إلى المحيط الهندي موقفه المتشدد وكراهيته المتجذرة للإسلام الذي واجهه في حرب الاسترداد المسيحية.

وفي ظل استمرار التهديد الذي حملته رسالة السلطان المملوكي إلى البابا، وبالرغم من أن دا كونيا تعافى من مرضه المؤقت، وراح ينتظر حشد أسطوله في بيليم في الأيام الأخيرة من شهر مارس عام ١٥٠٦، فقد كان هناك سبب آخر يدعو للقلق. كانت السفن بأشرعتها الضخمة مثلثة الشكل، والتي خيطت

عليها صلبان بيضاء ذات حواف قرمزية، تبعث على الإعجاب من دون شك، ولكنه وحسبما تبين له كان يواجه نقصًا شديدًا في الرجال الذين يفترض أن تحملهم سفن أسطوله الخمس عشرة وهم ١٢٠٠ رجل. كان ينبغي للأسطول أن يبحر في شهر فبراير للحاق بالرياح، ولكن شهر أبريل كان يقترب فيما السفن لا تزال راسية في بيليم. وكان دا كونيا راضيًا عن مجموعة الفيدالجو الذين انضموا إليه وأسند إليهم مهامهم (وكان من بينهم فرناو لوبيز، الذي عُين ضابطًا)، ولكنه كان قلقًا بشأن البقية وهم العامة والجنود. كان معظمهم من الفلاحين القادمين من الريف ممن كانت مهاراتهم الملاحية أقل بكثير مما ينبغي. وكان كثيرون منهم لا يعرفون كيف يفرقون بين ميسرة السفينة وميمنتها، ومع ذلك يحلمون بالهند، ولا يدرون شيئًا عن طول الرحلة والمشاق التي قد تواجههم. وقد سجَّل كاهن بذهول، وهو ينظر إلى سفينة تتجه إلى الهند وترفع أشرعتها، اللامبالاة التي كان عليها «الكثيرون الذين صعدوا إلى السفينة وكأنهم لن يبتعدوا عن لشبونة بأكثر من فرسخ واحد، ولم يكن معهم في يدهم سوى قميص واحد واثنين من الأرغفة وبعض الجبن وجرَّة من المربى ومن دون أي نوع آخر من الزاد». ومما زاد الطين بلة، أن الطاعون تفشى في لشبونة، وأدرك دا كونيا أن ذلك سوف يُصعِّب مهمة العثور على رجال مستعدين للإبحار من تلك المدينة مع البحارة. وبالفعل قضى الطاعون على الآلاف، وفرَّ الملك من المدينة حيث استقر في أبرانتس، أعلى نهر تاجا. ومن هناك أرسل مانويل إلى دا كونيا راية من الساتان الأبيض يتوسطها صليب قرمزي بارز، وهو أيضًا من الساتان. وكان مقررًا أن تُرفع الراية فوق سفينة دا كونيا التي تحمل راية رُسمت عليها بعض «الذخائر المقدسة» وكان يتم التلويح بها كلما ضربت السفينة عاصفة. لم يكن دا كونيا مستعدًّا لأي مجازفة، وكان حينما يتعرض الأسطول لعاصفة شديدة، يطلب من القس الموجود معه أن يُظهر الصورة المقدسة للسيدة مريم البتول على سطح السفينة.

في هذه الأثناء، وفيما كانت تُجرى عملية جمع الرجال، كان دا كونيا منشغلًا بشحن سفينته، «ساو تياجو»، ببضائع تجارية خاصة ينوي بيعها في الهند. وكان فاسكو دا جاما قد أثبت أن هناك ثروات كبيرة يمكن تحصيلها، وأن استخدام القوة في سبيل ذلك أثبت نجاعته. كان قد عاد إلى البرتغال في عام ١٥٠٣، بعد أن جمع واحدة من كبرى الثروات في البلاد في غضون سنة واحدة، وقدَّرها البعض بـ٤٠ ألف «دوكات»، في وقت كانت ثروة أغنى ملوك أوروبا تُقدر بنحو ٢٠٠ ألف «دوكات». وإذا كان دا جاما قد استطاع ذلك، فلماذا لا يستطيعه آخرون؟ هكذا تساءل دا كونيا. وواصل ألميدا هذا النهج عبر السلب والنهب العشوائيين بالرغم من حرصه الدائم على تخصيص الخُمس للتاج. كان دا كونيا، الذي منحه الملكُ شخصيًّا مسارات تجارية خاصة للرحلة، عاقدًا

العزم على أن يجمع لنفسه ولأسرته ثروة كبيرة. ولكن ما أصابه بالإحباط هو أن التأخير في الإبحار كان يعني أن الأسطول لن يصل إلى الهند خلال العام، وأنه سيتعين عليه أن يُمضي الشتاء في سقطرى، مما سيقلل من أرباحه.

وأما أفونسو دي ألبوكيرك، فكانت لديه مخاوفه الخاصة. وعلى الرغم من أن الملك مانويل اختار دا كونيا لا ألبوكيرك لقيادة الأسطول، فقد فعل ذلك لسبب وجيه، وهو أنه بعد ثلاث سنوات، وبحسب التعليمات السرية للملك، سوف يتولى ألبوكيرك منصب حاكم الهند البرتغالية التي كان يحكمها حاليًّا نائب الملك، ألميدا. وهذا يعني أن ألبوكيرك سوف يكون حاكمًا، ولكنه لن يتقلد منصب نائب الملك، لأن النسل النبيل كان أهم من الثروة أو حتى الجاه في البرتغال وداخل مجتمع الفيدالجو، وكان الذين وُلدوا من نسل نبيل يُعتبرون أرفع مقامًا من أولئك الذين بلغوا هذه المنزلة بفضل خدمتهم للملك. وباعتباره فيدالجو، كان ألبوكيرك أدنى منزلة من ألميدا الذي يحمل ضمن اسمه لقب «دوم»، وهو امتياز منحه له الملك ولم يحصل عليه ألبوكيرك. كان من المقرر أن يُعين ألبوكيرك «حاكمًا» للهند، وليس «نائبًا للملك»، على الرغم من أن مسؤوليات وصلاحيات الحاكم أو نائب الملك كانت هي نفسها تمامًا. وحتى ألبوكيرك العظيم، والرجل الذي سوف يشتهر لاحقًا باعتباره «قيصر الشرق»، كان عليه أن يفهم مكانته بين طبقات الفيدالجو المعقدة.

نشأ ألبوكيرك في بلاط الملك أفونسو الخامس، حيث كان خادمًا. وتلقى تعليمه جنبًا إلى جنب مع أبناء الملك، وفي سنواته الأولى أصبح صديقًا للملك القادم وهو الملك جواو الثاني. وفي سنوات شبابه خدم في المغرب، حيث أمضى بضع سنوات ضابطًا في الحامية، وهناك ترسخت في نفسه كراهية شديدة للمسلمين، وتأججت حينما قُتل شقيقه الأصغر في إحدى الغارات. وعلى النقيض من دا كونيا، لم تكن هذه هي رحلته الأولى إلى الهند، ورغم أنه لن يعترف بذلك، فقد تعرض لإصابات خلال رحلته الأولى إلى هناك. فقبل ثلاث سنوات، أي في عام ١٥٠٣، تولى قيادة سرب يضم ثلاث سفن تعمل تحت إمرة ابن عمه فرانسيسكو دي ألبوكيرك. وكانت مهمته الرئيسية في الأسطول هي بناء قلعة في كوشين للدفاع عن محطة التجارة البرتغالية هناك (والمعروفة باسم «المصنع» والتي يشرف عليها «وسيط»)، لكنه زار أيضًا ميناء كويلون (المعروف الآن باسم «كولام») وعُيِّن مشرفًا تجاريًّا في تلك المدينة. وحدث أن نشبت بينه وبين ابن عمه فرانسيسكو مشاجرة وهو في الهند، وخلافًا لأوامر الملك المباشرة، غادر من دون أن ينتظره. كان واضحًا أنه عنيد حقًّا، ولكن بالمقابل كان لدى ألبوكيرك روح المخاطرة والرغبة في إثبات الذات. وحتى الآن، كانت الأساطيل البرتغالية تتجه دائمًا إلى ساحل شرق أفريقيا، لجعل المرور عبر المحيط الهندي قصيرًا قدر الإمكان. ولكن ألبوكيرك، بتوجيه من أحد المرشدين العرب، قرر عدم السير بمحاذاة

الشاطئ، وبعد رحلة محفوفة بالمخاطر على امتداد الساحل الغربي لأفريقيا، وصل إلى لشبونة في يوليو عام ١٥٠٤. وهناك علم أن ابن عمه الذي تأخر في مغادرة الهند، فُقد في البحر مع سربه من السفن. والآن في عام ١٥٠٦، كان ألبوكيرك في طريق عودته إلى الهند، وقريبًا سوف يُعيَّن حاكمًا لها.

في هذه الأثناء، كانت لدى ألبوكيرك هواجس أشد إلحاحًا. فقد علم لتوه أن مرشد سفينته قد فر هاربًا. وعلى ما يبدو كان قد تشاجر مع زوجته، وقتلها ثم هرب إلى قشتالة. كان تطورًا خطيرًا، حيث كان المرشد يلي القبطان مباشرة في الأهمية على سطح السفينة، وهو مَن يوجه السفينة، لا سيما أن العديد من القباطنة، وجميعهم من الفيدالجو وطبقة النبلاء، لم يكن لديهم أي خبرة بالملاحة. كان المرشد هو مَن يبقى على سطح السفينة، ليلًا ونهارًا، كي يطالع البوصلة. وبحسب مقولة برتغالية شائعة «كان للسفينة كما الروح للجسد». وبعد أن فشل في العثور على مرشد آخر، ومن دون جدوى، التمس ألبوكيرك من الملك أن يمده بمرشد جديد، ولكن الوقت المتبقي كان ضيقًا للغاية. وكانت لدى الرجال التزامات في أماكن أخرى، ولم يجد مرشدين، لأن موعد بدء وصول الرحلة العائدة من الهند لن يكون إلا بعد ثمانية عشر شهرًا على الأقل. في هذه الأثناء لم يستطع دا كونيا، الذي لم يكن يرغب بالبقاء في سقطرى خلال الشتاء وكان يحرص قطعًا على الاستفادة من الطرق التجارية الجديدة، الانتظارَ أكثر من ذلك. نفد صبره أخيرًا، ورغم أن سفنه كانت تواجه نقصًا حادًّا في الرجال، فقد صمم على الإبحار. وفي ٦ أبريل، ومن دون أيٍّ من الاحتفالات المعتادة في وداع السفن المغادرة، ومن دون إطلاق الأبواق أو المدافع، ومن دون حتى إقامة قُدَّاس للصلاة، غادر دا كونيا وأسطوله لشبونة. كان على ألبوكيرك أن يتبعه حينما يتيسر له ذلك وحينما يجد مرشدًا وما يكفيه من الرجال.

وحينما صعد ألبوكيرك على متن سفينته «سيرن»، واجه خيارًا صعبًا. لم يكن يعرف كم من الوقت سوف يستغرقه العثور على مرشد متمرس، ولكن هل يجرؤ على الإبحار من دون مرشد؟ وفي النهاية وبعد استشارة كبير ضباطه ديوجو فيرناندیز الذي كان قد ذهب بالفعل إلى الهند في رحلتين، قرَّر ألبوكيرك أنه لم يعد بوسعه الانتظار. سوف يبحر من دون مرشد. وحينما اتخذ قراره، كان هناك ناس كُثر متجمعون حول «سيرن»، وهم الذين استبعدهم دا كونيا من قبل خوفًا من عدوى الطاعون. وبما أن سفينته تواجه نقصًا في الرجال ولم تكن هناك أعراض ظاهرة على هؤلاء الرجال المتجمعين حول السفينة، أمر ألبوكيرك بضمهم إلى طاقم السفينة. لم يكن لديه أي شك حول مدى صعوبة الرحلة، فقد رأى بعينه معدلات الوفيات التي يمكن أن تشهدها رحلة إلى الهند. وحدها الأيام سوف تكشف مدى المجازفة التي انطوى عليها

قراره بالإبحار مستعينًا بضحايا محتملين للطاعون. كانت الأولوية لديه حاليًّا هي الإبحار واللحاق بتريستاو دا كونيا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس

«القمر يكذب»

لم يمضِ وقت طويل حتى لحق ألبوكيرك بالأسطول، وكان الاتفاق مع دا كونيا هو أن يلتقيا في أنجرا دي بيزيجويش (وهي خليج داكار اليوم) التي كانت أقصى النقاط غربًا في جزر الرأس الأخضر بالنسبة إلى أفريقيا، والمحطة الأخيرة للأساطيل قبل الانطلاق نحو رأس الرجاء الصالح. لكنهما حينما التقيا، نشب بينهما خلاف حاد حول الرجال الذين كان ألبوكيرك قد استعان بهم في لشبونة. ورفض دا كونيا رفضًا تامًّا تحمُّل مسؤوليتهم، خشية منه أن يكونوا حاملين لعدوى الطاعون، ولم يكن أي من القباطنة الآخرين مستعدًّا للمخاطرة بقبولهم على متن سفينته. وفي النهاية أُنزل الرجال إلى الشاطئ في بيزيجويش وحينما مضى أسبوع أو نحو ذلك من دون أن تظهر أي علامات على أنهم يحملون العدوى وُزعوا في النهاية على جميع السفن. وأُرسلت سفينة صغيرة إلى لشبونة برسالة من دا كونيا إلى مانويل يبلغه فيها أن الأسطول آمن، وأنهم سوف ينطلقون قريبًا نحو المحيط الأطلسي. لكن هذا التأخير أدى إلى تفاقم التوترات التي كانت تختمر بين دا كونيا وألبوكيرك.

كان البحارة البرتغاليون فيما مضى يسيرون بمحاذاة ساحل أفريقيا مع الالتجاء الحذر إلى الشاطئ يوميًّا، ولكنهم شيئًا فشيئًا تعلموا كيف يبحرون في أعالي البحار على مدى أسابيع من دون توقف ومن دون رؤية اليابسة. والسؤال المثير للاهتمام هنا هو كيف كانوا يعرفون مواقعهم وما إنْ كانوا يسلكون المسار الصحيح؟ الجواب المدهش، لنا نحن في هذا العصر على الأقل، هو أنهم لم يكونوا يعرفون مواقعهم ولم يكونوا يكترثون لذلك كثيرًا. ونحن اليوم ننظر إلى الملاحة من حيث كونها قادرة على تعيين مسار ما بين موقع السفينة ووجهتها المنشودة. لم يكن هذا الرأي مقبولًا على نطاق واسع في بواكير القرن السادس عشر. كان الغرض من الملاحة، حسبما يرى المرشدون، هو مجرد الانتقال الآمن من مكان إلى آخر. ولم يكن يهم كثيرًا في الملاحة فعلًا أن يستطيع المرء تحديد موقع السفينة. وفي واقع الأمر، كان يُنظر إلى العجز عن عمل ذلك باعتباره مشكلة للنبلاء في لشبونة أكثر منه مشكلة للمرشدين أنفسهم. فكل ما يهم المرشدين، الذين كانوا يقولون إنهم لا يُستعان بهم كي يستكشفوا أرضًا جديدة ولكن كي يوجهوا السفينة بأمان وسط المحيط، هو أن يكون المسار الصحيح معروفًا، وأن تكون السفينة قادرة على الالتزام بهذا المسار، وأن تُبحر حتى تبلغ اليابسة. كما لم تكن هناك مزية كبيرة في السفر على نحو أسرع، ولم يكن للوصول المبكر سوى فائدة محدودة (لم يكن ذلك، مثلًا، يعني أن رحلة العودة يمكن أن تنطلق قبل موعدها المحدد، فقد كانت الرياح الموسمية، وليس المرشدون، هي ما تقرر

ذلك). ولم يكن تحطم السفن يغير من هذا الرأي شيئًا، وكانت التقارير المعاصرة لتلك الفترة تلقي باللوم على الطقس أو أعمال القرصنة أو ربما على جهل المرشد بخصائص الموانئ والتيارات البحرية. وفي القرن السادس عشر كانت عبارة «فُقدت في عرض البحر» تشير إلى تحطم السفن، وليس إلى الجهل بموقع محدد.

لكن الأمور كانت تتغير بوتيرة متسارعة، ليس بسبب الملاحة في المقام الأول، ولكن بسبب التغير في المشهد السياسي. فقد نشب نزاع عقب عودة كريستوفر كولومبوس من رحلته الشهيرة. وعلى الرغم من أن كولومبوس كان قد أبحر لحساب تاج قشتالة، فقد مرَّ في طريق عودته إلى إسبانيا بمدينة لشبونة أولًا، وهناك التقى الملك البرتغالي وأطلعه على الأراضي التي اكتشفها، وادعى الملك البرتغالي لاحقًا أن كل الأراضي التي اكتشفها كولومبوس هي للبرتغال. كان النزاع محتومًا مما استدعى تدخل البابا للجمع بين الطرفين، ما أدى بعد مفاوضات كثيرة إلى توقيع معاهدة «توردیسیلاس» في ٧ يونيو ١٤٩٤. وقسَّمت المعاهدة الأراضي المكتشفة حديثًا خارج أوروبا المسيحية بين البرتغال وتاج قشتالة، ما يعني في واقع الأمر رسم خط في المحيط الأطلسي إلى الغرب من جزر الرأس الأخضر بنحو ٣٧٠ فرسخًا، وكانت وقتها تحت سيطرة البرتغال. وطالبت البرتغال بجميع الأراضي الواقعة شرق ذلك الخط. وطالبت إسبانيا بجميع الأراضي الواقعة غرب هذا الخط. ومُنحت إسبانيا الحق الحصري في جميع الأراضي المكتشفة حديثًا وغير المكتشفة في المنطقة الواقعة غرب الخط. وأصبح يتعين على البعثات البرتغالية التقيُّد بما هو شرق الخط فقط. ولم يعد يحق لأيٍّ من القوتين أن تحتل أي أرض توجد بالفعل تحت سيطرة حاكم مسيحي. وقد مكَّنت هذه الحدود الجديدة البرتغال من المطالبة بساحل البرازيل بعد أن اكتشفها بيدرو ألفاريس كابرال عام ١٥٠٠. ولذلك نجد اليوم أن معظم بلدان أمريكا اللاتينية، على سبيل المثال، هي دول ناطقة بالإسبانية، لكن البرتغالية هي اللغة الرسمية الأساسية في البرازيل، لأن الطرف الشرقي للبرازيل يخترق الخط المتفق عليه في معاهدة «توردیسیلاس»، وهكذا استعمرت البرتغال المنطقة (وقد تجاهلت المعاهدة تمامًا، وبطبيعة الحال، ملايين السكان الأصليين الذين أضحوا الآن تحت الحكم الإسباني أو البرتغالي). وكانت المشكلة التي نجمت عن ذلك هي أن ملكية منطقة ما، ولتكن جزيرة، أصبحت تعتمد على تحديد موقعها بالضبط من أجل منع الآخرين من التعدي عليها أو التنازع على تلك الملكية.

أحدث ذلك تغييرًا جوهريًّا في الدور المنوط بالمرشدين، الذين لم يعد يُنتظر منهم الآن الوصول إلى الأماكن بسلام وحسب، بل أيضًا تحديد الموقع الدقيق لتلك الأماكن بالنسبة إلى خط الحدود الواقع وسط محيط شاسع. ورأى

البعض في لشبونة أنه يتعين على المرشدين أن يعرفوا دائمًا المكان الذي توجد به سفنهم حتى يمكنهم تقديم بيانات دقيقة للإحداثيات التي كانت ضرورية لتحديث الخرائط، وكانت الاستعانة بالأرصاد الفلكية هي أفضل طريقة لعمل ذلك.

وفي الجانب الآخر كان المرشدون. ولأن تدريبهم في الأساس يجري في البحر، كان المرشد يبدأ حياته عادةً في سن الثامنة صبيًّا في سفينة. كانت مهنة متدنية المكانة ويموت كثيرون منهم مُعدَمين. وهم يتساوون اجتماعيًّا مع البحارة. وحينما ذهب لوبيز إلى البحر، ذهب كمرافق فارس وجندي ـ وليس كبحار ـ ولم يكن مسموحًا للمرشد، إلا إذا دُعي إلى ذلك، أن يجلس في حضوره، وإذا التقيا على عشاء، فيجب أن يبقى المرشد واقفًا. وكان المرشدون يتساءلون: لماذا لا يكون المسؤولون عن الملاحة هم الذين تعلموا مهنتهم خلال سنوات عمرهم الذي أفنوه في البحر؟ كان المهم لديهم هو أن يكونوا على معرفة بالتيارات والرؤوس الصخرية والموانئ والمسارات والرياح والشعور بالسفينة. كان هذا هو المهم، ولم يكن بالإمكان تعلم ذلك إلا عبر الرحلات المتكررة. كانوا ينظرون نظرة تشكُّك إلى الخرائط والملاحة الفلكية، وكان يشيع بينهم تعبير «القمر يكذب». كانوا بطبيعة الحال، ينظرون إلى النبلاء وعلماء الكوزموغرافيا نظرة ازدراء لا تكاد تخفى على أحد: «هؤلاء السادة كانوا أيضًا من «فرسان المسيح» وهم يسمون أنفسهم «أرباب البحر»، ولكن سفنهم دائمًا ما تجنح».

اصطف ضد المرشدين رجال اكتسبوا معارف جديدة وأصبحوا يمثلون عالمًا جديدًا. ولأنهم تعلموا اللاتينية واطلعوا على أساسيات علم الفلك وجغرافية البحار وجغرافية الأرض، كانوا يدافعون عن مدى أهمية النظرية. وفي مقابل الخبرة والمعرفة بالأماكن التي يُعلي من شأنها المرشدون، قدموا حقائق كونية. كان هؤلاء هم علماء الكوزموغرافيا الذين يؤمنون بضرورة تغيير الطريقة التي يبحر بها المرشدون. فبدلًا من الاعتماد على المعرفة بمواقع الرياح والتيارات البحرية والقدرة على إبقاء السفينة بمسارها، أصبح يتعين على المرشدين أن يستعينوا بالأرصاد الفلكية والملاحة السماوية وأن يقوموا بعمليات حسابية ويقرأوا جداول، وهي مهارات تتجاوز قدرات المرشدين، لأن كثيرين منهم كانوا لا يستطيعون القراءة أو الكتابة. ودفع علماء الكوزموغرافيا بأن الملاحة في البحار سوف تصبح أكثر أمانًا وأعلى كفاءة إذا ما أُجبر المرشدون على تحديد مواقعهم في عُرض البحر. وفي النهاية تبين صحة موقف علماء الكوزموغرافيا: لم تكن المعرفة التراكمية التي اكتسبها المرشدون عبر الزمن تتناسب مع الإبحار في المحيطين الأطلسي أو الهندي. ففي أعالي البحار حيث تصبح النقاط المرجعية الوحيدة هي النجوم والشمس، كان يجب أن تستند المواقع والمسارات إلى المعرفة المكانية،

وأن يتم حسابها عبر شبكة وهمية من خطوط العرض والطول. وأصبحوا يرون أن المرشدين والبحارة والملاحين ليسوا إلا «زبد البحر».

كان الدليل الرئيسي الذي يهتدي به المرشد هو خط العرض، أما صديقه المقرَّب فكان نجم الشمال أو ما يُسمى بـ«النجم القطبي». لاحظ البرتغاليون أن النجم القطبي يحافظ على ارتفاع واحد تقريبًا بموازاة خط عرض معين، ولذلك فإن الملاح الذي يرصد نجم الشمال كل يوم في الفجر والغسق وبإمكانه أن يرى كلًّا من النجم والأفق، يمكنه عبر ملاحظة التغير في درجة ارتفاع النجم، حساب التغيرات التي تحدث في موقعه. وكان الملاح الذي يعتزم الابتعاد عن اليابسة حتى تصبح خارج مرمى البصر ليس عليه إلا أن يقيس ارتفاع النجم القطبي حينما يغادر ميناءه: وكانت الطريقة الأسهل والأساسية هي استخدام عرض الإصبع. فحينما تُرفع الإصبع مع مد الذراع، كان يساوي عرض أربع أصابع. وفي دائرة قياسها ٣٦٠ درجة توجد ٢٢٤ إصبعًا. ومع إبقاء نجم القطب على الارتفاع نفسه، يمكن للمرء أن يبحر شرقًا وغربًا على خط العرض نفسه. ويمكن قياس هذا الارتفاع بعدد عرض الأصابع على طول الذراع بين الأفق والنجم. وكان يقدر تقريبًا أن الإبحار لمدة يوم نحو الشمال سوف يؤدي إلى رفع نجم القطب بمقدار إصبع واحدة في الأفق. وللعودة بعد رحلة طويلة، يجب على الملاح أن يبحر شمالًا أو جنوبًا، حسبما تقتضي الحال، حتى يصبح النجم القطبي في ارتفاع الميناء الذي غادر منه، ثم ينعطف يسارًا أو يمينًا بالشكل المناسب ثم «يبحر باتجاه خط العرض». وسرعان ما نُشرت قوائم ارتفاعات العديد من الموانئ في خرائط خاصة بالمسارات، وهي مسارات ملاحية برتغالية تم جمعها لمساعدة البحارة والمرشدين، وكانت تُحمل على متن السفن للاسترشاد بها في سواحل أوروبا وأفريقيا. وقد حسَّنت المزواة الربعية قياساتهم بدرجة كبيرة. وكانت الربعية التي عادةً ما تُصنع من الخشب خفيفة الوزن وتتميز ببساطتها الشديدة، فهي ربع دائرة مدرَّجة بمقياس يظهر على حافتها المقوَّسة. أما على الحواف المستقيمة فيظهر ثقبان للرؤية، فيما يتدلى خيط ثابت من أعلاها. كانت المشاهدات تتم موازاتها بنجم الشمال ثم تؤخذ القراءة من النقطة التي يقطع فيها الخيط المقياس. وتتيح معرفة ارتفاع النجم القطبي للراصد إمكانية تحديد خط العرض الذي يوجد عليه. وإذا عرف الملاح ارتفاع النجم في مكان معين، فيمكنه حينئذٍ قياس المسافة من هناك.

كانت المشكلة هي أن السفن حالما تبحر جنوبًا بمحاذاة منحنى الكرة الأرضية، يتلاشى النجم القطبي، ولم يكن يوجد نجم آخر يحمل الخصائص نفسها. وكان البديل الوحيد هو ارتفاع الشمس، ولكن المرء لا يمكنه بطبيعة الحال أن يحدد موقعها بالعين المجردة. ومن هنا جاءت الحاجة إلى علماء الكوزموغرافيا. وفي عام ١٤٨٤، أنشأ الملك جواو الثاني لجنة ضمَّت علماء

في الرياضيات وفلكيين لرصد وقياس الارتفاع الشمسي. وكان مفهومًا أن الشمس لم تكن دليلًا يمكن الوثوق به بقدر ما يوثق بالنجم القطبي، لأن مسارها في السماء كان يتغير بالنسبة إلى خط الاستواء في كل يوم من أيام السنة. ولذلك كان على الملاح أن يأخذ هذا المتغير في الحسبان ويُعوض عنه. ولم تنقضِ مدة طويلة، حتى اكتشف الفلكيون البرتغاليون كيف يحددون خط العرض اعتمادًا على موقع الشمس وهي تتحرك شمال خط الاستواء وجنوبه مع فصول السنة، وهو ما نسميه الآن انحرافها. كان هذا الاكتشاف خطوة معرفية كبيرة إلى الأمام فيما يتعلق بالإبحار اعتمادًا على الملاحة السماوية. وُضعت الجداول التي تحدد درجة انحراف الشمس في أي يوم، وتُبيِّن للملاحين كيفية تطبيق هذه الدرجة عند توجيه السفينة. كان ذلك عملًا معقدًا ومرهقًا في أول الأمر، وللمرء أن يتخيل أن العديد من المرشدين قرروا أن يتجاهلوا هذه الجداول، ولكنها في النهاية أصبحت ذات قيمة لا تُقدر بثمن.

كان الأسطرلاب الملاحي هو أداة قياس المسافات من خط الاستواء، وقد اخترعه العرب للسفر برًّا ولمعرفة اتجاه مكة التي هي قِبلة الصلاة، لكن البرتغاليين حولوه إلى أداة للملاحة في أعالي البحار. كان الأسطرلاب قرصًا مدرَّجًا من النحاس، وله شريط يتم تدويره حتى تسقط نقطة الضوء الساطع عبر المنظر العلوي على الجزء السفلي. ولأنه لم تكن هناك ساعات دقيقة، كان يجب تسجيل سلسلة من القراءات حول ما يبدو أنه منتصف النهار، حينما تبلغ الشمس أعلى ارتفاع لها. وبما أن المسافة بين خط الاستواء والشمس تتغير من يوم إلى آخر ومن سنة إلى أخرى، كان البحارة بحاجة إلى جداول دقيقة لقياس ارتفاع الشمس. ومنذ عام ١٤٨٥ تقريبًا تم إعداد كتيبات سُجلت فيها تقديرات انحراف الشمس وزُوِّد المرشدون بالمعلومات التي جُمعت من الرحلات السابقة. ومنذ القرن السادس عشر، أصبح من الضروري أن تُجهَّز جميع السفن بأسطرلاب لقياس ارتفاعات النجوم أو الشمس، ولم يكن المرشد يحصل على رخصته إلا حينما يستطيع قياس خطوط العرض.

بعد أن تَزود بمؤن جديدة من مياه ولحوم في بيزيجويش، أعطى تريستاو دا كونيا الآن الأمر بالإبحار من ساحل أفريقيا. ودخل الأسطول بسفنه الخمس عشرة التي تملأ الأفق وعلى متنها ١٢٠٠ شخص إلى المحيط الأطلسي. «تعتمد الملاحة في البحر على الرياح»، هكذا كتب المؤرخ والفيلسوف العربي العظيم ابن خلدون. «فهي تعتمد على معرفة الاتجاه الذي تهب منه الرياح وإلى أين تتجه». وبحلول عصر فاسكو دا جاما، كان البرتغاليون قد بدأوا يتعلمون أنماط اتجاهات الرياح في جنوب المحيط الأطلسي. وأدركوا أنهم لا يستطيعون الإبحار عكس اتجاه الرياح التجارية الجنوبية الشرقية والتيار المتجه شمالًا، وأن الطريق الوحيد للوصول إلى رأس الرجاء الصالح هو الإبحار غربًا إلى المحيط الأطلسي بعيدًا عن الساحل الأفريقي حتى

يمكنهم التقاط الرياح المواتية، مما يسمح للسفن بالإبحار في قوس معاكسة لاتجاه عقارب الساعة نحو أفريقيا. وهذا بالضبط ما كان الملاح البرتغالي بيدرو كابرال يحاول عمله حينما أبحر غربًا أكثر مما ينبغي، ولم يوقفه إلا ساحل البرازيل الذي اكتشفه بمحض المصادفة في عام ١٥٠٠.

تابع مرشدو تريستاو دا كونيا الآن إبحارهم، وكانت السفن تبحر غربًا باتجاه خط عرض ٥ أو ٦ درجات شمالًا، ثم تستفيد من الرياح التجارية، وتتجه صوب البرازيل. وحالما يعبرون خط الاستواء، يلتقطون الرياح التجارية الجنوبية الشرقية في النصف الجنوبي للكرة الأرضية حتى يعبروا مدينة كابو دي سانتو أجوستينو، وهي لا تبعد كثيرًا عن مدينة ريسيفي الحديثة، التي تقع عند ٨ درجات جنوبًا. ومن هناك يبحرون جنوبًا على امتداد التيار البرازيلي (تيار مياه دافئة، لا يختلف عن تيار الخليج، ويتجه جنوبًا من خط الاستواء على امتداد الساحل الشرقي البرازيلي)، حتى ٢٠ درجة حينما تبدأ الرياح الجنوبية في التحول إلى جنوبية غربية. وحالما يصل المرشدون إلى ٣٦ درجة جنوبًا، يدركون أنه أصبح بإمكانهم الإبحار شرقًا في أمان، حيث يتجهون مباشرةً إلى رأس الرجاء الصالح.

حينما صعد فرناو لوبيز إلى متن السفينة، وتفحص وجوه الرجال الذين أبحر معهم، فوجئ بأن عددًا كبيرًا منهم لم يكن برتغاليًّا، ووجد السفينة تغص برجالٍ من بلدان مختلفة ويتكلمون بألسنة مختلفة. كان بينهم الفلامنديون والألمان والصقالبة والإنجليز وغيرهم ممن لم يستطع أن يتعرف عليهم. انضم بعضهم إلى السفينة بغرض القتال، فيما انضم آخرون طلبًا للتجارة. وكان واضحًا أن بعضهم، وهم الأهدأ حالًا، هاربون من جرائم اقترفوها، فيما كان آخرون هاربين من حياتهم وحسب. سوف يموت أكثر من نصفهم قبل عودتهم إلى لشبونة. اعتاد لوبيز شيئًا فشيئًا نمط الحياة اليومية في عرض البحر. كان دائمًا ما يتابع مرور الوقت عبر الساعة الرملية. فبعد كل نصف ساعة من النهار والليل، يقلب صبي السفينة زجاج الساعة ثم يدق جرس السفينة. وبعد ثمانية أجراس، تتغير نوبة الحراسة ويذهب الذين يعملون للراحة، فيما يتولى فريق جديد تسيير السفينة، وكانوا ينشدون معًا أغنية قديمة تقول كلماتها:

نوبة حراسة تمضي وأخرى تجيء، والوقت يمضي ويمضي!

وبمشيئة الرب سوف ننعم برحلة آمنة

وفي الفجر، كان صبية المقصورة، المكلفون بأعمال النظافة، يرددون بصوت عالٍ دعاء البحر. كانت هذه الأغنية تشير إلى السفينة وتذكر جميع الموجودين على متنها بواجباتهم. وبصفته مرافق فارس، لم يكن لوبيز يشارك في الأعمال الشاقة مثل نزح المياه إلى خارج السفينة أو تنظيف سطح السفن

من الملح أو رتق الخروق التي تلحق بالأشرعة، ولكنه يساعد في تنظيف المدفع الرئيسي على السفينة، المصنوع من أنبوب من قضبان حديدية ملحومة الطرفين دُعمت بأغلفة حديدية حتى صَنعت أسطوانة محكمة. كان المدفع مثبتًا في قاعدة خشبية وُضعت على سطح السفينة، واعتاد لوبيز المشاركة في اختباره عبر إطلاق مقذوفات الحجارة والحديد والرصاص في عرض المحيط. كان أيضًا على دراية بأنواع أصغر من المدافع الحديدية التي تُعبأ من الخلف والموجودة على ظهر السفينة. وكان بالإمكان تثبيت هذه الأسلحة سريعة القذف على قوارب في رحلات استكشافية إلى منابع الأنهار أو مصباتها. وفي أثناء الرحلة كان لوبيز يستعمل أيضًا بندقية «بِركو»، وهي بندقية دوارة أخف وزنًا. وفي بعض الأحيان حينما يكون صبي المقصورة مشغولًا، ولتمضية الوقت، كان ينظف أسلحته ودرعه استعدادًا للمعركة القادمة التي في انتظارهم. وكانت أسلحته تشمل السيف والخنجر ورمح الاشتباك والرمح الخفيف. وبحوزته أيضًا درع دائرية يرتديها على ذراعه، فضلًا عن خوذته ودرع الصدر.

كانت الطقوس الدينية اليومية هي ما يحدد نمط حياته على متن السفينة ويجعلها منتظمة انتظام الساعة الرملية، لأن العصر الذي عاش فيه لوبيز كان قبل كل شيء هو عصر الإيمان. ففي كل صباح يؤدي صلاة الصبح وحينما يحل المساء ينفخ قبطان السفينة في صافرة فضية يعلقها في عنقه، فما يكون من لوبيز وجميع مَن على متن السفينة إلا أن يلهجوا بالصلاة الربية والصلاة المريمية. وفي كل مساء من أيام الاثنين والأربعاء والجمعة يتلو المسبحة الوردية، وفي مساء السبت يؤدي صلاة «السلام عليكِ أيتها الملكة» تعظيمًا لمريم العذراء. وعقب هذه الصلاة تنطلق مباشرةً بصوت عالٍ تعويذة لطرد الأرواح الشريرة. وكان ذلك كله لإبعاد أي خطر ممكن على حياة الموجودين على متن السفينة. وحينما تظهر اليابسة في الأفق أو تقترب السفينة من الشاطئ، لم تكن تُتلى صلاة «السلام عليكِ أيتها الملكة». ولم تكن تُؤدَّى أيٌّ من طقوس الأسرار المقدسة على متن السفينة في أثناء الرحلة. أما السر الوحيد المسموح به فهو الاعتراف، وكان إلزاميًّا، ولا بد من تقديمه أمام القسيس. ولم يكن يُسمح أيضًا باستخدام الزيت المقدَّس. كان وقوع حالات الوفاة أمرًا متوقعًا ومتكررًا، حيث يعلن القبطان (أحد النبلاء ممن لديهم خبرة في ركوب البحر ويتولى جزءًا من مسؤولية الملاحة) وفاة شخص عن طريق النفخ في صافرته، ثم يصلي جميع مَن على متن السفينة من أجل الميت. وكان البحر بطبيعة الحال هو المثوى الأخير الذي يُدفن فيه الميت.

بدا جليًّا منذ البداية أن الأسطول يسير ببطء شديد. وكانت سفينة بعينها، وهي «ساو تياجو»، تخفِّض من سرعتها، ما أثار قلقًا كبيرًا لكونها السفينة التي تقود الأسطول. كانت تسير مائلة على أحد جانبيها بسبب الأمواج. ولعل السبب

وراء ذلك هو أن دا كونيا، وحرصًا منه على تحقيق الربح، كدَّسها بالسلع التجارية، ولكن النتيجة هي أنه على بقية سفن الأسطول أن تبطئ من سيرها انتظارًا لـ«ساو تياجو»، مما ولَّد إحباطًا شديدًا لدى ألبوكيرك. وفي وقت مبكر من الرحلة التي تأخرت بالفعل، ضربت عاصفة أطلسية الأسطول بشدة، ما جعل الكهنة يصعدون إلى سطح السفينة ويخرون على ركبهم سُجَّدًا من أجل الصلاة. بل وراح بعضهم يمشي في أرجاء السفينة حاملًا إناءً من الماء المقدس وأخذ ينثره على سطح السفينة وفي البحر في مسعى لاستنزال الرحمات والبركة. وبعد بضعة أيام تواصل خلالها هبوب العاصفة، تمكن الأسطول من تجميع صفوفه مرة أخرى ليكتشف الجميع أن إحدى السفن، وكانت تحت قيادة أيوب كويمادو، لم يعد لها أثر. يوشك شهر يونيو الآن على الانتهاء، ما يعني أن ثلاثة أشهر تقريبًا مضت منذ انطلاق الأسطول، وقد غيَّرت الرياح، التي أصبحت الآن عكسية، اتجاهها. وعلى الرغم من أن الأسطول كان قد اقترب بعد عناء شديد من البرازيل حيث يمكن التقاط الرياح التجارية الجنوبية الشرقية، فقد تبين بوضوح أنه ليس بالإمكان تحقيق أي تقدم إضافي. لم يكن أمامهم من سبيل سوى العودة صوب خليج غينيا ومحاولة شق طريقهم من خلال العثور على الرياح التجارية من هناك.

كان الملاح يسجل يوميًّا مسار الرحلة، ويشير فيه إلى الطريق والمسافة ويدوِّن الملاحظات والحسابات الفلكية ويصف الأراضي التي يمرون بها. أما ما لم يكن يدوِّنه فهو المشقة والمعاناة التي يتحملها الذين على متن السفن. وباعتباره مرافق فارس، كان لوبيز أفضل حالًا: فمكانه المخصص له هو أسفل السفينة، حيث ينام على حصيرة أسفل السطح الأمامي للسفينة. وفي ساعات النهار يطوي حصيرته ويضعها جانبًا، وفي أثناء كل ذلك، يمكنه أن يجد وقتًا ينصرف فيه تفكيره إلى حقيقة أنه، إذا قُدِّر له أن يموت، فإن هذه الحصيرة سوف تصبح كفنه الذي يُلف فيها جسده قبل إلقائه في البحر. وباعتباره مرافق فارس، سُمح له أن يحضر معه مخزونه من الطعام إلى السفينة، وهو يتضمن لحم الدجاج والضأن والنبيذ والخل ومواد غذائية أخرى مثل التين والزيت والعسل والسكر والملح، فضلًا عن الكعك والبسكويت. أما بقية مَن على متن السفينة فلم يكونوا أحسن حالًا. كان طعامهم يقتصر على البسكويت واللحم المجفف أو المملح والأسماك. وكانت الأسماك المجففة تفسد، فيما يتعفن البسكويت في أحيان كثيرة بعد أن يمر عام على إعداده. وبسبب الحرارة حول منطقة خط الاستواء، كانت الزبدة والتين والزبيب والزيت من الأطعمة التي سرعان ما تفسد. وكانت اليرقات والصراصير والسوس تنافس الرجال على ما تبقى لهم من طعام. بل وحتى الماء يفسد ويتلوث بزبد البحر والبكتيريا والطحالب. ولأنهم كانوا شديدي العطش، كان جميع مَن في السفينة يجدون أن السبيل الوحيد لشرب الماء هو أن يغمضوا

عيونهم ويسدوا فتحات أنوفهم قبل أن يشربوا. ومما يثير الدهشة أنه كان يتعين على كل بحار أن يتولى إعداد طعامه الخاص. ولذلك، كان المطبخ مكتظًّا دائمًا، حيث يوجد به ما بين ٨٠ و١٠٠ وعاء على اللهب في آنٍ واحد، ما كان يتسبب في اندلاع حرائق صغيرة طوال الوقت.

شقت السفن الأربع عشرة طريقها من خليج غينيا (لأنه لم يظهر أي أثر لسفينة أيوب كويمادو)، تدريجيًّا صوب الجنوب، في طريقها نحو خط الاستواء. وحالما تجاوز الأسطول جزيرة أسنشن، أصبحت الحياة على متن السفن لا تطاق بسبب الحرارة الخانقة. كان الصيف قد بدأ لتوه وكانت تنتظر لوبيز ومَن معه ممن لم يبحروا في هذه المياه من قبل معاناةٌ رهيبة. أصبحت الأسطح السفلية مثل الفرن واضطر لوبيز وغيره من النبلاء إلى النوم على ظهر السفينة، ولكن لم يَسلم أي مكان على ظهر السفينة من الحرارة والرائحة الكريهة. لم تكن بالسفينة مراحيض واعتاد الرجال قضاء حاجتهم على رصيف السفينة، ولكن كثيرين كانوا أحيانًا يقضون حاجتهم حيثما يوجدون حينما تهب العواصف. وسرعان ما تتدفق مياه البحر على سطح السفينة محمَّلة بالقيء والبول والبراز. كان الرجال يعملون وينامون بالثياب نفسها لأشهر من دون أن يغسلوها، لأن مياه البحر كانت شديدة الملوحة والمياه العذبة ذات قيمة ثمينة. ولم يكونوا يقصُّون شعورهم التي سرعان ما امتلأت بالقمل. وانتشرت الجرذان في كل مكان وزادت جرأتها وأصبحت تمر أمام أعين البحارة حتى في ساعات صحوهم. وكان بعض النبلاء يبقون القطط والكلاب معهم على متن السفينة كي تساعدهم في اصطياد الفئران والجرذان ولكن من دون تأثير يذكر. كانت الشمس الحارقة عند خط الاستواء تلقي بأشعتها يوميًّا على الرجال، ولم تكن حرارتها الشديدة تميز بين نبيل وآخر من عامة الناس. ولكن حينئذ، وحالما كانت معاناة الموجودين على متن السفينة تبلغ مداها، كانت الرياح تسكن بشكل كبير وتتوقف السفن في هدوء تام على مدى أيام. ولأنهم كانوا يفقدون القدرة على الحركة ويصيبهم الوهن بسبب الجوع والعطش، كان أفراد طاقم السفينة يبدأون في التساقط يوميًّا. كان الأكثر خبرة يعرفون أن السفن تمر بما أصبحنا نعرفه اليوم بمنطقة ركود، وهي منطقة قريبة من خط الاستواء، ولكن هذه المعرفة لم تكن لتخفف معاناتهم أو تمنحهم الراحة. وحينما يستنزف البحر الساكن طاقة البحارة ويدخلهم في حالة من الخمول المميت، كانت السفن تتعرض فجأة للعواصف والرياح القوية فيصيب الذين على متنها إعياء شديد. وحينئذٍ يبدأ هطول المطر الساخن بغزارة يطال معها الجميع. مات كثيرون منهم، وعلى الأغلب بداء الإسقربوط والبري بري والحمى الشديدة. كانت أعراض الإسقربوط مريعة مثل سقوط الأسنان ونزيف اللثة والتقرحات المتعفنة وتورم الساقين والفخذين. أما البري بري فينجم عن سوء التغذية، وتستشري

الحمى الشديدة والمعدية سريعًا وبشكل متكرر، وتسبب غالبًا الهذيان. وأحيانًا يلقي بعض ضحاياه بأنفسهم في البحر، ولذلك كان يتعين تقييدهم وربط بعضهم ببعض للحيلولة بينهم وبين ذلك. وفي كل صباح ومساء، ووسط أصوات العويل والآهات يرفعون أصواتهم بالدعاء والضراعة. وفي هذه الأثناء تنتشر رائحة تثير الغثيان في كل مكان. ويُدَق الجرس بالسفينة.

حالما وصل الأسطول إلى جنوب المحيط الأطلسي، زادت السفن من سرعتها. وقد خلَّف الموت والمرض العديد من الموتى، ولكن الآن سمحت العواصف الممطرة المتكررة للبحارة بإعادة ملء براميل الشراب الخاصة بهم. كان بعضهم يصطاد بالصنارة والشبك والحراب، فيما يُدندن بعضهم الآخر أو ينشد إحدى أغنيات البحر. وفي بعض الأحيان قد تقع أعينهم على قرن أحد الحيتان، وهو مشهد يحمل لهم فألًا حسنًا. ورغم تعاونهم الطويل معًا، كان عدم الانضباط ونشوب الخلافات وسوء الفهم أمرًا شائعًا ولا مفر منه. وباعتباره ضابطًا، كان لوبيز يساعد في حفظ النظام على السفينة، وكانت العقوبات التي تُنزَل بالمخالفين قاسية. وعلى امتداد السفينة كانت توجد أعمدة خشبية يثبَّت عليها الرجال من رقابهم أو أرجلهم ثم يتركون في الشمس. وللمخالفات الأخطر، تُطبق عقوبة أشد وهي الإلقاء في البحر، حيث تُربط الضحية بحبل وتُنزل إلى البحر، وتحت قاعدة السفينة، قبل أن تُسحب إلى أعلى مرة أخرى. ولكن فئة الفيدالجو كانوا يتقاتلون أيضًا، وحينئذٍ تتفاقم الأوضاع، حيث كانوا يسافرون حاملين سيوفهم، وللمرء أن يتخيل كيف يمكن في هذه البيئة المعزولة والمكتظة أن تؤدي أي إهانة أو ما يُتصور أنها إهانة إلى العنف وسفك الدماء. ولهذا السبب كان محظورًا بشدة أن يتم الحلف بأي أيمان على متن السفينة. واعتاد الكهنة إلقاء العظات التي ينددون خلالها بالحلف بالأيمان، وأي فيدالجو يخالف ذلك، يُغرم، فيما سيجد الشخص العادي نفسه مشدودًا إلى أحد الأعمدة الخشبية.

وحينما بدأت السفن تبحر جنوبًا، كان الهواء البارد يتحول سريعًا إلى برودة قارسة. وبعد الحرارة الخانقة عند خط الاستواء، أصبحت الريح الباردة الآن هي القاتل الأول على متن السفينة. لم يكن العديد من الرجال يحملون معهم أي ملابس شتوية، إما مِن فقر وإما عن جهل، وكان هؤلاء هم أول مَن يلقون حتفهم. وكلما أبحرت السفن جنوبًا زادت شدة البرودة، وعانى الرجال وارتجفوا من شدة البرد. وكان يتعذر إشعال النار على متن السفينة لإعداد الطعام الساخن بسبب البرودة والطقس العاصف. وفي نهاية المطاف أدرك المرشدون أن الأسطول اجتاز خط العرض ٣٦ درجة جنوبًا، وتنفس الجميع الصعداء، وتحولت السفن شرقًا.

كان قبطان السفينة التي أبحر على متنها فرناو لوبيز هو روي دياز بيريرا، وهو فيدالجو ذو مكانة رفيعة. وجرت العادة حينما يسافر قبطان إلى الهند أن يرافقه بعض أقاربه ممن يطلبون الشهرة والثروة. ورافق القبطان ابن أخيه مانويل دي لاسيردا، الذي سوف يصبح فيما بعد أحد أعظم القادة العسكريين البرتغال في الهند، وكذلك قريب أصغر سنًّا، وهو أيضًا يحمل اسم روي دياز. وحدث في أثناء الرحلة أن تعارف روي دياز الأصغر وفرناو لوبيز للمرة الأولى، ونشأت بين الرجلين صداقة توثَّقت عراها مع المرور البطيء للأيام والأسابيع. وكانا يلتقيان يوميًّا على منصة مؤخرة السفينة حيث يتجاذبان أطراف الحديث. وأحيانًا كانا يمشيان مع آخرين على سطح السفينة العلوي في المسافة ما بين الصاري الرئيسي والصاري الأمامي. وكان يُسمح لأفراد الفيدالجو ببعض الألعاب على سبيل الترفيه، وغالبًا ما كان القمار أحدها، ولكن قبل بدء اللعب كان من المعتاد (وهو ما كان يفرضه القبطان أحيانًا) تقديم تبرع لعمل خيري. أما ركاب السفينة من العامة الذين يمارسون أي لعبة أخرى غير ألعاب اللوح أو ألعاب الورق فكانوا يجدون أنفسهم في عمود التشهير الخشبي. وكان يُحظر تمامًا ممارسة أي ترفيه بعد حلول الظلام، حيث يُخصص هذا الوقت لصلاة المساء. وكانت لعبة الشطرنج من أكثر ألعاب الطاولة شيوعًا، على الرغم من أنها كانت تُعرف باسم «شادرس»، من كلمة «الشطرنج» التي كانت اشتقاقًا عربيًّا من الكلمة الهندية «شطورنجا». ولو سُئل لوبيز عن الموطن الذي نشأت فيه اللعبة، لأجاب مستيقنًا بأن أصولها تعود إلى طروادة، لأن هذا ما كان يعتقده البرتغاليون الذين تلقوا قدرًا من التعليم. وفي الحقيقة، نشأت اللعبة في الأرض التي كانت سفينته في الطريق إليها، حتى إن وصوله إلى الهند لو جاء في أثناء إحدى المباريات على متن السفينة، لربما تمكن أحد اللاعبين الهنود من استكمال المباراة نفسها، وإن تعيَّن عليه أن يتغلب على بعض الارتباك في أول الأمر، إذ كان البرتغاليون يمارسون نسخة من اللعبة تتميز بكونها أسرع كثيرًا، حيث كان الأوروبيون قد أدخلوا بعض التعديلات الأساسية على القطع، مما ساعد في تحويلها إلى اللعبة التي تمارَس اليوم.

وذات صباح يوم أحد من شهر أكتوبر كان الطقس قارس البرودة، وكانت السفن الأربع عشرة تمخر عباب الماء في محيط لا تبدو له نهاية في الأفق. كانت السفن تبحر على مرأى من بعضها بعضًا، ما يعني أنهم حينما يرون الشاطئ، فإنهم يرونه في آنٍ واحد معًا. وكان أول ما ظهر من المحيط، عبر الغيوم، جزيرة بركانية تعلو قمتها الثلوج. كان منظرًا مدهشًا ومفاجئًا بقدر ما كان مثيرًا. حينما اقتربت السفن من هذه الجزر الصغيرة المعزولة والمبعثرة، أرسل ألبوكيرك رسالة إلى دا كونيا يبلغه فيها بأن عليهم الرسو في مكان ما لكي يتعرفوا على هذا الكشف الجديد. وحينما اقتربوا من الجزيرة الرئيسية،

رأى البحارة الآلاف من الطيور البحرية التي يسمونها «الغربان البحرية». وفي الحقيقة كان ما رأوه هو طيور النوء والقطرس البحرية. ولكنهم لم يتمكنوا من النزول إلى الجزيرة، حيث هبَّت عاصفة غربية مفاجئة تفرقت على إثرها السفن، وحينما تمكنوا من جمع صفوفهم مرة أخرى كان النزول على الجزيرة قد أصبح عملًا محفوفًا بمخاطر كبيرة بسبب الغيوم الكثيفة التي أظلتهم، واشتداد العاصفة في البحر وعدم وجود مرفأ طبيعي. وهكذا أبحرت السفن بعيدًا، وإن لم يمنع ذلك تريستاو دا كونيا من تسمية الجزر باسمه: وهو الاسم الذي ظلت تحمله في صيغته الإنجليزية، حتى يومنا هذا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس

«سوف أقيم أسوارًا من عظام المسلمين»

حينما كان هؤلاء الذين أبحروا من لشبونة إلى الهند يُسألون عن معاناتهم، كانوا يتحدثون غالبًا عن مراحل ثلاث للرحلة، التي كان الموت فيها زائرًا دائمًا. الأولى هي عبور خط الاستواء حيثما تحمل الحرارة الخانقة معها العديد من الأمراض الفتَّاكة، أما الثانية فتأتي مع البرودة القارسة لدى المرور برأس الرجاء الصالح حيثما يموت الرجال بالتهاب رئوي وحمى بعد معاناة طويلة. ثم بعد ذلك تأتي موزمبيق. وبسبب ما فيها من ملاريا وكوليرا، أصبحت جزيرة موزمبيق الصغيرة مقبرة للبرتغاليين، وقد قُدِّر أنه خلال الثلاثين سنة التي سبقت عام ١٥٥٨، قضى بها نحو ٣٠ ألف رجل وهم في طريقهم إلى الهند. ولأنها محطة لا غناء عنها لإصلاح السفن والتزود بالمؤن، سرعان ما أدرك البرتغاليون أن جزيرة موزمبيق ذات موقع مثالي. كان خليج موسيريل في الجزيرة يوفر مرفأً طبيعيًّا ممتازًا، ويمنح السفن ملاذًا آمنًا في أثناء انتظارها هبوب الرياح الموسمية المواتية. وكانت أيضًا قريبة من اليابسة، وتصلح لزراعة الخضراوات والفاكهة. وفوق ذلك، كانت جزيرة موزمبيق قاعدة انطلاق للبرتغاليين لاستكشاف البحار.

في ديسمبر ١٥٠٦، وبعد ثمانية أشهر من إبحارها من لشبونة، مرت سفن دا كونيا الأربع عشرة برأس الرجاء الصالح ووصلت إلى جزيرة موزمبيق. وفي ذلك الوقت تبين أن الرياح الموسمية الشمالية الشرقية لم تكن مواتية، وأن الأسطول سوف يتعين عليه أن يقضي الشتاء في الجزيرة. وعلى الرغم من الإحباط الذي انتاب دا كونيا في أول الأمر، فقد كان يدرك أن ذلك احتمال قائم دائمًا، ولذلك حوَّل اهتمامه الآن إلى تنفيذ أوامر مانويل بالاستيلاء على جزيرة سقطرى التي تقع قبالة ساحل اليمن الحديث، وذلك للمساعدة في تأمين مدخل البحر الأحمر. وكان فاسكو دا جاما حينما أبحر للمرة الأولى بمحاذاة ساحل شرق أفريقيا، قد اكتشف سلسلة من الموانئ التجارية التي كانت كلها تابعة للمسلمين، وتتنافس فيما بينها بدايةً من صوفالا في الجنوب إلى مقديشو في الشمال. كان هذا هو الساحل السواحيلي الأسطوري، حيث تتم مقايضة العبيد والعاج والذهب بالمنسوجات والخرز. وقد استطاع مستكشف برتغالي، يُدعى بيدرو دا كوفيليا، بعد أن تنكر في زي تاجر عربي، أن يسافر بامتداد سلطنة كيلوا في عامي ١٤٨٩ و١٤٩٠ ويزور موانئ ماليندي وكيلوا وصوفالا. وأكد دا كوفيليا لجميع الذين كانوا يستمعون إليه أن كيلوا، الموجودة على جزيرة قبالة ساحل تنزانيا اليوم، واحدة من أكثر المدن ازدهارًا في أفريقيا، وأن مومباسا واحدة من أهم مدينتين تجاريتين على ساحل شرق أفريقيا. وأشار دا كوفيليا أيضًا إلى أن التجارة عبر الساحل

السواحيلي يهيمن عليها العرب، الذين نجحوا في نشر الإسلام. وربما ما لم يكن يعرفه هو أن كلمة «سواحيلي» مشتقة من كلمة عربية هي «سواحل»، وأن الثقافة السواحيلية نتاج للتزاوج بين الأفارقة والعرب، ما أنتج حضارة اقترضت بكثافة من كلتا الثقافتين، لكنها أصبحت متجذرة بقوة في الإسلام. وكان ساحل شرق أفريقيا الذي يمتد لمسافة ١٩٠٠ ميل من خط الساحل ما بين مقديشو في الصومال وصوفالا في موزمبيق اليوم، قد اجتذب التجار العرب، ومعظمهم من اليمن وعُمان، منذ زمن مبكر. كان الساحل يوفر لهم مجموعة من السلع والبضائع مثل العبيد والذهب والعاج وجلود الحيوانات والأواني الزجاجية والخرز. وكانت به إلى جانب ذلك مرافئ طبيعية جيدة بها كميات وفيرة من المياه العذبة وتسمح برسو السفن الشراعية التجارية التي تعبر المحيط الهندي، وتلك ذات الأشرعة المثلثة التي يوجد بها صارٍ أو اثنان. كان التجار العرب قد اكتشفوا الرياح الموسمية التي تدفع سفنهم غربًا بين شهرَي نوفمبر وأبريل نحو أفريقيا وتعود بسلام مرة أخرى بين مايو وأكتوبر. ومع مرور السنين، استقر العديد من التجار العرب في مناطق مختلفة على الساحل، وتزاوجوا مع السكان المحليين، وانتشر الإسلام مع اطلاع الأفارقة على اللغة العربية وثقافتها. ومن المؤكد أن الرحالة المغربي الشهير ابن بطوطة حينما زار شرق أفريقيا في عام ١٣٣١، كانت المدن الساحلية الرئيسية عليه وهي مقديشو ومومباسا وكيلوا تقع ضمن نطاق العالم الإسلامي. وفي مقديشو، حيث مكث ثلاثة أيام، أدى صلاة الجمعة وعاش مع قاضي المدينة، وأشار إلى أن «الناس بها متدينون وجديرون بالاحترام ومستقيمون، ولديهم مساجد مبنية بشكل جيد من الخشب». وفي وقت زيارة ابن بطوطة، كانت كيلوا هي المركز التجاري الرئيسي على الساحل، وتستمد ثروتها من سيطرتها على تجارة الذهب في هضبة زيمبابوي التي كانت صوفالا هي منفذها.

وفي مارس ١٥٠٠، أُرسل بيدرو كابرال ومعه أوامر بأن يستعرض القوة العسكرية أمام كيلوا وأن يهزمها. ولكن كابرال فشل في إبرام اتفاق مع حاكمها وهو أمير عربي، وعاد وكتب في تقريره أنه رأى بيوتًا جميلة من الحجارة المرجانية. وبعد ذلك بعامين، أي في عام ١٥٠٢، تلقى دا جاما أمرًا من مانويل بإجبار كيلوا على دفع الجزية عقابًا على عدم انصياعها لطلب كابرال. ولا شك أن كلمات دا جاما إلى أمير كيلوا هذه المرة لم تدع لديه مجالًا لأي شكوك:

كن على يقين أنني إذا عزمت على ذلك، فإن النيران سوف تلتهم مدينتك خلال ساعة واحدة، وإذا حاول رجالك إخماد هذه النيران فسوف تحرقهم جميعًا، وحينما ترى كل هذا يحدث، فسوف تندم على كل ما تقوله لي الآن،

وسوف تدفع أكثر بكثير مما أطلبه، وسيكون أوان ذلك قد فات. وإن كنت لا تزال في شك، فانتظر حتى ترى بعينيك.

وكان البرتغاليون يدركون أنهم إذا أرادوا التجارة عبر الساحل السواحيلي، فعليهم أن يستولوا عليه أولًا. كان واضحًا للغاية أن الازدواجية مكون أساسي في هذه الاستراتيجية: كانت تعليمات مانويل إلى ألميدا في عام ١٥٠٥ تقول:

وتظاهر لهم بذلك [بالسلام] حتى تنزل إلى الشاطئ من قواربك الطويلة واستعن بهذه المهارة ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، ثم خذ جميع التجار الموريين الذين قد تجدهم هناك والقادمين من بلدان أجنبية وكل ما تجده معهم من ذهب وسلع... ونحن حينما نفعل ذلك فإنما نفعله لأنهم أعداء ديننا الكاثوليكي المقدس.

كانت مهمة ألميدا هي الاستيلاء على كيلوا ومومباسا وتحصينهما، ثم بناء الحصون في مناطق محددة على طول الساحل بين رأس الرجاء الصالح والهند كي تكون بمثابة محطات ومراكز تجارية حصينة ومكانًا آمنًا للتزود بالمؤن والراحة. ومن ثَمَّ حينما توقف أسطوله في مومباسا، وكانت إحدى المدن التجارية الرئيسية على ساحل شرق أفريقيا، نهبها ألميدا وأشعل فيها النيران، ما أسفر عن مقتل ١٥٠٠ شخص ونهب كميات كبيرة من المنسوجات القطنية والحريرية والمطرزة بالذهب وكذلك السجاد. وقد حملت رسالة ملك مومباسا إلى ملك ماليندي عقب زيارة ألميدا تحذيرًا من هذا الإرهاب الجديد والبشع:

أود أن أبلغك أن سيدًا عظيمًا مرَّ بالمدينة فأحرقها وأتى على الأخضر واليابس بها. لقد جاء إلى المدينة مصحوبًا بقوة هائلة واستعمل قسوة بالغة ولم تأخذه رحمة برجل أو امرأة أو شيخ أو صبي، بل ولا حتى بأصغر طفل... لا يمكنني أن أحدد أو أقدر حجم الثروة التي نهبوها. وهأنذا أبعث إليكم بهذه الرسالة كي تأخذوا حذركم.

ويمكن للمرء أن يتصور أن الملك حينما تحدث عن هذا الإرهاب الجديد والبشع، كان يشير على الأغلب إلى الأسلحة النارية ونيران المدافع التي أحضرها البرتغاليون معهم، ولم يكن لهم حيلة معها، بقدر ما كان يشير إلى القسوة والوحشية التي أظهرها الجنود البرتغاليون.

وبحلول عام ١٥٠٧، كانت كيلوا ومومباسا وماليندي وباتي ولامو قد تعرضت جميعها للنهب على أيدي البرتغاليين. والآن وبما أن دا كونيا وألبوكيرك كانا قد كُلِّفا بالاستيلاء على جزيرة سقطرى، بعد بقائهم شهورًا على متن سفنهم يصارعون الموج والملل، فقد سنحت أمام لوبيز أخيرًا فرصة الحصول على المال ونيل الشرف. وحينما شقوا طريقهم شمالًا على امتداد الساحل

الأفريقي، مر دا كونيا وألبوكيرك بمدينة أنچوجا، وبحسب التاريخ الذي دوَّنه ابن ألبوكيرك، كان يحكمها «تاجر موري قدم إليها من الخارج لكنه كان شديد الثراء وجعل نفسه أميرًا على كل تلك الأرض». نُهبت أنچوجا وسُويت بالأرض. وبعد بضعة أسابيع، مضى الأسطول نحو باراوا حيث أطلق البرتغاليون جام غضبهم وعنفهم على سكانها. ووصف شاهد عيان إسباني هو مارتن فرناندیز دي فيجويروا مشاهِد من الوحشية التي تعرض لها سكانها من المسلمين:

دخل البرتغاليون المدينة عنوةً بقوة السلاح، وقتلوا العديد من الموريين، ونهبوا ثروات طائلة لم يفكر أصحابها في حفظها ظنًّا أنهم قادرون على الدفاع عن المدينة. بل لم يتمكنوا حتى من إنقاذ زوجاتهم ذوات الثراء والجمال واللواتي كن يضعن في كل ذراع سبع أساور وفي سيقانهن يضعن العدد نفسه من الأساور السميكة والثمينة. وجدوا في ذلك فرصة لإظهار الوحشية البالغة، فالرجال، ولأن حب المال قد استحوذ عليهم، وحتى لا يضيعوا وقتًا، كانوا يقطعون الأذرع والسيقان والآذان التي توجد بها الجواهر من دون أن تأخذهم بهن رحمة.

كان الهجوم على باراوا ونهبها على الأرجح أول مشاركة حقيقية من لوبيز في ساحة المعركة. ومع اشتداد وطأة العنف، أصيب دا كونيا بجراح، وكان ما تلا ذلك مشهدًا رائعًا. فحالما توقف القتال، وتقديرًا لشجاعته، أصر دا كونيا على أن يُرسم فارسًا. وأقام ألبوكيرك، بصفته أرفع النبلاء الموجودين مقامًا، احتفالًا لتكريم دا كونيا وابنه والعديد من المشاركين الآخرين في القتال عبر ترسيمهم أعضاء ضمن «فرسان سانتياجو». لم يكن لوبيز من بين الذين رُسِّموا فرسانًا رغم أنه نزل على ركبتيه، كما فعل جميع الحاضرين، تعظيمًا لدا كونيا. لم يكن أوان ذلك قد حان بعد.

وانطلاقًا من باراوا، أبحر دا كونيا إلى مقديشو التي كانت أغنى مدن ساحل شرق أفريقيا، وهو عازم كل العزم على نهبها. لكن مقديشو كانت جيدة التحصينات وقد عقد رجالها العزم على القتال، لا سيما بعدما بلغتهم أنباء الفظائع التي اقترفها البرتغاليون بحق السكان على امتداد الساحل. علم ألبوكيرك بقوة التحصينات، ونصح دا كونيا بعدم الهجوم، ولكن كلامه لم يجد سوى آذان صمَّاء، فاستدعى أفراد الفيدالجو، ومن بينهم لوبيز، وطلب منهم إقناعه. وأخيرًا نزل دا كونيا على نصيحة ألبوكيرك وأمر الأسطول بالتوجه مباشرةً نحو سقطرى. وهناك بعث برسالة إلى حاكم سقطرى خيَّره فيها بين أن يصبح تابعًا لملك البرتغال أو يواجه المصير الذي لاقته باراوا. جاء الرد متحديًا بقدر ما كان واضحًا لا لبس فيه: إذا كان البرتغاليون لديهم ما يكفي من الشجاعة، فعليهم بالنزول حتى يستولوا على القلعة، لأنهم لن يستطيعوا الاستيلاء عليها بأي طريقة أخرى. ومرة أخرى ارتدى لوبيز درعه وجهَّز نفسه

للحرب. جاء الهجوم البرتغالي شرسًا، وفي أولى المناوشات، قُتل أحد أبناء أمير سقطرى على أيدي ألبوكيرك. لكن الهجوم لم يُثنِ الحامية المسلمة البالغ قوامها ١٥٠ رجلًا عن عزمها، وتشبثت بمواقعها. تواصل الهجوم البرتغالي على الحصن على مدى سبع ساعات، وخلاله أُصيب ألبوكيرك نفسه وجُرحت ساقه بضربة سيف، فيما تساقط المدافعون المسلمون واحدًا تلو الآخر. ربما كان البرتغاليون يعتبرونهم كفارًا، ولكن بسالة المسلمين في ذلك اليوم نالت احترامهم بكل تأكيد. ونظرًا إلى شجاعتهم غير المتوقعة، وبعد سقوط القلعة أخيرًا، أمر دا كونيا بألا تُنهب المدينة الرئيسية. وعلى الرغم من ذلك، ربما يتعين تفسير هذه الشهامة البرتغالية بطريقة مغايرة: فمنذ البداية اعتراهم الارتباك، وحينما اقتربوا من سقطرى، واجهتهم قوة مسلمة رغم أنهم كانوا يعتقدون فعلًا، وكذلك كان مانويل في لشبونة، أن الجزيرة يقطنها مسيحيون. ولعل حفاظهم على المدينة كان نابعًا من تخوفهم من قتل إخوانهم المسيحيين من دون علم. ولكنهم سرعان ما تبينوا أن هذا النصر كان زائفًا. فقد أدى انعدام خصوبة الأرض إلى المجاعة وانتشار المرض بين أفراد الحامية، كما أدى عدم وجود مرفأ مناسب في فصل الشتاء إلى فقدان العديد من السفن البرتغالية الراسية. وبعد أربع سنوات، تخلى البرتغاليون عن الجزيرة. وقد ألمح المؤرخ البرتغالي كاستانيدا على نحو مبهم في كتابته عن رحيلهم أن «أهل البلد كانوا أكثر ودًّا مع الموريين مما هم معنا، وغالبًا ما يثورون كلما شن الموريون حربًا». ويبدو أن «المسيحيين» في سقطرى لم يكونوا ساخطين على حكم المسلمين بالقدر الذي حسبه البرتغاليون.

تمت للبرتغاليين السيطرة على سقطرى، وأصبح دا كونيا جاهزًا الآن للإبحار إلى الهند، ولكن من دون ألبوكيرك. وسواءً كان ذلك قد تم الاتفاق عليه في لشبونة، أو كان قرارًا متهورًا، فقد أعلن ألبوكيرك الآن أنه بدلًا من إبحاره مباشرةً إلى الهند، فسوف يشن هجومًا على الساحل العربي للخليج. والأهم من كل ذلك أنه كان يضع جزيرة هرمز نصب عينيه ويرغب في الاستيلاء عليها، وهي جزيرة في الخليج العربي تقع قبالة إيران اليوم، ووصفها المسافرون الأوائل بأنها «أغنى جوهرة في خاتم العالم». وفي كتابه عن هرمز في عام ١٥٨٠، وصفها الإيطالي جاسباردو بالبي بأنها «أجدب مكان رأيته في حياتي. فهناك لا يجد المرء سوى الملح والخشب. وكل شيء آخر يمكن أن يَطعمه المرء يجب جلبه من اليابسة الفارسية». لكن هرمز كانت مركزًا رئيسيًّا للتجارة البحرية الدولية، وتأتيها السفن من الهند وجنوب شرق آسيا وترسو على الساحلَين الفارسي والعربي قبل إبحارها إلى البحر الأحمر ومنه إلى مصر، حيث تُنقل البضائع برًّا إلى الإسكندرية ثم إلى سفن البنادقة. وبالإضافة إلى ذلك، كان مضيق هرمز هو أضيق نقطة في الخليج العربي ولا يتجاوز عرضه ٣٠ ميلًا. وكان ألبوكيرك يدرك أنه إذا دانت له السيطرة على

هرمز، فسوف يغلق المضيق في وجه الجميع، باستثناء البرتغاليين. لم تكن شجاعة ألبوكيرك أو ثباته موضع شك، ولا يستطيع أحد التشكيك في روحه العالية، ولكنه كان رجلًا من ذلك الصنف الذي يسعى لاستثارة غضب خصومه، الذين صنع منهم الكثيرين.

كان قراره بالانطلاق من تلقاء نفسه قد أثار غضب ثلاثة من القباطنة الذين أبحروا معه وهم أنطونيو دو كامبو، وأفونسو لوبيز دا كوستا، ومانويل تيليس. استاء ثلاثتهم من فرضه سلطته وسخروا من قراره بالإبحار عبر الساحل العربي بدلًا من الذهاب إلى الهند للتجارة. ولكن أحدًا منهم لم يبلغ استياؤه من ألبوكيرك مبلغ استياء القبطان جواو دا نوفا، الذي سيصبح خصمه اللدود. لم يكن دا نوفا ينوي حتى مرافقة الأسطول. كان قد أبحر مع أسطول ألميدا في عام ١٥٠٥، واضطُر إلى الرسو في جزيرة موزمبيق لإتمام بعض أعمال الصيانة وهو في طريق عودته إلى وطنه. وفي أثناء وجوده هناك، وصل دا كونيا وألبوكيرك واستغل الأخير سلطته وأجبر سفينة القبطان دا نوفا، «فلور دي لا مار»، على الانضمام إلى سربه. لعل ذلك كان مبعث الاستياء، أو لعل دا نوفا، وقد عمل سابقًا تحت إمرة ألميدا، قد ساءه الآن أن يتلقى الأوامر من ألبوكيرك الفظ. هل تناهى إلى علمه ذلك القرار الذي بموجبه يحل ألبوكيرك محل ألميدا نائبًا للملك؟ أيًّا كان السبب، حينما غادر دا كونيا، تزعم دا نوفا مجموعة المنشقين الذين تمردوا ضد ألبوكيرك، وإلى هذه المجموعة انضم فرناو لوبيز. وحتى نفهم السبب وراء انقلاب لوبيز على ألبوكيرك (وهو ما سيؤدي لاحقًا إلى محنته)، يجب علينا العودة إلى الرجال الذين جمعهم ألبوكيرك لسفنه. في لشبونة، كان ألبوكيرك قد غضَّ الطرف عن نوعية أولئك الذين صعدوا إلى متن السفينة، وكان كثيرون منهم مجرمين أُطلق سراحهم من السجون شريطة الانضمام إلى الأسطول المُبحر إلى الهند. والآن أُطلق العِنان لهؤلاء الرجال في موانئ الساحل العماني، فعاثوا فيها فسادًا وأثاروا الفزع بين أهلها ونهبوها وأحرقوها من دون تمييز. وكان على رأسهم ألبوكيرك الذي يقود ست سفن تحمل ٤٠٠ رجل ويمضي ولديه شعور بأنه في مهمة إلهية. وفي ميناء قُريات الذي يبعد ٥٠ ميلًا تقريبًا إلى الجنوب من مسقط اليوم، أمر بإشعال النيران في القرية، وكانت «نيرانًا مستعرة لم تترك منزلًا ولا مبنى إلا أتت عليه، وحتى المسجد الذي كان واحدًا من أجمل المساجد التي رأتها عين إنسان على الإطلاق لم يَسلم». وحتى يبعث برسالة ترويع إلى هرمز إذا ما اختارت المقاومة، أرسل إليها مجموعة من الأسرى المسلمين، وقد أمر بجدع أنوفهم وقطع آذانهم. كان عملًا وحشيًّا لم يحقق أي هدف استراتيجي ولم ينبئ إلا عن مدى الكراهية التي يحملها ألبوكيرك للمسلمين. كانت الكراهية العميقة والحادة للإسلام هي أحد ثوابته في الحياة، وهي حقيقة انتبه لها أحد معاصريه:

كان هناك عملان يعتزم تنفيذهما. الأول هو تحويل مجرى النيل إلى البحر الأحمر، ومن ثَمَّ إجداب أراضي الترك الكبرى، أما الآخر فهو نقل رفات محمد البغيض [النبي محمد صلى الله عليه وسلم] من مكة، ثم حرقها أمام الملأ، عسى أن يبلبل ذلك عقيدة المؤمنين بهذا المهرطق الكريه.

كان البرتغاليون فيما يبدو يظنون أن مكة وليست المدينة المنورة هي المكان الذي يوجد به قبر النبي. وبالنسبة إلى لوبيز وغيره من أفراد الفيدالجو، كانت رؤية هذا العنف والتعذيب الذي لا طائل من ورائه صادمة. ولم يفهموا السبب وراء عدم إبحارهم إلى الهند حيث التجارة التي تنتظرهم. وعلى أي حال، فقد عانوا معاناة رهيبة في أثناء إبحارهم. فمَن مِنهم يأبه بهرمز؟

وفي ٢٥ سبتمبر ١٥٠٧، ظهر ألبوكيرك ومعه ست سفن تحمل نحو ٤٠٠ رجل قبالة جزيرة هرمز. وكانت في ذلك الوقت خاضعة لسلطة وصيٍّ أطلق عليه البرتغاليون اسم «كوجيتار» (وهي تحريف لـ«خواجة عطا»)، وكان يعمل بالنيابة عن ملك هرمز الشاب، الذي كانت مملكته في البر الفارسي تمتد حتى مياه الخليج. كان واضحًا أن كوجيتار علم بالفظائع التي ارتكبها البرتغاليون حتى الآن، وقرأنا في كتاب «تعليقات ألبوكيرك»، أن «الميناء كان يضم ما بين ١٥٠ و٢٠٠ سفينة شراعية ضخمة وقادس، فيما كان يوجد ٢٠ ألف رجل على الشاطئ». ومع ذلك، طلب ألبوكيرك، ورغم أنه كان الأقل قوة، من الوصي أن يدفع الجزية، وحينما لامه بعض أفراد الفيدالجو لاحقًا على كلماته التي تفتقر إلى الدبلوماسية، جاء رده المعهود: «أيها السادة، أنا لست بالرجل الذي يحقق هذه المهمة الكبيرة بالتصنُّع والعواطف». وبعد ثلاثة أيام من المفاوضات العقيمة هاجم البرتغاليون السفن الراسية في الميناء وقصفوا المدينة حتى تراجع الوصي وتعهد بدفع جزية قدرها ١٥ ألف قطعة زيرافين ذهبية سنويًّا، وأن يقدم هدية قدرها ٥ آلاف قطعة، ويسمح ببناء قلعة برتغالية. ومرة أخرى تحقق الانتصار الساحق بفضل الاستخدام الكثيف للمدفعية التي لم يكن لها مثيل على ظهر سفن كوجيتار. وتكشف نبرة الرواية البرتغالية للمعركة عن التفوق الكاسح لأسلحتهم النارية: «وعلى الرغم من أن الموريين حاولوا الثأر لأنفسهم فإن رجالنا كانت لديهم تحصينات دفاعية جيدة للغاية ولم يتمكنوا من إلحاق الأذى بهم، لولا أن سهامهم أصابت بعض مَن كانوا على سطح السفينة العلوي». ومع ذلك، لم يَسعد بهذا الانتصار البرتغالي جميع أفراد الفيدالجو الذين رأوا أن ألبوكيرك أرغمهم على القتال. ويظهر ذلك في «تعليقات ألبوكيرك» بطريقة غير مباشرة، حينما ذكر أن بعض القباطنة وأفراد الفيدالجو قالوا له:

إن لديهم أسبابًا كثيرة للشكوى منه، فقدومه إلى هرمز لم يكن بمشورتهم ولا بإرادتهم، ولكن أما وقد أصبحوا هناك الآن فإن عليهم إبرام اتفاق ما، نظرًا

إلى عدد الجند والسفن الموجودة بالميناء، لأنه لم يكن لديهم شك في أنهم جميعًا سوف يُقضى عليهم.

لم يُقضَ عليهم في واقع الأمر، وخرج ألبوكيرك من هذه المواجهة منتصرًا، ولكن غضبًا مكتومًا كان يوشك أن ينفجر لدى بعض أفراد الفيدالجو.

وتفاقم التوتر في أوساط هؤلاء الفيدالجو بعدما تناهت إلى علمهم أنباء مفادها أنهم بدلًا من التوجه إلى الهند، سوف يتعين عليهم الآن بناء قلعة في جزيرة هرمز، فاحتجوا مرة أخرى على ألبوكيرك قائلين:

سيؤدون خدمة أعظم للملك لو أنهم شقوا طريقهم وتربصوا للسفن القادمة من الهند محملة بالبهارات عبر المضيق، بدلًا من بقائهم لبناء قلعة سوف يستولي عليها الموريون فور مغادرتهم.

ومع تفاقم الغضب تصاعدت حدة الاتهامات المسيئة التي يوجِّهونها إلى ألبوكيرك من قبيل أنه لا يبني القلعة للملك ولكن لنفسه، لأنه لا ينوي العودة إلى البرتغال. وأما عن مسألة الجزية التي دفعها كوجيتار، فتساءلوا لماذا لم تُوزع فيما بينهم، ولماذا احتفظ بها ألبوكيرك لتُنفَق في بناء القلعة؟

في هذه المرحلة قرر أربعة من البحارة البرتغاليين مغادرة السفينة والفرار إلى معسكر المسلمين. لا تذكر السجلات أسماءهم ولكننا نعرف أنهم لم يكونوا من فئة الفيدالجو. لقد فروا غالبًا لأنهم كانوا على وشك أن ينالوا عقوبة على بعض الجرائم البسيطة، ولكن حالما وصل الخبر إلى ألبوكيرك، اعتل مزاجه واستشاط غضبًا. وأرسل على الفور مترجمه جاسبار رودريجيز إلى كوجيتار برسالة مفادها أن «أربعة مسيحيين ممن ألقي القبض عليهم لعقابهم على بعض الجرائم فروا إلى معسكره وأنه يود منه أن يتفضل ويردهم إليه». أجاب كوجيتار رودريجيز بأنه لا يعرف شيئًا عن هؤلاء وأنه سوف يردهم فور علمه بمكانهم. كان كوجيتار يعرف بطبيعة الحال مكانهم، ولكنه لم يشأ عندئذٍ أن يسلمهم. وبعد بضعة أيام تسلَّم رسالة غاضبة أخرى من ألبوكيرك تطالبه بإعادة الرجال، وفي هذه المرة أجاب كوجيتار بأنهم عُثر عليهم في البر الرئيسي، وقُيدوا من أيديهم وأرجلهم، وأُعيدوا إلى الجزيرة، وأنهم سوف يصلون إليه في غضون خمسة أيام. وانقضت الأيام الخمسة ولم يظهر للرجال أي أثر، ولكن الرسالة التالية من كوجيتار جاءت محملة بنبرة تهديد لأنه طالب الآن بالإفراج عن أسرى مسلمين في مقابل إعادة هؤلاء الرجال. لمح مترجم ألبوكيرك، رودريجيز، الرجال الأربعة في معسكر كوجيتار، وأبلغ ألبوكيرك الآن بأن «الفارين يرتدون ثياب الموريين ويضعون سيوفهم في أغمادها، وبدوا سعداء للغاية وكأنهم على يقين بأن أحدًا لن يسلمهم». إنها كلمات تبعث على حيرة شديدة، لأنها تكشف أن الرجال

الأربعة كانوا موضع ترحيب في معسكر المسلمين، ولكن لماذا قرروا ارتداء ثياب المسلمين؟

بدأ القباطنة في أسطوله الآن، وعلى رأسهم جواو دا نوفا، يتحدثون علانيةً عن ترك ألبوكيرك والإبحار إلى الهند وحدهم. شعروا بأنه يتبع هواه لا أوامر الملك، ورأوا أن ميله للعنف سوف يُفاقم الأوضاع. وفي يناير ١٥٠٨، تسلَّم ألبوكيرك رسالة موقَّعة من دا نوفا والقباطنة الثلاثة، ولكنها تعكس رأي كثيرين غيرهم، ومن بينهم لوبيز، وفيها عبروا عن اعتراضهم رسميًّا على سياساته في هرمز:

سيدي، نحن نعبر عن ذلك كتابةً، لأننا لا نجرؤ على التلفظ بفحواه، لأنك دائمًا تجيبنا بحدة وانفعال، وبالرغم من كل ما أخبرتنا به المرة تلو الأخرى بأن الملك لم يأمرك بأخذ مشورتنا، فإننا أمام عمل عظيم الأهمية، يجعلنا نعتبر أنفسنا ملزمين بإسداء النصيحة.

لم تكد النبرة الدبلوماسية للرسالة تخفي العداء الذي يضمرونه لألبوكيرك. كان كثيرون من أفراد الفيدالجو يشعرون بالذهول إزاء تصرفاته الفردية الاستبدادية، وبحسب المؤرخ جاسبار كورِيا، كان البعض يعتقد أن ألبوكيرك «ملعون وأن الشيطان تَلبَّسه». وقد استهجنوا بشدة قراره بإنفاق نصف الجزية التي حصل عليها من هرمز في بناء الحصن، وهو ما أشار بوضوح إلى اعتزام ألبوكيرك الاحتفاظ بمحطات عسكرية دائمة، على النقيض التام من سياسة نائب الملك ألميدا، الذي كان يركز كل جهده على التجارة البحرية. ظهر الآن فريقان: هؤلاء الذين يدعمون ألميدا وأولئك الذين يساندون ألبوكيرك. ومما زاد الموقف تعقيدًا أن ألبوكيرك كان قد وُعد سرًّا بمنصب الحاكم. وسرعان ما ساءت الأمور بين الفريقين، وحدث، في وجود لوبيز، أن استل ألبوكيرك سيفه ورفعه على دا نوفا، بل بلغ الأمر حد إلقاء القبض عليه بتهمة العصيان، قبل أن يُضطر إلى إطلاق سراحه بعد فترة وجيزة. ومع ذلك، فقد وقع الضرر وبلغ السخط حد الغليان حينما بعث ألبوكيرك برسالة تحذير إلى كوجيتار: «إذا وقفت في طريقي بأي حال، فسوف أقيم أسوارًا من عظام المسلمين، وسوف أعلق الآذان على الأبواب وأضع الراية فوق جمجمتك»، ثم أمر قباطنته، وهو ما أفزعهم، بأن ينزلوا إلى الشاطئ، ويُسمموا الآبار ويقصفوا الأسوار و«يقتلوا كل شيء حي». أصاب ذلك الأمر أفراد الفيدالجو باليأس، بل إنهم حتى طالبوا ألبوكيرك بإلغائه، لكنه لم يلتفت إليهم. وعلى نحو متزايد، لم يعد لوبيز وبقية الرجال يرغبون في طاعة قائد يرون أنه فقد صوابه و«لم يعد مؤهلًا لقيادة قارب تجديف، ناهيك بأسطول»، وانصرفت عنه مجموعة الفيدالجو المتمردون وأبحروا من تلقاء أنفسهم إلى الهند. لم يجد ألبوكيرك الغاضب بعد ذلك، وقد أصبح ما لديه من الرجال لا

يكفي لبناء الحصن، بدًّا من ترك هرمز والعودة إلى موقعه الذي استولى عليه مؤخرًا وهو سقطرى. ولكنه قبل أن يفعل، كتب إلى مانويل يبلغه بزيارة مثيرة للاهتمام قام بها في أثناء وجوده في هرمز:

وصلت ثلاثون مجموعة من الحيوانات المحملة إلى البر الرئيسي من شيراز... ويطلق على سكان هذا البلد اسم «أصحاب القلنسوات الحمراء». وهم أناس من أصول تركية ويجيدون ركوب الخيل... ويعتمرون جميعًا قلنسوات حمراء تحيط بها عمائم مورية... وهم أصحاب طباع جيدة ولديهم بشرة بيضاء كما بَشْرتنا. ويقال إنهم لا يؤمنون بمحمد بل بصهره عليٍّ، وهم طائفة منفصلة.

وسرعان ما بدأ البرتغاليون يميزون بين المسلمين السُّنة والشيعة.

كان فرناو لوبيز من بين قلة من أفراد الفيدالجو ممن تخلوا عن ألبوكيرك وأبحروا إلى الهند. ويمكننا أن نتخذ من هذا الحادث مؤشرًا لما سيحدث لاحقًا، لكن علينا أن نتوخى الحذر في ذلك. كان النبلاء كثيرًا ما يتشاجرون، ما يؤدي أحيانًا إلى اندلاع أعمال عنف كبيرة. وكما رأينا فقد تشاجر ألبوكيرك مع ابن عمه الذي أبحر في أسطول سابق، وتصادم أيضًا مع دا كونيا. ربما كان الخلاف بين ألبوكيرك وجواو دا نوفا خلافًا شخصيًّا، أو ربما كان يتعلق بسياسة البرتغال في المحيط الهندي، لكن المؤكد هو أن المواجهة في هرمز كانت مجرد بداية لعداء مكشوف. وأما لوبيز، فقد ظل إلى حدٍّ بعيد في الظل، يؤدي دورًا داعمًا للأبطال الرئيسيين. وسوف تظهر أهميته في وقت لاحق.

كان جواو دا نوفا يحظى بقيمة كبيرة لسبب آخر. ففي عام ١٥٠٢ كان مانويل قد أرسله في أربع سفن إلى الهند، وفي رحلة الذهاب اكتشف على سبيل المصادفة جزيرة في جنوب المحيط الأطلسي. وبدا أن موقع الجزيرة ملائمًا؛ كما كتب مؤرخ برتغالي معاصر:

يبدو أن الله خلق هذه الجزيرة في هذا الموقع، كي يُطعم منها جميع العائدين من الهند... لأن بها أعذب المياه على طريق الرحلة بأكملها أو على الأقل الأكثر ضرورة التي يحتاج إليها المرء في رحلة العودة من الهند.

وتذهب بعض التقارير إلى أن البرتغاليين أقاموا كنيسة هناك، وإن لم يعد لها أي أثر ظاهر الآن. ولم يهتموا بتحصين الجزيرة، كما لم يُقيموا أي مراكز استيطانية دائمة بها. ويبدو أنهم لم يجدوا حاجة إلى ذلك، لأن الجزيرة لم تكن لها أي فائدة تُذكر عدا كونها محطة توقف في طريق العودة من الهند. وكما جرت العادة، فقد سمَّى الجزيرةَ القبطانُ الذي اكتشفها، ولأن يوم الاكتشاف تزامن مع الاحتفال بيوم عيد والدة الإمبراطور قسطنطين العظيم، فقد أسمى جواو دا نوفا الجزيرة «سانت هيلانة».

والآن، وبعد خمس سنوات من هذا الاكتشاف، أبحر جواو دا نوفا وفرناو لوبيز إلى الهند. ورغم أن أحدهما لم يكن يعرف الآخر، فقد كان يربط بين مصيرَيهما رباط غريب؛ فأحدهما سوف ينال شهرته بصفته مكتشفًا لجزيرة معزولة كانت في غياهب المجهول، فيما ستكون هذه الجزيرة نفسها موطنًا للثاني ومنتهاه.

الرحلة الثانية

ثم حلَّت من على الصَّدر النطاق

معلم الطرز موشى بانتساق

تعلق اللذات في أكنافه

من هوى نفسٍ ووجدٍ واشتياق

وأطاريف الحديث المستطاب

وبه من كل خلاب الشعور

منطقٌ يعبث بالشيخ الوقور

هوميروس، «الإلياذة»، ترجمة سليمان البستاني

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع

بحيرة إسلامية

عند كتابة التاريخ، وحدهم المؤرخون قليلو الخبرة هم مَن يُسلِّمون بالحقائق تسليمًا من دون تمحيص. أما الباحثون المتمرسون فهم يقاربونها، وهم يبحرون عبر بحارها، بالطريقة نفسها التي يقارب بها قباطنة السفن الصخور الجليدية بحذر وحيطة، لأنهم يدركون أي ضرر يمكن أن تُلحقه حقيقة مستعصية بقصتهم. في الفصول السابقة، تناولنا قصة الملاحين البرتغاليين العظماء وما تحلّوا به من جرأة وشجاعة وثبات أدى إلى نجاحهم في الدوران حول رأس الرجاء الصالح، واكتشافهم طريقًا جديدًا إلى الهند لم يكن معلومًا من قبل، وهو ما كان إيذانًا ببَدء عصر جديد.

ولكن حان الآن الوقت كي نروي قصة مختلفة، لعلها أكثر درامية، وهي تبدأ بحقيقة. حينما وصل فاسكو دا جاما ورجاله إلى الهند في عام ١٤٩٨، بعد رحلة ملحمية قطع خلالها أكثر من ١٢ ألف ميل، كان في استقبالهم في ميناء كاليكوت (في ولاية كيرالا الحالية) شخصان من شمال أفريقيا يتحدثان اللغة الإسبانية واللغة الجنوية. وأما الحقيقة فهي أن دا جاما حينما دار حول رأس الرجاء الصالح وأبحر عبر الساحل الشرقي لأفريقيا كان يزور عالمًا معروفًا وليس مكتشفًا. وحينما أبحر إلى الهند قادمًا من شرق أفريقيا، كان يبحر في جزء من العالم خَبِره التجار العرب منذ مدة طويلة. بل ليس العرب وحدهم: فقبل قرابة قرن من إبحار دا جاما من لشبونة، نظم الأدميرال الصيني المسلم الشهير تشنج هو سبع رحلات بحرية، ضمَّت نحو ١٠٠ سفينة و٣٠ ألف رجل، للوصول إلى شرق أفريقيا والخليج العربي ومصر وجزيرة سيلان. وهذا يعني أن العصر الجديد الذي بشَّر به اكتشاف الهند، لم يكن جديدًا إلا بالنسبة إلى الأوروبيين، الذين كانوا لا يزالون معزولين جغرافيًّا وفكريًّا إلى حدٍّ ما. ولعل أحد الأسباب التي جعلت الكشوف الأوروبية بالغة الأهمية هو أن الأوروبيين كانت لديهم أجزاء كثيرة من العالم يتعين عليهم اكتشافها. أما المسلمون فكانوا يعرفونها بالفعل منذ قرون.

كان البرتغاليون يعرفون المسلمين، ويعرفون أنهم لا يحملون لهم ودًّا. وعلى مدى قرون، كانوا يقرأون تاريخهم باعتباره مواجهة مع الإسلام، ويرون مشاريعهم الاستعمارية امتدادًا للحملات الصليبية. وقد منحت المراسيم البابوية أعمال ملوك البرتغال الشرعية التي تحتاج إليها، فيما غرس «فرسان المسيح» روح الحرب المقدسة في قلوب طبقة النبلاء. والآن، وبعد أن تم لهم طرد المسلمين من شبه الجزيرة الإيبيرية، وبعد أن سلبوا ونهبوا قرى ومدن المسلمين عبر الساحل السواحيلي الذهبي وقتَّلوا رجالهم ونساءهم، اكتشف البرتغاليون، لدى وصولهم إلى الهند، مجتمعًا تجاريًّا مزدهرًا ونشِطًا،

ولكنه يتخذ من مكة قِبلة لصلاته، ومن الدينار عُملة رئيسية لمعاملاته. وأينما وَلّوا وجوههم، كان البرتغاليون يرون تجارًا مسلمين: في ملقا التي ترتبط مع جوچارات، وعبر ساحل مالابار، وفي البنجال وفي بورما. ولكن أيضًا في الخليج العربي وجنوب الجزيرة العربية والبحر الأحمر وجزر المالديف وساحل شرق أفريقيا، وفي موانئ كاليكوت وموميای وهرمز وكيلوا. بدا لهم أن المسلمين موجودون في كل مكان، وهو ما علّق عليه برتغالي معاصر بطريقة لا تخلو من الدعابة: «وأعدادهم تضاهي في كثرتها عدد الطرابيش في تونس». وفي مطلع القرن السادس عشر، كتب مؤرخ برتغالي عن المحيط الهندي يقول: «والناس يبحرون فيه أكثر من كل بحار الدنيا بسبب البيت العتيق [في إشارة إلى الكعبة] وزيارة النبي». واعتاد المسلمون أن يبحروا في هذا المحيط بجأش رابط، وقد عبر الجغرافي والرحَّالة ابن جُبير في القرن الثاني عشر عن إعجابه بالمهارات الملاحية التي يتمتع بها البحارة:

ولاحظنا براعة هؤلاء القباطنة والبحارة في التعامل مع سفنهم حينما تواجهها الشعاب المرجانية. يا له من أمر رائع حقًّا. كانوا يدخلون إلى القنوات المائية الضيقة ويشقون طريقهم عبرها كفارس يمتطي صهوة جوادٍ رشيق ويمسك باللجام.

وإذا كان بول ريكوت يحسب أن الله أعطى «البحر للمسيحيين والبر للمسلمين»، فلعله كان ينظر إلى عرب الصحراء وإبلهم، وكما قال الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز: «إن البر والبحر لله جميعًا، وقد سخرهما لعباده يبتغون فيهما من فضله».

قبل وصول البرتغاليين، كان المحيط الهندي في حقيقة الأمر «بحرًا مغلقًا» لا يُسمح للهندوس في واقع الأمر بالإبحار فيه، نظرًا إلى أن الهندوسية كانت تحظر على أبناء الطبقات العليا ركوب البحر، وكان البراهمة الذين يفعلون ذلك يُستبعدون من الأعياد الدينية. وهكذا كان المسلمون هم الذين يتنقلون عبر المحيط مع تجارتهم، تحملهم الرياح الموسمية، حيث أوجدوا نظامًا متجانسًا ومريحًا يُحمل خلاله الذهب من زيمبابوي إلى الساحل في صوفالا، ويُنتج العسل في البحرين ثم يُنقل إلى الصين (كان عسل التمر سلعة مشتهاة للغاية في الصين، ويحظى بإقبال واسع في أوساط الحجاج البوذيين الذين يسافرون إلى الهند). وكانت هرمز ترتبط عبر طرق التجارة بمدينة تبريز وأسواق آسيا الوسطى، وهي نقطة أشار إليها كلٌّ من ماركو بولو وابن بطوطة. فقد فتحت مدينة ديو الهندية الباب أمام منطقة جوچارات المعروفة بتصديرها المنسوجات القطنية والحريرية، فيما أتاحت كوشين إمكانية الوصول إلى فلفل مالابار، وكانت ملقا (وهي في ماليزيا الحديثة) هي مفتاح أسواق جنوب شرق آسيا. وأشار أحد التجار في اليمن في كتاباته، قبل ٢٠٠

عام من وصول البرتغاليين إلى الهند، إلى أن لديه ١٥٠ حِمْل بعيرٍ من البضائع و٤٠ من العبيد، وأنه يود الآتي:

أن أنقل الزعفران الفارسي إلى الصين حيث يغلو ثمنه، وأن أحمل الأطباق من الصين إلى اليونان، والإستبرق اليوناني إلى الهند، والحديد الهندي إلى حلب، وزجاج حلب إلى اليمن، ومواد اليمن إلى بلاد فارس.

وفي عصر لوبيز، كان أمهر التجار في العالم يأتون من جوچارات. «نحن نعتبر أنفسنا أكثر أهل الأرض فطنة، ولكن الناس هنا يفوقوننا في كل شيء»، هكذا كتب تاجر من فلورنسا في عام ١٥١٠. «يمكنهم إجراء عمليات حسابية بالذاكرة أفضل مما نستطيعه نحن بالقلم». أما الطبيب البرتغالي تومي بيريز، الذي عاصر لوبيز وألَّف كتاب «سوما أورينتال» ـ وهو سجل مباشر ورائع عن التجارة والجغرافيا وعلم النبات في جزر الهند ـ فقد أوصى بوضوح «هؤلاء الذين يريدون أن يصبحوا كَتبة أو وسطاء بأن يذهبوا إلى جوچارات ويتعلموا، لأن أعمال التجارة بها علمٌ يُدرَّس».

لم يكن الإسلام بطبيعة الحال بالدين الذي يجهله البرتغاليون. فقد احتوت أول مدونة للقوانين في البرتغال صدرت عام ١٤٣٨، على قسم كامل لقواعد الميراث بين المسلمين وفقًا لمذاهبهم. وفي عام ١٥٢٩، كان أول ظهور لكلمة «سُنَّة» في اللغة البرتغالية، أما كلمة «شيعة»، ورغم أن ظهورها في اللغة لم يُسجَّل قبل عام ١٥٥٣، فقد كتب ألبوكيرك في عام ١٥٠٨ من هرمز يقول: «وهؤلاء الناس يقولون إنهم لا يؤمنون بمحمد، وإنما بصهره عليٍّ». ومع ذلك لم يستطع خطاب الحرب المقدسة ضد الإسلام لدى البرتغاليين، وحرب الاسترداد، وتطلعهم الدائم لتحرير بيت المقدس، أن يُخفي حقيقة أنهم يجهلون الحياة الدينية والثقافية للمسلمين الذين يواجهونهم الآن عبر المحيط الهندي ولا يكترثون بها إلى حدٍّ بعيد، وقد أصبحوا على نحو غريب عدوًّا مجهولًا. ويُعزى ذلك إلى حدٍّ بعيد إلى حقيقة أن البرتغاليين لم يبذلوا سوى جهد ضئيل للحفاظ على إرثهم الإسلامي. وبالرغم من أن البرتغال بقي بها بعض الناطقين بالعربية، فإنه يبدو أن حالة من فقدان الذاكرة الجماعية فيما يتعلق بالإسلام قد أصابت البرتغاليين بحلول منتصف القرن الخامس عشر. وحينما أراد العالِم الفلامندي نيكولاس كلينيرتس، الذي عاش في البرتغال في مطلع ثلاثينيات القرن السادس عشر (١٥٣٠)، أن يتعلم اللغة العربية لم يفلح في العثور على معلم، ويبدو أن الفئة الوحيدة التي تابعت دراستها في اللغة هي تلك التي تعمل بمهنة الطب. ومن المفارقات المثيرة أنه خلال فترة التوسع البرتغالي في المحيط الهندي، كانت إيطاليا تضم مخطوطات عربية وإسلامية تفوق في عددها ما يوجد في إسبانيا أو البرتغال. ولذلك لم يكن البرتغاليون جاهزين للتعامل مع المشهد اللغوي المعقد الذي

استقبلهم في المحيط الهندي، حيث كانت اللغة العربية وهي لغة التواصل المشترك، مفتاحه. لكن هذا المفتاح كان يتطلب منهم مهاراتٍ قديمة انصرفوا عنها صَلَفًا وغرورًا حتى طواها النسيان إلى حدٍّ بعيد.

حينما سافر كريستوفر كولومبوس إلى الأمريكتين ونزل في جزر الكاريبي عام ١٤٩٢ كان مقتنعًا بأنه وصل إلى الشرق الأقصى. أما فاسكو دا جاما حينما نزل في كاليكوت عام ١٤٩٨، فكان يعرف أنه وجد الهند. ولكن الهند التي اكتشفها دا جاما كانت مستوحاة بقوة من الصور الكلاسيكية التي رسمها هيرودوت وإسخيلوس، وتتميز بوفرة الذهب والأشخاص الوحشيين مثل الأقزام وساكني الكهوف والنساء المحاربات. كانت هذه هي الهند الواقعة عند أطراف الدنيا وحدود الخيال الإنساني. وكان لوبيز، شأنه شأن العديد من البرتغاليين، قد قرأ بشغف رحلات ماركو بولو، واستند في قدر كبير من معرفته بهذه الأرض التي في انتظاره إلى تصوراته الفانتازية. ولم تكن جاذبية الهند لدى لوبيز تعود فقط إلى ما يُعرف عنها من وفرة التوابل، ولكن أيضًا لأن المرء كان يجد بها أودية من الألماس وطيورًا ضخمة وأفاعي تحرس ثروات طائلة وبشرًا لهم ذيول. في هذه الهند كان المرء يجد حبات اللؤلؤ في حجم بيض الحمام، والياقوت بحجم كبير تحتاج معه الواحدة إلى أربعة من الرجال لحملها، وهي ذات لمعان شديد حتى إن المرء إذا وضعها على أعمدة سريره فإنها تغنيه عن الشموع. وكانت هي الأرض التي يستطيع البحارة البقاء بها تحت المياه لثلاث ساعات حتى يتمكنوا من إصلاح عارضة سفينة، ولا تُبنى بعض قواربها بمسامير حديدية لأن قاع البحر مشَكل من الحجر المغناطيسي.

وبالرغم من أن العالم كان على أعتاب عصر النهضة الإنسانية والمعرفة التجريبية والمبادئ العلمية، وفي سبيله للاستفادة من أعمال الجغرافيين ورسامي الخرائط، كان البرتغاليون لا يزالون يتمسكون بعلم الكونيات الذي ساد في العصور الوسطى ويؤمنون بالأساطير والخرافات. كانت الهند في مخيلتهم هي تلك التي تقع في الطرف الآخر من العالم، وهي التي جاء منها سندباد وحكايات «ألف ليلة وليلة» (وُجدت ترجمات إسبانية لقصص «السندباد» منذ منتصف القرن الثالث عشر). ومع ذلك، من الصعب تبرير هذا الجهل، لأن الهند، وبالرغم من الآلهة المتعددة والأساطير المبهجة وتناسخ الأرواح الذي لا نهاية له، لم تكن قَطُّ دولة منغلقة مثل اليابان في عصر ما قبل ميجي مثلًا. ويتميز تقرير بندقي عن الهند يعود تاريخه إلى عام ١٤٤٤، بدرجة مدهشة من الدقة، حيث يصف طبقة البراهمة الدينية ومالابار الأمومية وتعدد الأزواج، ومملكة فيجايانَجار وحاكمها متعدِّد الزوجات وعادة «الساتي» (وهي تقليد تحرق بموجبه الأرامل أنفسهن رفقة أزواجهن الذين تُحرق جثامينهم في المحارق الجنائزية)، والفيلة والمانجو، بالإضافة إلى أمور أخرى

ذات أهمية تجارية. ومع ذلك، حينما اصطَحب دا جاما ورفاقه إلى معبد هندوسي في كاليكوت، حسبوه كنيسة، وأدوا الصلاة أمام تمثال ظنوه لمريم العذراء. وأوضح كاتب التقرير: «ورُسمت على جدران الكنيسة صور العديد من القديسين الآخرين، وهم يرتدون التيجان». وكانت لدى بعض هؤلاء القديسين «أسنان بارزة بمقدار بوصة من الفم، ولهم أربع أذرع أو خمس». وحتى ذلك الحين، يبدو أن البرتغاليين لم يكونوا يشكون في أن ثمة خللًا يعتري إدراكهم هذا. لقد وصلوا إلى الهند وهم مقتنعون أن سكانها يتألفون من مسلمين ومسيحيين وافترضوا أن الهندوس مسيحيون مشرقيون، بالرغم من أن طقوسًا مثل «ساتي» واتباع الحمية الغذائية النباتية أثارت على الأغلب استغرابهم. وكتب فاسكو دا جاما بثقة كبيرة يقول: «ومدينة كاليكوت يسكنها مسيحيون». لم تكن كذلك بالطبع، ولكن يجب أن يلاحَظ أيضًا أن الهنود أنفسهم انتابهم القدر نفسه من الحيرة إزاء هذا الوصول المباغت للبرتغاليين، وحسبوهم في أول الأمر مسلمين من العجم ولا يستطيعون بطريقة أو بأخرى التحدث بالعربية. ولم يدرك البرتغاليون إلا بعد حملة ثانية في عام ١٥٠١ أن غالبية سكان الهند ليسوا مسيحيين ولا مسلمين. ولأنه كان واضحًا أنهم ليسوا يهودًا، فقد وصفهم البرتغاليون بأنهم وثنيون «يعبدون الشمس والقمر والبقر».

* * *

حينما حان الوقت لكتابة الكلمة الأخيرة في سيرة الدوم فرانسيسكو دي ألميدا، أول نائب للملك في الهند، جاءت عبر جملة بسيطة ومؤثرة، وهي: «هنا يرقد الدوم فرانسيسكو دي ألميدا، نائب الملك في الهند، الذي لم يكذب أو يفر قَطُّ». وهناك إجماع بأن ألميدا كان نزيهًا، ولعل هذا هو السبب الذي جعل مانويل يعينه أول نائب له في الهند. كان ألميدا من أبناء طبقة النبلاء ذوي المكانة الرفيعة، وحينما انطلق إلى الهند كان أرملَ ثريًّا وعمره ٥٥ عامًا، وهي سن متأخرة نسبيًّا لمن يخوض غمار مثل هذه الرحلة الشاقة. وبينما كانت جاذبية الهند لدى العديد من البرتغاليين تكمن في الثروة الموعودة، فإن نيل الشرف كان هو الدافع الذي حرَّك ألميدا. أمره الملك للمرة الأولى بالسيطرة على الساحل السواحيلي وبناء الحصون في مدن كانانور وكويلون وكوشين. لكن مانويل أعطى ألميدا تعليمات أخرى: «شُن الحرب عليهم ودمِّر كل شيء تدميرًا، واستعن بكل وسيلة ممكنة في البر أو البحر حتى تدمر كل ما يمكن تدميره». وأعلن ألميدا أن الإمبراطورية هي سفينته، وعلى الرغم من أنه كان قد أعلن أنه مؤسس «الإستادو دا إنديا»، فإن نائب الملك كان مندهشًا من هذا الزعم، إذ لم تكن لديه رؤية كبيرة لإنشاء إمبراطورية برية أو حتى محطات دائمة للبرتغاليين في الداخل. وباستثناء بعض البعثات الدبلوماسية التي تُرسل من حين لآخر، فقد انحصر وجود البرتغاليين تحت

قيادة ألميدا في المناطق الساحلية، ومارسوا التجارة حيثما أمكنهم ذلك، واقتصر الأمر على شراء التوابل وشحنها في السفن، من دون أن يكلفوا أنفسهم عناء استكشاف بقية المحيط الهندي أو المشاركة في التجارة المحلية. ولعل هذا هو السبب الذي جعل مانويل، المعروف بأنه مذبذب الرأي، ينقلب تدريجيًّا على ألميدا ويعيِّن ألبوكيرك في منصبه.

حينما تخلى فرناو لوبيز وجواو دا نوفا عن ألبوكيرك في مهمته لإخضاع هرمز، وأبحرا إلى كوشين التي اتخذها ألميدا مقرًّا له، كانا يعلمان أنهما سوف يحظيان باستقبال حار وسيجدان آذانًا مُصغية. وبالرغم من أنه لا يوجد ما يؤكد إذا ما كان لوبيز تعرَّف على ألميدا في لشبونة أو لا، فإن المؤكد هو أن جواو دا نوفا كان يعرفه جيدًا، لأنه أبحر إلى الهند مع نائب الملك في عام ١٥٠٥. ومع ذلك، بدا ألميدا الذي رحَّب بدا نوفا ولوبيز عند وصولهما إلى كوشين حزينًا مهمومًا لمصيبة حلَّت به. فقبل بضعة أسابيع كان الأسطول المملوكي، الذي أشرنا إليه آنفًا بأنه كان يشق طريقه عبر البحر الأحمر، قد ألحق هزيمة فادحة بقوة برتغالية قبالة منطقة ديو (بالقرب من مومباي الحالية)، وهي مواجهة قُتل خلالها ابن ألميدا دوم لورنزو دي ألميدا. نزل خبر وفاة الابن كالصاعقة على ألميدا، وبقي عدة أيام حبيس غرَفه، ورفض أن يقابل أو يتحدث إلى أي أحد. وحينما ظهر أخيرًا، كان الهدوء يخيم على ملامحه وسلوكه. لم يجد لوبيز وبقية أفراد الفيدالجو الحاضرين صعوبة في ملاحظة أن كلمات نائب الملك كانت مفعمة بالرغبة في الثأر. وبحسب جاسبار كوريا فقد قال لرجاله: «من أكل الفرخ، فعليه أن يأكل الديك، أو يدفع الثمن». كان يشعر بنيران متقدة في صدره، تؤججها كراهيته للمسلمين ورغبته في أن يثأر وينتقم منهم شر انتقام. بدأ ألميدا في التحضير لمعركة جديدة سوف تحدد مصير البرتغاليين في الهند، وهي معركة كان مستعدًّا للموت في سبيلها. ومع ذلك، فقد حان وقت هبوب الرياح الموسمية وموسم الأمطار. وخلال فترة التحضير لهذه الحرب، تحدث دا نوفا ولوبيز مع ألميدا عن ألبوكيرك وعن حماقة إنشائه حصنًا في هرمز. وتحدثا أيضًا عن وحشية ألبوكيرك والفظائع غير المبررة التي يرتكبها. وبينما كان الرجال يتحدثون، كانت تتدفق خلال أحاديثهم قصص الشجاعة وشرب النبيذ، فيما تزداد حكاياتهم جموحًا. وتجاسر أحد الرجال قائلًا: «إن خطر أفونسو دي ألبوكيرك على الهند أكبر من خطر التُّرك عليها»، فيما أقسم آخرون إنهم سوف يغادرون الهند كي لا يعملوا في خدمته. استمع ألميدا إلى كل هذا ولكنه لم يعلق بكلمة، إذ كان عقله في وادٍ آخر، ويتساءل: هل كان يمكن إنقاذ ابنه لو أن ألبوكيرك لم يصر على بناء حصنه في هرمز وأبحر بدلًا من ذلك لمواجهة الأسطول المملوكي؟ وحينما استأذن أفراد الفيدالجو بالانصراف في النهاية، بقي ذلك التساؤل واستقر في ذهن ألميدا.

وبعد مُضي بضعة أشهر، في أواخر عام ١٥٠٨، ومع انحسار الرياح الموسمية، أصدر ألميدا أخيرًا الأمر بالإبحار، ولكن سرعان ما شوهدت سفن ألبوكيرك تقترب من كوشين. كانت سفينة ألبوكيرك، المسماة «سيرن»، ورغم أنها غادرت لشبونة في حالة ممتازة قبل سنتين ونصف، فقد غمرتها المياه الآن وأصبحت الأسماك تسبح في مخزنها. كان ألبوكيرك، الفظ بطبيعته، قليل الكلام: ألقى التحية على ألميدا وقدَّم له من فوره خطاب تفويض من مانويل وطالبه بمنصب الحاكم لنفسه. أدرك ألميدا أنه لا يستطيع عصيان أوامر الملك، وأنه ليس لديه سبب وجيه لذلك، ولكنه لا يمكنه أن يترك الهند من دون أن يثأر أولًا لمقتل ابنه. وفي صباح اليوم التالي، رفع ألميدا المرساة لثماني عشرة سفينة تحمل ١٥٠٠ رجل، كان لوبيز من بينهم، وأبحر لمطاردة أسطول المماليك، تاركًا ألبوكيرك وراءه. كان ألميدا يعرف أنه عصى أوامر مانويل، ولكن رغبته في الانتقام كانت جارفة ولا يمكنه كبحها. وكان فيما مضى قد اتهمه الملك بأنه حذر أكثر مما ينبغي، ولكن ها هو الآن قد قرر أن يثأر لابنه بنفسه. أما ألبوكيرك فيمكنه الانتظار. وحتى مانويل يمكنه الانتظار. أبحر ألميدا شمالًا، موسعًا النفوذ البرتغالي خلال ذلك، حيث كان يُخضع البلدات التجارية التي يمر بها لهذا النفوذ، وبحلول ديسمبر ١٥٠٨ وصل إلى دابهول، وهي بلدة تجارية مسلمة معروفة بثرائها. وهنا وجد ألميدا فرصته: أولًا لتدريب رجاله على المعارك التي تنتظرهم، وإرسال رسالة إلى العدو. أصدر تعليماته إلى رجاله: «بثُّوا الرعب في قلب العدو الذي تطاردونه حتى تستولي عليهم الصدمة تمامًا». تسبب ما جرى في ذلك اليوم في رعب تعجز عن وصفه الكلمات. لم يكن بمقدور دابهول، بالرغم من أن ٦ آلاف رجل استبسلوا في الدفاع عنها، أن تتحمل الهجوم البرتغالي، وأعقبت ذلك مذبحة لم تميز بين أحد، وقُتل فيها الرجال والنساء، وذُبح العجائز الذين كانوا يختبئون من الخوف، وانتُزع الأطفال من أيدي أمهاتهم المرتجفات، وقُذفوا بقوة في جدران المباني. وحينما قُتل جميع المسلمين، رُصت الجثث واحدة فوق أخرى في هيئات بشعة، وبعد ذلك قُتل جميع الحيوانات من كلاب وأبقار وأغنام وماعز. في ذلك اليوم، انقض لوبيز على ساكني دابهول وقَتل منهم نفرًا كثيرًا، فيما كان أنفه يشتم رائحة الدم وهو يحمل درعه اللامعة تحت أشعة الشمس. لكن ذلك لم يكن كافيًا لإشباع روح الانتقام لدى البرتغاليين، فطلب ألميدا من رجاله إحراق المدينة، لأنه، وبحسب تعبير هنري الخامس: «الحرب من دون حرق تشبه النقانق من دون خردل». استعرت النيران في دابهول حتى كاد رجاله يتقيأون من رائحة اللحم المحترق، ولم يبقَ منها سوى رماد وجنون.

كان الهجوم الشرس الذي شنَّه البرتغاليون في دابهول هو التكتيك الحربي المفضل لديهم، ويسعون من خلاله لمباغتة عدوهم وإخضاعه في أقصر وقت

ممكن. كانت الهجمات نفسها تفتقر إلى حدٍّ بعيد إلى التنظيم، فكل فرد يهاجم العدو وحسب، ويطلق النيران من دون تنسيق جماعي واضح. وكان الجنود يشنون هجماتهم عن طريق الاندفاع، لا يحركهم سوى إغراء النهب، ولكن تحركهم أيضًا الرغبة، لا سيما بين النبلاء، في المشاركة في أعمال الشجاعة والمخاطرة لنيل الشرف. وإذا فاقت شجاعتهم الفردية شجاعة غيرهم، فلا بد أن تلك الجسارة سوف تكون موضع تقدير. وغالبًا ما تنجح هذه الهجمات في بث الرعب في قلوب العدو، ولكن افتقارها إلى التنظيم كان يؤدي أيضًا إلى كوارث عسكرية. ففي إحدى المرات في عام ١٥١٠، وخلال هجوم على كاليكوت بقيادة فرناو كوتينيو، أدى انعدام التنظيم لدى البرتغاليين الذين تشتتوا بسبب رغبتهم في الفوز بالأسلاب، إلى مقتل العديد منهم حينما شن الهنود هجومًا مضادًّا. وفي مرة أخرى، في عام ١٥١٣، شاع في صفوفهم الاضطراب والهيجان وهم يتسلقون أسوار عدن حتى تكسرت السلالم الخشبية وأخفق الهجوم. من المؤكد أنها كانت أعمالًا باهرة، أما هل كانت حربًا؟ فهذه مسألة أخرى.

كان لوبيز يرى أن الفروسية عمل ينبغي نيله في ساحات المعارك، وأنه لكسبها لا بد من أداء أعمال بطولية لا تكتنفها المخاطر وحسب، ولكن يصحبها أيضًا التهور والاندفاع. كان من الضروري للمرء أن يخاطر بحياته، لأن الفروسية أعظم من الحكمة التي تقول إن المرء ينبغي ألا يجازف مجازفات خطرة وغير ضرورية. كان ذلك يدفع النبلاء الشباب للاستبسال في القتال ومواجهة أصعب الظروف، بل والإقدام على أعمال انتحارية حينما يشتد وطيس المعارك. كان ذلك يؤدي أيضًا إلى عمليات قتل ونهب مسعورة، لأن هاتين المأثرتين كانتا أيضًا من علامات الفروسية في أعلى درجاتها. وبالإضافة إلى كونها معيارًا للسلوك، كانت الفروسية معيارًا للعنف. لم يكن يُنظر للعنف باعتباره جزءًا ضروريًّا من الحياة فحسب، ولكن أيضًا جزءًا أخلاقيًّا ومطلوبًا من أجل ترسيخ الحقيقة واجتثاث الهرطقة. وحسبما يقول القديس أوجستين، هب أن رجلًا أصيبت ساقه بالغنغرينة، وأنها آخذة في الانتشار، وأنه يوشك أن يموت، وأن الطريقة الوحيدة لإنقاذ حياته هي بتر ساقه. وبالتالي سوف يتعين ربط الرجل إلى طاولة وقطع ساقه. إن ذلك عمل من أعمال العنف. لكن هل العنف هنا من أعمال الشر؟ وهنا حاجج القديس أوجستين بأنه ليس شرًّا، وإذا كان الأمر كذلك، وأن هناك استثناءً واحدًا لفكرة أن العنف يمكن أن يكون عملًا من أعمال الشر، فإن العنف في حدِّ ذاته لا يمكن أن يكون شرًّا في جوهره. هيمن مفهوم أوجستين هذا على عالم لوبيز. قد يكون العنف شرًّا، ولكنه يمكن أيضًا أن يكون قوة للخير. وبهذه الطريقة، ندم قاضٍ فرنسي شهير عاش في القرون الوسطى لتساهله حينما قضى بجلد أطفالٍ صغار اتُّهموا بالسحر بدلًا من الحكم بحرقهم، وهم يشاهدون حكم الحرق يُنفذ

في آبائهم. ويجب أن يُفهم العنف أيضًا في سياق الحدود التي ترسمها الثقافات التي تفصل مجموعة عن أخرى، سواء على أسس دينية، كما هي الحال بين المسيحي والمسلم أو بين صاحب الإيمان القويم والمهرطق، أو على أسس اقتصادية أو اجتماعية، مثل التمييز بين الطبقة الأرستقراطية والفلاحين. وبالإضافة إلى تنفيذ هذه المآثر، لم يكن تدوينها أقل أهمية أيضًا. ولهذا السبب تجشم المؤرخون البرتغاليون عناءً كبيرًا كي يقصوا علينا تفاصيل عُنف رهيب، كانوا غالبًا، يجب أن نقول، ما يُضخِّمونه. وكانت هذه التفاصيل، التي تبلغ ذروتها بترسيم الفارس، تُتلى ضمن المراسم التي تُقام في قصر الملك أو في قصور كبار النبلاء.

في فبراير من عام ١٥٠٩، أي بعد شهرين من معركة دابهول، نال ألميدا ثأره من الأسطول المملوكي حينما سحقه في معركة ضخمة في ديو. كان نصرًا مهمًّا، بل ومن الناحية التاريخية كشف بالفعل للمسلمين أن البرتغاليين جاءوا إلى المحيط الهندي كي يبقوا، ولكنه أيضًا نصر أعقبه سفك هائل للدماء، لأن ألميدا أمر الآن بأن تُقطع أيدي وأقدام جميع أسرى المسلمين ثم يُلقى بهم أحياءً في محرقة كبيرة. وعلى سبيل التسلية كان بعضهم يُربط على فوهة المدافع كي تمزق قوة الانفجار أجسادَهم. ثم أعدم آخرين وترك جثثهم معلقة في صواري السفن المبحرة في طريق عودتها إلى كوشين. وحينما تم له النصر، وبعد الاحتفال به، رسم ألميدا الذين قاتلوا معه بشجاعة فرسانًا، ومن بينهم فرناو لوبيز الذي أبحر إلى الهند آملًا في نيل هذا اللقب. عزز انتصار ألميدا قوة البرتغال في المحيط الهندي، ولكن في أثناء ذلك سفك رجاله من الفيدالجو دماءً كثيرة، والدم المسفوك لا ينام أبدًا. وسوف يظل يثير مشاعر الحزن والأسى لدى المسلمين لزمن طويل، بل سيطارد بعض البرتغاليين في أحلامهم حتى يحين يوم مماتهم.

بعد الانتصار الدموي الذي حققه ألميدا، عاد مظفرًا إلى كوشين حيث وجد ألبوكيرك في انتظاره على الشاطئ كي يهنئه أولًا ثم يتولى منصبه أخيرًا. ولكن ربما بشجاعة استمدها من نصره الساحق، وبسبب الدماء التي كانت تغلي في عروقه، لم يُعرض ألميدا عن ألبوكيرك ويتجاهله وحسب، متذرعًا بأن مغادرة الهند قد فات أوانها هذا الموسم، وإنما خالف أوامر الملك مخالفةً صريحة وأمر بتوجيه تهمة إساءة تصريف الأمور إلى ألبوكيرك ووضعه قيد الإقامة الجبرية. في واقع الأمر، لم يكن الحبس يمثل أي مشقة لألبوكيرك الذي بالرغم مما عُرف عنه من حدة المزاج وشدة الغضب وكان يُخشى جانبه لذلك، فقد أذعن للأمر في هدوء. وربما طُلب من ألبوكيرك أن يلزم بيته لفترة حتى يهدأ ألميدا ويثوب إلى رشده. فلا احتمال يُذكر لئلا تُنفذ أوامر مانويل، ولكن لا بد أن الكبرياء والغرور لدى هذين القائدين كانا هائلين. وخلال الفترة التي أمضاها في الحبس، وقعت حادثة أثبتت أن ألبوكيرك بالرغم من

كونه سريع الغضب، فإن به عظمة لا يمكن إنكارها وشهامة روح. فبعد ظهر أحد الأيام، زاره لوبيز، الذي أخبره أن جواو دا نوفا، الرجل الذي تسبب في حالة العصيان التي تعرض لها في هرمز ثم تخلى عنه بعد ذلك، مات فقيرًا. ولبضع دقائق بقي ألبوكيرك صامتًا، ثم اغرورقت عيناه بالدموع، وتكفَّل بمصاريف الجنازة.

لكن الرجل الذي كان مقدرًا له أن يكون حاكم الهند المقبل لا يجوز أن يطول حبسه، ومهما يكن فهو يحمل معه خطاب توليته المنصب من مانويل، وسرعان ما عاد ألميدا إلى رشده، بعد أن حذره الناصحون من مغبَّة عناده. وبعد تسليمه الحكم إلى ألبوكيرك، انطلق ألميدا عائدًا إلى لشبونة. لكنه لم يكن ليصل إلى موطنه قَطّ، حيث قُتل في إحدى المناوشات التي جرت عبر ساحل غرب أفريقيا، حيث ظل يلاحق الشرف والمجد برعونة وطيش، بعد تجاوزه رأس الرجاء الصالح مباشرة، ودُفن في قبر مؤقت على الساحل الأفريقي. وكتب المؤرخ البرتغالي باروس يقول: «وقد قُتِلوا إثر ضربهم بالعصي وقذفهم بالحجارة. ولم يكن يفعل ذلك عماليق أو رجال مسلحون، وإنما زنوج متوحشون، كانوا هم الأكثر وحشية على الإطلاق على ذلك الساحل».

كان جليًّا أن وفاة جواو دا نوفا ألَّفت ما بين فرناو لوبيز وألبوكيرك، بعد رحيل ألميدا، لأنه أصبح الآن يعمل تحت إمرة الحاكم الجديد. بدا أن الماضي طواه النسيان، ولكن لن ينقضي وقت طويل حتى ينشب الخلاف بينهما مرة أخرى، ولكنه في هذه المرة سيكون في أشد صوره وحشية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن

«ومن شدة عناده ودَّ لو يموت ويقتلهم أجمعين»

كان الهندوسي تيموجي هو أول من غرس الفكرة في عقل ألبوكيرك. وقبل وصول البرتغاليين، كان تيموجي قد جمع ثروة من أعمال القرصنة، حيث اعتاد مهاجمة الأساطيل التجارية التي تتاجر بالفلفل مع جوچارات. جلبت له شهرته أتباعًا، فأصبح لديه ٢٠٠٠ من المرتزقة الذين يأتمرون بأمره، ولكنه حينما عرض خدماته على فاسكو دا جاما في عام ١٤٩٨، ارتاب به البرتغاليون ورفضوا خدماته. وبحلول عام ١٥٠٥، يبدو أن تيموجي نجح في الانضمام إلى ألميدا باعتباره حليفًا نافعًا، وكسب ثقته حينما حذره من حصار كانانور من قِبَل قوات كاليكوت. وفي عام ١٥١٠، عقد ألبوكيرك العزم على العودة إلى هرمز، ولكن تيموجي هو مَن نصحه بالبحث عن وجهة أخرى. وعلَّل ذلك كالآتي: إذا كان الحاكم يرغب في جعل البرتغال تحتكر تجارة الهند، فلا بد من العثور على قاعدة آمنة تكون نقطة انطلاق للدوريات التي تجوب مياه الساحل الغربي للهند. وكانت جوا ـ وهي مدينة تقع على بعد ٢٥٠ ميلًا إلى الجنوب من مومباي على الساحل الغربي للهند، في منتصف الطريق بين مالابار وجوچارات، وتوجد ضمن جزيرة ذات أرض خصبة بين نهرين ـ هي المكان المثالي الذي يمكن أن يؤسس فيه عاصمة للهند البرتغالية ومقرًّا لنواب الملك وحاكمي الهند والمركز الذي تُدار منه جميع ممتلكات البرتغال شرق رأس الرجاء الصالح. بالإضافة إلى ذلك، كانت جوا تقع بين الشمال الخاضع لسيطرة المسلمين والجنوب الذي يهيمن عليه الهندوس، وكان نهراها، وهما ماندوفي وزواري، بمثابة حاجزين طبيعيين يوفران للمدينة الحماية والتحصين اللازمين. ولكن هل كان الأمر يستدعي حقًّا نصيحة قرصان هندوسي حتى يقتنع ألبوكيرك بمزايا جوا؟ ليس هذا مما يُرجح فقد استطلع نائب الملك المنطقة بالفعل، ولكن تيموجي قدَّم له معلومة مهمة مفادها أن الوقت قد حان للاستيلاء على جوا، وأن المدينة آيلة للسقوط.

كانت جوا، قبل أن يسيطر عليها البرتغاليون بمدة طويلة، مركزًا مزدهرًا يقطنه الهندوس، وتخضع لحكم إمبراطورية فيجايانَجار، وتضم مجموعة من المعابد المكرسة للعديد من الآلهة الهندوسية، وعلى رأسها شيفا. وفي عام ١٤٧٢، استولى الوزير القوي في مملكة باهمان المجاورة، محمود جوان، على جوا وحوَّلها إلى مدينة إسلامية، فدمَّر كل المعابد الهندوسية. وفي عام ١٥٠٠ سقطت جوا مرة أخرى، ولكن هذه المرة في أيدي يوسف عادل خان سلطان بيجابور. وهكذا ضُمت المدينة الآن إلى سلطنة بيجابور الواقعة في هضبة الدكن التي تشغل معظم جنوب الهند. وفي ظل حكم سلطنة بيجابور، بُنيت قلعة، كانت أيضًا قصرًا مهيبًا لسابايو (وهو الاسم الذي اشتهر به يوسف

عادل خان لدى البرتغاليين)، وقد استخدمت فيما بعد مقرًّا رسميًّا للحاكم البرتغالي. وأمر يوسف عادل خان بإحاطة المدينة بسور وخندق مائي لصد أي غزو خارجي. وإمعانًا في تأمين سلطنته، وضع بها حامية كبيرة تضم نحو ٩ آلاف رجل، وللحيلولة دون تسلل الجواسيس إلى المدينة عيَّن قائدًا مهمته منع أي حركة للأفراد من دون تصريح، فيما أُمر القضاة بإيقاف أي غرباء يريدون الدخول لمعرفة غاياتهم. وحتى وصول البرتغاليين، كانت جوا هي ميناء التجارة الرئيسي لمملكتَي بيجابور المسلمة وفيجايانَجار الهندوسية وكانت إحدى الممالك المهمة في التاريخ الهندي في القرون الوسطى. وعلى مدى ٢٠٠ عام، ظل هندوس فيجايانَجار ومسلمو هضبة الدكن (التي كانت مقسمة حينها إلى ولايات بارار وبيجابور وأحمدنجار وجولكندا وبيار) في نزاع مستمر على جوا ولأي الفريقين تؤول السيطرة عليها.

كانت جوا مركزًا للتجارة ولا سيما تجارة الخيول، التي كانت أفضل سلالاتها هي تلك التي تأتي من شبه جزيرة العرب، أما السلالة المحلية فاعتُبرت ضعيفة بدنيًّا. وكما نوَّه أحد البرتغاليين المعاصرين: «إن الخيول العربية هي الأفضل بين السلالات، تليها خيول فارس، وفي المرتبة الثالثة تأتي تلك القادمة من كامباي [وهي جوچارات في الوقت الحاضر]، وهذه الأخيرة محدودة القيمة». ونظرًا إلى حالة الحرب بين الممالك الإسلامية في هضبة الدكن ومملكة فيجايانَجار الهندوسية، اكتسبت خيول الحرب الجيدة أهمية قصوى وكان مَن يسيطر على جوا يمنع الطرف الآخر من الحصول عليها. وبطبيعة الحال كانت الخيول العربية باهظة الثمن ومثَّلت ضريبة جلبها إلى جوا ـ حيث يأتيها نحو ألف حصان كل عام ـ مصدرًا رئيسيًّا لإيراداتها.

لم تكن تجارة الخيول المربحة هي السبب الرئيسي وراء اهتمام البرتغاليين بالميناء. بل في واقع الأمر كانت تجارة جوا ضئيلة الأهمية بالنسبة إليهم. وأما ما جعلها شديدة الجاذبية لدى البرتغاليين فهو موقعها الجغرافي، الذي يتيح لهم إعاقة طريق السفن المحملة بالتوابل التي تبدأ من ملقا، ثم تُبحر نحو ساحل مالابار أو ولاية جوچارات، ومن ثَمَّ إلى الخليج العربي أو البحر الأحمر. وبالإضافة إلى ذلك، أثبتت جوا بالفعل أنها مدينة حصينة، ما يُعزى الفضل فيه بدرجة كبيرة إلى جهود يوسف عادل خان. وبالرغم من أن جوا كانت تعتمد في طعامها على البر الهندي، فقد كان ذلك أمرًا يمكن تدبره. وعلى أي حال، لم يأتِ البرتغاليون إلى الهند كي يزرعوا الأرض ويَفلحوها، فقد كان معظمهم من سكان الساحل في البرتغال ويقضون معظم أوقاتهم على الساحل في الهند. وبالنظر إلى صغر عددهم وقوة المملكتين المجاورتين وهما فيجايانَجار وبيجابور، فقد كان من المستبعد أن يغامر البرتغاليون بالذهاب إلى داخل البلاد على أي حال. وإلى حدٍّ بعيد كان هذا هو السبب الذي جعل جوا تظل، ثقافيًّا، جزءًا من البر الهندي. وعلى الرغم من أن المدينة نفسها سوف تخضع

للسيطرة البرتغالية، فقد ظلت الأراضي المحيطة بها ـ وهي الجزر الثلاث ومناطق بارداز إلى الشمال وسالسيت إلى الجنوب ـ تعكس الوجه الحقيقي للهند. وكانت هاتان المنطقتان الخصبتان اللتان تعتمد عليهما جوا في تدبير احتياجاتها من الغذاء، هما ما جذبتا انتباه سلطنة بيجابور المجاورة، التي لم يكن يفصلها عن جوا سوى مسيرة ثمانية أيام.

تابع تيموجي القرصان، حسبما يظهر في «تعليقات ألبوكيرك»، إلحاحه على كون جوا مهيأة وآيلة للسقوط. كان يعرف المدينة وطمأن ألبوكيرك أن الهندوس بالمدينة مستعدون للتمرد على المسلمين وساخطون على حكمهم. وكانوا بحاجة فقط إلى البرتغاليين كي يساعدوهم. في البداية لم يقتنع ألبوكيرك بكلامه، لأنه كان قد وطَّن نفسه على العودة إلى هرمز، ولكنه ظل يصغي إلى حديث تيموجي حتى استماله شيئًا فشيئًا. وفي منتصف فبراير ١٥١٠، تقدم ألبوكيرك نحو جوا وتبينت له صحة كلام القرصان، حينما انهارت دفاعاتها ولم تصمد طويلًا. كان ألبوكيرك رحيمًا في النصر، حيث أظهر تسامحًا دينيًّا مع الهندوس والمسلمين وخفَّض الضرائب. وكان شرطه الوحيد هو رحيل حامية بيجابور. كما أصدر أوامر صارمة (وذات غرض براجماتي) تحظر أي أعمال نهب أو عنف لأنه كان يريد الاستقرار في جوا ولا يرغب في استثارة أي عداوات. في الأول من مارس، استولى ألبوكيرك على المدينة ودخل عبر بواباتها على صهوة جواده يصحبه لوبيز وبعض الفيدالجو الآخرين، فيما كان يتقدمهم راهب يحمل صليبًا ازدان بالجواهر وراية «فرسان المسيح». كانت المدينة التي احتلها ألبوكيرك صغيرة المساحة نسبيًّا (بالرغم من أن عدد سكانها سوف ينمو ويصل إلى ٦٠ ألف نسمة في غضون ٥٠ عامًا، وهي لا تزال تمثل عُشر مساحة مدريد). وكانت غالبية سكانها من الهندوس ومعهم بعض التجار المسلمين. لكن عدد البرتغاليين الذين سوف يستقر بهم المقام في المدينة ظل ضئيلًا للغاية. ففي عام ١٥٢٤ لم يكن في جوا سوى ٤٥٠ برتغاليًّا من أصحاب المنازل.

كانت السهولة التي تم الاستيلاء بها على جوا سهولة خادعة؛ فما إن بلغ نبأ سقوطها يوسف عادل خان في بيجابور حتى راح يجمع قواته. وفي الجانب الآخر، عقد ألبوكيرك الذي أعجبه الموقع الاستراتيجي للمدينة، العزم على الاحتفاظ بجوا مهما كلفه ذلك. لكن بعض أفراد الفيدالجو كانوا أقل عزمًا، ما أدى إلى ظهور الخلافات. حذروا ألبوكيرك من أن موسم الرياح الموسمية يقترب حثيثًا، وأن الحكمة تقتضي التخلي الآن عن جوا والتوجه إلى كوشين. وإذا لم يغادروها قبل حلول موسم الأمطار وتعذر الملاحة في المحيط، فقد يجدون أنفسهم في مصيدة وعرضة لخطر الحصار. في أثناء ذلك، استدعى يوسف عادل خان قائده بولاد خان وأمره بالتوجه إلى جوا. نشر القائد، الذي كان أكثر دراية من البرتغاليين بتضاريس المدينة، قواته على نطاق واسع

لتشتيت خطوط مجموعات الفيدالجو وجنودهم البرتغاليين قدر الإمكان. وبعد ذلك، انتظر حتى يزداد الطقس سوءًا لعلمه أن الرياح الموسمية سوف تحتجز البرتغاليين في جوا.

كان كل من بولاد خان وألبوكيرك يدركان أن جوا يمكن أن تسقط في أيدي أي عدو يحتل الضفتين المتقابلتين للنهرين، ماندوفي وزواري. وهذا يعني أنه من أجل حماية المدينة، لا بد من السيطرة على الحصن الاستراتيجي في باناستاريم التي تبعد بمقدار ثلاثة أميال تقريبًا جهة الشرق والقريبة من الممرين المائيين، لأنه إذا لم يسيطر البرتغاليون على الأرض الموجودة على جانبَي النهرين، فسيكون حصار المدينة أمرًا ميسورًا. أرسل ألبوكيرك قائدًا هو دي سوزا، برفقة مجموعة من الفيدالجو إلى باناستاريم، ولكن ما إن وصلوا إليها حتى وجدوا أن قوات بولاد خان قد اجتاحتها، ولم يجد البرتغاليون بدًّا من العودة إلى جوا. كان الموقف يزداد الآن حرجًا مع تضاؤل خيارات ألبوكيرك، ولم يعد يفصل بين الجيشين الآن سوى قناة ضيقة. ربما كان ألبوكيرك مصممًا على الاحتفاظ بجوا، ولكن يوسف عادل خان كان مصممًا بالقدر نفسه على استعادتها. ومع ذلك، وذات صباح وقع حدث غير عادي. رأى البرتغاليون رجلًا يرتدي ثياب المسلمين يقترب من حافة الماء، ويلوح براية بيضاء. أثار دهشتهم أنه يتحدث البرتغالية بطلاقة: «أيَا سادتي البرتغاليين، اسمحوا لأحدكم أن يأتي ويتحدث إليَّ كي ينقل رسالة للحاكم». ثم عرَّف الرجل بنفسه قائلًا إنه جواو ماشادو، وطلب الأمان حتى يتحدث إلى ألبوكيرك. أثار ظهور ماشادو الدهشة، وكان له تأثير بالغ أيضًا على حياة لوبيز، ما يجعلني أوقف معركة جوا بعض الوقت ريثما أروي حكايته.

وُلد جواو ماشادو في براجا في شمال غرب البرتغال لعائلة من النبلاء الأقل شأنًا. وحينما كان شابًّا، أُرسل للعيش مع خال له كان رئيسًا لأحد الأديرة. وقع في غرام ابنة شقيق رئيس الدير، وعلى حد تعبير مؤرخ القرن السادس عشر باروس: «انتهت العلاقة بينهما بحملها». وخوفًا من غضب رئيس الدير، هرب الحبيبان وخلال الملاحقة التي أعقبت ذلك سرق ماشادو حصانًا. وفي النهاية قُبض عليهما وقُدما للمحاكمة حيث وُجهت له تهمة «السرقة، بسبب الحصان، والزنا بسبب الفتاة». وحُكم على ماشادو بالنفي الأبدي إلى «الأرض المفقودة»، وهي في حالته جزيرة ساو تومي الواقعة بالقرب من خط الاستواء قبالة سواحل أفريقيا. وعلى الأرجح كان حكمه قد خُفف لأن النفي كان يُطبَّق في أحيان كثيرة على «الأشخاص ذوي الأصل النبيل» بديلًا لعقوبات أخرى مثل الجلد علنًا أو الإعدام. ولكن النفي كان لسبب وغاية، إذ كان يُستعان بالمنفيين في تنفيذ مهام خطرة، وهو ما عبَّر عنه المؤرخ كاستانيدا بطريقة براجماتية: «ولن يخسر المرء كثيرًا إذا فُقد هؤلاء».

أبحر ماشادو مع الأرمادا الثانية في عام ١٥٠٠، وكان يقودها بيدرو ألفاريس كابرال، ثم تُرك في جزيرة موزمبيق حيث كُلِّف بجمع المعلومات التي يمكن أن تفيد الأساطيل البرتغالية التي ستأتي مستقبلًا. في المرة التالية التي سوف نسمع فيها عن ماشادو، وقُبيل وصول البرتغاليين إلى جوا، كان قد مر بتحول ملحوظ. فقد أصبح مسلمًا وتسمى باسم «يوسف»، وتسلل خلسة إلى الهند حيث استقر به المقام بضع سنوات. وهناك تأقلم تمامًا مع عادات وتقاليد جديدة، وسرعان ما تعلم العربية، ويبدو مثيرًا للاهتمام أنه كان يعرفها منذ كان في براجا، ثم دخل في خدمة ملك أياز، وهو قائد الأسطول في ولاية جوچارات. وبعد ذلك، اتجه ماشادو جنوبًا، حيث انتهى به المطاف إلى خدمة يوسف عادل خان سلطان بيجابور الشهير كقائد «للرجال البيض»، وهي فرقة عسكرية تضم الأتراك والفرس والعرب والتركمان والخراسانيين (وهم من منطقة تتطابق إلى حدٍّ بعيد في العصر الحديث مع أفغانستان وإيران). وبالإضافة إلى ذلك، ضمَّت الفرقة أوروبيين كانوا جميعًا قد اعتنقوا الإسلام. وفي بيجابور تزوج ماشادو مسلمة وأنجب منها طفلين على الأقل (تذهب بعض المصادر إلى أنهم أربعة). وهكذا، عاش ماشادو في بيجابور، سعيدًا على ما يبدو ويحظى بالاحترام ويتمتع بالثراء. وفي عام ١٥١٠، بعد ما يقرب من عقد من الزمان أمضاه هناك، وصلت إليه أنباء استيلاء ألبوكيرك على جوا، وفي شهر مايو تقريبًا من ذلك العام، ومع اقتراب موسم الرياح الموسمية، جاء ضمن وحدة عسكرية يقودها القائد العسكري الكبير في سلطنة بيجابور بولاد خان. كان القائد المسلم يأمل أن يتمكن من إقناع ألبوكيرك بالتخلي عن جوا، في مقابل ضمان الخروج الآمن للقوات البرتغالية حتى تصل إلى أسطولها الذي رست سفنه في ميناء المدينة، وكان بحاجة إلى رسول ينقل هذا المقترح إلى ألبوكيرك. وبطبيعة الحال، وقع الاختيار على ماشادو. ولا يسع المرء إلا أن يتخيل دهشة ألبوكيرك حينما مَثُل ماشادو بين يديه، وكان متوقعًا أن يظل مرتابًا في شأن هذا البرتغالي غريب المظهر. ولكن ماشادو تكلم بصراحة وثقة. كان يوسف عادل خان قد أبرم هدنة مع مملكة فيجاياَنجار الهندوسية، مما هدَّأ مخاوفه من التعرض للغزو من جانبها، وأصبح الآن بإمكانه التوجه إلى جوا على رأس جيش كبير. وبالإضافة إلى ذلك، كان موعد الرياح الموسمية يقترب. ويجب على ألبوكيرك أن يغادر الجزيرة الآن قبل فوات الأوان، أن يغادر الآن حيث لا يزال الطقس والمسلمون رحماء بهم. في ذلك اليوم كان فرناو لوبيز في معسكر ألبوكيرك، وحضر اللقاء. وكما فعل البرتغاليون الآخرون، راح لوبيز يحدق بفضول إلى ماشادو وهو يتصرف بأريحية ويبدو مرتاحًا في هيئته الجديدة. لم يتبادل الرجلان أي كلمات، ولكنها لن تكون المرة الأخيرة التي سيلتقيان فيها.

أصبحنا الآن على معرفة بألبوكيرك تكفي لأن نخمن كيف سيكون رده على التهديد المبطَّن الذي حمله له ماشادو: «ماذا سيكسب البرتغاليون من بقائهم؟»، هكذا أخبره ماشادو صراحة: «إنهم لا يستسلمون أبدًا». ولكن ألبوكيرك وجَّه إليه ردًّا سريعًا آخر، وأعلن أنه لن يترك جوا، وأنه لا ينوي الإفراج عن نساء المسلمين وأقاربهم ممن احتجزهن كأسرى وأنه، حسبما أخبر ماشادو بوقاحة، سوف يرغمهن على التحول إلى المسيحية. ربما كان صلف ألبوكيرك صفة معهودة لديه، ولكنه كان صلفًا لم يُعرف في الهند بعد، أو على الأقل في بيجابور، أو لدى بولاد خان، فحينما عاد ماشادو برسالة ألبوكيرك، انتابت القائد الدهشة وشعر بالإهانة. هل كان ألبوكيرك قائدًا بارعًا أم أحمق؟ وحده الزمن سوف يجيبنا، ولكن المسلمين لن ينسوا العار الذي يجلبه عليهم احتجاز نسائهم.

وهكذا بدأ بولاد خان استكمال استعداداته لشن الهجوم على جوا. وفي جوا، كان لكلمات ألبوكيرك وقع سيئ على أفراد الفيدالجو. لماذا يُظهر هذا العناد الشديد في تمسكه بالمدينة؟ هل يصدق حقًّا أنه يستطيع الصمود من بدء الرياح الموسمية وحتى وصول الأسطول القادم من لشبونة، وهو ما لن يحدث قبل شهر أغسطس القادم على أقرب تقدير؟ كان المزاج العام السائد بين رجاله هو الغضب وعدم القدرة على الفهم. وأما لوبيز فقد ذكرته تصرفات ألبوكيرك بسلوكه المستبد في هرمز. كان جليًّا أن قوات المسلمين سوف تجتاح جوا، وكانت قوة الرياح الموسمية تزداد يومًا بعد يوم فيما توهن الأمطار من عزمهم. وفي ١١ مايو ١٥١٠، حينما بلغت شدة الرياح الموسمية ذروتها، شن بولاد خان هجومه على جوا، وأخذ البرتغاليين على حين غِرَّة وأجبرهم على قتال الشوارع اليائس حتى دفعهم شيئًا فشيئًا إلى القلعة. ظل ألبوكيرك يقاوم على مدى عشرين يومًا حتى بلغته أنباء مفادها أن يوسف عادل خان وصل إلى جوا كي يقود بنفسه قوات المسلمين. كان البرتغاليون في وضع يائس، وتوسل لوبيز والقادة الآخرون الآن إلى ألبوكيرك كي ينسحب قبل أن يَهلَكوا جميعًا، ولا سيما بعد أن أُرسل جواو ماشادو البرتغالي المسلم مرة أخرى إلى ألبوكيرك، وهذه المرة حاملًا إنذارًا نهائيًّا بأنه ما لم ينسحب الحاكم في الحال، فسوف يتم حرق السفن وإغراقها، ومنع الحركة في الميناء وإنهاء أي أمل في الهروب. ولذلك، في ٣١ مايو، وفي منتصف الليل وبأقصى درجات السرية، تراجع ألبوكيرك إلى الأرصفة. اقترح بعض أفراد الفيدالجو إشعال النيران في جوا ولكنه رفض، زاعمًا أنه سيعود عمَّا قريب لاستعادتها. وحينما كان على وشك البدء في الانسحاب، أصدر أمرًا نهائيًّا تقشعر له الأبدان، حيث أمر بذبح جميع النساء والأطفال المسلمين من النبلاء الموجودين رهن الاحتجاز، وكان بولاد خان قد طلب إعادتهم. كان يدرك أكثر من أي أحد آخر أن قتل هؤلاء النسوة النبيلات سوف يُحدث صدمة لدى

المسلمين، وظن أنه حينما يتدفق قادة يوسف عادل خان عبر البوابات للحيلولة من دون مغادرته المدينة، سوف يُصعقون من هول المنظر حينما يرون زوجاتهم وأرحامهم مذبوحين، ويرون الجثث متناثرة في الشوارع، وأنه في تلك اللحظات سيكون قادرًا على الإبحار.

لم يكن لديه وقت يضيعه. كان لا بد من قتل النساء والأطفال، وعلى الرغم من أن بعضهم قُتلوا بالفعل، فقد رفض بعض أفراد الفيدالجو تنفيذ الأمر. وكان أحدهم هو روي دياز، صديق لوبيز في رحلته من لشبونة. جعل دياز بعض النسوة يتخفين في ملابس الرجال وأخفاهن على السفن الهاربة. وكذلك لم يستطع تيموجي، القرصان الهندوسي، الذي أقنع ألبوكيرك ذات يوم بالاستيلاء على جوا، أن ينفذ أوامر الحاكم، واصطحب بعض النسوة والأطفال إلى منزل آمن. ترك البرتغاليون تحصينات جوا بلا دفاع، فتدفقت قوات المسلمين إلى شوارع المدينة وطاردت السفن في المياه، ومع هطول الأمطار الموسمية، وفي منتصف الليل، غادر ألبوكيرك ورجاله وهم في حال يُرثى لها.

لكن، وكما كان البرتغاليون يخشون وكما كان المسلمون يدركون، ترك ألبوكيرك جوا بعد فوات الأوان، حيث أخذت الرياح الموسمية تضرب الأسطول الآن بقوة عاتية، وهطلت الأمطار بغزارة على أسطح السفن، حتى بدت وكأنها صدًى لصرخات اللوعة التي أتت من شاطئ المدينة، حينما اكتشف المسلمون أن زوجاتهم وبناتهم قد قُتلن. وعلى سطح السفينة، عمل جميع الرجال القادرين بقوة على منع السفن من الانعطاف بفعل التيار، عبر ربطها من المقدمة والمؤخرة. وعلى الرغم من جهودهم، لم تتمكن السفن البرتغالية من الوصول إلى البحر المفتوح. وفي محاولة يائسة خاطر ألبوكيرك بسفينة واحدة كي يعرف ما إذا كان بالإمكان أن تمر السفن عبر الرمال في مصب النهر، ولكنها جنحت في المياه الضحلة وفُقدت بعد تعرضها للموج الشديد. وعلى متن السفن كان غضب أفراد الفيدالجو يضاهي في شدته غضب الرياح، ويظهر هذا الخلاف الصريح في «تعليقات ألبوكيرك»، لأنهم ألقوا باللائمة على ألبوكيرك في الوضع المزري الذي أصبحوا فيه الآن: «ومن شدة عناده ودَّ لو يموت ويقتلهم أجمعين». أصبحوا يتحدثون الآن علانية، وناشدوا ألبوكيرك أن يرفع المرساة كي يحاولوا الوصول إلى البحر المفتوح، لكن مرشدي السفن أصروا على أنهم لن يتمكنوا من اجتياز المياه الضحلة. وسرعان ما بدأ الفرار وراح الرجال يغوصون في البحر ويسبحون إلى الشاطئ. كانت هذه هي لحظة الحقيقة بالنسبة إلى ألبوكيرك، ومأزقًا لم يواجه مثله من قبل، واختبارًا له كقائد وكرجل. بالإضافة إلى ذلك، كان قد تكبَّد خسارة شخصية هائلة حينما قُتل ابن شقيقه وأكبر مساندِيه أنطونيو دي نورونيا في مناوشات جرت مع قوات للمسلمين على مشارف جوا. كانت هذه

هي أحلك ساعاته، ومن شدة يأسه حبس أنفاسه وجثا على ركبتيه وراح يصلي متضرعًا وهو يبكي.

في هذه الأثناء، كان الغضب يستعر في صدر يوسف عادل خان، الموجود في قلعته في جوا، ففي جميع أنحاء سلطنته كانت الأخطار تقتضي منه تدخلًا عاجلًا. ربما تم له طرد البرتغاليين من جوا لكنهم لا يزالون قوة يُحسب لها ألف حساب ولا يزالون موجودين في النهر. سوف يتعين عليه بدء المفاوضات لإبرام معاهدة سلام. ولكن هذه المفاوضات سُرعان ما اصطدمت بحجر عثرة، حيث كان يوسف عادل خان يصر على شرط لم يفهمه ألبوكيرك في أول الأمر. أصر السلطان على رد النساء المسلمات اللائي هُرِّبن إلى السفن البرتغالية على الفور. كان ألبوكيرك يحسب أنهن قد قُتلن جميعهن، ولذلك حينما أدرك أن بعضهن ما زلن على قيد الحياة وعلى متن سفنه اعتبر ذلك عملًا غير مقبول واستشاط غضبًا. وطالب بمعرفة المسؤول عن ذلك. في البداية كانت الردود مراوغة، وقيل له إن بعض النسوة اعتنقن المسيحية، وهو زعم أدى إلى تهدئة غضبه قليلًا. وقيل له إن أُخريات «تزوجن» رجالًا في الأسطول، وفي مواجهة هذا الوضع، قرر ألبوكيرك من منطلق براجماتي أن يجيز هذه الزيجات من دون أي طقوس رسمية أو دينية. وحينما أعلن القس أن هذه الزيجات مخالفة لقانون الكنيسة، أجابه ألبوكيرك متحديًا بأن هذه الزيجات سوف تُجاز «وفقًا لقانون أفونسو دي ألبوكيرك». ولكن نساء أخريات رفضن التحول إلى المسيحية: زوجات وبنات وشقيقات النبلاء المسلمين الذين كانوا يقاتلون الآن في صفوف قوات بيجابور. رفضت هؤلاء النساء، على النقيض من غيرهن، الاقتران بأي من البحارة العاديين، ولذلك أمر ألبوكيرك الآن، حسبما نقرأ في تعليقاته، بنقلهن إلى إحدى السفن وإبعادهن عن الرجال في مقصورة مغلقة تحت حراسة مَخصي. كان أفراد الفيدالجو الشباب من البرتغاليين سريعي الاهتياج، وكانت النساء المسلمات الشابات والجميلات اللائي لا يستطيعون الوصول إليهن بمثابة الجائزة شديدة الإغواء التي لا يمكنهم مقاومتها، ولم يمضِ وقت طويل حتى كان الحارس المخصي يبلغ ألبوكيرك بأن بعض الرجال يتسللون ليلًا إلى المقصورة المغلقة. وأمر ألبوكيرك بتعيين حراسة لرصد حركة الصعود والنزول من السفينة. وسرعان ما أُبلغ أن رجالًا رُصدوا وهم يسبحون إليها، حيث كانوا يصعدون على الدفة ويدخلون عبر كوة في السقف. وحينما سأل ألبوكيرك عن عدد هؤلاء الرجال، قيل له إن عددهم ربما يصل إلى ثلاثة، ولكن هناك بالتأكيد رجلًا واحدًا. وحينما سأل عمَّن يكون، قيل له إنه نبيل يدعى روي دياز. أثار ذلك غضب ألبوكيرك، الذي أعلن أنه «بسبب جريمة مضاجعة النساء المسلمات في مثل هذا المكان وهذه الظروف، وبمثل هذه الوقاحة

الصارخة»، فلا يمكن أن تكون هناك سوى عقوبة واحدة، وهي الحكم على دياز بالإعدام شنقًا.

ووفقًا لرواية كوريا وكتاب «تعليقات ألبوكيرك»، كان روي دياز يلعب الشطرنج حينما قُبض عليه. وبعد القبض عليه، لُف حبل حول رقبته وعُلق كي يُشنق. ولكن خورخي فوجاسا، وهو القبطان الذي كان دياز يلعب معه الشطرنج رفض، وقطع الحبل، وصاح بصوت عالٍ بأنهم يشنقون روي دياز. وسرعان ما انتشر الخبر من سفينة إلى أخرى وسادت حالة من السخط الواضح بين الرجال. كيف يمكن لألبوكيرك أن يصدر هذا الأمر؟ كيف يُصدر أمرًا بشنق قائد وفيدالجو كما لو كان مجرمًا من عوام الناس، من دون الرجوع إليهم؟ بدا أن الأسطول على حافة التمرد، وفي خضم ذلك كان يقف لوبيز، الذي كان يعرف دياز معرفة جيدة، فقد أبحرا من لشبونة معًا رفقة الأسطول الذي حملهما إلى الهند. وبينما كان كل ذلك يجري، أشار كوريا إلى أن المسلمين كانوا يهللون، وهم يرقبونهم من الضفة الأخرى، فرحين بالخلاف الناشب بين البرتغاليين.

حينما وصلت الأنباء إلى ألبوكيرك بعصيان أوامره، ركب قاربًا وقصد السفينة لمواجهة المتمردين. وفي خضم الأزمات، بل وحتى وهو في عين العاصفة، لم يكن من ديدن ألبوكيرك أن يتراجع قَطُّ. كان البعض يعتبر أن تلك هي أعظم نقاط قوته، فيما اعتبرها آخرون أبرز جوانب حماقته، ولكنه لم يتراجع في هرمز، ولا في جوا، ولم يكن لديه نية للتراجع الآن. واجه الرجال ألبوكيرك واتهموه بأنه يرغب في شنق دياز «مستغلًّا سلطته المطلقة بشكل تعسفي، ودون مناقشة هذا الأمر مع قباطنته». كما دفعوا بحجة أخرى: «إذا كان دياز مذنبًا حقًّا، فلماذا يُشنق كمجرم عادي، بينما يجب أن يُقطع رأسه باعتباره نبيلًا، وهي عقوبة تليق برتبته؟». بجمود ومن دون اكتراث بالتمرد، رفض ألبوكيرك أن يتزحزح عن موقفه وواجه المتمردين، وأمر بإلقاء القبض على دياز وشنقه في صارية السفينة، ثم ترك جثمانه متدليًا منها كرسالة تحذير وكي يكون عِبرةً للآخرين.

انتهت هذه الأزمة حاليًّا، وتراجع المتمردون، وإن ظلوا يحملون في قلوبهم استياءً وغضبًا (وبالأخص في قلب لوبيز، لأنه لن يسامح ألبوكيرك). ومن حسن الطالع للجميع، ابتسم الحظ أخيرًا للبرتغاليين، حيث طرأ اعتدال على الطقس والرياح التي سمحت لهم أخيرًا بالإبحار وصولًا إلى المياه المفتوحة. وكان يوسف عادل خان وقتئذٍ قد نفد صبره من هؤلاء «الفرنجة» الذين أقَضوا مضجعه وغادر جوا ودعا الله وهو في طريق عودته إلى بيجابور قائلًا: «اللهم يا رحمن يا رحيم خلِّصنا من هؤلاء القوم». لكن بالرغم من أن الله كان رحيمًا حقًّا، فإنه سرعان ما سيتبين أن ألبوكيرك لم يكن كذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل التاسع

«حمقى غارقون في العطر»

يُلقب أفونسو دي ألبوكيرك اليوم في البرتغال بـ«قيصر الشرق». وعلى الرغم من أن أحدًا لا يمكنه أن ينكر أو يتجاهل ميله إلى العنف والاستبداد (وهي سمة يتشابه فيها مع يوليوس قيصر)، ولا كرهه الشديد للمسلمين، ولا حتى طريقته الوحشية والمستبدة في القيادة، فإن ألبوكيرك كان يحمل بداخله عظمة من نوع يليق برجلٍ هو في النهاية مهندس الإمبراطورية البرتغالية في الهند. وهي عظمة تجلَّت في رؤيته الفذة التي رافقتها طاقة جهنمية لا تكل ولا تمل. وكان يضع رؤيته فوق كل اعتبار، وبالرغم مما كان يقوله، على الأقل في العلن، من كونه خادمًا للملك الذي بيده الأمر، فقد كان فظًّا في رسائله إلى مانويل، ومن ذلك على سبيل المثال: «لقد بلغت الخمسين من عمري ومرَّ بي من قبلك ملكان وشهدتُ ما فعلاه في عهديهما». كان ألبوكيرك يرى بوضوح متزايد أنه على الرغم مما يمكن للتجارة بين جوا ولشبونة أن تدره من أموال، فإن البرتغال لا تملك سوى القليل الذي يمكنها أن تقدمه للهند مقابل التوابل. ورأى أن الثروة الحقيقية تكمن في ممارسة التجارة بين مدن وموانئ آسيا، كما فعل المسلمون على مدى قرون.

أدرك ألبوكيرك برؤية ثاقبة أنه لا يمكن للإمبراطورية البرتغالية، بالرغم من كلمات ألميدا، أن تكون إمبراطورية بحرية، وأن امتلاك الأراضي، حول القلاع الساحلية، هو وحده الذي يمكن أن يضمن الاستمرارية للمقامرة الإمبريالية. وكان يترجى مانويل قائلًا: «مولاي، ضع ثقتك بالقلاع الحصينة». وفي موضع آخر كان يقول مشجعًا: «إن القلعة الحصينة التي يتم الاستيلاء عليها اليوم سوف تبقى إلى يوم القيامة»، وكانت جوا، وهي موضع هوسه، تقع موقع القلب من هذه السياسة في تأمين الإمبراطورية البرية. وكاد رفضه التخلي عنها يُلقي به هو ورجاله في مهلكة. والآن وقد أبحر بعيدًا، فقد بدأ من فوره يخطط لاستعادة السيطرة عليها. وعلى الرغم من أنه كان في كل ذلك مدفوعًا بروح الانتقام وبرفضه للهزيمة، فقد كانت لديه أيضًا قناعة مطلقة بأن جوا هي القاعدة المثالية التي يمكن أن يقيم عليها الإمبراطورية. وكتب يقول إلى مانويل: «إذا دعمت جوا بقوة، فسوف تحوز جميع أراضيها». وأكد في رسالة أخرى للملك: «لا يوجد على امتداد السواحل مكان آخر أفضل من جوا أو أمنع منها، لأنها جزيرة. إذا فقدتَ الهند بأكملها، فيمكنك أن تستردها من هناك». كان بالطبع على صواب، وهنا تكمن عبقريته. لم يستطع الآخرون فهم رؤيته، ولم يكن لديه الصبر والتواضع اللذان يتيحان له إيضاح ذلك. وكثيرًا

ما وجَّه نقده للملك نفسه: «لا ينبغي لصاحب الجلالة أن يتجاهل ما أقوله»، ولكن ألبوكيرك كان يعتبر الهند مشروعه وجوا هي مفتاحه.

لقد استخلص ألبوكيرك درسين مهمين للغاية من أول اشتباك خاضه ضد جوا. الأول، أن سهولة الاستيلاء عليها كانت سهولة خادعة، لأنه هوَّن من درجة الشراسة التي سوف يقاتل بها سلطان بيجابور لاستعادتها. والثاني، أنه كي يستولي على جوا ويحتفظ بها، فإنه بحاجة إلى حلفاء، وأن حلفاءه الطبيعيين هم الهندوس الذين يشكلون أغلبية السكان في جوا ويشعرون بالاستياء من حكم المسلمين. وعليه، فقد أذن الآن للقرصان تيموجي أن يجمع هؤلاء الحلفاء، ويَعدهم بالأراضي والممتلكات كغنائم حرب، ولم ينقضِ وقت طويل حتى أصبح لدى ألبوكيرك ٤٠ قبطانًا هندوسيًّا وقد عرضوا على رجالهم عطايا إضافية كي «يجلبوا المزيد من الرجال». كان ألبوكيرك يرى ميزة إضافية في المرتزقة الهندوس وهي أن خدماتهم يمكن الحصول عليها بنصف التكلفة التي يطلبها نظراؤهم البرتغاليون. وفي أحيانٍ كثيرة، لم يكن الهندوس يطلبون أي مال ما دامت أُطلقت أيديهم في أعمال النهب. بالطبع كان هناك خطأ كبير في الاعتماد على حلفاء محليين (وسوف يهزأ تيموجي بسلطته في النهاية ويفر هاربًا)، ولكن ألبوكيرك لم يكن لديه في الوقت الراهن أي خيار آخر. وبينما كان ألبوكيرك يُعيد تجهيز أسطوله ويصلحه، وجَّه اهتمامه إلى هؤلاء النفر من الفيدالجو وجنوده وقد أصبح يدرك الآن أنهم ينظرون إليه بارتياب كبير، وأنهم يعارضون بشدة الدخول معه في أي غزوة أخرى. وقد سُجن بعض المتمردين عقب أزمة دياز، وأصبح إطلاق سراحهم مشروطًا بانضمامهم إلى الهجوم الجديد على جوا. أما أفراد الفيدالجو، ومن بينهم لوبيز، فقد عنَّفهم ألبوكيرك وعاقبهم علانية، إذ يبدو أن الدبلوماسية لم تكن بالشيء الذي يجيده. وأمرهم: «اتبعوني. وأما الذين لا يفعلون ذلك منكم» فعليهم «أن يغادروا الهند ويبحروا إلى لشبونة وهناك يقدمون أسبابهم للملك». كان ألبوكيرك يتحداهم، لأنه يعلم أن معظم الذين أبحروا معه من البرتغال لم تكن لديهم نية للعودة. فقد جاءوا إلى الهند طلبًا للشرف والثروة، وبالرغم من أنهم لم يحققوا سوى القليل حتى الآن، فإن بعضهم على الأقل رُسموا فرسانًا. والآن ها هي جوا مرة أخرى أمامهم، ومعها عادت الفرصة كي يحققوا الثروة الموعودة ويختبروا عزمهم في ساحة المعركة ويصبحوا فرسانًا، بل وربما يصبحون من الأثرياء. كان أفونسو دي ألبوكيرك بمثابة النجم القطبي لهم، وعليهم أن يتبعوه، ربما عن كره، ولكن لم يكن لديهم مناص. ويجب ألا ننسى أنه على الرغم من استيائه، كان لوبيز يدرك أنه خادم للملك في نهاية المطاف، وأن مغامرة السفر إلى الهند ما هي إلا مبادرة الملك نفسه. كانت معارضة ألبوكيرك شيئًا فعله العديد من أفراد الفيدالجو علانية، بل إن التخلي عنه كما حدث في هرمز هو أمر يمكن تبريره بأن ألميدا

كان لا يزال يشغل منصب نائب الملك. أما وقد أصبح ألبوكيرك الآن هو الحاكم، فإنه ممثل الملك، وعصيان أوامره يعني عصيان الملك نفسه، ما يعني نهاية مستقبل لوبيز وطموحاته.

ومع نهاية نوفمبر ١٥١٠، جمع ألبوكيرك قواته في كانانور، وأبحر قاصدًا جوا يرافقه ١٦٠٠ رجل. وفي الخامس والعشرين من الشهر نفسه، وهو يوم القديسة كاترين، وبينما كان رجاله من الفيدالجو يستغيثون بأعلى صوت لهم: «يا قديسة كاترين! يا سانتياجو!»، شن هجومًا شرسًا ومتواصلًا على جوا. عجزت الحامية التي تركتها سلطنة بيجابور عن الصمود أمام الهجوم البرتغالي، وتضعضعت مقاومة المسلمين. حاول بعض سكان بيجابور الفرار من المدينة عبر الممرات المائية الضحلة، فغرق كثيرون منهم وتعرض آخرون لاعتداءات الهندوس الذين رافقوا البرتغاليين. وكتب ألبوكيرك يقول: «وأعمَلوا السيف في جميع المسلمين، ولم يُبقوا على حياة مخلوق واحد منهم». ثم أصدر أمره بنهب المدينة، ولا يزال الوصف الذي بعث به إلى مانويل لاحقًا تقشعر له الأبدان رغم مرور ٥٠٠ سنة:

لقد أحرقتُ المدينة وقتلتُ كل من فيها. وقد ظل رجالنا على مدى أربعة أيام يقتلون من دون توقف... وحيثما استطعنا أن نطأ بأقدامنا لم نُبقِ على حياة مسلمٍ واحد. وقد سُقناهم جميعًا إلى المساجد ثم أشعلنا فيها النيران. وأمرتُ بألا يُقتَل الفلاحون [الهندوس] ولا البراهمة. وقدَّرنا عدد القتلى من الرجال والنساء المسلمين بستة آلاف. لقد أبلينا بلاءً حسنًا يا مولاي.

وأوضح بييرو ستروزي، وهو تاجر فلورنسي كان يرافق البرتغاليين، بوجه متجهم أنه «لم ينجُ أحد. لا الرجال ولا النساء ولا الحوامل ولا الرضع الصغار وهم بين أذرع أمهاتهم». كان عدد القتلى هائلًا، واعترف الجُند البرتغاليون بكل ابتهاج بأنه حتى التماسيح في المياه أُتخمت من كثرة الجثث، التي حملت المياه بقاياها الآن إلى الشاطئ. وحينما انتهت المعركة أخيرًا وتحقق النصر، رسم ألبوكيرك، كما وعد، العديد من الذين قاتلوا معه فرسانًا. لقد سقطت جوا مرة أخرى في أيدي البرتغاليين. ومما ساعد ألبوكيرك من دون شك، رغم أنه ليس واضحًا هل كان على علم بهذه الحقيقة، هو أن يوسف عادل خان كان قد مات في بيجابور وخَلَفه على عرش السلطنة ابنه الصغير إسماعيل. وبالفعل انتقل العديد من قادة جيش المسلمين ممن كان ينبغي أن يكونوا في جوا للدفاع عنها، إلى بيجابور لحضور الجنازة.

* * *

انتهت معركة الاستيلاء على جوا أخيرًا ولم يعد هناك خطر قريب يتهدد البرتغاليين. أما لوبيز وغيره من الجند الذين شاب هذا القتال العنيف أول

تعرف لهم بالمدينة، فقد أتيحت لهم الآن فرصة النظر فيما حولهم واستكشاف موطنهم الجديد. لا ريب أن جوا بما تَوفر لها من أبهة وعظمة كانت قادرة على أن تبهر جنديًّا مثل فرناو لوبيز. وبينما كان يستكشف المدينة سيرًا على قدميه أو على ظهر حصانه، كان يبدي إعجابه بالقصر الذي كان لا يزال يُعرف باسم «قصر سابايو» تيمنًا باسم ساكنه الأخير، وبحدائقه العطرة وإطلالته الرائعة والكاملة على النهر ومرسى الميناء. وبينما كان يمشي في مرابط الخيول الملكية، كان بوسعه أن يرى ١٥٠ حصانًا عربيًّا و١٠٠ فيل. كانت هذه على الأغلب هي المرة الأولى التي يرى فيها لوبيز فيلًا (كانت الفيلة قد بدأت تظهر للتو في لشبونة بعد مغادرته البرتغال). ومن ممالك بعيدة، كانت تأتي يوميًّا قوافل من العربات التي تشدها الثيران، محملة بالسلع والبضائع، وللمرة الأولى في حياته سوف يمضغ لوبيز أوراق التنبول ويتذوق طعم جوزة الفوفل المتوفرة في كل مكان. كانت جوا بكاملها سوقًا يُباع فيها ويُشترى كل شيء من خيول وتوابل وعقاقير مجففة وعلكة حلوة، بالإضافة إلى مجموعة من الأدوات الغريبة والعجيبة القادمة من السند (إقليم في باكستان الحالية) والصين ومن البنجال وجوجارات. ربما عرف لوبيز في سنوات صباه أسواق السمك والخضراوات في لشبونة، ولكن ما رآه الآن في جوا كان يصيبه بحالة من الذهول. كانت المدينة تزدحم يوميًّا بصائغي الذهب والصيارفة والحرفيين. ويختلط فيها اليهود بالهندوس والمسيحيون بالجاينية والمسلمين. وكان التجار يختلطون بتجار آخرين جاءوا من بلاد فارس وشبه جزيرة العرب وإيطاليا ومن الحبشة وجوجارات وساحل مالابار. كانت جوا تزخر بثروات هائلة، ثروات تتجاوز أكثر الأحلام جموحًا عند أي تاجر لشبوني، حيث كان التجار الهندوس يشترون السلع الغريبة عبر الوسطاء بالجملة، ثم يبيعونها في لمح البصر مقابل ربح وفير. ورأى سلعًا مثل الحرير والساتان والدمقس والخزف وعددًا كبيرًا من السلع الأخرى التي كان يعرف بعضها ويجهل أكثرها فتتركه حائرًا يتساءل عمَّا قد تكون. أعجب لوبيز بالسرعة التي تتم بها عمليات حساب الأرقام، وكان كلما حاول فهم حركات اليد أو الاهتزازات الخفيفة التي تصدر عن رؤوس التجار وهم يزاولون أعمالهم، يعتريه الذهول بسبب السرعة التي تتم بها. وفي كل زاوية من الزوايا عبر الشوارع والطرقات كانت توجد غالبًا سوق وفي كل سوق يوجد صيارفة يصيحون ويخادعون ويتاجرون فيما لا بد أنه كان يبدو للوبيز وكأنه برج بابل. لا بد أنه مشى وسط صخب سوق الرقيق التي يُجلب إليها العبيد من جميع أنحاء الشرق كي يُباعوا في جوا، وأصابته الدهشة حينما علم أن هناك سوقًا حتى للمسروقات، وكانت تقام ليلًا ولها مكان معلوم، وفيها تُباع البضائع بأبخس الأثمان. ولكن من بين جميع الأسواق كانت سوق الخيول هي أكبرها بلا شك. وأعجبه أيما إعجاب مشهد الخيول وهي تؤخذ لتجربتها في الركوب، وقد زُينت بأغطية جميلة تحمل زركشات ذهبية وفضية. وكانت سروجها تُغطَّى بقماش

من الحرير المطرَّز الذي جُلب من البنجال والصين وبلاد فارس، فيما تُرصَّع أعنتها بالأحجار الكريمة وتُثبت بها أجراس جلجلة من الفضة.

كانت المعابد الهندوسية العديدة تبعث قطعًا على الإعجاب، ولكن أبرز ما كان يمكن أن يثير الدهشة لدى شخصٍ مثل لوبيز هو ذلك الوقار الذي يبدو عليه رجال الدين البراهمة. بدا له أن جوا كلها تقريبًا في أيديهم، وأدرك أنهم يحظون بتبجيل كبير في جميع أرجاء البلاد. وبعد استعادة جوا، اختار العديد من الهندوس البقاء في المدينة. وقد اعتبرهم لوبيز أذكياء وحذرين ومتفقهين في أمور دينهم، وذهب الطبيب تومي بيريز، الذي كان يتجول أحيانًا في المدينة رفقة لوبيز إلى أن «المنتمي إلى طائفة البراهمة لا يمكن أن يتحول إلى الإسلام [حتى] ولو نُصِّب ملكًا». ولكن جوا كانت بها أمور أخرى ربما تثير النفور والغضب لدى برتغالي مثل لوبيز، وأسوأ هذه الأمور هو أن نساءها كن يؤمرن بإلقاء أنفسهن في محرقة أزواجهن حينما يُتوفون عنهن (العادة المعروفة باسم «ساتي») وكانت هؤلاء اللواتي يَرفضن، تُعيِّرنهن عائلاتهن وتفضحنهن، وكنَّ يُجبرن على العمل في البغاء. مهما يكن، فقد كانت الهند حلمًا وفردوسًا رائع الجمال يداعب الخيال وتفيض بثروات لا تخطر ببال أحد في البرتغال، ولا يمكن أن يكون لوبيز قد تباطأ في إقباله على أيٍّ منها. ولأنه نشأ في بيئة صارمة وخانقة تحكمها الأخلاق البرتغالية، فقد كانت الهند هي الأرض الموعودة التي تفيض بملذات ما كانت يده لتصل إليها أبدًا في لشبونة، التي كانت تتفشى بها الأوبئة والطاعون ويُجبر فيها الأشخاص على اعتناق المسيحية وتضم طبقة متكلسة من النبلاء. كانت الهند تعطي القادمين إليها الثروة وتمنحهم أسلوب حياة، وكان كل شيء فيها متاحًا وممكنًا؛ وهو ما عبَّر عنه أحد أفراد الفيدالجو بإيجاز بليغ: «ولا حتى محمد نفسه حظي بهذا النعيم». وقد لاحظ جواو دي باروس، وهو أحد الذين عايشوا لوبيز، هذا الميل إلى اللذة والرفاهية حينما كتب يقول إن هذه البلاد «آثمة ومليئة بالملذات»، وإن قاطنيها استسلموا «لشهواتهم واقترفوا كل أنواع الخطايا». وحذَّر قائلًا إن الهند تضم أعدادًا «لا حصر لها» من النساء، وإنهن «يبعن أجسادهن». ومن المؤكد أن البرتغاليين فرحوا بثرواتها، وهم مَن جلبوا إلى جوا مرض الزُّهري، حتى بات يُعرف بين أهل المدينة بـ«المرض البرتغالي». وكان بدء البرتغاليين محاكاة الهندوس والمسلمين في اتخاذهم المحظيات بمثابة جرس إنذار قوي للكنيسة. لم «يقنعوا بامرأة واحدة ولكن أصبح لديهم أربع إلى خمس في منازلهم»، على الرغم من تأكيد الكنيسة أن إقامة العلاقات الجنسية مع نساء أهل البلد هي ما أفسد البرتغاليين، وجعلهم عديمي الأخلاق. وقبل كل شيء، وقف البرتغاليون مذهولين أمام «البايلاديرا»، وهي كلمة برتغالية تشير إلى «الديفاداسي»، أي راقصات المعبد الهندوسي. أساء البرتغاليون فهم هذا الرقص الديني الذي ارتبط بالطقوس الهندوسية، وظنوا خطأً أن هؤلاء

الراقصات من البغايا. وهن «نساء عاهرات لا يتمنعن على أي أحد يطلبهن مقابل المال». وذهبت الكنيسة إلى حد حظرها المدارس التي تتعلم بها الفتيات الصغيرات الرقص، بزعم أنه «ليس هناك ما هو أشد إثارة للشهوة من الأغاني والرقص الفاحش الذي يفتقر إلى الشرف». وفي يأسها مما اعتبرته ميوعة أخلاقية لدى البرتغاليين، أوضحت الكنيسة أنه حتى المسلمون، الذين كان البرتغاليون يعتبرونهم كفارًا ومبتدعة، قد منعوا هؤلاء الراقصات الهندوسيات. وقد استشاطت الكنيسة غضبًا لأنهن كن يفسدن أخلاق البرتغاليين ويُلحقن بأرواحهم اللعنة. ولكن نداءات الكنيسة كانت تذهب سُدًى، ولم يكن يأبه بها أفراد الفيدالجو. كان إغواء الهند طاغيًا ولا يقاوم.

ولكن خلف أستار هذه الثروة الموعودة والملذات المنشودة، وعند الذين يمعنون النظر، كما سيفعل لوبيز في نهاية المطاف، كانت توجد هند عتيقة ذات طبيعة صوفية تكشف عن وجهها. كانت هذه هي الهند الحقيقية، وهنا كان بإمكان لوبيز أن يعثر على ذاته أو يفقدها، وهو ما سوف نتطرق إليه لاحقًا. في الوقت الحالي كانت ثمة أمور أخرى، ذات طبيعة دنيوية، تشغل ذهن لوبيز، وفي جوا سرعان ما أصبحت لديه محظية. لم يكن يهم في شيء أنه خلّف وراءه زوجة في لشبونة، لأنه كان في ذلك يتبع ممارسة بدأت تشيع بين أفراد الفيدالجو والأثرياء من البرتغاليين. واشترى عددًا من العبيد من سوق الرقيق للخدمة في منزله وقضاء جميع حوائجه. ووفقًا لتقرير يعود إلى مطلع القرن السابع عشر كان كل منزل برتغالي في جوا يضم نحو عشرة من العبيد، وبالرغم من أنه يمكن للمرء أن يعتبر أن العدد كان أقل من ذلك خلال عصر لوبيز، فإنه لم يكن أقل بكثير. في عصر لوبيز كانت المنازل بسيطة وذات أرضيات مصنوعة من طين يُثبت بروث البقر. وقدمت جوا بغاباتها الاستوائية أنواعًا مختلفة من الأخشاب للمنازل، ولا سيما للأسقف والأبواب وإطارات النوافذ. وكان خشب الساج هو الأغلى ثمنًا، فيما بقي خشب شجر جوز الهند هو الخيار الملائم للراغبين في أسقف قليلة الكلفة.

ولسنا ندري شيئًا عن محظية لوبيز، لأن النساء لم يكن لهن مكان بالتاريخ في هذا العصر، ولكنها كانت على الأغلب واحدة من المسلمات اللائي تركهن أزواجهن وآباؤهن خلال غزو جوا أو من اللواتي فقدن أزواجهن في المذبحة التي تعرض لها المسلمون على أيدي البرتغاليين بعد الاستيلاء على المدينة. وعلى الرغم من أن العديد من المسلمين تركوا المدينة بعد أن استردها البرتغاليون، فإن قلة منهم آثروا البقاء في جوا. وربما حتى كانت تجمعها، بالرغم من أننا لن نعرف ذلك أبدًا على وجه اليقين، صلة قُربى بإحدى النساء اللواتي ساعدهن صديقه دياز على الهرب واللائي طلبن الاحتماء على سطح السفن. ومن المفارقات أن كونها مسلمة كان اختيارًا يُعزى بدرجة كبيرة إلى ألبوكيرك، الذي أدرك أن البرتغال، لصغر حجمها وقلة سكانها، ليست قادرة

على توفير القوة البشرية اللازمة لإدارة الإمبراطورية. ولذلك كانت غايته هي إيجاد فئة من الأشخاص الذين يمكنهم المساعدة في الحفاظ على جوا وإدارتها وأن يكونوا موالين للبرتغاليين. وتحقيقًا لهذه الغاية شجَّع الزواج المختلط بين الجنود البرتغاليين والسكان المحليين، وكانت الأفضلية للنساء المسلمات اللائي يُحوَّلن إلى المسيحية عند الزواج. وأحد الأسباب الرئيسية وراء هذا التفضيل هو لون البشرة الأبيض لديهن مقارنةً بالهندوسيات في جوا، حيث يُتوقع أن يأتي نسل هذه الزيجات بذرية بيضاء البشرة. وفي غضون شهرين من الاستيلاء على جوا، أشرف ألبوكيرك على ٢٠٠ حفل زواج، وقد بلغ به الأمر أن يقدم حوافز مادية لتشجيع رجاله على الزواج، بإعطائهم مالًا على سبيل المهر وقطعة أرض.

وبلغ حرص ألبوكيرك على تزويج رجاله حدًّا تسبب أحيانًا في بعض حالات الارتباك. ووفقًا لكتاب «تعليقات ألبوكيرك»، أقام ألبوكيرك، بموجب صلاحياته كحاكم، مراسم العديد من الزيجات في منزل تصادف أنه كان ضعيف الإضاءة ومكتظًّا بالأشخاص حتى اختلط الأمر على بعض الأزواج، فاصطحب كل منهم إلى منزله زوجة غير زوجته التي اختارها ثم حاولوا استبدالها في اليوم التالي، ولا توضح السجلات هل نجحوا في ذلك أو لا. لم يكن جميع البرتغاليين راضين بخطط ألبوكيرك في الزواج المختلط وحاولت عناصر محافِظة، تزعَّمها أحد كبار القباطنة لدى ألبوكيرك، وهو ديوجو ميندیز دي فاسكونسيلوس، وبعض رجال الدين، تقويض مشروع الزواج المختلط برمته، ما أدى إلى استياء واضح بين الذين تزوجوا بهذه الطريقة بالفعل، وفي النهاية تزايدت المعارضة لهذا الزواج وكذلك الاستياء. وفي مرحلة ما، تخبرنا المصادر أن الزوجات اللائي كن من سكان جوا الأصليين انضممن إلى مؤامرة لتسليم جوا إلى المسلمين. وبالرغم من أن قصة الزوجات اللائي تآمرن لتسليم جوا إلى المسلمين تبدو في أحسن الأحوال مزعومة ويصعب تصديقها، فإنها تُظهر على الأقل حقيقة أن عددًا كبيرًا من هذه الزيجات المختلطة قد حدث بالفعل.

اعتاد لوبيز الحياة اليومية في جوا، بإيقاعها اليومي الذي يميل إلى البطء والتراخي، وانخرط بشكل كامل في العادات الاجتماعية لأهل المدينة، سواء من الهندوس أو المسلمين. وتعرف شيئًا فشيئًا على بعض الأمثال والتعابير التي يستخدمها أهل جوا وكانت تجعله من دون شك يبتسم. ولعله أبدى دهشته من ذلك التقليد السائد بين أهل المدينة وبموجبه لم يكن لأي عُرس هندوسي أن يتم ما لم يتطابق برجا العروس والعريس، وهو أمر كان يقوم به كاهن هندوسي أو «بهات». كانت هناك تفاصيل كثيرة يتم التفاوض حولها وتكاليف كبيرة يجب تحملها لإتمام الزواج حتى شاع تعبير مفاده أنه «إذا أردت أن تزوج ابنتك، فعليك أن تُبلي العديد من النعال». كانت الفتيات يتزوجن في سن صغيرة للغاية، حتى إنه ليقال للواحدة منهن: «قد بلغتِ

الثانية عشرة، اذهبي إلى بيت زوجك». ولكن هناك تعبيرًا واحدًا لا بد أنه جعل لوبيز يدرك بوضوح أن الأمور ليست بالبساطة التي يوحي به ظاهرها وهي: «لا عائلة سترغب في الاحتكام للقضاء البرتغالي ولا الزواج بفتاة بالغة».

ويجب القول إن ثمة ميلًا لدى البرتغاليين إلى وصف السنوات الأولى في جوا، بدايةً من غزوها في عام ١٥١٠ حتى وصول المبشرين اليسوعيين في أربعينيات القرن السادس عشر (١٥٤٠)، بأنها عصر ذهبي. وقد دخلت عبارة «جوا الذهبية» إلى اللغة، وهي الفترة التي تعايش فيها البرتغاليون مع سكان جوا الأصليين في سلام لا يشوبه شائبة بين الدولة المستعمِرة ورعاياها. ولكن رواية إسلامية عاصرت تلك الفترة تقدم لنا صورة مغايرة:

اضطهد البرتغاليون المسلمين وأفسدوا أخلاقهم، واقترفوا ضدهم كل ما هو وضيع ومشين. واعتداءاتهم عليهم لا تُعد ولا تُحصى... وقد حالوا بين المسلمين وتجارتهم، وفوق ذلك حالوا بينهم وبين حجهم [إلى مكة]. وسلبوهم ممتلكاتهم وأحرقوا مدنهم ومساجدهم واستولوا على سفنهم وأساءوا إلى الكتاب المقدس [القرآن]، ودنَّسوا المساجد وحرَّضوا المسلمين على الردة عن دينهم... وعذبوهم بالنار وباعوا بعضهم واستعبدوا بعضهم الآخر، وارتكبوا أعمالًا وحشية ضد بعضهم، وهو ما أظهر انعدام أي مشاعر إنسانية لديهم.

لم تكن «جوا الذهبية» في واقع الأمر ذهبية ولا هي حتى جوا، وذلك أنه حتى القرن الثامن عشر، كان البرتغاليون حينما يشيرون إلى جوا، يشيرون في الواقع إلى قسم صغير منها فقط، ألا وهو «جزيرة» جوا في نهر ماندوفي حيث كانت توجد العاصمة البرتغالية، «الإستادو دا إنديا». وفي الواقع، كانت السياسة البرتغالية تقوم على الغُبن والسيطرة، وتستند إلى المحاكمات القاسية وتضطهد المسلمين على وجه التحديد. وقد اعتُبرت دائرة القضاء البرتغالي هي الأشد فسادًا في الحكم البرتغالي، ومن هنا أصبحت مثلًا للدعوة بالابتلاء: «ليبتلِك الرب بقضاء جوا». وثمة مقولة أخرى ظهرت في لغة كونكان، وهي لغة أهل جوا، وهي تُشبِّه القضاء البرتغالي بخيوط شبكة العنكبوت:

لا تصطاد سوى البعوض: عُوقبت امرأة جوچاراتية على جلوسها القرفصاء كي تتبول. وسُجن هندوسي لشجاره مع هندوسي آخر أو لسبه؛ ولكن إذا فتح أحد المقربين للسلطة أو أحد الأثرياء خزانة حديدية تعود إلى هندوسي عنوة وأخذ بضاعته بالقوة، فهذا أمر هيِّن وجائز.

وحتى وإن كانت ذهبية، فقد كانت جوا شديدة الفساد. وفي بعض الأحيان، تخبرنا السجلات الرسمية عبر لغة بيروقراطية للغاية وعبارات مقتضبة بكل ما نحتاج إلى معرفته. انتهى سجل خاص بإيرادات جوا في عام ١٥٤٥ إلى أن

«وهذا هو ما أغلته جوا العام الماضي عدا ما سرقه المسؤولون»، بينما نوهت رسالة أخرى وُجِّهت إلى لشبونة بأن «ممتلكات الملك حتى تنمو وتربو ينبغي أن يشرف عليها عدد أقل من المسؤولين». كانت الهند عند العديد من أفراد الفيدالجو سبيلًا للثراء السريع. ولم يكن كثيرون ممن يشغلون مناصب قيادية يصرون على مزاولة تجارتهم الخاصة وحسب، ولكنهم كانوا متورطين أيضًا في نهب الخزانة الملكية بنفس الأريحية التي ينهبون بها سفن المسلمين.

وحتى نفهم كيف أفلت كثيرون بهذا النهب، يجب أن نفهم أولًا أن الأراضي البرتغالية فيما وراء البحار كانت منذ نشأتها ممتلكات خاصة ومشروعًا خاصًّا بالملك. وفي مطلع عام ١٥١٠، كان مانويل قد فرض احتكارًا ملكيًّا على سلع مثل البهارات والعقاقير الدوائية والأصباغ والنيلة، فضلًا عن الخيول، واحتفظ لنفسه بالإيرادات المتحصلة من بيعها. كانت المشكلة، أو ربما يقول البعض الفرصة، تكمن في أن التعيينات الملكية لم تكن تتم على أي أساس من الخبرة أو الدراية أو مدى الملاءمة للمنصب، ولكن بناءً على أسباب شخصية تمامًا: فقد يكون المرشح قدَّم للملك أو للحاكم خدمة جليلة، وهي حالة سوف يجني من ورائها نفعًا. «والأهم من كل شيء هو أن تفعل ما تراه يعزز خدمتي»، كان هذا غالبًا هو الأمر الوحيد الذي يتلقاه النبيل من الملك. وهذا يعني أنه ما دام رضي الملك أو الحاكم، فلا توجد معايير أخرى يتعين تلبيتها. لم يكن يوجد تمييز معلن بين المال الخاص والمال العام، ولم يكن الشخص المعيَّن يُمنح راتبًا في مقابل هذا المنصب، حيث تأتي معظم الأموال من الضرائب التي يقوم على جبايتها أفراد الفيدالجو أو من طرق التجارة التي يمارسونها بنجاح، ما يعني أنه كان يحتكر لنفسه بعض الأسواق أو المرافئ. ولا ندري هل استفاد لوبيز نفسه من أي من هذه الصفقات، لكن لا بد أنه أمَّن لنفسه بعض المال، وإلا لكان عليه أن يعتمد على الراتب الذي يمنحه له الملك. ومن حسن حظنا أن نجد رواية لشاهد عيان وهو المؤرخ البرتغالي ديوجو دو كوتو الذي عاش في القرن السادس عشر، وكان على دراية تامة بما يجري من خلال تعاملاته اليومية كموظف أرشيف في آسيا البرتغالية. حمل تقييم كوتو إدانة دامغة، حيث زعم أن دواوين «الإستادو دا إنديا» بأسرها كانت ضالعة بشكل ممنهج في سرقة الخزانة الملكية البرتغالية في جوا. وعلى حد علمه، فإن معظم القائمين بالأمر في جوا كانوا «حمقى غارقين في العطر» ولا بد أنهم جعلوا «الملك الرشيد مانويل يموت من الخزي». كان العديد من هؤلاء المسؤولين يعتبرون هذه المناصب بمثابة ممتلكات يُتوقع أن يجني شاغلها الربح من ورائها. وعبَّر عن ذلك الموقف أحد أفراد الفيدالجو الذي عُين في قلعة في جوا وقال صراحة: «لن أذهب إلى قلعتي إلا كي أعود ثريًّا». وفي بعض الحالات باذخ الثراء. أما القباطنة فلديهم طرق عديدة لتحقيق الثراء، وإحدى هذه الطرق البسيطة هي سرقة رواتب الجند أو

الرواتب القديمة، فلا يرفعون أسماء الجند الذين قُتلوا منذ مدة من سجل الحامية. وكانت تنقضي ٥٠ سنة على توقف خدمة الكثيرين، ومع ذلك تظل لشبونة ترسل من دون أن تدري رواتب هؤلاء الجند التي كانت تصل في النهاية إلى جيب القائد. وفي الحالات النادرة التي كانت لشبونة المتشككة تأمر بالتحقيق وضبط الحسابات، كان الرد يأتي عندئذٍ بأن هؤلاء الأعضاء في الحامية الوهمية ويا للأسى قد قُتلوا بغتةً وماتوا ميتة مفجعة في غارة جسورة شنَّها المسلمون، لعنة الرب عليهم!

وفي مناسبات عديدة، اشتكت لشبونة من أن البرتغاليين في جوا كانوا لا يعبأون بشيء، حتى إنهم قد يبيعون الأسلحة والخيول للأعداء. ولكن الحقيقة هي أن حرص البرتغاليين في جوا على الولاء ونيل الشرف كان أقل كثيرًا من حرصهم على تحقيق الربح. وخلاصة القول، كان هناك الكثير من المال الذي يمكنهم جمعه، وكانت المناصب تُطرح للبيع لمن يدفع أكثر، وكان أصحاب الوظائف يختارون وظائفهم بناءً على ذلك. وحينما طُرحت وظيفة «قبطان جوا» ذات الوقع المهيب، وتبدو وظيفة مرموقة في جوا، كان الساعون إليها أقل بكثير من الساعين إلى منصب قاضٍ في دائرة الجمارك، لأن الأرباح المنظورة في الثانية أكبر بكثير. كان أصحاب هذه الوظائف بطبيعة الحال ومن الناحية النظرية هم حماة لممتلكات الملك، ولكن على النحو الذي يثير مُر السخرية. وكانوا يستغلون جهل الملك بما يجري ويطبقون توجيهاته بكل شدة ممكنة. ففي جوا مثلًا، لم يكن الذين يدينون بأموال للتاج يُلقى بهم في السجن وحسب، ولكن يقيَّدون بالأغلال ويعذَّبون أيضًا، وذلك خلافًا للضمانات الملكية الممنوحة للمجرمين المدنيين. وأما ما هو مقدار المال الذي يُنتزع فعلًا ويودَع في الخزانة الملكية فهذا بالطبع كان مسألة أخرى.

كيف رأى أهل جوا فرناو لوبيز؟ كان عندهم مجرد «إفرنجي» لا يزال على كفره. وقد ذهبت تقارير ذلك الزمان إلى أن هؤلاء الرجال كانوا يعاملون زوجاتهم (إن لم يكنَّ مسلمات) معاملة حسنة. وهو لا يستحم إلا نادرًا، ومما كان صادمًا للمسلمين أنه لم يكن يستخدم الماء بعد قضاء حاجته. وكان لون بشرته مختلفًا وكذلك شعره. وكذلك شكل أنفه وعينيه. وأما أذناه، فأي صنف من الرجال هؤلاء الذين يثقبون آذانهم؟ وعلى الرغم من الحرارة الخانقة، كان يُصر بشكل عبثي على ارتداء سراويله التي تشبه الجرس، والأطواق والقبعات المصنوعة من الدانتيل، وهي ملابس اعتبرها أهل جوا مصدر سخرية شديدة. وحينما يأكل الأرز كان يصر على استخدام ملعقة ولا يأكل بيمناه مثلما يفعل أي شخص متحضر، وأما محاولاته الصبيانية لشرب الماء من وعاء من دون أن يلامس فمه، فكانت أمرًا أثار من الضحك الكثير بين الكبار والصغار. لماذا لم يمضع التنبول؟ ولماذا يُكثر من تناول النبيذ والعَرق؟ وأي عادات غريبة وعبثية تلك التي لديه! أثارت عادة البرتغاليين في المشي

مع كلابهم حيرة شديدة لدى أهل جوا. لماذا يحتاجون إلى المشي معها؟ ألا يمكن للكلاب المشي وحدها؟ لكنهم سلّموا بأنهم كانوا محاربين أشداء، ويحسنون استخدام الأسلحة النارية ويتحلون بشجاعة كبيرة، كانت هذه حقائق لا يمكن أن ينكرها كل مَن يقدر هذه الأشياء حق قدرها. ولكنهم كانوا أيضًا غلاظ القلوب وعديمي الأخلاق. وفي أحسن الأحوال كانوا غريبي الأطوار، وهم في نهاية المطاف قراصنة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العاشر

«إكسير البهجة واللذة»

تم للبرتغاليين الآن الاستيلاء على جوا، وأدرك ألبوكيرك أنه هو نفسه لا يمكنه البقاء فيها طويلًا، وعقد عزمه على مغادرتها وبرفقته القسم الأكبر من قواته في أقرب وقت، فالمدينة التي احترق بعضها لم يعد يمكنها أن توفر لرجاله كفايتهم من المؤن. وبالإضافة إلى ذلك، وخلال الأسابيع الأولى من عام ١٥١١، وفي غضون أربعة أشهر من غزوِه جوا، تلقى ألبوكيرك رسالة عاجلة من ديوجو ميندِيز دي فاسكونسيلوس يبلغه فيها أن حملته الموجهة إلى ملقا تواجه تعثرًا، وأن بعض البرتغاليين قد أُخذوا رهائن. كان عليه أن يهب من فوره لنجدتهم. ولذلك أبحر ألبوكيرك في أبريل من ذلك العام لشن غزوة جديدة، مصطحبًا معه الكثير من جنوده البرتغاليين المخلصين ممن كانوا معه في جوا، ولكن لوبيز آثر هذه المرة أن يبقى في جوا. كان واضحًا، بسبب الرياح الموسمية، أنه لن يعود قبل مرور عدة أشهر. وحينما سيلتقي الاثنان مرة أخرى، سيكون ذلك في أشد الظروف قساوة. وسوف يختفي لوبيز تمامًا من أي سجلات تاريخية مع مغادرة ألبوكيرك جوا. ومن نواحٍ عديدة، لم يكن ذلك مفاجئًا في مصدرنا الرئيسي، وهو «تعليقات ألبوكيرك»، الذي سلط الضوء على القباطنة والنبلاء ذوي الشأن ممن يحيطون بالحاكم. كان لوبيز على حافة هذه الدائرة الداخلية، وله من الأهمية ما يجعله موجودًا في حضرة ألبوكيرك، بيد أنه لا يبلغ المكانة التي تجعل المؤرخين يأتون على ذكره.

وحينما يظهر لوبيز ثانية في السجلات سيكون موجودًا في بيجابور وقد اعتنق الإسلام. ومما يثير الدهشة أنه سيكون مستعدًّا للقتال (بل والموت) مع سلطان بيجابور ضد بني قومه من البرتغاليين. كان تحولًا حادًّا في الأحداث وللمرة الأولى سوف يصبح لوبيز في بؤرة هذه الأحداث. ظل حتى الآن يؤدي دورًا ضئيلًا لدى ألبوكيرك العظيم، الذي هيمنت قوة شخصيته على كل مشهد. ولكن من هذه اللحظة، سوف يشهد مسار الأحداث في القصة تحولًا مثيرًا مع خروج فرناو لوبيز من منطقة الظل. وإذا أردنا تفسير هذا التحول الملحوظ، فمن الضروري أن نقتفي أثر خطوات لوبيز في رحلته من جوا إلى بيجابور التي قطع المسافة بينهما في ثمانية أيام.

* * *

في أثناء وجوده في جوا، كانت تتناهى إلى سمع لوبيز في أول الأمر حكايات يرويها التجار والمسافرون، بعضها حقيقي وبعضها حافل بالمبالغات حول سلطنة بيجابور المجاورة التي لا تفصلها عن جوا سوى ثمانية أيام سيرًا على الأقدام. وعلَّق على ذلك شاعر فارسي عاش في القرن السادس عشر قائلًا:

«لو أنهم صنعوا إكسير البهجة واللذة، فسيكون ذلك من تراب بيجابور المقدس».

حتى الآن، كانت المواجهات التي جمعت بين لوبيز وسلطنة بيجابور هي إما في قتال جنودها وإما عبر لقاءات جمعته بتجارها الذين يأتون جوا لبيع بضائعهم في أسواقها المتنوعة. لسنوات عديدة، ظلّت جوا وبيجابور تتاجران معًا، وكان التجار ينطلقون يوميًّا في رحلتهم التي يقطعونها في ثمانية أيام. ولعل وصول البرتغاليين أربك هذه الحركة، ولكن ذلك لم يستمر طويلًا، وسرعان ما بدأت التجارة والمقايضة تتدفقان مرة أخرى. ولكن بيجابور كان بها ما هو أكثر من التجارة. ربما كانت لزوجة لوبيز المسلمة أواصر قربى تربطها ببيجابور، وربما سمع منها بعض الحكايات. ومع ذلك، فقد كان في وضع مثالي يتيح له أن يفهم تمامًا أن ثمة حياة مختلفة توجد بها حتى وإن فصلته عنها مسيرة ثمانية أيام.

وعلى الرغم من أن شهرتها اليوم لا تضاهي تلك التي تحظى بها الإمبراطوريتان الأكبر وهما الإمبراطورية الصفوية والإمبراطورية المغولية، فإن سلطنة بيجابور الإسلامية كانت، بحسب تعبير مؤرخَي الفن جورج ميتشل ومارك زبروفسكي، واحدة من أكثر مناطق الهند «غموضًا وغرابة... وكانت مكانًا مترعًا بالحلم والخيال». ولأنها كانت تقع بين الإمبراطورية المغولية من الشمال وإمبراطورية فيجايانَجار الهندوسية من الجنوب، فقد كانت بيجابور واحدة من الممالك الخمس الواقعة في هضبة الدكن في وسط الهند، التي نشأت، في بداية أواخر القرن الخامس عشر، إثر الانهيار البطيء لسلطنة باهماني التي استمرت ٢٠٠ عام. ولعل ما سمعه لوبيز عن أوصاف بيجابور ومساحتها الهائلة وكثرة سكانها وتحصيناتها القوية وقع في نفسه موقعًا حسنًا. ولعله استمع باهتمام لما يُحكى عن سلطانها راعي الفنون، وكذلك الحكايات التي تقول إن أسواقها «تمتلئ بالسلع النادرة، من تلك التي لم ترها عين أو تسمع بها أذن في أي بلد آخر» مثل الخزف الصيني والنبيذ الإسباني والخيول العربية والأحجار الكريمة مثل الزمرد. وفوق كل ذلك لعل ثروة بيجابور هي ما افتتن به لوبيز، إذ كانت هضبة الدكن تشتهر بحقولها الزاخرة بالألماس، وبكونها وقتئذٍ المصدر الرئيسي للأحجار الكريمة في العالم. وبالإضافة إلى ذلك، أسهمت رواسب معدن الحديد والتربة السوداء الغنية، وهي تربة مثالية لزراعة القطن، في تضخم ثروات المدينة.

تحيط هالة من الأساطير بأصول الرجل الذي حكم بيجابور خلال وجود لوبيز في جوا، وهو سابايو (يوسف عادل خان). وبحسب ادعائه، فإنه ابن للسلطان العثماني مراد الثاني. وتقول الحكاية إن ولي العهد، وحتى يقضي على أي منافسين له بعد وفاة السلطان، أمر بإعدام جميع أبناء مراد. ولكن والدة

يوسف الجسورة والمغامرة وضعت سرًّا في مكانه صبيًّا من العبيد وبعثت بوليدها إلى بلاد فارس (وللأسف، لم يذكر التاريخ ما حلَّ بهذا الصبي العبد الذي وُضع في مكانه رغم أن المرء لا يستبشر له خيرًا). وبعد مغامرات عديدة ذات طابع ملحمي، وصل يوسف إلى بلاط السلطان البهمني حيث نال سريعًا الحظوة لدى السلطان بفضل قوة شخصيته واتقاد ذهنه، ومن ثَمَّ عيَّنه حاكمًا على بيجابور. وفي البلاط، أصابت يوسف الدهشة لما رآه من أجواء البذخ والفخامة التي تحيط بالسلطان. ولاحظ كيف كان موكب السلطان يتقدمه ١٠٠ عازف للأبواق و١٠٠ راقصة و٣٠٠ جواد مزين بالذهب، فيما يمشي خلفه ١٠٠ قرد و١٠٠ جارية، وكيف كان للقصر الذي يسكنه سبع بوابات، يصطف على كل واحدة منها ١٠٠ حارس و١٠٠ كاتب، يسجل بعضهم القادمين، فيما يسجل آخرون المغادرين. وحينما بدأ التفكك يضرب أطناب السلطنة البهمنية، التي سيطرت على معظم هضبة الدكن، في أواخر القرن الخامس عشر، انتهز يوسف فيما يبدو هذه الفرصة وأعلن نفسه حاكمًا مستقلًّا في بيجابور. إنها حكاية مثيرة، ولكن يشوبها على الأقل تناقضان مزعجان. أولًا، تخلو المصادر العثمانية من أي إشارة إلى يوسف هذا (ولا بد أن أبناء السلاطين كانوا يسجَّلون)، وثانيًا، أن يوسف كان شيعيًّا، خلافًا للعثمانيين الذين ينتمون إلى أهل السنة، بل كان أول حاكم في الهند يعلن المذهب الشيعي مذهبًا رسميًّا للدولة. وهناك رواية أخرى عن أصوله وهي أقل ملحمية، ولكنها قد تكون أصدق من سابقتها، وتقول إن يوسف عادل خان كان على الأرجح عبدًا في خدمة محمود جاوان، وهو وزير مشهور في السلطنة البهمنية. وتذهب هذه الرواية إلى أنه كان في الأصل من سافا، وهي مدينة تقع إلى الجنوب من طهران، على الطريق القديم الذي يربط ما بين بحر قزوين ومدينة قُم. ولذلك عُرف باسم «يوسف السافاي»، ولعل ذلك هو أصل لقبه «سابايو» الذي عُرف به في السجلات البرتغالية. وفي أثناء وجوده في السلطنة البهمنية، شق يوسف طريقه حتى عُيِّن في منصب «القائم على الإسطبلات»، ما جعله مسؤولًا عن سلاح الفرسان، ثم أصبح حاكمًا لمقاطعة دولت أباد، مما جعله صاحب نفوذ وقوة عظيمين. واضطلع بدور فاعل في أثناء المؤامرات والحروب الأهلية التي عاشتها السلطنة البهمنية في سنوات تفككها حتى أصبح يُدعى له في خطبة الجمعة بصفته حاكم بيجابور، في عام ١٤٨٩. وفي هذه الرواية نجد أنه فارسي بالمولد، وأنه بالزواج بأميرة من مملكة ماراثا الهندية، وهي بونجي خاتون، ضمن أن يجمع نسله بين العرق الهندي من ماراثا والعرق الفارسي. ولهذه الرواية دلالاتها لعدة أسباب مهمة، وعلى رأسها أنها ترمز إلى الجمع بين الموروثات الهندوسية والإسلامية.

وسواء كانت تجري في عروقه دماء ملكية أو كان في الأصل عبدًا، فإن رؤية يوسف عادل خان هي مما لا يمكن إنكاره، فقد استلهم ما شاهده في بلاط

السلطنة البهمنية، وشرع في تحويل بيجابور من منطقة حدودية متاخمة للوجود الإسلامي في الهند إلى مركز مزدهر للحضارة الإسلامية مستندًا في ذلك إلى الموروث الإسلامي والهندوسي والتركي، واستطاع أن يمزج بين الفن والفلك والتصوف والسياسة في بلاط ملكي مفعم بالحيوية. وهاجر كُتَّاب وشعراء وفقهاء وخطاطون من شمال الهند وإيران وآسيا الوسطى وشرق أفريقيا إلى بيجابور حتى أصبحت تُعرف باسم «فلورنسا الدكن»، وهناك كانوا جميعًا يسعون لنيل الرعاية من بلاط يوسف الذي سرعان ما أصبح «نافذة مشرَّعة على عالَم ساحر». وفي عهد سلالة عادل شاه، أصبحت بيجابور جوهرة هضبة الدكن، ومركزًا للفن والهندسة المعمارية ونشأ بها أسلوب مميز في الرسم، يمثل مزيجًا من المنمنمات الفارسية والتقاليد الهندوسية الأصلية. وفي بيجابور ازدهر تراث فني رائع، وهو طراز ظهرت فيه عناصر الفن المعماري الهندوسي على المباني الإسلامية، فأصبح يمكنك العثور على أَرجُل العرش الهندوسي منقوشة على قواعد أعمدة المساجد، وكذلك أسطوانات الأسقف المربعة المتدرجة مع السقوطات التي تشبه زهرة اللوتس وتدعم الأفاريز البارزة في مقابر المسلمين. وفي جميع أنحاء المدينة المسوَّرة التي تتخذ شكلًا دائريًّا (وتتوسطها قلعة)، توجد قصور وأقواس ومقابر وصهاريج وبوابات ومآذن. كل واحدة بمثابة جوهرة معمارية، وجميعها منحوتة من صخور البازلت المحلية الغنية، فيما يغطي واجهاتها البلاط المزجج، بما يضفي المزيد من الثراء على هذا الكنز الرائع.

كانت بيجابور تنعم بالجمال، ولكنها أيضًا امتلكت القوة، وليس أدل على ذلك من المدفع الذي يبلغ وزنه ٥٥ طنًّا وطوله أربع عشرة قدمًا (٤.٣ متر) والمسمَّى «ملك الميدان» (ميدان المعركة)، وكان منصوبًا أعلى أحد أبراج الأسوار الخارجية للمدينة. وتظهر على فوهته صورة أسد يقبض بأسنانه على فيل. وقد صُب في أحمدنجار التي تبعد عن بيجابور ١٥٠ ميلًا ثم جَرَّه إلى بيجابور نحو ٤٠٠ ثور وعشرة أفيال. وكان لقوة انفجاره دوي هائل حتى إنه كان على الرجال الذين يطلقون النار منه أن يقفزوا إلى بركة مياه قريبة بعد أن يشعلوا الفتيل حماية لآذانهم. وفي بعض الأحيان، كان المدفع يطلق رؤوس الأعداء المقطوعة وكأنها قذائف. وكما اجتذبت المدينة الشعراء والفنانين، اجتذبت أيضًا المقاتلين والمرتزقة. ولحسن حظنا أن نجد رواية شاهد عيان سابقة على استيلاء البرتغال على جوا في عام ١٥١٠. فقد زار لودوفيكو دي فارتيما، وهو رحَّالة وتاجر إيطالي تظاهر بالإسلام مدةً، بيجابور في عام ١٥٠٤. ولعله التقى يوسف عادل خان الذي يشير إليه باعتباره مملوكًا أُعتق. ومما يثير الاهتمام، أن دي فارتيما أشار إلى أن يوسف كان «يميل بشدة للمرتزقة من ذوي البشرة البيضاء لتعزيز قوته، ويقود أكثر من ٤٠٠ مملوك». وحينما يستقطب رجلًا من البيض، كان يوفر له أوضاعًا حياتية

ممتازة، ويعطيه ما لا يقل عن خمسة عشر أو عشرين «باردو» في الشهر. لكن دي فارتيما يصف حادثة مثيرة للاهتمام: حينما كان يوسف عادل خان يرغب في تقييم المهارات القتالية لدى أحد المرتزقة الذين يرغبون في الالتحاق به، كان «يأمر بجلب درعَين من الجلد. ويرتدي كل شخص درعًا ثم يتبارزان. وإذا ثبتت له قوة هذا الشخص أو ذاك، فإنه يضعه ضمن قوات النخبة، وإلا فإنه يستبقيه كي يؤدي له خدمة أخرى غير القتال».

وينبغي هنا الوقوف قليلًا أمام اختيار دي فارتيما الذي تحول بموجبه إلى ما يمكن تسميته «مسلمًا مؤقتًا». لم يكن هذا التحول عملًا نادرًا بأي حال، فهو طريق اختار أن يسلكه العديد من التجار المسيحيين أو اليهود ممن عاشوا وتاجروا في البلدان الإسلامية. وكانوا عمومًا يفعلون ذلك لأسباب عملية، لأنه لم يكن يساعدهم على الاندماج بسهولة في المجتمع المسلم وحسب، ولكنه أيضًا يجنبهم بطريقة لائقة عقبة متكررة وهي التجار المسلمون الذين لا يرغبون في التجارة إلا مع أمثالهم من المسلمين. وحالما ينتهي التجار من تجارتهم ويعودون إلى العالم المسيحي، كانوا يعودون إلى ديانتهم الأصلية. وفي أثناء وجوده في بيجابور، أشار دي فارتيما إلى أن غالبية الجند كانوا من الأجانب. وكتب تومي بيريز في قرابة عام ١٥١٥ عن بيجابور:

تضم وفق أرجح التقديرات ثلاثين ألفًا من الفرسان، وعددًا لا يُحصى من المشاة. أما الرجال من ذوي البشرة البيضاء [يشير بيريز هنا إلى التُّرك]، الذين نسميهم «الروم»، فقد اعتادوا عمومًا القدوم إلى المملكة وإلى جوا للحصول على المال ونيل الشرف. واعتاد الملك أن يمنحهم ألقابًا مثل فلان بن فلان ملك، وكان لقب خان هو أعلاها شرفًا.

كان الأجانب يتقاضون أجورًا مجزية، وكانت فرص الترقي الاجتماعي السريع عاملَ جذبٍ قويًّا للمغامرين المستعدين للمشاركة في القتال. وتشير المصادر البرتغالية إلى وجود نحو ٩ آلاف من المرتزقة الأجانب في جوا في عام ١٥١٠، وأن ألبوكيرك حينما استولى على جوا قتل ٢٠٠٠ رجل من البيض كانوا يقاتلون في صفوف المسلمين. كما أشارت المصادر إلى أن باناستاريم حينما حاصرها الحاكم عام ١٥١٢، دافع عنها ٦ آلاف مقاتل أجنبي و٣ آلاف جندي آخر. ولا بد أن وجود عدد كبير من الأجانب ممن اختاروا اعتناق الإسلام كان مفاجئًا لِدي فارتيما، ولكنه كان أمرًا شائعًا للغاية في القرن السادس عشر. مما لا شك فيه أن العديد من الذين توافدوا على بيجابور كانوا فقراء يرومون تحسين أوضاعهم المادية. وقد نال إعجابهم غياب التفرقة العنصرية والتكافؤ الظاهر في الفرص التي أتيحت لهم، وظهر جليًّا أن أي أحد، مهما كانت أصوله العرقية أو خلفيته المجتمعية، يمكنه أن يرتقي إلى مكانة بارزة ويصنع ثروة كبيرة. وشجع ذلك آخرين على التدفق إلى بيجابور التي خلت من

أي تمييز يستند إلى الأصل الاجتماعي أو العرقي لمن يتحول إلى الإسلام: فلا فرق بين حبشي وبين خُراساني. واستطاع بعض هؤلاء بالفعل أن يصبحوا ذوي سلطان كبير، وتُعزى قلة ما نعرفه عن هؤلاء الرجال بدرجة كبيرة إلى أنهم جميعًا جاءوا من طبقات اجتماعية دنيا، ولذلك لم يسجلوا أي شهادات، وتركوا لنا، على نحو محبط، صفحة بيضاء فيما نحاول نحن أن نرسم الجوانب الشخصية لتاريخهم. لكن هذا التنوع الديني في بيجابور لم يكن ظاهرة فريدة من نوعها، إذ كان ذلك موجودًا أيضًا في شمال أفريقيا وفي الإمبراطورية العثمانية، التي اجتذبت العديد من المتحولين إلى الإسلام خلال هذه الحقبة. كان تحول الأشخاص إلى الإسلام أو «التحاقهم بالترك» كما كان يُشار إلى ذلك في أوروبا حقيقةً اجتماعية لا يرقى إليها شك في القرن السادس عشر. وكانت الأعداد قطعًا كبيرة، ووفقًا لبحث أجراه نبيل مطر، الذي كتب بشكل موسَّع عن العلاقات بين الإسلام وإنجلترا في العصور الوسطى، فإن عدة آلاف من الإنجليز اعتنقوا الإسلام ما بين عامَي ١٥٨٠ و١٦٣٠.

كانت بيجابور تضم بين سكانها دكنيين وفُرسًا، ولكن كان بها أيضًا أوزبك وشركس وتتار وجورجيون وتُرك، وكذلك الأحباش الذين بِيعوا في البداية كعبيد ولكنهم شيئًا فشيئًا شقوا طريقهم حتى بلغوا مناصب الإدارة والخدمة العسكرية، وأظهر كثيرون منهم مهارات عالية كمحاربين. ووجدوا أن مواهبهم في بيجابور تحظى بكل تقدير، وتَرَقى كثيرون منهم حتى أصبحوا قادة عسكريين أو وزراء في البلاط. وعندئذٍ جاء البرتغاليون.

* * *

حينما ظهر للبرتغاليين رفيقهم السابق جواو ماشادو للمرة الأولى، وهو يرتدي لباسًا إسلاميًّا ويحمل رسالة من سلطان بيجابور إلى ألبوكيرك. ربما لم يعرفوا حينئذٍ مَن عساه يكون. ولكنهم عرفوا أنه منشق. أصبحت اليوم قصة المنشقين، وهم البرتغاليون الذين تحولوا إلى الإسلام واختاروا الدخول في خدمة حاكم مسلم، طي النسيان إلى حدٍّ بعيد. ويعود ذلك جزئيًّا إلى كونها أيضًا حكايات لأشخاص من عوام الناس والمهمشين ممن لا تأتي على ذكرهم السجلات التاريخية. وهؤلاء هم الرجال الذين كانت أعمالهم، على حد قول ديوجو دو كوتو، «يتم تجاهلها، كما لو أن الحماسة لا جدوى لها إلا إذا صدرت عن ذوي النسب الرفيع». كان هؤلاء هم الذين يبحرون إلى الهند كل موسم، ويُسيِّرون السفن ويعملون على ظهرها مثل الجنود والبحارة والمجدفين. كان هؤلاء هم الخياطين والعاملين في النزل والنجارين. وكان كثيرون منهم مجرمين. ولن ندهش إذا عجزنا عن إحصاء عدد المنشقين. لم يكن أحد يعيرهم أدنى اهتمام قبل انشقاقهم، وبعد أن انشقوا، بدأوا حياة جديدة وتلاشوا. ولكننا نعلم أن عددًا هائلًا من البرتغاليين انشق في الهند خلال القرن

السادس عشر، ما أثار حفيظة لشبونة وجعلها تأمر بالتحقيق في الأسباب. وخلص التقرير إلى أن أقلية فقط من المنشقين اقترفوا جرائم، وأما البقية فكانوا فقراء تقطعت بهم السبل. وتابع التقرير: لقد فروا لأنهم «جاءوا من لشبونة وهم يبيتون النية على ذلك. وهناك آخرون ينشقون لأنهم جاءوا ولم يكن معهم أي شيء. وفرَّ بعضهم لأنهم لا يحصلون إلا على فتات الطعام أو الفاسد منه». للوهلة الأولى قد يبدو لا منطقيًّا أن البرتغاليين الذين نشأوا في خضم حرب الاسترداد وأبحروا إلى الهند لشن حرب صليبية ضد الإسلام يمكن أن يدخلوا الآن أفواجًا في صفوف المسلمين ويقاتلوا معهم، لكن الحقيقة هي أن غالبية الجنود البرتغاليين كانت لديهم أسبابهم التي دفعتهم دفعًا للفرار. بعد وصولهم إلى الهند، نسيتهم لشبونة إلى حدٍّ بعيد وتُركوا وحدهم يتدبرون شؤونهم. لا ريب أن العبء الذي تحملوه أثقلهم، إذ كان عليهم أن يدبروا لأنفسهم المسكن والكساء والطعام، وأن يشتروا أسلحتهم وأن يكونوا جاهزين للخروج مع إحدى الحملات حينما يدعو داعٍ للقتال. كانوا يتقاضون أجورًا متدنية، أو يتقاضونها متأخرة أو لا يحصلون إلا على وعود بدلًا من الأجور. وفي أحيان كثيرة لا يتقاضون أي شيء على الإطلاق. وفي معظم الأحوال، لم يكن بوسعهم مزاولة التجارة التي تعلموها لأنهم جنود، وكان عدد الذين سُمح لهم بالعمل منهم (لكونهم قد تزوجوا) قليلًا للغاية. وفي جوا، كان كل عشرة جنود يسكنون غالبًا في مسكن واحد، ويعوزهم المال والعمل، مما كان يؤدي غالبًا إلى اضطراب أحوالهم ويدفعهم إلى العنف. وإذا أظهروا أي ولاء فهو لسيدهم من أفراد الفيدالجو الذي كان عادة هو المصدر الوحيد الذي يمدهم بالغذاء. وفي الواقع، لم يكن لدى الجندي الذي يعيش بمفرده أي خيار سوى العيش في كنف أحد أفراد الفيدالجو. وإذا لم يتزوج فلن يستطيع أن ينشئ لنفسه تجارة أو يؤسس بيتًا. وفي كثير من الأحيان لم يكن أمامه سوى اتباع أحد النبلاء، وكان من الشائع أن يكون لدى كل فيدالجو «جيش» خاص من الرجال يتراوح عددهم ما بين ٥٠ و٢٠٠ شخص.

كانت حياة هؤلاء الفارين في الهند مليئة بمصاعب كثيرة، تجعلهم لا يخسرون شيئًا حينما يقررون ترك الحُكم البرتغالي في الهند. وبسبب الظروف الرهيبة التي وجد هؤلاء الجنود أنفسهم فيها، ولأنهم غالبًا ما كانوا يُتركون في مواقع نائية عبر الحدود، كان الفرار يحدث بوتيرة متكررة وسهلة. كانت إمبراطورية البرتغال في آسيا تتألف من سلسلة من القلاع الواقعة في مناطق ساحلية في قارة آسيا، ولكن الأمور كانت تختلف في المناطق الداخلية. وكانت كل قلعة تحيط بها أعداد هائلة من أهل البلاد الأصليين. ربما أصبحت مدينة جوا قوة سياسية وإدارية تابعة للبرتغال، لكنها من الناحية الجغرافية بقيت جزءًا من اليابسة الهندية. وعلى الرغم من أن المدينة وقعت تحت السيطرة البرتغالية، فقد ظلت الأراضي الأخرى التي تتكون منها جوا، وهي الجزر

الثلاث ومناطق بارداز إلى الشمال وسالسيت إلى الجنوب، أراضي ريفية تمامًا. كانت هذه المناطق هي ما يعكس الوجه الحقيقي للهند. وإذا ابتعد البرتغالي بضعة أميال، فإنه قد يختفي تمامًا من بين أبناء وطنه، حينما يدخل عالمًا لم تطله أي تأثيرات أوروبية. وفور وصول البرتغاليين إلى الهند، تخلى كثيرون منهم عن مناصبهم وفروا سريعًا إلى الداخل. أصبحت المشكلة عظيمة الخطر ما جعل العديد من نواب الملك، منذ عهد ألميدا فصاعدًا، يعارضون ترك الجنود وحدهم في القلاع الحدودية لأن ذلك لن «يُعجِّل إلا بفرارهم». وفي واقع الأمر، كان ذلك هو معدل الفرار من القلاع الحدودية، مما دعا ديوجو دو كوتو، الذي كتب عام ١٦٠٠، إلى التأكيد أنه في معظم القلاع، ستكون معجزة أن يُعثر حتى على نصف عدد الجنود المدرجة أسماؤهم في القائمة الرسمية التي تضم جميع أفراد القلعة. وعلم ملك البرتغال بالأزمة، وكتب يقول: «أُبلغت أن العديد من الجنود البرتغاليين يدخلون في خدمة الموريين والكفار. وأن بعضهم يفعل ذلك رغبة في الحصول على الأجور، وآخرين يفعلون ذلك للإفلات من عقوبة تقررت ضدهم». وظلت الأمور على هذا المنوال تقريبًا حتى نهاية القرن السادس عشر، حينما كتب الرهبان اليسوعيون أن «العديد من المسيحيين تركوا ديننا المقدس وفروا إلى بلاد الموريين». وبحلول عام ١٧٠٥ أصبح الوضع بالغ الخطورة حتى إن نقص أعداد الجنود جعل نائب الملك يقترح على التاج البرتغالي تشكيل أفواج عسكرية من أهل جوا الأصليين، لأن «العديد [من الجنود البرتغاليين] يفرون في جميع الاتجاهات». ولأنهم لم يعرفوا سوى المشقة وهم في ظل سيطرة أبناء جلدتهم، لم يكن لدى الكثيرين من المنشقين ما يخسرونه بالفرار، بل كانوا يربحون على الفور وبشكل كبير في كثير من الأحيان حال فعلوا ذلك. ومن المؤكد أن معرفتهم بالأسلحة النارية، واستخدامها عمومًا، جعلتهم مرغوبين لدى حكام المسلمين، حيث كانوا يقدمون لهم خدمات متنوعة، ولذلك سوف يتولى كثيرون منهم في النهاية مناصب رفيعة وذات شأن. وتشير السجلات البرتغالية منذ عام ١٥٠٢ إلى أن مسيحيَّين تخليا عن موقعيهما وانتقلا إلى الأراضي الخاضعة لحاكم كاليكوت، حيث أظهرا براعة في سلاح المدفعية. كما نقرأ أنه في عام ١٥٠٧ في هرمز، عبَر أربعة رجال إلى معسكر الأعداء، كي يعلموهم كيف يقاتلون على الطريقة البرتغالية. وكان الرماة والفرسان هم الأعلى قيمة عند العدو.

كان بالإمكان العثور على منشقين برتغاليين في شتى أنحاء الهند. ففي ولاية جوچارات، استعان بهادور شاه بزهاء ٥٠ من رماة المدفعية المنشقين للقتال ضد قوات المغول خلال العقد الثالث من القرن السادس عشر (١٥٣٠). بل إن مستعمرة برتغالية من المنشقين أسست نفسها داخل مملكة فيجايانَجار الهندوسية. وزار كاهن يسوعي بلدة بالمملكة كانت تضم ما بين ٥٠ و١٠٠

أسرة في عام ١٥٦٧، وأشار إلى أن أحدًا من السكان البرتغاليين الكُثر لم يبدِ أي رغبة في العودة إلى البرتغال. وفي عام ١٦٢٠، كان نحو ٥ آلاف برتغالي يعملون مرتزقة ما بين البنجال وشرق إندونيسيا، وفي عام ١٧٨٠ أسس البريطانيون في بومباي فوجًا عسكريًّا قوامه حصريًّا من المنشقين البرتغاليين. وكان المنشقون صغارًا في السن، بل كان بعضهم صغيرًا للغاية. وبحسب سجلات «الأرشيف التاريخي لما وراء البحار» في لشبونة و«الأرشيف التاريخي لجوا» كان العديد منهم دون العشرين، ويشير مصدران إلى فتيان في الرابعة عشرة من أعمارهم تركوا البرتغاليين وقصدوا الطرف الآخر. وكان بعضهم حدثَ السن بدرجة تبعث على الخجل. وبالرغم من أنه لم يكن مسموحًا للفتية ممن هم دون الثالثة عشرة بالخدمة خارج البلاد، فقد غادر الطفل برناردو تافيرا دي سوزا البرتغال قاصدًا الهند في ١٦٨٠ وهو في التاسعة من عمره. ومما يبعث على الدهشة أن هناك بعض النسوة البرتغاليات قد انشققن. وعلى الرغم من أن العدد الفعلي للنساء اللائي غادرن البرتغال قاصدات آسيا كان ضئيلًا للغاية، فقد أثار تقرير في عام ١٥٦٧ هذه المسألة حينما أشار إلى مشكلة «انتقال بعض النساء إلى جانب الموريين بعد أن اختبأن من أزواجهن في الملاجئ التي توفرها الكنائس». وفي كتاب أسفاره، ذكر فرناو ميندیز بنتو أنه قابل مصادفة امرأة برتغالية في عام ١٥٤٥ فيما تُعرف اليوم بدولة لاوس وأبلغته أنها لا تنوي العودة إلى البرتغال.

وقد يتصور المرء أن المعلومات التي مفادها أن أبناء جلدتهم البرتغاليين يتحولون إلى الإسلام ويلتحقون بصفوف المسلمين للقتال معهم سوف يكون لها وقع الصدمة في لشبونة، ولكننا كلما طالعنا المزيد من الروايات المعاصرة عن المنشقين، زادت دهشتنا من غياب أي شعور بالخزي أو الاستنكار الشديد من ناحية البرتغاليين. بل على النقيض، توجد إشارات كثيرة توحي بإعجاب مفعم بالحسد والكراهية. فعلى سبيل المثال، يكاد ديوجو دو كوتو، يترحم على سانشو بيريز، وهو من رماة المدفعية، وأصبح يُدعى بعد إسلامه باسم «فرنجي خان» (التي حرفها البرتغاليون إلى «فرنجيكان») وتولى منصبًا بارزًا في بلاط الملك نظام شاه في أحمدنجار:

كان هذا الرجل يُضرب به المثل في الشجاعة والإقدام، حتى إنه يمكن اعتباره من بين الأشجع في العالم، لأنه ورغم وصوله بمفرده إلى تلك المملكة التي تعتبره قاتلًا، فقد قدَّم من فوره الدليل على بأسه وشجاعته، ما جعل الملك يسبغ عليه رعايته ويعينه قائدًا لسلاح الفرسان، وفي هذا المنصب أيضًا أكد جدارته مرة أخرى وقدَّم الدليل على صدق حماسته، حتى أصبح القائد العام لجيش المملكة بأسرها، والمقدَّم بين الذين يحضرون مجلس الملك، وأُعطي الكثير من الأراضي والأموال، حتى أصبح لديه ما بين عشرة

آلاف واثني عشر ألف فارس. وكان يهابه كل القادة والموريين، ولم يكن هناك أحد لا يُجله أو ينحني له... ولولا أن هذا الرجل سوَّد صحيفة أعماله بتخليه عن دينه، وموته وهو فرنجي خان، لأصبحت أعماله مآثر تنال إعجاب العالم، ولأقمنا له نُصبًا تذكاريًّا لا يزول أبدًا، لأن أعماله كانت عظيمة وكثيرة.

وهناك مثال آخر وهو جونسالو فاز كوتينيو، الذي كان فيدالجو وفارسًا وصديقًا للعديد من نواب الملك حتى صدر أمر بحبسه لجرائم وأخطاء اقترفها. وهرب مع سجناء آخرين من السجن المركزي في جوا في أربعينيات القرن السادس عشر (١٥٤٠) وأعلن تمرده، ليصبح مزيجًا يجمع ما بين صفات الفيدالجو وصفات القرصان. وبعد مغامرات عديدة، انتهى به المطاف للعمل في خدمة أحد قادة سلالة عادل شاه في بيجابور، الذي أقطعه مناطق واسعة تُغل إيرادات كثيرة، «حيث أمضى حياته موريًّا طائعًا مع زوجته وأطفاله».

ويمكن للمرء أن يتصور بطبيعة الحال، أن هؤلاء المنشقين كانوا مصدر إزعاج واضح لألبوكيرك. كان أمرًا مؤسفًا ولكنه مفهوم أن يتخلى بعض البرتغاليين، وغالبيتهم من العامة، عن مواقعهم. ولكن أن يختاروا الإسلام دينًا فهذا ليس أقل من ردة بغيضة. ومن الجلي أنه كان على اطلاع بالمشكلة منذ وطأت قدماه الهند، فمنذ عام ١٥١٠، في أثناء غزوه جوا، وحينما قرر أن يبعث برسول إلى سلطان بيجابور للحوار، أمر ألبوكيرك بأن يكون مجدَّف القارب الذي حمل الرسول من سكان جوا المحليين الذين يُسمون «كناريزي» وليس برتغاليًّا، خشية من هروب هذا الأخير. وبعد ذلك بعامين، أي في عام ١٥١٢، كتب ألبوكيرك إلى الملك، يبلغه أنه سوف يعفو عن بعض «الرجال الذين التحقوا بالموريين»، ثم كتب مرة أخرى بعد عامين آخرين، قائلًا إنه «ألقى القبض على فارين كُثر ممن التحقوا بخدمة هيدالكاو [إسماعيل عادل خان، سلطان بيجابور]». وفي عام ١٥١٥، أمر ألبوكيرك بدفع أربع عشرة قطعة «زيرافين» إلى جيرونيمو دي سوسا، قبطان السفينة «ساو فينسنتي»، «للبحث عن رجال انضموا إلى الموريين». كما استعان بمسلمين من قنَّاصي الفرص والمكافآت، وفي السنة نفسها أمر عامله في هرمز بدفع «أربعين قطعة «زيرافين» وبعض البضائع الأخرى إلى ريس جيكسر، وهو موري، لإمساكه بدييجو دالفيتو على الساحل الفارسي، بالإضافة إلى ستة برتغاليين آخرين التحقوا بالموريين».

وثمة نقطة مهمة ينبغي الوقوف عندها في هذه المرحلة، وكان يتم غالبًا تجاهلها، رغم أهميتها البالغة في الوصول إلى فهم أعمق للأسباب التي كانت تجعل البرتغاليين يختارون الانضمام إلى المسلمين. ربما كان حكام الممالك الإسلامية يحرصون على استقطاب البرتغاليين وغيرهم من الأوروبيين ممن توافدوا على بلاطهم لمعرفتهم بالأسلحة النارية على الأغلب، أو لأنهم كانوا

يستطيعون تأدية مجموعة متنوعة من الخدمات المفيدة، وكانوا مطلوبين لمهاراتهم وليس لمعتقداتهم. وببساطة، لم يكن يتعين على البرتغاليين الذين انتهى بهم المطاف للعمل في خدمة المسلمين اعتناق الإسلام. ولم يكن ثمة ما يوجب عليهم ذلك، حيث كان بوسعهم أن يكونوا في خدمة هذا الحاكم أو ذاك، وأن يتقاضوا مكافآتهم كمرتزقة، من دون أن يتخلوا عن دينهم. ومن المؤكد أن هؤلاء الحكام المسلمين لم يطلبوا منهم التحول إلى الإسلام. ولم يكونوا يعيرون ذلك أدنى اهتمام ما داموا يؤدون واجباتهم، التي كانوا يجزلون لهم العطاء عليها. وفي واقع الأمر، كانت هناك غالبًا ميزة في إبقاء البرتغاليين على مسيحيتهم؛ فذلك يتيح لهم الحفاظ على علاقاتهم والعمل كوسطاء مع التاج البرتغالي من دون أن يتعرضوا للنبذ من جانب من يشاركونهم الدين. وبعبارة أخرى، كان الفرار شيئًا، والتحول عن الدين شيئًا آخر.

لماذا إذن كان البرتغاليون يتحولون إلى الإسلام؟ فعل ذلك كثيرون لما كان يعقبه من صعود اجتماعي. فحالما يصبح المرء مسلمًا، فإن أحدًا لن يلتفت إلى أصله، ومن ثَمَّ يمكنه أن يرتقي إلى مرتبة ذات شأن. كانت هذه المساواة بالنسبة إلى البرتغاليين، الذين اعتادوا على تراتبية طبقية خانقة تُقسِّمهم إلى نبلاء وعامة، مساواة تذهب بالعقول. وببساطة لم يكن بوسع المسيحية أن تباري الإسلام في مزاياه الدنيوية، ولا يبدو أن الانشقاق كان يكلفهم الكثير. وعلى أي حال، لم يكن المنشق، وبعد أن تخلى عن إيمانه المسيحي، يتعرض على ما يبدو لأي عقاب إلهي لاحق (في هذا العالم على الأقل)، ولكنه كان يعيش حياة هانئة كمسلم. وعند آخرين منهم كانت قلوبهم هي البوصلة، فقد تزوجوا بمسلمات. وفي الواقع، وكما رأينا، كان ألبوكيرك نفسه هو من يُشجع الزواج بين البرتغاليين ونساء المسلمين. وكثيرًا ما كان البرتغاليون يتزوجون من أُسر ليس لديها أبناء ذكور، وكان زوج الابنة الأجنبي تتبناه عائلة العروس فعليًّا. وقد شاع هذا التقليد في جنوب الهند لكونه يحول دون فقدان مهر الابنة وغير ذلك من الثروة العائلية. وسرعان ما كان الرجال، الذين اندمجوا في أُسرهم الجديدة، يحذون حذو المسلمين في لباسهم وعاداتهم ويصبحون آباء. كان كثير منهم قد جرَّب ضيق الحال في لشبونة، وتركوها لتحسين حظوظهم من الدنيا، فلماذا إذن يعودون إليها؟

وعلى الرغم من أن هناك العديد من الأسباب الوجيهة التي سيقت لتفسير ذلك، فإن أحد الأسئلة الجوهرية يظل بلا جواب وهو: لماذا لوبيز؟ أو حتى نطرح السؤال على نحو أدق، لماذا يتخلى فيدالجو وفارس مثل فرناو لوبيز عن مكانته في المجتمع، ويدير ظهره لكل ما عرفه ويقرر اعتناق الإسلام؟ وخلافًا للغالبية العظمى من المنشقين، لم يكن تحول لوبيز إلى الإسلام لأسباب مالية، لأن حياته لم تكن قطعًا حياة عناء ومشقة، ولا يُحتمل أنه كان يتطلع إلى منزلة اجتماعية أفضل مع المسلمين، لأنه كان بالفعل صاحب

منزلة تحت الحكم البرتغالي. وفي جوا، لا بد أنه كان يمتلك عبيدًا ويعيش حياة لم يكن بوسعه أن يعيشها في لشبونة. وعلى الرغم من أنه لم يكن ينتمي إلى سلالة نبيلة، فقد اختلط بدوائر ذوي القوة والجاه وحظي بقدر من التعليم. وبعدما أمضى بضع سنوات في الهند، لعله تطلع إلى العودة إلى البرتغال، حيث يمكنه أن يجد لنفسه منصبًا يرفع من شأنه وشأن أسرته في مجتمع لشبونة. لم يكن من المنطقي أن يتحول لوبيز إلى الإسلام، ولم يكن ذلك التحول على ما يبدو يحقق له أي هدف مادي أو فوري. ومع ذلك، فإن لوبيز لم يتحول إلى الإسلام فحسب، بل وجَّه سيفه إلى صدور أبناء جلدته من البرتغاليين. إنه لغز يتعين تفسيره، بمعايير زمنه، تفسيرًا دقيقًا لا عجلة فيه.

لا يمكن أن يكون وصول لوبيز إلى بيجابور قد غاب عن أعين أهل البلاد، لأنه وبالرغم من أن كثيرين من البرتغاليين توافدوا على المدينة، فقد وجدهم المسلمون عمومًا من العوام والأجلاف ممن لا يسترعون انتباه أحد. أما لوبيز فقد استرعى الانتباه. كانت ملابسه تبدو متميزة، ويمكن للمرء أن يتصور أنه لقي ترحابًا حارًّا وقُدمت له في الحال خُلعة يلبسها على سبيل التكريم. ولا شك أن وجود رجل مثل ماشادو في المدينة كان من شأنه مساعدة لوبيز على الاستقرار، وجعل أهل بيجابور يقدرون مكانته الاجتماعية. وكان تقديم الخلعة، المصنوعة من أنقى أنواع الحرير، يمثل حفاوة بالغة الأهمية يسبغ من خلالها الحاكم الشرف على ضيفه وينشئ بينهما عهدًا ملزمًا. وكان عهدًا يُنتظر من لوبيز أن يحفظه. وصل لوبيز إلى بيجابور في فترة سادها الاضطراب والتناحر، لأنها كانت عادة سيئة لحكام سلالة عادل شاه أن يموتوا صغارًا ويتركوا وراءهم معارك خلافتهم مفتوحة. وكان هذا هو ما جرى مع يوسف عادل خان، الذي سهَّلت وفاته طريق ألبوكيرك لاستعادة السيطرة على جوا، حيث خلفه ابنه إسماعيل عادل خان، وهو لا يزال حَدَث السن. ونظرًا إلى حداثة سن السلطان الجديد، عُين نائب وصيٍّ، وهو كمال خان (ولم تكن تجمعه به صلة قربى) الذي خدم إسماعيل عادل خان بصفته «حامي العرش». كان كمال يدين بالمذهب السني على النقيض من يوسف وإسماعيل، اللذين كانا يعتنقان المذهب الشيعي. ويكتب البروفيسور محمد عبد النعيم في كتابه عن سلالة عادل شاه سلاطنة بيجابور، أن بونجي خاتون والدة إسماعيل خافت على حياة ابنها من طموحات كمال خان، ومن ثَمَّ تآمرت مع عمة إسماعيل، ديلشاد آجا، لقتل النائب الوصي. وكلفتا رجلًا بقتل كمال خان ووعدتاه بأن تجزلا له العطاء. وبحسب رواية عبد النعيم، قالتا له:

إذا نجحت في محاولتك، فسوف تحظى بنعيم مثل ذلك الذي يحظى به النبلاء الآخرون في البلاط. أما إذا قُتلت، فعليك أن تبتهج لأن ذكرك سوف يعلو في هذه الحياة الدنيا بفضل أفعالك وإخلاصك وتنال الثواب في الحياة الآخرة.

وسرعان ما نُفذ الاتفاق الدموي، وتولى إسماعيل العرش وأثبت في الحال أنه شيعي غيور. وعلى النقيض من والده، الذي أبقى على صيغة الأذان السني رغم أنه كان شيعيًّا، اعترافًا بحقيقة أن أغلبية السكان كانوا على مذهب أهل السنة، لم يتردد إسماعيل في تغيير كل من الأذان وصلاة الجمعة بما يوافق الشعائر الشيعية، وأمر جميع الجنود في جيشه بارتداء قبعة بها اثنا عشر حزًّا، ترمز إلى الأئمة الاثني عشر للشيعة الإمامية. ولم يكن يُسمح لأي أحد لا يرتدي القبعة بالمثول بين يديه. بل وكان يُحظر خلال عهده على أي شخص أن يتحرك في المدينة حاسر الرأس من دون القبعة.

وضع إسماعيل عادل شاه (الذي أصبح الآن يستخدم لقب «الشاه»، بدلًا من «خان» الذي استخدمه والده) استعادة جوا والانتقام لوالده نصب عينيه، ولهذا كان بحاجة إلى رجال للقتال معه. كان أول عمل له بعد اعتلائه العرش هو إجزال العطاء لأولئك الذين يوالونه، وكذلك لهؤلاء الذين ساندوا والده في أثناء حكمه وتجمعوا في بيجابور لأداء قسم الولاء. ولسبب ما، آل إسماعيل عادل شاه على نفسه ألا يضم إلى خدمته أيًّا من أهل الدكن أو الأحباش الذين اعتبرهم خائنين للعهود، ومن ثَمَّ سعى لاجتذاب أكبر عدد ممكن من المقاتلين الأجانب إلى بيجابور (وكان الأفغان وقبائل راجبوت أعلاهم قيمة).

في هذه الأثناء وصل الجندي البرتغالي المدرَّب لوبيز إلى بيجابور، ولأن وصوله جاء في الوقت المناسب، فسوف يحظى بترحيب كبير. في بيجابور، كان الفتيان يمارسون المبارزة منذ سن باكرة، وسرعان ما طُلب من لوبيز بعد وصوله بفترة وجيزة أن يثبت مهاراته، ومن ثَمَّ خضعت حركاته لتدقيق شديد، لمعرفة مدى إجادة هذا الفرنجي للقتال ومدى قوة ضرباته، وكيف يراوغ بطعناته؟ كانت السيوف تُحمل في أغمادها طوال الوقت وكان يوجد منها أنواع عديدة مثل «شامشير» و«سيف» و«تالوار» و«ديهوب» و«فرنجي» و«كيليج» و«خاندا» و«سوسون باتا». وحينما وصل لوبيز إلى بيجابور كان يتقلد سيفًا «فرنجي»، وأسماه الهنود كذلك لأن البرتغاليين هم الذين جلبوه إلى هضبة الدكن. كان سيفًا يقطع ويطعن، ونصله رقيقًا ومستقيمًا، ويستخدمه في الأساس سلاحُ الفرسان البرتغالي. ولكن لوبيز لن يلبث أن يتسلم بعد وصوله سيفًا من نوع «شامشير»، الذي كان يغاير حقًّا أي سيف استخدمه من قبل. لم يكن ثمة رمز أكبر إلى الشرف والكرامة من ذلك السيف الذي قُدِّم إلى لوبيز الآن. كان ذا حدٍّ واحد وله نصل سميك ورفيع، وبه انحناءة وله مقبض صغير وصُنع خصوصًا من أجل القطع. وكان مُزينًا بأحجار كريمة ونُقشت على نصله آية قرآنية باللغة العربية، فيما نقشت على المقبض دعوات ترجو العون من الله وتطلب حمايته. سوف يُعطَى لوبيز أيضًا خنجرًا، يسمى «كيندجال»، وهو ذو نصل مستقيم وعريض وذو حدين ويستدق تدريجيًّا حتى ينتهي بسن طويل ومدبب. وتظهر على جانبَي النصل أخاديد عميقة فيما

يتكون المقبض من قطعتين من العاج أو قرن حيوان. وكان انتشار هذه الأسلحة يُعزى إلى أن بيجابور كانت تتجهز لقتال البرتغاليين، واستعادة جوا من قبضتهم. ولا ندري على وجه اليقين هل كان لوبيز، حينما قرر مغادرة جوا والبدء في رحلة الأيام الثمانية، قد عقد العزم على أن يقاتل أبناء جلدته، ولكن يمكن للمرء أن يفترض أن ذلك كان أمرًا جليًّا لديه. وإلا فما حاجة بيجابور إليه؟ وليس ثمة أهمية تُذكر للسؤال عما إذا كان اتخذ تلك الخطوة المصيرية في أثناء مغادرته جوا أو لاحقًا؛ فالحقيقة هي أن لوبيز أصبح الآن واحدًا من المرتزقة، والأسلحة التي قُدِّمت إليه تعكس هذه الحقيقة الصارخة. لا شك أن صمت المصادر حول ما كان يدور بذهنه يسمح ببعض التخمينات، ولكنه لا ينتقص من حقيقة أن قتال البرتغاليين هو النتيجة الوحيدة التي يمكن أن تترتب على مغادرته جوا.

وبينما كان يستعد للحرب، تفحص لوبيز درعه: فوجد خوذته مصنوعة من الزرد المسلسل (المعروف باسم «كُلاه»)، فيما كان حارس الأنف مطليًّا بالذهب. أما الدرع فتتكون من أربع صفائح: صفيحة للصدر وأخرى للظهر وصفيحتان صغيرتان للجانبين؛ وأخيرًا كان يلبس رداءً طويلًا فوق الدرع. أما جواده، فكان وجهه محميًّا بجبهة صغيرة (قشقة)، فيما يغطي الجانب العلوي من الرقبة غطاء يُسمى «جارداني». وكان يعلق بجواده درعًا وصولجانًا ثبتت به مسامير فولاذية ومقبض مزخرف ومُرصَّع بالذهب.

إن أحد أكثر الأسباب التي يسوقها البعض لتفسير الانتصارات التي حققها البرتغاليون في المحيط الهندي هو امتلاكهم الأسلحة النارية، التي لم يُتح مثلها للهنود. ومع ذلك، وكما اكتشف لوبيز في بيجابور، لم يكن هذا هو السبب بالضرورة، كان السلطان لديه تحت تصرفه عدد من البنادق والمدافع. وفي عام ١٤٧١، كتب الوزير الأول في المملكة البهمنية محمود جاوان، الذي خدم في بلاطه يوسف عادل خان، أنه دمر حصن ماتشال مستخدمًا «الرعد الهادر، الذي كان له تأثير الصاعقة، وانهمر [على الحصن] مثل المطر». وفي عام ١٥٠٢، سجَّل جاسبار كوريا أن بعض سفن البحرية البرتغالية تعرضت لقصف بمدافع (بقنابل كلة) من قمة تل يطل على ميناء باتكال، وذكر ابن ألبوكيرك نفسه أن والده حينما استولى على جوا في عام ١٥١٠، استقبل المدافعون البيجابوريون الغزاةَ بنيران المدفعية. وحينما غزا البرتغاليون جوا وجدوا أن أهل بيجابور أنشأوا بالفعل مصنعًا كبيرًا للذخيرة في تلك المدينة. كان ما اكتشفه لوبيز في بيجابور مذهلًا للغاية، لأنه وجد مصانع تنتج مدافع مصنوعة بحرفية عالية. وفي الحقيقة كانت ممالك هضبة الدكن في الهند تشتري المدافع والأسلحة النارية من المماليك في مقابل التوابل قبل سنوات من وصول فاسكو دا جاما، وبعد شراء هذه الأسلحة بدأوا ينتجونها محليًّا. لم يكن لوبيز هو البرتغالي الوحيد الذي لاحظ ذلك، فقد لفتت نوعية البنادق

والمدافع نظر ألبوكيرك الشهير. وفي أوائل ديسمبر ١٥١٣، أرسل الحاكم أحد صانعي السلاح في بيجابور، ولعله كان أسيرًا، إلى لشبونة للعمل في خدمة التاج البرتغالي، وعلى ما يبدو لنقل معرفته إلى المهندسين العسكريين البرتغاليين. وفي الشهر نفسه، أرسل ألبوكيرك رسالة إلى الملك يمتدح فيها قدرات صانعي السلاح من المسلمين في جوا ممن كانوا يعملون سابقًا في سلطنة بيجابور، واعترف فيها صراحة بأن هؤلاء الصناع أصبحوا «معلمينا في المدفعية وفي صنع المدافع والبنادق التي يصنعونها من الحديد هنا في جوا وهي أفضل من المدافع والبنادق الألمانية». ولا يوجد ثناء أعظم من ذلك.

كان إسماعيل شاه مصممًا على استعادة جوا، وأدرك أن عليه المبادرة بذلك قبل عودة ألبوكيرك إلى المدينة. كان قد عزَّز قواته بالعديد من المرتزقة الذين سيقاتلون مع جيشه، وسرَّه على وجه الخصوص أن هذا البرتغالي، فرناو لوبيز، أقسم له يمين الولاء. لم يكن إسماعيل شاه يعرف الكثير عن لوبيز شخصيًّا، ويبدو أن ماشادو على الأرجح كان سبيله لما يعرفه عنه، ولكن كان جليًّا أنه يستطيع أن يدافع عن نفسه حينما يَحمَى وطيس المعركة، وهذا هو ما يهم في النهاية. وأصدر توجيهاته لقائده رسول خان، بأن يضع لوبيز نصب عينيه، ولذلك سوف تنشأ وتتطور علاقة صداقة بين الرجلين.

يبدو جليًّا أن فرناو لوبيز حينما بدأ القتال ضد أبناء جلدته في جوا، كان قد تحول إلى الإسلام. كان التحول بسيطًا ولكنه مع ذلك يتطلب تأدية بعض الطقوس. كان يمكن أن يَمثُل أمام قاضٍ ويشهد بإيمانه علانية. أولًا، طُلب منه أن يغتسل وبعد ذلك سأله القاضي، بحضور شاهدين، هل يرغب في أن يصبح مسلمًا. ولا بد أن لوبيز رد بالإيجاب. ثم أمسك القاضي بنسخة من القرآن الكريم فوق رأس لوبيز ونطق بالشهادتين: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وكان لوبيز يردد وراءه. ولم يكد يتم هذه الكلمات حتى وُضعت على رأسه عمامة، وطُلب منه أن يُقبل المصحف. وبعد ذلك أُعطي لوبيز اسمًا مسلمًا، ورغم أن السجلات التاريخية لم تحفظ لنا ذلك الاسم (لأن جميع مصادرنا عن حياة لوبيز برتغالية)، يمكننا أن نخمن بأن اسمه ربما كان «عبد الله» الذي كان حتى ذلك الحين الأكثر شيوعًا بين المتحولين إلى الإسلام، لأنه كان اسمًا يحمل افتراضًا بأن المهتدي قد بدأ حياة جديدة، وانفصل عن ماضيه السابق على الإسلام. سوف يتلقى لوبيز بعد ذلك تعاليم الإسلام على مدى شهر واحد، يتعلم خلاله الصلاة ويحفظ بعض آيات القرآن الكريم كي يصلي بها. كانت هذه غالبًا هي الخطوات المتبعة لأي مهتدٍ يصل إلى بيجابور. لم يكن لوبيز يعي الفروق القائمة بين أهل السنة وأتباع المذهب الشيعي، ولم يكن يهمه فعلًا إلى أي مذهب يكون تحوله، لأن القواسم المشتركة التي تجمعهما تفوق كثيرًا اختلافاتهما. وعلى أي حال، لم يكن لوبيز رجل دين. ولكنه رغم

ذلك ربما لم يكن يعرف أنه مع انتقاله إلى بيجابور، التي كانت تُعرف وقتها بأنها «مدينة الصوفية»، دخل عالمًا من التصوف سوف يؤثر فيه تأثيرًا شديدًا.

واجه يوسف عادل خان معارضة كبيرة من أهل السنة حينما أعلن بيجابور سلطنة شيعية، ورد عليهم مقتبسًا الآية القرآنية: «ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ». وكان يوسف صادقًا فيما قال، فقد ازدهرت في المدينة الحرية الدينية، خلافًا لأي مكان آخر في العالم الإسلامي تقريبًا. وبسبب هذا التسامح على الأغلب، هاجر عدد كبير من المتصوفة إلى بيجابور حيث استقر بهم المقام وبات لهم مريدون، وأصبحت قبورهم أضرحة يؤمها الآلاف من الصوفيين الآخرين. لكن الحرية الروحية امتدت خارج نطاق الإسلام، وتفاعل الصوفيون مع ممارسي اليوجا من الهندوس وسط هذه الأجواء الفريدة التي تمتعت بها بيجابور، مما أوجد حالة من التقارب الحيوي والعميق بين المسلمين والهندوس. كانت حالة من الانصهار الذي يستند إلى تنوع لافت ومعرفة عميقة. وبحسب جورج ميتشل، وهو مؤرخ بارز في الفنون، فإن ما أُنتج في بيجابور وفي الممالك الإسلامية التي نشأت في هضبة الدكن كان «يشبه عالمًا من الأحلام». في بيجابور، اعترف الإسلام والهندوسية ببعضهما بعضًا، لا بطريقة توفيقية عاطفية، ولا حتى في سياق دبلوماسي أو توحيد الأديان، ولكن على أعمق المستويات وأعلاها: حيث فهم الطرفان أن الحقيقة واحدة وأبدية ولا يطرأ عليها تغيير. وقد أدرك ذلك أحد أعظم سلاطين بيجابور، وهو إبراهيم عادل شاه الذي توفي عام ١٦٢٧، فاتخذ لنفسه لقبًا سنسكريتيًّا وهو «معلم العالم» وأورد في كتاباته تأملات مفادها أن والديه إلهان هندوسيان هما جانيش وساراسواتي، إلهة المعرفة. وفي ديوانه الشعري، يُثني على ساراسواتي والنبي محمد والقديس المتصوف في هضبة الدكن، جيسو دراز:

قد تختلف ألسنتنا ولكن مشاعرنا واحدة، وسواء كنا تُركًا أو براهمانيين فإن الأسعد حظًّا هو الذي تبتسم له «ساراسواتي». إن العالم يسعى لتحصيل المعرفة. فاجعل همك الكلمة والمعلم والتأمل.

في بيجابور مارس الصوفيون ومحبو اليوجا التحكم في التنفس الإيقاعي، وسرعان ما وجد استخدام أهل البلاد لمزيج أوراق التنبول مع الجوز الأركي ومعجون الزيزفون كعلكة تُمضغ طريقه إلى الممارسات الصوفية. وعلى الرغم من أن اليوجا والتصوف ربما طورا طرقًا متشابهة للغاية في العبادة وفلسفات متشابهة بمعزل عن بعضهما بعضًا، فإن الافتراض الأكثر منطقية هو أن ثمة اعترافًا متبادلًا جرى نتيجة لتعايشهما الطويل في شبه القارة الهندية. بالإضافة إلى ذلك، كان الشعر الصوفي يُؤلف باللهجة العامية المحلية ثم ينتقل إلى حياة أهل القرى، حيث يمتزج مع الحياة اليومية للمسلمين والهندوس. ولا يعني كل ذلك أن عمليات تحول ديني واسعة النطاق قد جرت،

ولكنه يوضح إلى أي مدى أصبح التصوف متغلغلًا ومتجذرًا في مجتمع بيجابور، وإن بقيت غالبية أهل البلاد على الهندوسية. كان هذا هو إسلام بيجابور: إسلام عالمي يتفاعل مع الهندوسية، في مقابل ذلك الإسلام الذي هُمش وطُرد من البرتغال في حرب الاسترداد.

بعد أكثر من عام أمضاه في بيجابور، خرج لوبيز من المدينة في رِكاب جيش إسماعيل عادل شاه قاصدًا جوا. كان الجيش يتألف من فرق سلاح الفرسان والمدفعية، لكن لوبيز كان يروقه الركوب إلى جانب فرقة الأفيال، التي كانت ذات خراطيم حادة وأبراج مدرَّعة، وقد رُسمت على جباهها أقنعة مرعبة. تم الاستعانة بالجِمال والثيران لنقل الأسلحة والخيام والمعدات. ونُقلت كمية كبيرة من الأسلحة إلى ميدان المعركة مثل السيوف والخناجر والصولجانات وكذلك الأقواس والسهام والمدافع الثقيلة والبنادق. كان سلاح الفرسان من أهم هذه الفرق ويضم بين أفراده تُركًا وفرسًا وأحباشًا وأفغانًا وماراثا وقليلًا من البرتغاليين، وهم في معظمهم من الجنود الذين أبحروا إلى الهند هربًا من الفقر وقرروا أن يكونوا مرتزقة. لم يكن يجمع بينهم أي رباط؛ فبينما تحول بعضهم إلى الإسلام، فإن بعضهم الآخر لم يفعل ذلك.

ومنذ خروج جيش المسلمين من بيجابور، يمكن للمرء أن يتساءل، في أي لحظة انتبه لوبيز إلى حقيقة أنه في غضون أيام سوف يخوض معركة ضد أبناء جلدته من البرتغاليين؟ هل كان يساوره بعض الشك في ذلك أو حتى يعتريه إحساس بالندم؟ إذا كان الأمر كذلك، فقد أتقن إخفاءه، وللمرء أن يبحث ولكن من دون جدوى عن أي إحساس بالندم ظهر أثره في أفعاله. لم يكن لوبيز بمفرده، فقد انشق مع برتغاليين آخرين، ممَّن كانوا بلا شك يعتبرونه قائدهم، لأنهم كانوا من العامة فيما كان لوبيز، بالرغم من تحوله إلى الإسلام، لا يزال يُعتبر فيدالجو وفارسًا. ومن الواضح أن التقاليد والاعتبارات الاجتماعية، التي نُقلت من لشبونة، كانت من الرسوخ بمكانة يتعذر معها على شمس الدكن أن تذيبها. ورغم ذلك كان ثمة شيء واحد مؤكد؛ وهو أن لوبيز أدرك حينما اقترب الجيش الذي يسير في رِكابه من جوا أن حجر النرد قد رُمي منذ مدة وأن مصيره تقرر. وأمامه الآن ميدان المعركة وما لم يتحقق له النصر في هذا الميدان، فسوف يصبح في عداد الموتى عمَّا قريب. وفي الوقت نفسه كان يضع نُصب عينيه شيئًا واحدًا كتمه عن رسول خان، وكذلك عن البرتغاليين الآخرين الذين انشقوا. وخلال الأيام القليلة التالية، استقر العزم لدى لوبيز على قتل أفونسو دي ألبوكيرك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الحادي عشر

باناستاريم

إن أحد الأسباب الرئيسية التي تفسر سقوط جوا السريع في أيدي ألبوكيرك هو ذلك الاضطراب الذي عاشته سلطنة بيجابور عقب وفاة يوسف عادل خان. وأفضى ذلك إلى صراع دموي داخل العائلة على خلافته، بلغ ذروته بمقتل كمال خان مسمومًا ووصول إسماعيل عادل شاه إلى سدة الحكم في السلطنة. والآن، وفي ظل وجود ألبوكيرك خارج جوا، اغتنم السلطان الشاب الفرصة لمحاصرة المدينة. وصلت قوة مبدئية قوامها ٣ آلاف رجل، تحت قيادة بولاد خان، الذي كان القائد العام في عهد والد إسماعيل، إلى جوا في مارس ١٥١٢. وهناك، احتلت القوة البر الرئيسي، وجازفت بمحاولة الوصول إلى الجزيرة، حيث أقامت معسكرها في الحصن الاستراتيجي للجزيرة، باناستاريم، ومنه أحاطت قوات المسلمين بالمدينة وحاصرتها. وبعد فترة قصيرة، وصلت قوة أخرى يبلغ قوامها ٧ آلاف فرد بقيادة رسول خان، الذي اصطحب ضمن قواته المنشقين البرتغاليين جواو ماشادو وفرناو لوبيز. بلغت ألبوكيرك، وكان عندئذ في كوشين، أنباء تشير إلى زحف قوات إسماعيل عادل شاه إلى جوا وحصارها، ولكنه بقي رغم ذلك رابط الجأش بشكل لافت. كان الإنهاك قد نال من رجاله بعد حملة شاقة في ملقا، وعلى أي حال كانت الرياح الموسمية التي اقترب أوانها تجعل أي أمل في إنقاذ فوري لجوا أملًا واهيًا. وكتب إلى الملك يُطمئنه: «بمعونة الرب، إذا لم نتعرض لخيانة، فلا خوف على حصنك من هجوم المسلمين». ولكن ألبوكيرك لم يكن يعرف عندئذٍ أن هناك خيانة من نوع شخصي للغاية قد وقعت بالفعل.

في ظل عجز ألبوكيرك وعدم مقدرة أي جيش للإنقاذ على الوصول إلى جوا قبل أكتوبر على أقرب تقدير، كان ينبغي للمسلمين أن يستعيدوا جوا خلال أشهر الصيف من عام ١٥١٢. لكن السبب الرئيسي الذي جعل ذلك لا يحدث هو حلقة أخرى من حلقات الصراع الداخلي على السلطة في بيجابور، ولا سيما بين بولاد خان وإسماعيل عادل شاه. كان السلطان يخشى تنامي قوة بولاد خان، وخروجه عليه، ولذلك أرسل أحد أقاربه وهو رسول خان على رأس قوة أخرى إلى جوا، كانت في ظاهرها لدعم بولاد خان ولكنها كُلِّفت سرًّا بالقضاء عليه. نجح رسول خان في المسعى الثاني بفضل خطة عبقرية يدين بالفضل فيها جزئيًّا للمنشقين الذين رافقوه. في غياب ألبوكيرك، كان ديوجو مينديز دي فاسكونسيلوس هو قائد جوا بالإنابة. كان هناك الآن فخ نُصب لكلٍّ من فاسكونسيلوس وبولاد خان. أرسل رسول خان أحد المنشقين البرتغاليين، وهو دوارتي تافاريس، بعدما ادعى أنه أسير، إلى جوا برسالة لفاسكونسيلوس. وكان فحوى الرسالة هو أن بولاد خان متمرد، وأن حصاره

جوا مخالف تمامًا لأوامر السلطان الذي صدمته تصرفات قائده المتمرد. كان رسول خان قد جاء وهو عازم على هزيمة بولاد خان، وكي يثبت صداقة السلطان للبرتغاليين، وكان دليله على هذه الصداقة هو رغبته في إطلاق سراح الأسرى البرتغاليين في بيجابور. ومن خلال رسوله تافاريس، طلب رسول خان الآن من فاسكونسيلوس مساعدته في هزيمة بولاد خان، وهو ما وافق عليه القائد البرتغالي الطموح، لكنه أدرك لاحقًا أنه بهزيمة بولاد خان، قد ساعد فقط في تخليص رسول خان من عدو فيما أضعف نفسه وحاميته. ويمكن للمرء أن يتخيل ألبوكيرك يهز رأسه وقد استشاط غضبًا من السذاجة التي تصرف بها فاسكونسيلوس. عزَّز رسول خان قوته الآن وشدَّد من حصاره.

أصبح ميزان القوة الآن في صالح رسول خان. كان ذلك في صيف ١٥١٢ وأدرك أنه مع استمرار هبوب الرياح الموسمية لن تصل إلى البرتغاليين أي مساعدات حتى أكتوبر على أقرب تقدير، وأن عليه أن يستغل الفرصة. وحذر لوبيز رسول خان من أن ألبوكيرك سوف يعود، وأن الأمر سوف يختلف عندئذٍ اختلافًا تامًّا عما هو عليه. ربما لم يكن البرتغاليون هم أفضل جنود، وفي عام ١٥٧٠ علَّق أحد الإيطاليين في جوا قائلًا: «هذه الأمة لم تُخلق للحرب ولا للنظام لأن المرء هنا لا يجد الانضباط والصرامة الحقة والطاعة التي تتطلبها الحياة العسكرية». لعل ذلك صحيح، ولكن الخصلة المتجذرة بشدة في الشخصية البرتغالية هي خصلة الإصرار بعناد حينما تواجهها الصعاب والشدائد.

راح المسلمون يشنون هجماتهم الشرسة ليلًا ونهارًا من أجل اختراق أسوار المدينة. في البداية حاولوا عبثًا فتح أبواب المدخل بدفع الأعمدة الخشبية، ثم لجأوا إلى إطلاق قنابل حارقة من فوق الأسوار، ولكن في تلك السنة حلَّ موسم الأمطار مبكرًا ومن ثَمَّ لم تشتعل النيران في الأسطح المبتلة. ومع ذلك تواصل الهجوم. ونُصب مدفع كبير تم الاستيلاء عليه من البرتغاليين لمنع أي مدافعين من اعتلاء الأسوار.

مع تقدم فصل الصيف، زادت خطورة وضع البرتغاليين في جوا، بسبب تشديد الحصار الذي يفرضه عليهم المسلمون والرياح الموسمية، التي قطعت عن جوا أي مساعدات أو إمدادات عن طريق البحر. وأصبح اليأس والجوع يزدادان بين البرتغاليين يومًا بعد يوم. تعفن قدر كبير من طعام أهل المدينة بالفعل بسبب الرطوبة الرهيبة، ونفد مخزون الأرز وهو الغذاء الرئيسي والوحيد المتوفر. وسرعان ما أصبح الناس يموتون جوعًا في الشوارع، وكما توقع رسول خان، راح الهاربون يتقاطرون على معسكر المسلمين. كان الجند البرتغاليون وعامة الناس هم أول الفارين، لأنهم أول من نفد لديهم الطعام (الذي اعتاد أن يوزعه عليهم النبلاء) وفقدوا كل أمل. وفوق ذلك، عرفوا أنهم

يمتلكون قدرات سوف تجعلهم موضع تقدير وترحيب المسلمين، لذلك، كان الرماة والقناصة والفرسان وصانعو الأسلحة هم أول من التحقوا بالمسلمين. لكنْ هناك حافز مهم آخر جعلهم يهربون، وهو وجود منشقين برتغاليين يقاتلون في صفوف المسلمين. واستحضر بعضهم جواو ماشادو، الذي كان يمشي في لباسه الإسلامي رابط الجأش، وكان معظمهم يعرف فرناو لوبيز معرفة جيدة لأنه، وخلافًا لماشادو، عاش وقاتل معهم من قبل، ولسان حالهم يقول انظروا الآن كيف ازدهر حاله! كان ألبوكيرك قد حذَّر من أنه ما لم تقع خيانة، فإن جوا في مأمن. لكن جوا لم تكن في مأمن. وكتب أحد المؤرخين الذين عاصروا هذه الفترة عن الجند البرتغاليين:

يفرون إلى معسكر العدو، ويقفزون عبر الأسوار، وكان من بينهم حاملو البنادق والرماة، لأن هؤلاء كانوا يحظون بترحيب أكبر، وحالما يصلون إلى معسكر العدو، يَسألون من فورهم عن جواو دي ماشادو، ويدعونه باسمه الموري.

ولا يُعرف عدد البرتغاليين الذين فروا، وبينما يَذكر بعض المؤرخين أنهم كانوا ثمانية عشر، فإن آخرين يرفعون العدد إلى سبعين. وبدأ الفرار فرديًّا ولكن سُرعان ما أصبح الرجال يفرون في جماعات. كان أحد الفارين هو بيرو باكياس الذي كان ينحدر من طبقة النبلاء الأقل شأنًا، واختار أن يستقر في جوا ويتزوج مسلمة. ورغم أن البرتغاليين كانوا محاصرين في جوا، فقد كان المسلمون في المدينة مثل زوجة باكياس يجدون الخروج من جوا والدخول إليها أسهل نسبيًّا، وللمرء أن يفترض أن لديهم أقرباء يعيشون في بيجابور ممن يمكنهم الذهاب إليهم. فرَّ باكياس الآن من المعسكر البرتغالي وشق طريقه حتى بلغ معسكر المسلمين، وهناك التقاه ماشادو ولوبيز، وقد أصبح يُنظر إليهما الآن باعتبارهما زعيمين للمتمردين. وعند رؤية باكياس، فوجئ ماشادو وسأله: «ماذا جرى؟ هل بلغ الوضع من السوء حدًّا يجعل الفرسان يفرون؟»، وأجابه باكياس: «سيدي، الجوع والعمل من دون أمل يجعلان المرء يفعل هذه الأشياء، والشيء المهم هو ثقتهم بوجودك هنا». يا له من جواب رائع من نواحٍ عديدة، لأنه لا يعكس فحسب الوضع البائس الذي بلغه البرتغاليون، ولكنه أيضًا يعكس نظرتهم للمنشقين، ولم تكن تخلو من الإدانة فحسب، ولكن يصحبها أيضًا إعجاب شبه صريح. لم يكن الذين يفرون مستعدين للتخلي عن دينهم والتحول إلى دين آخر، ولكنهم انضموا إلى صفوف المسلمين وهم يدركون أنهم سوف يُضطرون إلى قتال رفاق الأمس، ولا يبدو أن ذلك الإدراك كان يردعهم عن الفرار. كانوا يفرون من الجوع والفقر وفقدان الأمل في أي خلاص، وكانوا يفرون أيضًا لأن الذين سبقوهم إلى الإسلام واعتنقوه علانية أصبحوا أفضل حالًا. وكان المسلمون يدركون

ذلك، ويتعمدون إظهار المنشقين أمامهم. كانوا يغرون الجنود البرتغاليين ويقولون: «انظروا. تعالوا إلينا. بإمكانكم أن تكونوا مثلهم».

أما بالنسبة إلى البرتغاليين، فالأمل سوف يظهر على نحو لم يتوقعه أحد، لأن جواو ماشادو سوف يتخذ الآن خطوة مفاجئة بالفرار عائدًا إلى المعسكر البرتغالي. كان يفكر منذ مدة في قرار الفرار، وتشير المصادر إلى أنه كان متحمسًا بشدة للعودة إلى دينه الذي وُلد عليه. ولكن علينا أن نتوخى الحذر ونحن نقرأ هذه المصادر لأنها جاءت مبطنة بقدر من الشماتة البرتغالية. فهي تخبرنا أن ماشادو قبل فراره من معسكر المسلمين، وكانت لديه زوجة مسلمة، أغرق ولديه لأنه لم يحتمل فكرة أنهما سوف يُنشآن كمسلمين. ولكن ثمة رواية أخرى تخبرنا أنه عمدهما مسيحيين قبل تركهما، وهو عمل يبدو، في ظل وجود الأم المسلمة، متناقضًا نوعًا ما. وأيًّا كان الذي حدث، فقد عقد ماشادو العزم على مغادرة معسكر المسلمين واللجوء إلى المعسكر البرتغالي، وقبل مغادرته، حاول اصطحاب بعض رفاقه معه. اقترب ماشادو من لوبيز الآن وحاول إقناعه بالعودة إلى جوا، مؤكدًا له أنه سيكون موضع ترحيب مرة أخرى، ولكن، بحسب المؤرخ باروس، صدَّه لوبيز بشكل صريح قائلًا: «أنا الآن مسلم، ولا أستطيع بعد الآن العيش وسط مسيحيين». لم تكن لديه رغبة في العودة، وكذلك كان شأن المنشقين البرتغاليين الآخرين الذين تعهدوا صراحة بالقتال في صفوف المسلمين. وفي نهاية المطاف، عاد نحو ١٢ رجلًا مع ماشادو، كان معظمهم من البرتغاليين، الذين أُخذوا كأسرى حرب. أما البقية فظلت مع رسول خان. ومن المثير للدهشة أن نجد أن البرتغالي كان بوسعه أن ينتقل من خانة الارتداد ويتراجع عما كان فيه ويعود إلى الكاثوليكية، وبالرغم من أن حادثة ماشادو تعتبر حدثًا مثيرًا، فإننا لم نعرف عنها إلا لأن المؤرخين البرتغاليين ما كان لهم أن يتوانوا عن الاحتفاء بعودة ابنٍ ضال. أما بالنسبة إلى المنشقين البرتغاليين الآخرين ممن نجهل أسماءهم واختاروا البقاء في صفوف المسلمين، فكانوا يسدلون عليهم ستار الصمت.

استُقبل ماشادو في جوا بفرح غامر وارتياح كبير ونُظم لذلك موكب للشكر. وبحسب المؤرخين، «تغيَّر كل شيء مع وصول جواو ماشادو»، الذي أبحر، بناءً على طلب ألبوكيرك، لمقابلته في كوشين حيث أطلع ألبوكيرك على الحصار وتحدث «عن الموري رسول خان». في البداية، يبدو هذا اللقاء محيرًا، حيث كانت اللقاءات السابقة بين الرجلين طابعها العداء، ولا يوجد دليل حاسم يوضح كيف نجح ماشادو في الفوز بثقة ألبوكيرك بهذه السرعة. تزعم بعض المصادر أنه أفشى معلومات مهمة للحاكم الذي تحقق منها، وبالتالي منحه ثقته. ولكن ما يهم هنا هو كيف أن تخليه علانية عن الإسلام وعودته إلى الكاثوليكية أعاد دمج ماشادو في المجتمع البرتغالي بسلاسة.

وخلال حديثه مع ألبوكيرك في كوشين سوف يخبره ماشادو بظهور فرناو لوبيز في صفوف المسلمين. لم تتحدث المصادر عن كيف كانت ردة فعل ألبوكيرك، ولكن في ضوء معرفتنا به وكراهيته الصريحة للخائنين والمسلمين على السواء، يمكننا أن نتخيل ذلك. كان هناك بالطبع برتغاليون كُثر انتقلوا إلى الطرف الآخر لكنهم كانوا غالبًا من العامة. أما لوبيز فكان مختلفًا. كان الوضع يتحول شيئًا فشيئًا لصالح البرتغاليين. ففي أغسطس ١٥١٢، وفي نهاية الرياح الموسمية، أرسل ألبوكيرك ثماني سفن شراعية ضخمة إلى جوا، محملة بالجند لتعزيز تحصينات المدينة. أما هو نفسه فانتظر وصول الأسطول السنوي من لشبونة، لأن عدد الرجال الموجودين تحت تصرفه كان ضئيلًا للغاية ولا يمكنهم عمل شيء. وفي وقت لاحق من هذا الشهر تعززت قواته بوصول أسطول عام ١٥١٢ من لشبونة في الوقت المناسب في كوشين، وهو ما وضع على الفور تحت تصرف ألبوكيرك ٢٠٠٠ رجل مستعد للقتال. وفي ١٠ سبتمبر، وحينما هدأت الرياح الموسمية، غادر ألبوكيرك كوشين قاصدًا جوا ومعه ١٦ سفينة، وهو واثق بأن باستطاعته أن يهزم قوات المسلمين ويطردها. وقبل بضعة أشهر، كان لوبيز يحث رسول خان على الاستيلاء على جوا قبل انتهاء الرياح الموسمية، ولكن بالرغم من أن القائد المسلم بذل قصارى جهده فقد صمدت جوا في وجه الحصار. والآن يوشك الهجوم البرتغالي المضاد أن يبدأ.

كان ألبوكيرك عازمًا على شن هجوم مباغت على باناستاريم كي يأخذ رسول خان على حين غِرَّة. وبعد أن أرسل بقية سفن الأسطول إلى جوا بقيادة أحد كبار قادته، وهو دوم جارسيا، حتى يتمكنوا من إنزال الرجال للتحضير للسير إلى باناستاريم، قاد ألبوكيرك أربع سفن عبر نهر زواري لعزل الحصن من جهة البحر. لكن حتى تنجح هذه المناورة، كان على السفن أن تصل إلى الحصن وتقترب من أبراجه، ما سيجعلها عرضة لنيران المدافع. كان ألبوكيرك يعلم أن استعادة باناستاريم لن تكون أمرًا هينًا. فقوتها تكمن في وقوعها بين ممرين مائيين، وقد حصن أسوارَها وأبراجَها واستحكاماتها رسول خان، الذي نصب مدفعًا ضخمًا، أسماه «الجمل»، في نقطة استراتيجية تطل على المجرى المائي حتى يمكنه تدمير أي سفن تقترب. وبمجرد أن رأى المسلمون أن سفن ألبوكيرك تقترب بحذر، أطلقوا النيران بكثافة بثَّت الرعب في قلوب الجنود البرتغاليين وجعلتهم يلوذون بالفرار. ولكن، كما جاء في السجلات، «بمجرد أن ذهب عنهم الخوف»، أمر ألبوكيرك قباطنة السفن الصغيرة بالتقدم للأمام قليلًا. ولكن كان عليه أولًا أن يدمر «الجمل»، فأمر بوضع مدفع نحاسي على قارب، لينقله قائده العام وستة من الرماة. كانت مهمتهم هي التحرك تحت جنح الليل، والرسو في أقرب مكان من «الجمل» وتدميره. كانت مهمة محفوفة بأعلى درجات الخطر لكنها نُفذت بنجاح كبير.

ومع بزوغ الفجر، فتح القائد النار على «الجمل» وتمكن من نسفه، وكما تخبرنا المصادر، «قُتل منشقان من رماة المدفعية، أحدهما من جِلِّيقية والآخر من قشتالة ممن كانوا انضموا إلى المسلمين».

زال الآن التهديد الأكبر للسفن، وأمر ألبوكيرك أحد قادته، وهو أيريس دا سيلفا، بالاقتراب بسفينته من الحصن، ولكنه كان قد قلَّل من شأن تصميم وبراعة المدافعين عنه: أطلق الآن وابل من القذائف، فأصابت واحدة ثلاثة براميل من البارود مخزنة في مقدمة السفينة. وبسبب الذعر، قفز البحارة من فورهم إلى المياه، تاركين أيريس دا سيلفا، الذي رفض التخلي عن سفينته، رغم أنه أصبح وحيدًا على متنها. وحالما رأى ألبوكيرك ذلك أصر على الوصول إلى السفينة، وصاح في الرجال الموجودين بالمياه كي يعودوا إلى السفينة وراح يوبخهم على تخليهم عن قائدهم. كان عملًا ينم عن شجاعة وثبات هائلين في مواجهة النيران، وقدَّم بذلك نموذجًا للحاكم الذي بدا، أمام رجاله، لا يعرف الخوف. ساد الآن هدوء كان الطرفان يحتاجان إليه كي يلتقطوا الأنفاس ويتهيأوا لحصار يبدو أنه سيكون مريرًا وطويلًا. وخلال تلك الأيام كان دوي الطلقات يصم الآذان حتى إنه على مدى أيام تلت ذلك، تقول المصادر إن البرتغاليين كانوا لا يكادون يسمعون. وللمرء أن يتخيل أن هذا ينطبق أيضًا على المدافعين عن باناستاريم، أو لعلهم كانوا يسدون آذانهم تحسبًا لذلك.

كان الهدف الأَولي هو منع أي إمدادات بحرية من الوصول إلى الحصن في باناستاريم، ولذلك وضع البرتغاليون سفنهم في الممر المائي في كامبارجوا وعلى طول نهر زواري. اعتقد ألبوكيرك في أول الأمر أن الاستيلاء على باناستاريم سيكون أمرًا هينًا، لكنه سرعان ما أدرك أن الحصن، الذي يحميه النهران والأسوار، وبعد أن عزز رسول خان أبراجه وأبراج الرماية، سوف يُبدي مقاومة شديدة. كان يعلم أنه إذا هاجم من البحر عبر الممرين المائيين اللذين يحيطان بالحصن، فسوف يستولي عليه في نهاية المطاف، لكنه أدرك الآن أن ثمة ثمنًا باهظًا سوف يدفعه من جنوده. وكان رسول خان قد حسب بدوره أن البرتغاليين سوف يحاولون الاقتراب من نهر ماندوفي، لأنه كان عميقًا بما يكفي لمرور السفن البرتغالية الكبيرة. وفي الوقت نفسه، كان قد وضع بعض قوارب الإمدادات عند رصيف صغير إلى جانب مجرى مياه كامبارجوا. كان يعلم أنه حينما يسمح المد، فإن بإمكانه الهروب بسهولة عبر كامبارجوا إذا لزم الأمر. وكان عاقدًا العزم على القتال والسيطرة على باناستاريم، ولكن لن يضيره في شيء أن يكون لديه خط للرجعة.

قرر ألبوكيرك بعد ذلك أن يدمر الحواجز التي بناها المسلمون حول باناستاريم حتى تتمكن سفنه من الرسو وتتخذ لها موقعًا عند أقرب نقطة من

الأسوار. كانت عملية محفوفة بالخطر، ونُفذت تحت جنح الظلام، وتطلبت شجاعة هائلة. ومرة أخرى كان المسلمون في انتظارهم. وألقوا حزمًا من القش المحترق من الأسوار مما أضاء السماء، وسمح لهم بإطلاق نيرانهم على البرتغاليين. وعلى الرغم من توسلات قباطنته الشديدة للحفاظ على سلامته، اختار ألبوكيرك أن يقود العملية وهو في جبهة القتال حتى أصبح في مرمى الأسلحة. ورغم أن رجاله ترجوه أن يتخذ ساترًا يقيه النيران، فقد رد بجوابه المعتاد بأنه لن يشعر بالراحة وهم يتعرضون لمثل هذه المخاطر ولن يتركهم وحدهم. أطلقت المدافع نيرانها في اتجاهه. في تلك اللحظة، وخلال تلك الثواني المعدودة التي سبقت وصول القذيفة للسفينة، تحرك ألبوكيرك جانبًا بضع خطوات كانت بها نجاته. أصابت القذيفة مُجدفَين فتناثرت دماؤهما وأشلاؤهما على الحاكم. وللحظة تعالت صيحات النصر بين المسلمين بأن ألبوكيرك ـ ألبوكيرك الكبير ـ قد مات، وفي اللحظة ذاتها نهض واقفًا، وراح يمسح أثر الدماء عن ثيابه، وصرخ بأن أفونسو دي ألبوكيرك ليس بالرجل الذي يمكنهم قتله بسهولة. ثم أمر برباطة جأش أن تُجمع القذائف وتُجلب إليه. وكتب شاهد عيان عن معركة باناستاريم يقول:

لا أظن أن الهند بأسرها عرفت من قبل اشتباكًا شهد قصفًا هائلًا بالمدافع أو حصنًا يضم هذه الحامية الضخمة المعادية... وبخ أفونسو دي ألبوكيرك المرة تلو المرة رجالنا لإهمالهم سلامتهم الشخصية، لا سيما وأن سفننا كانت قد امتلأت بالثقوب من أثر الطلقات النارية حتى لم يعد لهم مكان يختبئون فيه، إلا أن رغبة قائدنا هي أن عليهم أن يحموا أنفسهم من الخطر.

نجح الهجوم الأولي الذي شنَّه البرتغاليون ـ بالرغم من المقاومة الشرسة والإصابات التي لحقت بهم ـ في تحقيق هدفه في قطع جميع الإمدادات الممكنة عن باناستاريم، وبهذا الهدف الذي تحقق، استغل ألبوكيرك الفرصة وعاد إلى جوا. ولم يكن مفاجئًا أن يدخل المدينة دخول الفاتحين، وقد استقبلته بأذرع مفتوحة. وعند بوابة المدينة، ألقى خطابًا، وتَسلَّم بعده مفاتيح الحامية وسط أجواء احتفالية. ثم شَق موكبه طريقه إلى الكنيسة، وحينما جاءه الكهنة في منتصف الطريق لاستقباله وهم يحملون صليبًا، ترجَّل وأصر على السير خلفه حاسر الرأس تحت الشمس الحارقة، وأمر بأن يُظلَّل الصليب بالمظلة المخصصة له في الأصل. كانت بادرة جميلة منه، ومفعمة بالمثالية والتواضع. عاد ألبوكيرك إلى جوا التي يحبها وهو يشعر بكامل السعادة. وبعد أربعة أيام من وصوله، أُبلغ ألبوكيرك بأن هناك تقدُّمًا جديدًا للمسلمين نحو جوا ـ هذه المرة من بيجابور ـ وأمر على الفور بشن هجوم مزدوج على القوات الزاحفة عن طريق البر والبحر. انتهت المناوشات الأولية أمام المدينة سريعًا كما بدأت. كان إسماعيل عادل شاه قد أرسل ٢٠٠ فارس إضافي و٤ آلاف جندي مشاة لتخفيف الضغط على جنوده المحاصرين في

باناستاريم، ولكن في مواجهة الهجوم الشرس للمشاة البرتغاليين، الذين يتألفون من النشابين والفرسان، فرَّ فرسان المسلمين، تاركين مشاتهم بلا حماية. وقد تعززت قوات ألبوكيرك بالهندوس الذين كانوا يقاتلون على أقدامهم وقتلوا العديد من المسلمين الفارين. وفي انسحاب سادته الفوضى، فرَّت قوات المسلمين باتجاه حصن باناستاريم وهي في حالة من الذعر، لتفاجأ بأن مدخل الحصن مغلق. تُرك العديد من مشاة المسلمين خارج الحصن، ودخلوا في معركة يائسة ضد الجنود البرتغاليين والنبلاء الذين قاتلوا بشراسة واستبسلوا. هرب بعض المسلمين إلى خلف الحصن بحثًا عن ملاذ، وعَلِق آخرون في الوحل حتى هلكوا، فيما حاول البعض الآخر من دون جدوى السباحة عبر النهر، ليعترضهم ويقتلهم البرتغاليون الموجودون على متن السفن. ولأنهم كانوا عاقدي العزم على تسلُّق الأسوار الخارجية، صنع البرتغاليون سلالم بشرية، ولكن رد الفعل من جانب المسلمين لم يكن أقل شراسة، حيث سكبوا عليهم دلاءً من البارود المشتعل والزيت المغلي والقطران بالإضافة إلى الصخور والأحجار. وفي أثناء ذلك، أدت نيران المدافع المصوبة بدقة عبر الأسوار إلى مقتل عدد من الضباط البرتغاليين. كما كانت الحجارة المتطايرة تصيب أهدافها، وأسقط أحد الأحجار الفيدالجو مانويل لاكيرنا من فوق صهوة جواده. وكاد يُقتل لولا أن فيدالجو آخر وهو جواو ديزيو، هب لإنقاذه بشكل بطولي. استعاد لاكيرنا وعيه من أثر الضربة التي تلقاها في الرأس، وامتطى صهوة جوادٍ آخر، ومع بعض الجنود، شن هجومًا على مدخل الحصن، ليتعرض لإطلاق نار ويُصاب ويتم إنقاذه مرة أخرى، ولكن هذه المرة على يد دوم جارسيا دي نورونيا، الذي كان حفيد حفيد ملك البرتغال فرديناند الأول. ورغم ذلك ظل البرتغاليون يصنعون السلالم البشرية حتى يمكنهم ارتقاء الأسوار، وكان أفراد الفيدالجو والفرسان والنبلاء هم من تولوا قيادة الهجوم. رد رسول خان بالسهام وإطلاق النيران وحزم القش المشتعلة، ومع ذلك، وبحسب «تعليقات ألبوكيرك»، «لا شيء مما يمكن فعله سوف يجبرهم على الانسحاب». وحينما تمكن بيدرو ماسكارينياس، وهو فيدالجو آخر، من قيادة عملية تسلق ناجحة لأحد الأسوار، شعر ألبوكيرك بسعادة غامرة حتى إنه احتضنه وراح يقبله في وجهه، وتخبرنا المصادر أن هذا الفعل «صدم» العديد ممن شهدوه. لكن ألبوكيرك لم يعبأ بهؤلاء لما شعر به من امتنان بسبب وجود ماسكارينياس، الذي غادر قلعة كوشين حينما كان قائدًا لها كي يصحب ألبوكيرك ويقاتل معه. وهكذا كان يفعل هؤلاء الفيدالجو في المعارك: يقاتلون ببطولة مطلقة وشجاعة لا تهاب الأخطار ويفوزون بالغنائم والمجد. كان عملًا رائعًا لكنه ينتمي من نواحٍ عدة إلى عصر مضى؛ فما يحقق الظفر بالمعارك ويضمن الانتصارات الآن هو الانضباط والخطط التكتيكية والتنظيم، وهي جميعها أمور تخلو تمامًا من معاني الرومانسية والشرف، وإنْ كانت فعَّالة.

احتدم القتال بين الفريقين، ما جعل ألبوكيرك وقد راعه مشهد مَن يسقطون صرعى من رجاله، أن يأمر بالتراجع ووقف محاولات تسلق الأسوار. ومع ذلك، وقبل أن يتراجع، أضرم النيران في معسكر كان قد بناه بالقرب من الحصن كي يمنع المسلمين من استخدامه. وبهذا انتهت معركة اليوم. لقد كان يومًا عصيبًا وداميًا، تكبَّد فيه الطرفان الخسائر، كان للمسلمين النصيب الأوفر منها، وسقط منهم ١٠٠ قتيل. ولكن باناستاريم صمدت في وجه الهجوم ورد المدافعون عن أسوارها على محاولات التسلق بشجاعة وبطريقة فتَّاكة وفعَّالة.

في هذه الأثناء، راح كلا الطرفين يلتقطان أنفاسهما، وسوف تنقضي عشرون يومًا قبل أن يعود ألبوكيرك إلى باناستاريم قادمًا من جوا، وفي هذه المرة يقود قوة قوامها ٤ آلاف رجل، منهم ٣ آلاف من البرتغاليين والبقية من الهندوس. انقسمت القوات إلى كتيبتين قاد ألبوكيرك إحداهما بنفسه فيما أُسندت قيادة الأخرى لدوم جارسيا دي نورونيا. ومرة أخرى، كان الهدف هو فرض الحصار على الحصن وقطع الإمدادات والتحضير لهجوم أخير. في أثناء الليل، حفروا خندقًا حول الحصن كخطوة أولى لإضعاف الأسوار، وخلال الأيام القليلة التالية تبادل الطرفان إطلاق النار، وكانت المدافع البرتغالية توجه قذائفها نحو الأسوار والأبراج. وبعد أن ركز ألبوكيرك جهده في البداية على الوصول إلى الحصن عبر نهر ماندوفي، حوَّل اهتمامه الآن إلى كامبارجوا. كان يدرك أن ذلك ينطوي على خطر أعظم بكثير، لأنه على الرغم من أن كامبارجوا كانت أقل تحصينًا، فإن السفن البرتغالية سوف تَعلق في المياه الضحلة إذا ما تراجع المد. وحتى يختبر حقيقة الوضع الحالي، أرسل ألبوكيرك سفينة شراعية ذات غاطس صغير عبر النهر، وكانت مصممة للسير عبر المياه الضحلة، لكنه أخطأ التقدير، فاصطدمت السفينة بصخرة حادة كان الماء يغمرها وبدأت تميل وتستقبل المياه. هتف المسلمون وكانوا يرقبونهم من الحصن، هتافًا عظيمًا حينما رأوا السفينة تنقلب وتغرق، وإن نجا جميع من كانوا بها. وبعد أن أُحبطت محاولته الأولى، بعث ألبوكيرك، بحسب المصادر، قاربًا وسفينة، جُهزا بالذخيرة، وبالرغم من إطلاق النار من الحصن، فقد نجحا في اختراق الحواجز التي أقامها المدافعون، حتى اقتربا من أسوار الحصن. ولكن بالسرعة نفسها بدأ المد ينخفض، وكان على القارب والسفينة إما العودة وإما المجازفة بأن يَعلَقا في المياه الضحلة. وأما على جبهة نهر ماندوفي، فكان ألبوكيرك أكثر نجاحًا، حيث نجحت السفن الأربع التي بعث بها إلى هناك في قطع الإمدادات الرئيسية عن الحصن.

راح ألبوكيرك يخطط الآن للمرحلة التالية من حملته، وهي شن الهجوم الرئيسي على الحصن، وأمر قباطنته بتجهيز مدافعهم وسلالم التسلق. تم الشروع الآن في حفر خندق حول الحصن ووُضعت الحواجز. وفي أثناء ذلك،

نصَب البرتغاليون، وهم يحتمون بألواح خشبية، مدافعهم على بعد ٣٠ قدمًا من أسوار الحصن ثم أخذوا يقصفونها بلا هوادة. كان قصفًا مدويًا، وتخبرنا المصادر أن السلاحف المائية، وقد روعها صوت القصف، اختبأت لعدة أيام في الغطاء النباتي.

مع قطع طريق الإمدادات عن باناستاريم، بدأت آثار الضغط على الحصن تظهر أخيرًا مع انخفاض مخزون الذخيرة ومعها الطعام والأمل. صمدت باناستاريم لأسابيع، وكان رسول خان يأمل في وصول جيش المدد من السلطان، ولكن مع مرور الأيام وتواصل الهجوم البرتغالي بلا هوادة، أدرك أنها ما هي إلا مسألة وقت ويتمكنون من نقب الأسوار. وكان قبل ذلك ببضعة أيام فقط، قد نجا بحياته حينما أصابت طلقة مدفع برجًا وأمطرته بوابل من الحطام، ولم يعد المشي بحرية في الباحة ممكنًا بعد أن أضحت المدافع البرتغالية التي نُصبت على الحواجز، قريبة للغاية، وأصبح بإمكان البرتغاليين رؤية الباحة واصطياد المسلمين. أدرك ألبوكيرك أن الموقف قد تحول لصالحه حينما رأى المسلمين يطلقون عليهم قذائف مدافع مُعاد استعمالها من تلك التي أطلقها عليهم البرتغاليون في أول الأمر، ما يعني نفاد الذخيرة لدى المسلمين.

تحول ذهن رسول خان الآن نحو خيار التفاوض لوقف الأعمال القتالية والسماح لقواته بالانسحاب إلى بيجابور مقابل تسليمه الحصن. جمع قادته، ومن بينهم لوبيز، وأبلغهم بأن جميع الإمدادات قُطعت عنهم، وأن أجزاء كثيرة من السور الخارجي دُمرت، وأن مخزونهم من الطعام والبارود سوف ينفد عمَّا قريب. وختم كلامه بأن سلامتهم لن تتحقق بالمقاومة ولكن بالتفاوض على هدنة. وافق العديد من الحضور رسول خان، ولكن عند هذه النقطة، وفقًا لـ«تعليقات ألبوكيرك»، تحدث أحد المنشقين (لعله كان لوبيز) وراح يحاجج بأن القتال يجب أن يستمر. وحذَّر رسول خان قائلًا: «لا تنسَ أن البرتغاليين حينما يغضبون لا يتوقف غضبهم عند حد. الأمر أشبه بمهاجمة أسد». لكن القائد المسلم لم يكترث بكلامه، وفي ١٩ نوفمبر، أمر برفع الراية البيضاء وأرسل مبعوثًا إلى البرتغاليين. في البداية أراد أن يكون لوبيز هو المبعوث، لكن منشقًّا آخر، هو فرناندينيو، اقترب من حافة السور الخارجي حتى أصبح مرئيًّا للبرتغاليين، وصاح قائلًا: «نحن ندعوكم لهدنة»، وأضاف بعد ذلك أنه لا يوجد سوى رجل واحد يمكن للمسلمين التفاوض معه: «نريد جواو ماشادو». لكن ماشادو لم يكن في المعسكر، وأجابه الجانب البرتغالي بأنهم بدلًا من ماشادو، سوف يبعثون باستياو رودريجيز الذي «يفهم لغتكم». واصطُحب رودريجيز إلى الحصن وهناك التقى رسول خان وتلقى شروط القائد، وكانت طلبًا لهدنة تستمر بضعة أيام يُتفق خلالها على شروط التسوية بين ألبوكيرك وإسماعيل عادل شاه.

حينما استلم ألبوكيرك شروط رسول خان، استدعى رجاله واستشارهم، فأجمع معظم قادته: ليس هناك ما يدعونا للقبول بأي شروط. كان رسول خان يحاول كسب الوقت فحسب، فقد نُقبت الأسوار تقريبًا، وبدلًا من التفاوض من أجل السلام، عليهم أن يهاجموا الحصن ويشقوا طريقهم إلى داخله ويأخذوه عنوة. وبدعم من دوم جارسيا، رفض ألبوكيرك ذلك قائلًا إنهم إذا اقتحموا الحصن، فربما يستولون عليه، ولكنهم سوف يضحون بالعديد من الأرواح، لأن المسلمين في وضع يائس وسوف يقاتلون حتمًا حتى الموت. وأبلغ رودريجيز أن هناك تقريبًا ٨ آلاف مسلح لا يزالون بالحصن، وأن القضاء عليهم سوف يتسبب في إراقة دماء كثيرة من كلا الجانبين. وعندئذٍ أعلن ألبوكيرك شروطه: إذا سلَّم رسول خان الحصن بما فيه من بنادق وخيول وكل شيء آخر كما هو، فسوف يمنح رجاله ممرًّا آمنًا. ولكن ألبوكيرك أصر أن عليه أيضًا أن يُسلم المنشقين، ومنهم فرناو لوبيز. وإذا رفض رسول خان هذه الشروط فسوف يتعرض الحصن لهجوم شرس لا هوادة فيه. عاد رودريجيز إلى رسول خان بهذه الرسالة، وكان في رفقته هذه المرة جواو ماشادو الذي طُلب منه العودة للمعسكر كي يؤدي دور الوسيط. ونقل الرجلان رسالة ألبوكيرك إلى رسول خان الذي استمع إليها في صمت. لا ندري هل تبادل ماشادو ولوبيز الحديث في ذلك اليوم. ربما فعلا أو ربما لم يجدا ما يقولانه. كان رسول خان يدرك أنه في وضع لا يُحسد عليه وأن مزيدًا من المقاومة سيكون عديم الجدوى، فأجاب أنه سيقبل ببعض شروط الحاكم، وليس كلها، لأنه لن يسلم المنشقين، وقطعًا لن يسلم لوبيز. كان يدرك أنه على الرغم من أن بعض المنشقين قد يُمنحون عفوًا، بسبب منزلتهم المتدنية أو فقرهم المدقع، فإن لوبيز سوف يُقتل حتمًا، كما أن اعتناقه الإسلام لم يكن يجيز له تسليمه. حينما عاد ماشادو إلى ألبوكيرك، احمر وجه الحاكم وصاح بأعلى صوته: «لا شيء في هذا العالم يمكن أن يجعلني أسمح لهم بالبقاء مع رسول خان. هذا ليس أكثر مما يمكن أن يطلبه أي أحد آخر في موقفي». ومن بين جميع الشروط التي يجب تلبيتها، أصر على أن تسليم المنشقين يجب أن يكون أولها، وإلا فلا هدنة.

شعر رسول خان بالصدمة إزاء غضب ألبوكيرك ورفضه التنازل، وهز رأسه، وارتعشت شفتاه حتى لم يعد قادرًا على الكلام. وغشيه الصمت فترة واستغرق في التفكير. إن تسليم لوبيز يعني موتًا محتمًا، وقد علم رسول خان الآن أن ألبوكيرك لم تأخذه الرحمة بأحدٍ قَطُّ. كان لوبيز قد تحول إلى الإسلام، وحارب بشجاعة واستبسل في القتال معه. لقد أظهر نبلًا وشرفًا عظيمين. لكن الوضع في الحصن كان يبعث على اليأس الشديد، والبرتغاليون كانوا يزدادون تعطشًا للدماء، وعمَّا قريب لن يكون بوسع ألبوكيرك نفسه أن يكبح جماحهم. أدرك رسول خان أنه ليس لديه خيار وأن ألبوكيرك قد وضعه في

مأزق. كان عليه القبول بالشروط. لا مفر من تسليم لوبيز والمنشقين. ولكن رسول خان بقي صامتًا لم يتكلم، وطال صمته، فيما كان المبعوث البرتغالي ينتظر الرد من القائد المسلم، وكان ضوء النهار قد بدأ يتلاشى. بقي رسول خان صامتًا، واستغرق في التفكير. لقد بات مصير لوبيز معلقًا في الميزان، ما بين غضب ألبوكيرك وصمت رسول خان.

جاء صوت رسول خان المتعب منخفضًا ولا يكاد يُسمع: «سأقبل بمطالب الحاكم وسوف أطلق سراح لوبيز والمنشقين. ولكن بشرط واحد، وهو أن يُبقيَ على حياتهم، وهو شرط لن أتنازل عنه، لأنني لا أستطيع». وعندئذٍ خلع رسول خان خاتمًا من الألماس كان في يده، وطلب من المبعوث أن يسلمه إلى ألبوكيرك دليلًا على إخلاصه. لكن ألبوكيرك رفض الخاتم. وبحسب «تعليقات ألبوكيرك» جاءت كلماته حادة، ووبخ المبعوث: «أنت أحمق. سيقول الناس إنني فعلت ما فعلت بسبب خاتم. خذ هذا الحجر ورده إليه! الآن! قبل أن أطعنك في صدرك!». لكنه كان لديه أيضًا رسالة يريد إبلاغها للمسلمين: «أخبر رسول خان أنني سأبقي على حياة المنشقين». انتقى ألبوكيرك كلماته بعناية وتظاهر بالشهامة، ولكن الشهامة لم تكن من سجاياه. سوف يُبقي على حياة لوبيز، ولكن بعدما يجعلها لا تستحق أن تُعاش. وفي أثناء ذلك، وبينما قبل ألبوكيرك بالشروط، كانت هناك أحداث أخرى مثيرة تجري داخل الحصن. فحينما عاد باستياو رودريجيز حاملًا رسالة ألبوكيرك، كان الليل قد انتصف بالفعل وكانت هناك جلبة داخل الحصن، لأن رسول خان نفسه استخدم مسارًا للهرب كان قد خطط له سابقًا، وغادر باناستاريم من دون أن ينتبه إليه أحد، في قارب شراعي رفقة زوجاته وحَرسه. ويُرجح أن صاحب القارب، الذي كان برتغاليًّا، ارتشى كي يحمل ركابه عبر النهر. كان رسول خان مقتنعًا بأن ألبوكيرك لن يقبل طلبه بالإبقاء على حياة لوبيز ورفاقه من المنشقين، وأدرك في الوقت ذاته أنه لم يعد بمقدوره الاحتفاظ بالحصن بعد الآن. إن إنقاذ لوبيز قد يعني مذبحة للمئات من أفراد الحامية، لكن تسليمه يخالف تعاليم الإسلام التي يؤمن بها رسول خان. ولأن هذه المعضلة أقضت مضجعه كثيرًا، تملكت الحيرة القائد المسلم رسول خان، وهو القائد الأعلى لدى إسماعيل عادل شاه، وأصبح عاجزًا عن اتخاذ أي قرار، اللهم إلا قرارًا واحدًا وهو الفرار تحت جنح الليل. كان عملًا جبانًا من وجوه عدة، ولا يتورط فيه إلا رجل فقدَ شجاعته. لقد منعه إيمانه في أول الأمر من تسليم لوبيز (بالرغم من وجود مقاتلين برتغاليين آخرين في صفوف المسلمين، كان لوبيز هو كبيرهم من دون شك، وهو الرجل الذي طالب ألبوكيرك بتسليمه)، ولكن يبدو أن الإيمان كانت له حدوده عند رسول خان، الذي أدرك أنه بفراره من الحصن يترك لوبيز إلى موت محقق.

في البداية تَفقَّد القادة المسلمون، وهم لا يدركون، رسول خان في الحصن، وحينما لم يجدوه بدأت تتكشف لهم تدريجيًّا حقيقة أنه تخلى عنهم، وأنهم ما لم يتصرفوا سريعًا وبشكل موحَّد فإن نكبة كبرى سوف تحل بهم. كان يجب إشباع الأسد الغاضب ألبوكيرك وإلا فسوف يلتهمهم جميعًا. أدرك لوبيز على الفور حينما بلغته أنباء فرار رسول خان، بأنه كان عليه أن يهرب من الحصن هو الآخر وإلا فسيكون في عداد الموتى بحلول الفجر. كان لوبيز يثق برسول خان، ولكن لم يكن لديه أي سبب يدعوه للثقة بالرجال الذين يحيطون به، وعلى الأخص الترك والخراسانيون المرتزقة الذين لم يكن يعرفهم. كان معروفًا لدى الجميع أنه مطلوب، وأي هدية يمكن لأيٍّ من هؤلاء القادة، المغمورين، أن يقدمها إلى ألبوكيرك أفضل من رأس المنشق فرناو لوبيز؟ كان عليه أن يجد طريقًا للهرب ولم يكن لديه وقت يضيعه، وأصبحت حياته متوقفة على ذلك. لكن أوان ذلك فات، فقد ألقى القبض عليه حراس أرسلهم قادة رسول خان ووضعوه رهن الاحتجاز.

لم يكن لديهم وقت يضيعونه؛ وكانت أنباء فرار رسول خان قد بلغت الآن الجنود البرتغاليين وثارت رائحة الدم في أنوفهم. وبجهد جهيد استطاع القباطنة البرتغاليون أن يكبحوا جماح رجالهم الذين رفعوا عقيرتهم في غضب مطالبين بالقتال والنهب والحرق. سُلم لوبيز إلى باستياو رودريجيز، المبعوث البرتغالي، ومعه رسالة إلى ألبوكيرك تقول: «ها هو المنشق اللعين. افعل به ما تشاء. والآن اسمح لبقيتنا بالمرور الآمن!». وكان لوبيز في الليلة نفسها التي شهدت فرار رسول خان، قد قُيدت يداه خلف ظهره واصطُحب إلى خارج الحصن وسُلم إلى المعسكر البرتغالي. وفي الحال، اقتيد إلى خيمة ألبوكيرك وأُلقي به عند قدميه. كان ألبوكيرك ينتظر بفارغ الصبر قدوم مبعوثه بالأخبار، وكان متعبًا من قلة النوم. ودون أن يوجه أي كلمات إلى لوبيز، أو حتى ينظر إليه، أشار له أن ينهض. لم يتخلَّ رسول خان عن حصن باناستاريم فقط، ولكنه تخلى أيضًا عن كلمته. لم يعد ألبوكيرك، الذي تعهد بألا يقتل لوبيز، بحاجة الآن إلى الوفاء بعهده ولم يعد مُستبعَدًا أن يُشنق لوبيز مع طلوع الفجر. ولكن ألبوكيرك كان متعبًا للغاية ولم يستطع أن يقرر مصيره، وأشار بأن يؤخذ لوبيز بعيدًا وأن يظل مقيدًا وتحت الحراسة. لم يتبادلا كلمة واحدة.

وبعد وقت قصير من شروق الشمس جمع ألبوكيرك قواته ومضى إلى الحصن. فُتحت بوابات الدخول على مصاريعها وخرج أكبر قائد لدى رسول خان كي يُقدم لهم الحصن. كان ألبوكيرك طوال الصباح يحث الفيدالجو على حفظ الانضباط بين رجالهم، ولكن حينما فُتحت البوابات لم يستطع العديد من المشاة والفرسان أن يكبحوا جماح أنفسهم، واندفعوا إلى الداخل وراحوا ينهبون من دون تمييز. كان ألبوكيرك مصممًا على التعامل مع استسلام باناستاريم بأكبر قدر من الهدوء: فهو لا يستطيع المخاطرة بمواجهة آلاف

المسلمين ممن ليس لديهم الآن ما يخسرونه، وهذا من شأنه إطالة أمد المعركة. وكان يتطلع إلى تأمين الحصن حتى يمكنه القيام بحملة أخرى في البحر الأحمر. وكلما أسرع المسلمون في انسحابهم، كان ذلك أفضل. وحينما رأى حالة الهياج، حاول ألبوكيرك من دون جدوى منع قواته من الدخول قبل خروج المسلمين، ولكنه إزاء القوة التي تدفق بها الرجال إلى الحصن وجد نفسه مضطرًّا إلى العودة إلى داخل أسواره. ولم يُستعَد النظام إلا بعد جهد جهيد، حتى يمكن البدء في إخلاء باناستاريم ونقل المسلمين إلى بيجابور. صدرت أوامر صارمة بأن يغادر جميع المسلمين وزوجاتهم وأطفالهم من دون أن يمسسهم سوء (كان من المعتاد أن تسافر العائلات مع القادة المسلمين، حتى في المعارك). لم يكن مسموحًا بإخراج أي شيء من باناستاريم سوى الثياب التي يرتديها الأشخاص. وأي شيء خلاف ذلك، مثل الأسلحة والخيول، فيجب أن يُخلَّفوه وراءهم. وحتى عندئذٍ، كان نقل المسلمين عبر الممرات المائية أمرًا دونه صعاب كبيرة. كان هناك آلاف من الفرس والترك والخراسانيين، فضلًا عن السكان المحليين، واستغرق الأمر عدة أيام للعبور بهم جميعًا. لكن باناستاريم سقطت أخيرًا، وانسحب رسول خان، تاركًا خلفه خيوله المطهَّمة، التي أخذها ألبوكيرك باسم الملك. وكتب ألبوكيرك إلى ملكه يقول: «والآن خضعت الهند. أدعو الرب إلهنا أن يبقيها هكذا».

لكن ألبوكيرك لم يكن متأكدًا أن رسول خان لن يشن هجومًا جديدًا. ولذلك، بعث إليه برسالة يعرض عليه فيها التحالف مع البرتغاليين. ولأنه علم أن إسماعيل عادل شاه استشاط غضبًا بسبب تخلي رسول خان عن الحصن، حاول ألبوكيرك استغلال هذه الفرصة: «إذا كانت بك رغبة في البقاء في جوا في خدمة ملك البرتغال بدلًا من هيدالكاو [الاسم البرتغالي لإسماعيل عادل شاه]، فسوف أُقطعك بعض الأراضي هنا في جوا، باسم الملك، شريطة أن تقسم له يمين الولاء». وحينما رد رسول خان على ألبوكيرك جاءت لهجته متحدية، وطالبه بإعادة المنشقين البرتغاليين (ومنهم لوبيز، ويا للعجب) رغم أنه بدا أكثر حرصًا على استعادة خيوله المطهَّمة. ربما لم يكن تخلي رسول خان عن باناستاريم لنقص في شجاعته، بقدر ما كان انسحابًا تكتيكيًّا سوف يتيح له أن يشن هجومًا على جوا. أيًّا كان الأمر، فإن ألبوكيرك لا يجازف. وفي النهاية أغار رسول خان على جوا، ولكنه كان هجومًا يفتقر إلى الحماس على ما يبدو، ونقرأ: «وقد قُتل بعض المنشقين»، وبعدها يتلاشى القائد من قصتنا.

حانت ساعة الحساب. التفت ألبوكيرك الآن إلى لوبيز. وعلى الرغم من أن هناك منشقين آخرين محتجزين، فإن لوبيز، على حد تعبير جاسبار كوريا، «كان يجب أن يُعاقب عقابًا أشد لأن منزلته أكبر». إن كون كوريا يخص بالذكر لوبيز، رغم أن هناك منشقين برتغاليين آخرين سُلموا، هو أمر ذو أهمية كبيرة: فمن السهل أن نتصور أنه كان يُنظر إليه باعتباره كبيرهم. لا شك أن لوبيز

كان الأعلى رتبة بين المنشقين الحاضرين، وأنه كان قطعًا يعرف ألبوكيرك. ربما كان ألبوكيرك لا يزال غاضبًا من الطريقة التي تحداه بها في هرمز أو من اعتراضه على إعدامه روي دياز. لكن فرار رسول خان من باناستاريم أحلّ ألبوكيرك من أي تعهد التزم به: وقرر أن لوبيز سوف يُشنق. ولكن تبين له أن الأمر ليس بهذه البساطة. فحينما نقرأ في روايات كوريا وباروس وكاستانيدا، فقد كان مقررًا وصول قاضي قضاة البرتغال إلى جوا ضمن زيارته الدورية التي قام بها من لشبونة. وكان لقب «قاضي القضاة» يضاهي منصب قاضي الاستئناف في محكمة الملك، ويعتبر أرفع مرجعية قانونية. وما أثار استياء ألبوكيرك، أن قاضي القضاة أبلغه الآن أنه لا يجوز قتل المنشقين البرتغاليين لأن الملك مانويل، الذي رأى أنه لا يمكنه أن يتحمل خسارة رجال يقاتلون في الشرق، أصدر بالفعل مرسومًا يقضي بضرورة الإبقاء على حياتهم. وذهب قاضي القضاة إلى أبعد من ذلك، حينما أبلغ ألبوكيرك أنه وفقًا للمرسوم الملكي لا ينبغي حتى إنزال أي عقاب بالمنشقين. أما الرجال الذين كان ألبوكيرك يريد قتلهم، فلم يكن قاضي القضاة مستعدًّا لتحمل المسؤولية عن الحكم في قضيتهم، وبصفته الرسمية، سوف يكون عليه طلب الاستشارة من لشبونة. كان الرجلان يدركان أنه إذا عادت القضية إلى لشبونة، فسوف ينال الرجال عفوًا، إذ كان جليًّا أن مانويل لن يوافق على إعدامهم. وعلى أي حال، فإن وصول رسالة إلى لشبونة وتلقي الرد يعني أن الرجال سوف يبقون رهن الاحتجاز لسنة أو نحو ذلك، وتبقى مصائرهم معلقة فوق رؤوسهم. ورغم ذلك فإن قاضي القضاة لن يتزحزح عن موقفه، ولن يسمح بإعدام المنشقين. وبالرغم من أن ألبوكيرك، باعتباره الحاكم، كان بالفعل هو رجل الملك في الهند ويمكنه إيداع الرجال في السجن من دون عقاب، فربما شعر بأنه لا يستطيع أن يتجاوز هذا الخط ويتحدى قاضي القضاة، الذي كان في وجوده بلا شك إنقاذ لحياة لوبيز. ولن تكون هذه هي المرة الوحيدة التي سيكون لقاضي القضاة فيها تأثير هائل على مصيره.

لن يُقتل لوبيز ولا غيره من المنشقين، لكن ألبوكيرك كان مصممًا على ألا يَصفح عنهم. رأى أنهم يجب أن يكونوا أمثولة، ولذلك كتب أمرًا ووقَّعه باسم الملك، وأوضح فيه عمليات التنكيل والمُثلة التي يجب أن يخضع لها لوبيز، بصفته كبيرهم. لن يُقتل لوبيز ولكنه سوف يُعاقَب بما فعل، أمام حشدٍ من الناس وبأبشع طريقة.

وبحبال ملفوفة حول رقابهم فيما قُيِّدت أيديهم خلف ظهورهم، سيق المنشقون، وعلى رأسهم لوبيز، إلى «ساحة عامة يقصدها الصغار وأهل مدينة جوا»، حيث جُردوا من ثيابهم حتى خصورهم. وأمام حشد من الناس يطالبون في غضب بإنزال العقاب بهم، وبحضور ألبوكيرك، تُلي بيان بصوت عالٍ أعلن فيه أن ملك البرتغال قد قضى، وإن أبقى على حياتهم، بأنهم

خالَفوا القانون وخانوا مليكهم، وأنه يتعين إقامة العدل فيهم. جثا بعض المنشقين على ركبهم وهم يتلقون عقوبتهم، فيما ضُرب آخرون على صدورهم. طأطأ بعضهم رأسه أسفًا فيما راح آخرون يتضرعون للرب إلههم. ورفض واحد أو اثنان منهم القبول بالحكم رغم أن أوان الرفض قد مضى وولى منذ مدة. أما لوبيز، فبقي ذاهلًا غير مكترث، ووجهه جامد الملامح ومطرقًا بعينيه نحو الأرض.

على الرغم من أنه استخدم اسم الملك، فإن ألبوكيرك كان يعلم أن طريقة تعامله مع سجنائه تخالف في الواقع أمر مانويل، وهو أنه لا ينبغي إنزال أي عقاب بالمنشقين. كان ألبوكيرك، الذي اختط البيان بنفسه، يرى أن هذا النوع من الرحمة تهور في حقيقة الأمر. كان التنكيل بهم أمرًا لا مفر منه. وبعد قراءة البيان، وُضع لوبيز في عمود التشهير ووُجهت إليه الإهانات ونُتفت لحيته. ثم جيء بطين ممزوج بروث الخنازير، وقد أُعد خصوصًا لهذه المناسبة، ودُعك به وجهه وعيناه حتى طُمست ملامح وجهه وتُرك هكذا تحت رحمة الذباب لبقية اليوم. وبينما كان لوبيز مشدودًا إلى عمود التشهير، كان الحراس يحثُّون الناس على القدوم والتبول عليه، وسارع العديد منهم لعمل ذلك، فيما جاء بعضهم بأطفاله كي يفعلوا ذلك. وراح آخرون يبصقون عليه. وفي نهاية اليوم، أُعيد إلى السجن حيث رقد مكبلًا بأغلال حديدية حول كاحليه ويديه ورقبته، ولم يكن ذلك خشية هروبه بقدر ما كان رغبة في زيادة معاناته. وفي تلك الليلة شعر لوبيز بيأس لم يحسبه قَطُّ موجودًا فيما كان يرقد وسط الروث والقاذورات. ولكن كل ذلك إذا ما قورن بما ينتظره في غده، فإن هذه الليلة الأولى كانت مثالًا للرحمة.

في اليوم الثاني، جيء بلوبيز والمنشقين الآخرين مرة أخرى إلى الساحة العامة وجُرِّدوا من ثيابهم حتى خصورهم، ثم تُلي البيان نفسه بصوت عالٍ. كان الحشد أكبر عددًا وأكثر صخبًا من اليوم السابق. ووسط الصيحات واللعنات الغاضبة من الحشد، ووسط الذباب والبعوض، وعلى مرأى من الهندوس والبرتغاليين، أمر ألبوكيرك بجدع أنف لوبيز. كان إنزال مثل هذا العقاب بفرد من أفراد الفيدالجو عملًا لم يُسمع به من قبل، فلم يحدث قَطُّ أن مُثل بأحد النبلاء، فمثل هذا المصير لا يكون إلا لعوام الناس، وحتى أشد الناس صلابة استبشعوا ما جرى فيما كانت صرخات العذاب التي يطلقها لوبيز تملأ أجواء المكان. وبينما كانت الدماء تسيل من جرحه البالغ، كان يُؤتى بمزيد من روث الخنازير لفركه في وجهه. والآن أمر ألبوكيرك بصوت عالٍ وقوي، ودون أن يظهر على وجهه أي تأثُّر أو عاطفة، حتى يسمعه الجميع بأن يقف لوبيز منتصبًا كي تُبتر أذنه اليمنى. وحالما تم ذلك، أمر ألبوكيرك ببتر أذنه اليسرى أيضًا، ما أدى إلى قطع أحد شرايينه، وتسبب في نزف كبير. وكما في اليوم الأول، بال الناس عليه وبصقوا فيما يئنُ هو على الأرض، وقد صار

حطام رجل. وفي نهاية اليوم، نُقل لوبيز (وقد أغشي عليه من شدة الألم) مرة أخرى إلى السجن، حيث وُضعت السلاسل الحديدية حول رجليه وعنقه، وقُيدت يداه بالأغلال، وإن وُضعت قطعة قماش على الجانب الأيسر من وجهه لوقف نزيف الدماء من الشريان المقطوع رحمةً به. وعلى هذه الحال قضى لوبيز ليلته الثانية.

في اليوم الثالث، كان لوبيز قد نزف دماء كثيرة بسبب جروحه ولم يعد يقوى على المشي. وبدأ يهذي أيضًا من أثر الحمى، ومع ذلك اقتِيد بغلظة إلى الساحة العامة حيث تُلي البيان بصوت عالٍ للمرة الثالثة وفي حضور ألبوكيرك. وفي هذه المرة اجتمع حشد أكبر وأكبر، بعدما انتشرت الأخبار في جوا بأن أفونسو دي ألبوكيرك قد بدأ الانتقام. كان هذا الحشد كبيرًا حتى كان الناس يميلون برؤوسهم إلى الأمام ويشرئبون بأعناقهم كي يروا ما يجري. وفي اليوم الثالث، أمر ألبوكيرك بصوت عالٍ بأن تُبتر يد لوبيز اليمنى، وملأ صراخه المكان مرة أخرى. وحالما تم ذلك، أمر ألبوكيرك بقطع إبهام يده اليسرى. في أثناء ذلك كان أفراد الفيدالجو يتبرمون مما يحدث: فإنزال هذا العقاب بكافرٍ أو حتى بأحد العوام شيء، وإنزاله بواحد منهم، وهو فرناو لوبيز، شيء آخر. لقد حارب بشجاعة تحت قيادة ألميدا، ورُسِّم فارسًا. ولعب الشطرنج ومزح وضحك وأكل معهم. كان الأشرف له أن يُقتل. وفي النهاية، تمتم أفراد الفيدالجو، ألم يعلق ألبوكيرك روي دياز في حبل المشنقة لمخالفةٍ أهون بكثير؟ لم يكن هناك أي شرف في هذا. أسكتت صرخات لوبيز أصوات الجموع. وربما لأنه استشعر تململًا بين زملائه من الفيدالجو، أو ربما لأنه شعر بأن لوبيز قد عانى بما يكفي، أعلن ألبوكيرك الآن أن العقوبة انتهت وأن فرناو لوبيز أصبح حرًّا طليقًا.

ربما أصبح لوبيز حرًّا، ولكنه بات الآن بلا مأوى، ولذلك أُعيد إلى السجن حيث تمت مداواة جروحه. ومع ذلك، فإن الحرارة الشديدة كانت تعني الآن أن العدوى قد بدأت، وخلال الأيام القليلة التالية، مات العديد من رفاق لوبيز المنشقين متأثرين بجراحهم. جاء موتهم بطيئًا ومضنيًا، بعيدًا عن أحبائهم. لم يعرفوا سوى الفقر والمشقة طوال حياتهم القصيرة والقاسية، وماتوا ميتة مؤلمة لانتشار غنغرينة عبر أطرافهم. كان لوبيز ينام نومًا متقطعًا وظل على مدى أيام عدة يُغشى عليه ويفيق، وظلت حالته الصحية غير معلومة وكان يمكن لأي عدوى أن تقتله. ولكنه وفيما كان يراوح ما بين استفاقات قصيرة الأمد ويأس شديد، كان يستعيد صحته ببطء، وإن بقي ذهنه في حالٍ من الصدمة. فقد شُوِّه جسده وسُحقت روحه، وأصبح منبوذًا لا أنيس له. كانت لحظات الألم حينما تنتابه تضنيه، وكانت أهون لمسة لجدعة ذراعه اليمنى حيث لم تكن النهايات العصبية قد التأمت بعد تجعله يصرخ من شدة الألم. ومع انتهاء نوبات التنكيل، عفا عنه ألبوكيرك. وعلى الرغم من أنه أصبح حرًّا

من الناحية النظرية، فإن عفوه لم يكن له أي معنى حقيقي. فقد سُد عليه طريق الخدمة في الجيوش ولم يعد قادرًا على العمل. وتم إذلاله والحط من شرفه والتمثيل به أمام ملأ من الناس. ولذلك بقي في جوا، ومع مرور الأسابيع والأشهر، كان يجوب الشوارع بحثًا عن فُتات الطعام. لم نَسمع شيئًا عن زوجته المسلمة، وبالرغم من أننا لا نعرف على وجه اليقين فربما كان سيجد مسكنًا معها أو مع أسرتها. عرفه الناس بالطبع، ولكنهم تحاشوه، إما حرجًا وإما شفقة على الأغلب. لقد سُحق بطريقة وحشية وبشعة للغاية وظهرت عليه علامات الكبَر بوضوح. ويبدو أنه بعد العقوبات التي أُنزلت بالمنشقين، أمر ألبوكيرك بإعادتهم إلى البرتغال، ولكن بحسب كوريا، فقد اختار اثنان منهم البقاء. كان أحدهما يدعى بيدريانز، الذي كتب عنه كوريا أنه «عاش حياة رجل صالح، وراح يساعد رجال الدين، ويدفن الموتى من رجالنا الذين يقضون نحبهم وحدهم خارج أرض الوطن». وأما الآخر فكان لوبيز.

ويمكن للمرء أحيانًا أن يتصور لوبيز وقد راح يستعيد الحوار الذي دار بينه وبين جواو ماشادو، حينما طَلب منه الأخير أن يحذو حذوه ويترك المسلمين، ويتبرأ مما فعل ويعود إلى المعسكر البرتغالي، وسوف يتساءل عمَّا إذا كان اتخذ القرار الصحيح. لقد ابتلاه الله واجتنبه الناس، وتم التمثيل به ونبذه والسخرية منه والإساءة إليه. بصق عليه الناس وجاءوا بأطفالهم كي يبولوا عليه، ولكنه في غمرة معاناته وعذابه، ربما كان يجد بعض العزاء. ربما فاز ماشادو بثمرة الدنيا، ولكن لوبيز، كان قد بدأ ببطء، وفي خضم عواصف من اليأس والدموع وليالٍ من الظلام الحالك والهجران، بدأ يفهم، إن لم يكن بعقله فعلى الأقل بروحه، أنه لم يخسر كل شيء، وأن بذرة ما قد غُرست وأنه قد ربح شيئًا ما، وإن لم يدرِ ماهيته. كان الدليل على وجود هذه البذرة أنه في ذروة التنكيل به، ورغم صراخه من شدة الألم، لم يطلب الرحمة ولم يتبرأ من إيمانه، وعلى الرغم من أن ألبوكيرك تجاهله خلال الأيام الثلاثة، فقد كان جليًّا للجموع الحاضرة أن لوبيز هو الآخر قد تجاهل الحاكم، كما لو كانا ممثلين على مسرح واحد، ولكنهما يشاركان في مسرحيتين مختلفتين.

الرحلة الثالثة

«النظر في عينَي دون فرناندو،

لا بد أن رؤيتك كانت تسر الناظرين يا سانت هيلانة، أعلم ذلك

كانت الوحدة هي رفيقته الدائمة، ولكن الحرية التي منحتها له عوضته عن كل شيء».

رالف بيترز، «النظر في عينَي دون فرناندو»، ١٩٧٩

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الثاني عشر

ومات القيصر

وحتى أفونسو دي ألبوكيرك العظيم الذي لا يُقهر كان عليه أن يموت. بدت طاقته على العمل حتى نهاية حياته وكأنها مَعين لا ينضب، فقد نال قسطًا من النوم ثم نهض قبل الفجر لحضور القداس قبل أن يعتمر قبعته ويواجه أعباء يومه وتحدياته التي لا تنتهي. وأشار جاسبار كوريا إلى أن «كتَّابه الأربعة [وأحدهم كوريا] كانوا يسيرون في إثره، وخدَّام الملك، ومعهم الورق والحبر، حتى إذا أصدر أوامره أو وجَّه رسائله، وقعها وهو على صهوة جواده ومضى». بقي طوال عمره صاحب رؤية ثاقبة ولا تفوته فائتة: «ما دمتُ موجودًا، فكل شيء يسير على ما يرام، ولكن ما إن أدير ظهري حتى يتصرف كل شخص حسب هواه». مضت تسع سنين على وصوله إلى المحيط الهندي، وخلالها أصبح ألبوكيرك موضع تعظيم وإكبار. كان يعمل بلا كلل، ونجا من سُفن تحطمت ومؤامرات حيكت وهزائم ونكبات حلَّت به، ولكنه تغلَّب عليها جميعًا بعزمه الذي لا يلين على إنفاذ رؤية مانويل. بات يُعرف باسم «أسد البحار»، أو ببساطة «قيصر الشرق»، ولكن هذين اللقبين أيضًا لم يوفياه حقه من التمجيد، لأنه كان يعمل على نطاق أوسع مما أُتيح للقياصرة، ويدير شؤون إمبراطورية امتدت من البحر الأحمر حتى ملقا، بمسافة تزيد على ٣ آلاف ميل. كان بكل تأكيد أعظم بُناة الإمبراطورية البرتغالية وأحد الشخصيات البارزة في القرن السادس عشر.

كان أيضًا رجلًا يصنع الأعداء ولا يتورع عن ارتكاب أشد الأعمال وحشية وعنفًا بما يصدم حتى أفراد الفيدالجو من ذوي القلوب القاسية. وكان هدفًا للعديد من محاولات الاغتيال؛ وفي إحدى هذه المحاولات دُس له السم في طعامه، لكنه نجا. وقال برباطة جأش، يجب على الموت أن ينتظر، لأنه لا يريد أن يموت مسمومًا. ولكن الظلام كان يدنو منه شيئًا فشيئًا، وأحسَّ ألبوكيرك الذي ناهز ٦٢ عامًا أن خط السباق يوشك على نهايته. وفي ٦ ديسمبر ١٥١٥ بعث برسالته الأخيرة إلى مانويل، ثم أمر بأن يُلبَّس البزة العسكرية الخاصة بجماعة «فرسان سانتياجو» (وكان عضوًا بها) وأوصى أن يُدفن بها. وبينما كان الوقت ينزلق من بين أصابعه، كتب وصيته، ومهرها بخاتمه وطلب أن يُستدعى له رجل دين كي يمنحه الغفران. ثم نُقل إلى نافذة كي يلقي النظرة الأخيرة على جوا قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة. نُقل جثمان ألبوكيرك في ضوء المشاعل إلى الكنيسة تحت أنظار ساكني جوا، الذين توافدوا عليها كي يعبروا في صمت عن تبجيلهم لأسد البحار الذي هَرم، وكانت لحيته الطويلة تصل حتى خصره: مات أفونسو دي ألبوكيرك العظيم. وأصر سكان جوا على

أن يُدفن في جوا لأنهم كانوا يؤمنون إيمانًا راسخًا أن جوا سوف تظل برتغالية ما بقيت عظامه فيها.

بخط يده المهتزة وفيما كان الموت يلقي بظلال باردة وطويلة على غرفته، كتب ألبوكيرك وصيته. وحينما فض ابنه ورجاله الختم لقراءة محتواها أدركوا أنه لم ينسَ مطلقًا، وإن لم يتحدث قَطُّ عن ذلك لمخلوق. فقد حدد ألبوكيرك وصيتين جديدتين. في الأولى أوصى أن يُخصص قسم من ماله لإقامة ٩٠ قداسًا لروح دياز الذي ظل شبح إعدامه يطارده في صمت. أما الطلب الثاني فكان بسيطًا: أن تُطلى القذيفة التي أُطلقت من أسوار باناستاريم وكادت تصيبه، بالفضة، ثم تُرسل إلى كنيسة «سيدة جوادالوبي» في منطقة الغرب. لم يذكر ألبوكيرك ولو مرة واحدة خلال السنوات التي مضت منذ إعدامه اسم روي دياز. ولكن يبدو أنه لم يغب عن خاطره.

تُحدثنا المصادر أن الآلاف توافدوا في ذلك اليوم كي يلقوا النظرة الأخيرة. وكان فرناو لوبيز أحدهم. ولا ندري لماذا قرر الحضور: هل كان تبجيلًا منه للموت، أم تحديًا؟ لعله أراد وحسب أن يتأكد أن ألبوكيرك، ذلك الرجل الذي نجا من قبضة الموت مرات ومرات، قد لفظ بالفعل أنفاسه الأخيرة. ولكنه فعل ما فعله الآخرون الذين انتبهوا لوجوده في صمت وتركوه وشأنه، ألقى لوبيز نظرته الأخيرة على جثمان أفونسو دي ألبوكيرك المُسجى في كاتدرائية جوا، التي كان هو نفسه أمر ببنائها بعد الاستيلاء على المدينة في عام ١٥١٠ وكُرست للقديسة كاترين. وترسم جميع المصادر صورة إيجابية لألبوكيرك، لكن لوبيز كان يكرهه كراهية شديدة حتى دفعته إلى الارتحال إلى بيجابور ثم إلى التمرد الصريح، وعلى الرغم من أن المرء يمكنه أن يسوق عدة أسباب محتملة لهذه الكراهية (منها إعدام روي دياز والخلاف في هرمز والطموح الشخصي)، فإن المرء يشعر غريزيًّا بأن العلاقة بين الرجلين كانت شديدة الخصوصية والتعقيد. ولن نعرف أبدًا على وجه اليقين ماذا جرى بينهما، ولكن نُدرة المصادر تسمح لنا على نحو ما ببعض التخمينات. كان ألبوكيرك قائدًا من نوعية يسهل كراهيتها، ولكنه كان أيضًا رجلًا يحظى بولاء كبير وسط رجاله. وما كانت شجاعته الفذة التي ظهرت في باناستاريم، حينما رفض التخلي عن رجاله، لتمر من دون أن يفطنوا إليها، وربما كان تقبيله وجه أحد نبلائه أمام الملأ قد أساء لصورة بعض أفراد الفيدالجو، ولكنه أظهر بوضوح أنه يتمتع بمَلَكة خاصة في كسب حب العامة، وهي ضرورة لا غنى عنها لأي قائد. وفي جوا كان يُعنى عناية حقيقية بشؤون رجاله، ورتب شخصيًّا الزيجات لهم كيما يساعدهم في استقرار أحوالهم، وهناك لمسة مؤثرة حقًّا في شعوره بالندم على إعدامه روي دياز، وهو ندم تجلى بوضوح في وصيته. ولهذا السبب وحده، فإنني لا أقتنع بأن الكراهية يمكن أن تكون هي التفسير المقنع وراء ذهاب لوبيز إلى الكاتدرائية. لا بد أن سببًا آخر هو ما دفعه إلى ذلك.

تُرى أي أهمية يمكن أن تكون الآن لموت ألبوكيرك؟ في الواقع، إن لموته أهمية، بل إنها أهمية كبيرة: فقد كان الحاكم الجديد، الموجود بالفعل في الهند منذ ثلاثة أشهر، يحمل معه عفوًا ملكيًّا عن المنشقين البرتغاليين، بمن فيهم فرناو لوبيز. لم يكن من قبيل المصادفة أن يأتي العفو مباشرة بعد موت ألبوكيرك، لأنه لو كان حيًّا، لرفض تنفيذه على الأغلب. لكن لشبونة أعلنت الآن أن ما كان بات طي النسيان وأن لوبيز يمكنه العودة إلى البرتغال كي يلتئم شمله مع زوجته وابنه اللذين لم يرهما منذ عشر سنوات. أحدث نبأ العفو ارتياحًا كبيرًا لدى لوبيز. «لم يبقَ لي شيء هنا، لكن في لشبونة، ربما أجد الراحة مع زوجتي إن كانت لا تزال في انتظاري». كان واضحًا أن لوبيز لا نية لديه في البقاء بالهند. ويميل المرء إلى التساؤل عن السبب الذي جعله لا يختار مرة أخرى أن يقطع مسيرة الـ٨ أيام إلى بيجابور ويستقر هناك، والجواب هو أنه لن يكون ذا جدوى لإسماعيل عادل شاه. لقد حظي بالترحيب في المرة الأولى لما كان يمتلكه من مهارات قتالية وقدرة على المبارزة (إذ كان من أرباب السيف)، ولكن أي فائدة يمكن أن ترجوها بيجابور من رجل لا يكاد يُحسن حمل سيف في يده اليسرى التي بُترت إبهامها؟ وبطبيعة الحال، ليست لدينا سجلات تشير إلى أي تواصل جرى بين لوبيز وبيجابور. ولكن مرة أخرى، لماذا يمكن أن ينشأ مثل هذا التواصل؟

ومع اتخاذه قرار العودة إلى لشبونة، لم يكن لدى لوبيز وقت يضيعه. تُوفي ألبوكيرك في ١٦ ديسمبر، وحالما مُنح العفو كان يجب على السفن المغادِرة أن تبحر قبل نهاية الرياح الموسمية الشمالية الشرقية المواتية في شهر مارس. وعلى الرغم من أن الحامية لم تقدم له أي مؤونة لمساعدته في العودة إلى البرتغال، كما يليق عادة بفيدالجو، فإن المصادر تخبرنا أن الملك تكفل بمؤونة الرحلة لأي منشق يرغب في العودة إلى لشبونة. وتُظهر السجلات التاريخية أن سفينتين فقط من أسطول لشبونة الذي وصل إلى جوا في عام ١٥١٥ كانتا سوف تقومان برحلة العودة في ١٥١٦ وكان بإمكان لوبيز أن يبحر على أيهما. الأولى كانت «سانكتا ماريا دا سيرا» والأخرى هي «سانكتو أنطونيو». ونحن نعلم أن «سانكتا ماريا دا سيرا» غادرت الهند في غضون أيام من موت ألبوكيرك، وقطعًا قبل نهاية ديسمبر، ومن غير المرجح أن يكون لوبيز قد حصل على العفو وأصبح بإمكانه المغادرة بهذه السرعة. وتشير الفرضية الأدق إلى «سانكتو أنطونيو»، التي أبحرت في مطلع عام ١٥١٦ ووصلت إلى لشبونة في نوفمبر من العام نفسه.

في الأيام الأولى من عام ١٥١٦، غادر فرناو لوبيز جوا متجهًا إلى لشبونة. وكان قبطان السفينة «سانكتو أنطونيو»، سيماو دا سيلفيرا، قد أُحيط علمًا بحكاية راكبه حتى يجعله تحت بصره إن شاء ذلك، ولا سيما أنه المنشق الوحيد على متن السفينة، ولكن في ظل حالة الانكسار التي كان عليها لوبيز

والتي تثير الشفقة، كان واضحًا أنه لن يكون سببًا في أي تهديد. ولم يكن معه على السفينة أي أفراد من الفيدالجو، لأن أحدًا منهم لم يعد يرغب في مخالطته، ولذلك واجه لوبيز حياة بالغة القسوة كتلك التي يواجهها بحارة السفينة وطواقمها. وللمرء أن يتخيل أنه في عصر تسوده تراتبية هرمية صارمة في بنية المجتمع البرتغالي الذي انقسم ما بين الفيدالجو ومَن ليسوا كذلك، فإن الحط من مكانة لوبيز بالطريقة التي أبحر بها إلى لشبونة كان له أبلغ الأثر عليه واعتبره تجريدًا لما بقي له من شرف. ولكنه حتى عند البحارة لم يكن له فائدة لأن إعاقته التي أصبح عليها جعلته عديم الفائدة في أي عمل. ولذلك انطوى لوبيز على نفسه، وحتى إذا عرف البحارة الآخرون أن بينهم فيدالجو منشقًّا، فما كانوا ليكترثوا به أو يعبأوا. كانوا هم حثالة المجتمع وعامة الناس الذين شيدت البرتغال إمبراطوريتها على ظهورهم. وحتى إذا كانت أفعالهم لا توحي بذلك، فإن معظمهم على أي حال كانوا منشقين في سريرتهم. وهؤلاء الرجال، أكثر من غيرهم، كانوا يعرفون المشقة والمعاناة، وقد عرفوها في لوبيز. ولكن فيما عدا ذلك كانت الأجواء على متن «سانكتو أنطونيو» أجواء احتفالية بين الرجال العائدين للبرتغال ولأحبائهم فيها. وكان البحارة يحتفلون في أحيان كثيرة بالرقص وترديد الأناشيد ولعب النرد والورق. وفي بعض الأحيان حينما يخف عبء العمل ويتحسن الطقس، كان صبية السفينة يبدأون في إنشاد الأغاني. ولأن لوبيز تُرك وشأنه إلى حدٍّ بعيد كي يفعل ما يشاء، وبالرغم من الإعاقة التي تجعله ظاهرًا، فإن طواقم السفينة والفيدالجو سرعان ما نسوه. ولأنه كان يعيش في ظل الفريقين فقد انزوى ولم يكن قادرًا على أداء أي عمل، واكتفى بالمشي على سطح السفينة وهو مستغرق في صمت مفعم بالتأمل.

بالرغم من مرور عقد من الزمان على رحلة لوبيز التي أبحرت به من البرتغال إلى الهند، فقد بقي نظام الحياة اليومية على متن السفينة من دون تغيير يُذكر، كما لم تقل المخاطر التي تهدد الحياة، وبقيت المصاعب والوفيات بمستوياتها الرهيبة. وفي المسافة ما بين جوا ورأس الرجاء الصالح، رست «سانكتو أنطونيو» في ست نقاط للتزود بالمياه والمؤن، وهي ماليندي ومومباسا وكيلوا وجزيرة موزمبيق وكويليمان وصوفالا. أصبح المسار معروفًا تمامًا، حيث تبحر السفينة إلى الشرق من مدغشقر قبل أن ترسو لمدة قصيرة في ماليندي، ثم تخرج إلى البحر المفتوح، وتمضي بسرعة معقولة إذا صاحبتها الرياح الملائمة. لكن ظهور طيور القطرس كان يثير قلق البحارة، لأنه ينبئهم بأن ثمة عواصف قادمة، وبالفعل حينما دارت «سانكتو أنطونيو» حول رأس سانت ماري في الطرف الجنوبي من مدغشقر، تعرضت السفينة لريح عاتية وموج شديد الانحدار. وسرعان ما تبدل الفرح الذي كان يغمر البحارة لكونهم في طريق العودة إلى وطنهم وحلَّ محله خوف من البحر،

وهو خوف لا يُبدونه حتى لا يكون في ذلك شكّ في الرب إلههم. وزاد الطين بلة أن القبطان قرر توزيع الطعام بحصص محددة، فيما كانت رياح معاكسة تضرب السفينة بلا رحمة، ما أدى إلى أن «سانكتو أنطونيو» أبطأت سيرها حتى بدت وكأنها تزحف عبر المحيط.

وبحلول مايو ١٥١٦، كانت «سانكتو أنطونيو» قد دارت حول الطرف الجنوبي لأفريقيا، وتزودت بالمياه العذبة والمؤن من خليج موسيل الواقع في منتصف الطريق بين كيب تاون الموجودة اليوم وبورت إليزابيث. أما المحطة التالية للمؤن فستكون في خليج تيبل، لكن القبطان دا سيلفيرا أمر بألا تتوقف السفينة هناك وأن تواصل إبحارها عبر البحر المفتوح. كان الخوف هو ما دفعهم إلى ذلك، إذ كان نائب الملك ألميدا قد لقي مصرعه في خليج تيبل على أيدي قبيلة «خويخوي» المعروفة بشراستها. وحينما تجاوزت «سانكتو أنطونيو» الخليج طأطأ جميع الموجودين على متنها رؤوسهم، بمن فيهم لوبيز، وراحوا يُصلون. لا بد أنها كانت لحظة مريرة لدى لوبيز على وجه الخصوص: فقد حارب بجانب ألميدا الذي رسمه فارسًا. هل كان مصيره سوف يختلف فيما لو بقي ألميدا في الهند؟ وكانت مرارة هذه اللحظة مفعمة أيضًا بألم شديد، لأنه بالرغم من أن الخليج الذي قُتل فيه ألميدا يُعرف اليوم باسم خليج تيبل، فقد كان في أيامه يحمل اسمًا آخر. في عام ١٥٠٣ رسا الأميرال البرتغالي أنطونيو دي سالدانيا هناك وتزوَّد بالمياه العذبة مرة أخرى. ولأنه لم يكن متأكدًا إن كان قد دار حول رأس شبه جزيرة كيب، فقد قرر صعود الجبل المتاخم للخليج كي يعرف أين مكانه، ليصبح بذلك الفعل أول أوروبي يصعد جبل تيبل. وفي البداية، أطلق على المكان اسم «أجوادا دي سالدانيا» (ماء سالدانيا). وبعد نحو قرن من ذلك، في عام ١٦٠١، حدد بحارة ورسَّام خرائط هولندي يُدعى يوريس فان سبيلبيرجن خليجًا مختلفًا يقع إلى الشمال من رأس شبه جزيرة كيب مثل أجوادا دي سالدانيا، وأعيدت تسمية الخليج الواقع عند سفح الجبل ليصبح «خليج تيبل». ولكن لوبيز سوف يعرفه باسم «أجوادا دي سالدانيا»، وكان يعرف سالدانيا، لأنهما التقيا، وإن كان في فريقين متحاربين في باناستاريم، حينما هاجمه سالدانيا وحاول قتله.

والآن، وبينما كان لوبيز يتفكر في مصيره، غيَّر قبطان «سانكتو أنطونيو» هذا المصير عبر قرار بسيط. فحالما تجاوز خليج أجوادا دي سالدانيا، وفيما كان لا يزال أمامه ثُلث مسافة الرحلة، قدَّر سيماو دا سيلفيرا أن عليه الوقوف بمحطة إضافية للتزود بالمياه ووجَّه «سانكتو أنطونيو» عبر تيار بنجيلا الذي كان يتدفق في اتجاه الشمال في جنوب المحيط الأطلسي بامتداد الساحل الغربي لجنوب أفريقيا، حتى وجد نفسه في مياه أكثر دفئًا. وفي هذه النقطة، التقط الرياح الجنوبية الشرقية التي وجهت السفينة بشكل مطرد نحو جزيرة سانت هيلانة غير المأهولة التي تتوفر بها المياه العذبة.

* * *

عندما نال فرناو لوبيز العفو الملكي الذي خيَّره ما بين البقاء بالهند أو العودة إلى البرتغال، اغتنم الفرصة وقرر العودة إلى لشبونة. لا بد أن اليأس الذي أصابه بعد العقوبة التي حلَّت به والفقر المدقع الذي عاش فيه في جوا حيث بات منبوذًا أدخلاه في محنة هائلة أتت على عقله وسحقت روحه. لم يكن هناك سوى أمل ضئيل في الخلاص من هذه المحنة ما دام ألبوكيرك على قيد الحياة، وعلى الرغم من أن لشبونة كانت تسعى لخلق أجواء تصالحية، فإن المرء بوسعه أن يتصور أن ألبوكيرك كان سيواصل تعنته، رغم أنه لم يكن يعبأ كثيرًا بلوبيز، ولم يكن ليصفح عنه. وهكذا بقي لوبيز صابرًا، وراح يقنع نفسه بأنه على الأقل يزرع الفضيلة رغم أنه يعلم في قرارة نفسه أنه يزرع الألم. أما وقد مات قيصر الآن، فقد أصبح بوسعه أن يبدأ فصلًا جديدًا من حياته، وإن كانت حياة مشوهة تسودها المعاناة. لم يتردد لوبيز في قبول خيار العودة إلى لشبونة لأنه يعلم أنه إن بقي بالهند، فإن وحدته سوف تقوده إلى الجنون. وحتى ظنه أن زوجته قد تقبله مرة أخرى كان ظنًّا مشبعًا باليأس، فضلًا عن كونه خادعًا ومربكًا. كان العفو الملكي قد منح لوبيز الأمل، ولا بد أنه تشبث به بكل قواه العاجزة كما يتشبث غريق بلوح خشبي وسط محيط هائل. لكن مع مرور الأيام، بدأت تتكشف له حقيقة حريته، وفيما كانت «سانكتو أنطونيو» تمخر عباب المياه في طريق عودتها إلى لشبونة، كان ذهن لوبيز قد بدأ يصفو وأدرك شيئًا فشيئًا مدى عِظم قرار العودة. لقد مضت عشر سنوات تقريبًا منذ إبحاره من بيليم شابًّا، يحدوه الأمل وتسوقه روح المغامرة وهو موقن بأن كل شيء ممكن وأن الحياة سوف تفتح له ذراعيها. ولكن إذا كانت الهند قد علمته شيئًا، فهو أن الحياة أكثر من مجرد مسار خانق ذي اتجاه واحد. لم يكن حلمه بالعودة إلى لشبونة سوى وهم سرعان ما تبدد. أي ترحيب يمكن أن يتوقعه؟ لقد أصبح كل مَن يعرفه في لشبونة يعلم بقصته وبخيانته للملك والبرتغال، وحتى الذين لم يتحْ لهم أن يعرفوا القصة، سوف يعرفونها لأن دليل إدانته أصبح محفورًا في وجهه المشوه. كيف سيكسب قوت يومه؟ ومن سيرضى بالتعامل معه؟ لم يكن له مستقبل في البرتغال، وسيكون عليه أن يعيش على صدقات جمعية «ميزيريكورديا» الخيرية التي أُنشئت في عام ١٤٩٨ لإطعام الفقراء وكسوة العراة، ويموت ميتة فقير مُعدَم. وبينما كان لوبيز يسير جيئة وذهابًا على سطح السفينة، يسهل أن نتخيل الأسئلة التي كانت تتعاقب عليه وكأنها موجات من اليأس. ماذا عن زوجته؟ لقد مرت عشر سنوات منذ رأى زوجته آخر مرة. لن يستطيع أن يتعرف على ابنه، الذي من لحمه ودمه. هل يعتقد حقًّا أن زوجته لا تزال في انتظار عودته إلى الوطن، وكأنه ما خرج سوى لساعة واحدة كي يشتري بعض التين من السوق؟ والأرجح أنها لن ترغب هي أو ابنهما في أن تجمعهما به أي علاقة، لأن أفعاله

وانشقاقه جلبا الخزي والعار للعائلة. لقد حرمهما من شرف الادعاء بأنه مات في ساحة القتال. إذا كان سيعود، وإذا كان يمكنه أن يستأنف دوره الأبوي في المنزل عبر الخيال، فقد كان يدرك أن أي ارتباط بولده سوف ينهي مستقبل الشاب ويقضي على فرصه في شغل أي منصب في البلاط.

بينما كان لوبيز يمضي بخطى ثقيلة على سطح «سانكتو أنطونيو»، ظهر سرب من الطيور البيضاء التي يعرف أنها خُطاف البحر، وكان البرتغاليون يعتقدون أنها علامات من الرب ويسمونها «طيور الملائكة»، لأنهم كانوا يعتقدون أن ظهورها يعني أن سفينتهم سوف تمضي في طريقها حتى تصل إلى بر الأمان. وبعد فترة وجيزة، سوف يرى لوبيز في الأفق هيئة تشبه جزيرة بدأت في الظهور. وبينما كانت السفينة في طريقها نحو سانت هيلانة، ربما عاد لوبيز بذاكرته إلى صديقه جواو دا نوفا، الذي واجه ألبوكيرك في هرمز وكان أول مَن اكتشف هذه الجزيرة. إنه يسمع الآن البحارة يتحدثون فيما بينهم: سوف يكون توقفنا في سانت هيلانة قصيرًا للغاية، بضعة أيام على الأكثر، بما يكفي للتزود بالمياه، لأنهم كانوا يتشوقون لمواصلة طريقهم إلى لشبونة ورؤية أحبائهم. على أي حال، لم يكن على جزيرة سانت هيلانة سوى الماء العذب، فلم يسكنها إنسان من قبل، لانقطاعها في المحيط وبُعدها عن أقرب يابسة بآلاف الأميال. وبينما كان البحارة يتجاذبون أطراف الحديث بدأت الجزيرة في الظهور، ولم تفلح صخورها الحادة التي نحتتها الأمواج، ولا غطاؤها النباتي الكثيف، ولا حتى جداول المياه التي حفرت بها أودية عميقة، في إخفاء طبيعتها الموحشة. وبينما كانت سانت هيلانة تقترب أكثر فأكثر، ربما استقرت فكرة ما برأس لوبيز: يا له من مكان مهجور يليق بروحٍ مهجورة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث عشر

روبنسون كروزو البرتغالي

أصبحت أعدادهم الآن تُقدَّر بالآلاف، وصنعوا فسيفساء باهرة يمتزج فيها الضوء باللون الأزرق، فيما تمر أشعة الشمس عبر أجنحتها. كان البرتغاليون يسمون خطاف البحر أيضًا بـ«الحمام الأبيض»، والآن راحت هذه الطيور ترحب بـ«سانكتو أنطونيو» حينما اقتربت من سانت هيلانة وأخذت تطير على ارتفاع منخفض للغاية حتى كان البحارة يقفزون لأعلى كي يمسكوا بها لطهيها وأكلها. «يا لها من طيور حمقى!»، هكذا كانوا يقولون لبعضهم بعضًا ويضحكون حينما تصطدم الطيور بالأشرعة فتسقط على سطح السفينة. في هذه الأثناء، كانت حركة الرياح تتسبب في ارتفاع موج البحر، وفي سفح التلال الشاهقة، كانت الأمواج الضخمة التي تتجه نحو الشاطئ تتكسر على الصخور، فتحدث موجةً كبيرة. دار القبطان سيماو دا سيلفيرا حول الطرف الجنوبي الغربي للجزيرة قبل أن يرسو في الجانب الشمالي الغربي المحمي الذي لا تصل إليه الأمواج الضخمة وترتطم المياه في لطف بالشاطئ. إنه يُسمَّى الآن «خليج جيمس»، لكنه كان يُعرف لدى البرتغاليين باسم «أجوادا دا نوفا». فقبل فترة طويلة نزل قارب محمَّل بالجنود على الشاطئ الصخري الذي توجد به مرتفعات منحدرة تتناثر فيها أيكات من أشجار الجولق المغطاة بأزهار صفراء زاهية، وشعر الرجال بالسعادة حينما وقعت أعينهم على بستان من أشجار التين. لاحظ الرجال أن بعض الأشجار نُقشت عليها أسماء سفن برتغالية سابقة وتواريخ وصولها، ولذلك سارع بعض البحارة بإضافة اسم «سانكتو أنطونيو»، فيما نقش آخرون بعض النكات المبتذلة. في الواقع، كان البرتغاليون هم من زرعوا الأشجار في عام ١٥٠٥ تقريبًا، فلم تكن على الجزيرة أشجار فاكهة أو خضراوات. وعلى الرغم من أن البرتغاليين، بحسب بعض المؤرخين، بنوا كنيسة في الجزيرة لدى اكتشافهم لها، فإن ذلك يظل ادعاء لا يقوم عليه دليل يدعمه. وفي الواقع لم يدَّعِ البرتغاليون قَطُّ رسميًّا أن الجزيرة من ممتلكات التاج البرتغالي، ولم يحصنوها أو ينشئوا أي مركز استيطاني دائم عليها، والسبب ببساطة أنهم لم يروا حاجة إلى ذلك. ونقل فيليبو بيجافيتا، الذي جمع سلسلة من حكايات الأسفار في القرن السادس عشر، ما قيل له حينما سأل أحد البرتغاليين عن السبب وراء إهمال سانت هيلانة:

كان الجواب الذي سمعته هو أنه لا حاجة إلى ذلك. لأن الجزيرة لا تحقق أي فائدة تُرجى في الرحلة إلى جزر الهند، ولأن هناك طريقًا آخر لهذه الرحلة، كما يَصعب جدًّا العثور عليها؛ ولكنها في طريق العودة تقع في الطريق بشكل كامل، ويسهل جدًّا على السفن أن تلمحها. ولذلك لن يتحقق أي عائد مما

يُنفق من أموال ووقت لإبقاء جنود فيها، وسيكون ذلك من دون أي ربح يُذكر، ونحن لا نرى أي سفن أخرى تأتي إلى هناك، سوى تلك التابعة للبرتغاليين.

وبعبارة أخرى، كانت الجزيرة غير المأهولة مجرد محطة تتزود فيها السفن البرتغالية بالماء وهي في طريق عودتها من جزر الهند.

حينما وقعت عينا لوبيز للمرة الأولى على جزيرة سانت هيلانة، وقد أحاطتها المنحدرات الصخرية العالية، كانت تحجبها في الصباح الباكر الغيوم والضباب، مما يجعلها تثير لدى الرائي مشاعر خوف وانجذاب في آنٍ واحد. في الداخل، كانت الأرض، التي تتحول في الوسط إلى قمة مرتفعة ذات شكل مُنجلٍ، شديدة الانحدار وذات تضاريس وعرة للغاية، وتشقها أودية عميقة وتضم العديد من المنحدرات الصخرية المطلة على محيط يمتد بلا نهاية في جميع الاتجاهات. كانت المنحدرات ذات غطاء نباتي كثيف، وعلى وجه الخصوص نبات أخضر يميل إلى الزرقة وله أوراق سميكة وناعمة الملمس. وعلى الشاطئ، وجد البحارة حيوانات الفقمة، ولكنهم حينما حاولوا مهاجمتها وطعنها للحصول على لحومها، سرعان ما تبين لهم أنها كبيرة الحجم ويصعب تخويفها، وحينما تتبعوها، أطلقت زئيرًا جهوريًّا تفرق على إثره الرجال. وكانت أوامر القبطان هي الإقامة على الجزيرة ليومين فقط، وهي مدة تكفي لتزود السفينة باحتياجاتها من مياه الجداول العذبة قبل إبحارها. وذات ساعة خلال هذين اليومين ترك لوبيز السفينة وقرر البقاء في الجزيرة. ليس واضحًا هل كان قرارًا مندفعًا أو أنه اتخذه بدافع من الخوف أو كان مخططًا له من قبل، ولكن بعد مغادرته جوا ببعض الوقت، لا بد أنه أدرك أنه لا يمكنه العودة إلى البرتغال. ولا بد أنه احتاج إلى عدة أشهر من الإبحار كي يصل إلى هذا القرار. ولعله أسف على عدم بقائه في الهند، ولكن كان أوان الأسف قد فات. ومع ذلك يظل المرء في حيرة حول السبب الذي جعل لوبيز يختار البقاء في سانت هيلانة. وعلى الرغم من أن الرحلة كانت توشك على الاكتمال وكانت لشبونة تقترب، ولم يعد يفصله الآن عنها سوى بضعة أسابيع من الإبحار، وكانت توجد محطات أخرى لا يزال عليها التوقف بها، ولا سيما ماديرا أو الرأس الأخضر، ومنها كان بإمكانه التسلل إلى أفريقيا بسهولة. لماذا يختار جزيرة غير مأهولة، سيكون فيها معزولًا ووحيدًا وسط محيط شاسع؟ ما الذي ربما دار برأس لوبيز حتى يتخذ هذا القرار الذي يبدو بمثابة الانتحار؟ هل كانت لحظة جنون، أم عمل رجل مذعور؟ والحقيقة هي أننا لن نعرف أبدًا إلى أي مدى كان الصفاء الذهني لدى لوبيز حينما اتخذ قراره بترك السفينة والاختباء، ولكن إذا كان على المرء أن يخمن، فإن أحد الاستنتاجات الصحيحة والوحيدة هي أن ما فعله كان تصرفًا لا يصدر إلا عن يائس، فقد حواسه، بل وحتى إرادته في العيش. وفي جوانب كثيرة كانت تصرفاته تشبه تصرفات حيوان مذعور.

ما لم يكن يعرفه لوبيز، وربما ما لم يكن يتخيله، هو إلى أي مدى كان القبطان وطاقم «سانكتو أنطونيو» قد أصبحوا يحبونه. ربما كان منطويًا على نفسه إلى حدٍّ بعيد، ولكن لعل سلوكه الكريم، أو طريقته العفيفة التي احتمل بها المعاناة، هي ما جعلت القبطان، لدى سماعه أن لوبيز اختفى، يرسل على الفور مجموعة من الرجال للبحث عنه، رغم أنه كان واضحًا أن أمل العثور عليه ضئيل وسط هذه المنحدرات الكثيرة وشجيرات الجولق الكثيفة التي تغطي الأرض. ولكن الرجال بحثوا عنه وطفقوا ينادون عليه باسمه: «لوبيز، فرناو لوبيز!» لا بد أنه سمعهم، ولكنه لم يجبهم. وللمرء أن يتساءل: هل فكَّر في عواقب ذلك؟ هل تسارع ذهنه حتى بلغ تلك النقطة؟ ماذا سيحدث حينما تغادر السفينة الجزيرة؟ لكنه في أثناء ذلك كان يلزم كهفًا صغيرًا، عثر عليه حينما انسل بعيدًا عن السفينة.

قرفص على الأرض وكأنه حيوان، لا تكاد تُسمع أنفاسه، وقد ثبَّت عينيه على الأرض، فيما أرهف سمعه إلى صوت ينادي عليه باسمه ويتردد صداه في أرجاء الجزيرة. لكنه لم يجب النداء. لم يتحرك. ولن يتحرك.

في نهاية اليوم عاد الرجال إلى القبطان وأبلغوه أنهم لم يعثروا على أي أثر له، وأنه ما لم يعد بنفسه فإن أمل العثور عليه في الجزيرة ضئيل للغاية. ولأنه لم يكن لديه خيار آخر، أمر دا سيلفيرا بأن يتهيأ طاقم السفينة للإبحار، لأنه ليس بوسعهم عمل أي شيء آخر. ولكن قبل إبحار السفينة، أمرهم القبطان بأن يتركوا وراءهم بعض المؤن عسى أن يجدها لوبيز، ولذلك وضعوا علبة كعك وبعض شرائح اللحم والسمك المجفف والأرز ووعاء للطهي وآنية على الشاطئ، وكذلك بعض الملح. ثم أشعل القبطان نارًا لعلمه أنه سيكون من الصعب على لوبيز في ظل إعاقته أن يشعل نارًا. وفي لفتة تدل على احترام روحه المعذبة، التي أظهرت كيف كان طاقم البحارة يرون لوبيز، ترك الرجال وراءهم بعض الثياب حتى يتقي بها البرد. وأخيرًا، كتب القبطان رسالة ثم ثبتها بالمسامير في شجرة. كان الأمل ضئيلًا في بقاء هذه الرسالة محفوظة، ولكنها كانت موجهة إلى طاقم السفينة البرتغالية التالية التي سوف ترسو في هذا المكان، وذكر فيها أن جزيرة سانت هيلانة لم تعد مهجورة، لأنه يقيم على أرضها الآن فارس برتغالي، وأنه يجب إخطار لشبونة عمَّا إذا كان هذا الفارس حيًّا أم ميتًا. وقالت الرسالة إن من يعثر عليه حيًّا، فعليه أن يحسن معاملته ويقدم له ما يحتاج، لأنه يحمل داخله صفات النبالة.

* * *

لا بد أن لوبيز كان على الأرجح يراقب السفينة وهي تبحر من مكانه في الكهف، وكانت لديه رؤية واضحة للخليج من خلاله، وبقيت عيناه مثبتتين عليها حتى صارت نقطة صغيرة في الأفق. كان رحيل السفينة حدثًا جسيمًا أصاب

لوبيز وكأنه نوبة هلع. كان في مكان بعيد كل البعد، وفي أفضل الأحوال، سوف يمكث فيه عامًا على الأقل، فلن تتوقف أي سفينة برتغالية في الجزيرة قبل ذلك الحين. لم تكن هناك عزلة أشد قسوة من تلك العزلة التي وجد لوبيز نفسه بها. كانت الجزيرة البركانية التي عُرفت باسم «سانت هيلانة» تقع على بعد ١٢٠٠ ميل بحري من أنجولا اليوم و١٥٠٠ ميل بحري من البرازيل، كما لو أن القارتين قد تبرأتا منها. كانت تقع في عزلة شديدة وطوال ١٤ مليون سنة من تاريخها لم يسكنها أحد من البشر. لقد اختفى لوبيز في واقع الأمر من على وجه الأرض. وعمَّا قريب سوف ينفد ما لديه من طعام ويتضور جوعًا. كان ما فعله، إن كان قد فعله عامدًا، انتحارًا وضربًا من ضروب الجنون. عسى أن يرحم الرب روحَه البائسة.

* * *

مما يثير الاهتمام أن فرناو لوبيز بقي على جزيرة سانت هيلانة، في عزلة شبه تامة، لفترة أولى امتدت إلى أربع عشرة سنة تقريبًا، ثم بعد زيارة قصيرة إلى لشبونة، عاد وبقي عشر سنوات أخرى أو يزيد. ومن المفارقة أن عزلته عن العالم وحياة النُسَّاك التي عاشها ـ وقد بات يُشار إليه بالفعل باسم «ناسك سانت هيلانة» ـ مدة من الزمن، جعلته واحدًا من أشهر الرجال في البرتغال، ولم يعد موضع اهتمام عِلية القوم في بلده فقط ولكن أيضًا في العالم المسيحي كله. إنها قصة مدهشة ولكن قبل أن نرويها، يجب علينا أولًا أن نتناول بعض الحقائق الواضحة التي يتم تجاهلها فيما يتعلق بوجود «روبنسون كروزو» على الجزيرة. منذ نشر الرواية في عام ١٧١٩، أصبحت شخصية «روبنسون كروزو» التي ابتكرها دانيال ديفو رمزًا نمطيًّا لشخصية الناجي الوحيد في جزيرة مهجورة. وفي العادة يمكن العثور على حكايات السفن المحطمة والناجين منها منذ حقب زمنية بعيدة تعود حتى إلى «الأوديسا» للشاعر هوميروس، وهي قصيدة ملحمية تتحدث عن رحلة أوديسيوس الطويلة إلى إيثاكا عقب سقوط طروادة، وفيها تحطمت سفينته وكان هو الوحيد الذي نجا منها قبل أن يجد طريقه إلى وطنه في النهاية، وتتزامن مع الرحلة المادية رحلة أخرى ذات طبيعة روحانية. ومع ذلك، لم تصبح الأعمال الأدبية التي تتناول حكايات الجزر النائية المهجورة والناجين من تحطم السفن نوعًا أدبيًّا مميزًا حتى القرن الثامن عشر وظهور ديفو، حيث تلت «روبنسون كروزو» حكايات «جاليفرز ترافلز» التي كتبها جوناثان سويفت. وقطعًا، وبحلول القرن التاسع عشر، حين نُشرت روايتا «المخطوف» و«جزيرة الكنز»، وهما من تأليف روبرت لويس ستيفنسون، و«الجزيرة الغامضة» للروائي جول فيرن، و«عائلة روبنسون السويسرية» للكاتب يوهان ويز، و«جزيرة المرجان» للكاتب ر.م. بالانتاين، أصبح مأزق الناجي هو الموضوع المفضل لقصص المغامرات ذات الشعبية الكبيرة. ومع ذلك، بقيت

«روبنسون كروزو»، من نواحٍ عدة، ليست رواية الناجي الأعظم فحسب، بل أيضًا الرواية النموذجية لتناوُل موضوع الغزو الكولونيالي في القرن الثامن عشر. وفي الحقيقة، وعلى الرغم من نجاحها التجاري، حيث صدرت منها ٤١ طبعة خلال الأربعين سنة التي أعقبت نشرها، فإن الحكاية لم تستحوذ على خيال الجمهور حتى القرن التاسع عشر، حينما تجاوزت مرات طباعتها وترجمتها ومحاكاتها ٧٠٠ مرة على الأقل، وأصبحت قصة ديفو تمثل تجسيدًا لقدرة الرجل الغربي على أن يكون سيد نفسه وبيئته حتى حينما تواجهه عقبات كَأْداء. ويمكن للمرء أن يقول إن القرن التاسع عشر شهد تتويج رواية «روبنسون كروزو» باعتبارها النموذج الحديث لأدب المغامرات.

ولا تدين «روبنسون كروزو» بشعبيتها الهائلة إلى غرابة بيئاتها المكانية وشخصياتها فقط، ولكن أيضًا لربطها بين التوسع الاستعماري والتقدم على المستويين الاجتماعي والفردي، وهي بهذا اعتُبرت تبشيرًا بالإمبراطورية البريطانية. وحينما وجد نفسه وحيدًا في جزيرة، لم يستسلم «كروزو» ـ على النقيض من «كورتز» في رواية «قلب الظلام» لجوزيف كونراد أو «روبرتو» في «جزيرة اليوم السابق» لأومبرتو إيكو ـ لحياة الجنون والهمجية والكسل والوحشية. وبدلًا من ذلك، استعان بالقيم التنويرية مثل التسامح والعقل والعمل المفيد و«أصلح» من شأن نفسه وبيئته، ليحول بذلك الجزيرة من برية جامحة إلى جنة مُستصلَحة. وأنشأ أساسًا أخلاقيًّا قويًّا، وأرسى أخلاقيات عمل بروتستانتية قوية وتراتبية هرمية خصَّ نفسه فيها بدور السيد على عنزاته وقططه، ولاحقًا على خادمه الذي كان من أهل الجزيرة، فرايداي. يقدم ديفو كروزو باعتباره الناطق الوحيد باسم التسامح والعقل وفضائل الأعمال والنظام. وبالاعتماد على التقاليد الأدبية البيوريتانية، وبالأخص السير الذاتية الروحية ورحلات الحج، فقد تحددت أفكار ديفو أيضًا بعصره، وهو عصر نيوتن، ولوك، الذي كان يولي اهتمامًا كبيرًا بالملاحظة التجريبية والواقع الاجتماعي في مسائل الذات والدين والأخلاق والسياسة. وبهذا المعنى، يحاول ديفو عبر «روبنسون كروزو» الإجابة عن السؤال: «ماذا يحدث للفرد حينما يُضطر إلى العيش وحيدًا؟» من المنظور العقلاني للقرن الثامن عشر. وليس مستغربًا أن يذهب الفيلسوف جان جاك روسو إلى أن حكاية ديفو «تقدم أطروحة كاملة عن التعليم الطبيعي» وأنها بمثابة دليل للتقدم نحو «حالة العقل». حينما تحطمت سفينة «كروزو»، كان ينقصه إحساس قوي بالهوية، ولكنه استطاع شيئًا فشيئًا أن يُحول الجزيرة عبر الأسوار والمزارع والمساكن التي أقامها والحماية التي وفرها، لتصبح على صورته وهويته كرجل أبيض مسيحي بريطاني ينتمي إلى الطبقة المتوسطة. وجاءت صحوته الروحانية مشبعة بالقدر نفسه بروح العصر، التي كانت تولي اهتمامًا كبيرًا بأشكال كولونيالية أكثر تقدمية ومقبولة أخلاقيًّا، مثل التحول الديني

و«الارتقاء» بالشعوب المستعمَرة عبر إطلاعهم على العادات الغربية. ولذلك نجده ينقذ أحد سكان الجزيرة الأصليين من أيدي آكلي لحوم البشر العدوانيين ويسميه «فرايداي»، ثم يحوله إلى المسيحية. لكن التسمية أيضًا وسيلة لممارسة السلطة والحكم، وشكل من أشكال الوسم والتأكيد أن فرايداي أصبح ملكية له. وتمحو التسمية أيضًا أي تاريخ أو حياة سابقة لفرايداي، وبذلك تتداخل هويته مع هوية كروزو كتذكِرة لهؤلاء الذين يعيشون خارج بنية السلطة الكولونيالية على أساس من العِرق أو الأصل أو الطبقة أو النوع. ومن الآن فصاعدًا أصبح اسم «فرايداي» بمثابة تذكِرة مستمرة بأن حياته الجديدة هي نعمة أسبغها عليه سيده.

إن وجود أوجه تشابه بين فرناو لوبيز وقصة تدور حول شخصية (دعونا لا ننسى أنها من إبداع الخيال) روبنسون كروزو هو أمر يمكن توقعه، فقصة «رجل في جزيرة مهجورة» على أي حال يمكن أن تحتمل الكثير من التنويعات. ولا يهم كثيرًا ما إذا كان ديفو قد اتخذ حياة فرناو لوبيز أساسًا لبناء قصة «كروزو». لكن ما لا شك فيه هو أنه في أثناء تأليفه الرواية كان قطعًا على دراية بقصة لوبيز، ولكن «روبنسون كروزو» في حقيقة الأمر محاكاة لمجموعة من الشخصيات التي أنتجها خيال ديفو الخصب أكثر مما هي محاكاة لأي فرد بعينه. وعلى الرغم من أن الإجماع يبدو أنه يشير إلى ألكسندر سيلكيرك، وهو بحار إسكتلندي أمضى في جزيرة استوائية صغيرة في المحيط الهادئ أكثر من أربع سنوات وحيدًا، باعتباره مصدر الإلهام الرئيسي لديفو، فإنني لم أقتنع بعد بذلك الرأي، على الأقل لأن سيلكيرك عاش حياة ماجنة للغاية تغاير حياة كروزو الورِع.

ومع ذلك، فإنني حينما أكتب عن «روبنسون كروزو»، لا أكتب كي أقرر هل اعتمد ديفو في رسمه لشخصيته على لوبيز أو لا ـ فهذا في حدِّ ذاته أمرٌ لا يستحق سوى هامش تاريخي يثير الفضول ـ ولكن كي أوضح كيف يختلف كروزو عن لوبيز. كان «روبنسون كروزو» عنوانًا لعصر جديد من أهم سماته أنه تجريبي وعقلاني ويسوده التزمت، وكان ديفو يكتب، بوعي وبلا وعي، لذلك العصر الإمبريالي. ويُعبر إدوارد سعيد عن ذلك أبلغ تعبير حينما يقول إن رواية «روبنسون كروزو» كانت النموذج الأول للرواية الواقعية الحديثة، وإنه ليس من قبيل المصادفة أن تدور أحداث الرواية حول أوروبي ينشئ إقطاعية لنفسه في جزيرة نائية ليست أوروبية. ولذلك وبينما لا يمكننا الكتابة عن لوبيز من دون الإقرار بالقيمة الرمزية لـ«روبنسون كروزو» والاعتراف ببراعة ديفو في الكتابة الإبداعية، فإن علينا أن ننحيه هو وفرايداي جانبًا فيما تبقى من قصتنا هذه. لكننا إذا انصرفنا عن كروزو الذي قدمه ديفو، فإن ذلك لا يعني أن عصر فرناو لوبيز لم يهيمن عليه روبنسون كروزو آخر. ولكن قبل التطرق إلى هذه القصة، يجب علينا العودة أولًا إلى جزيرة سانت هيلانة.

* * *

كان الطعام الذي تركه القبطان إلى لوبيز يكفي لإعالته عدة أشهر، وذلك لعلمه أنه أضحى قريبًا من ماديرا والرأس الأخضر، وبوسعه أن يكون كريمًا. وعلى أي حال، كان لوبيز منذ العقوبة التي أُنزلت به يكتفي من الطعام بما يقيم أَوده وحسب. كان الماء العذب متوفرًا في كل مكان، حيث الجداول تتدفق بفضل المطر الذي يهطل يوميًّا تقريبًا. ولم يكن قلقًا من انطفاء النار، بعدما تعلم كيف يشعلها في جوا (ولا بد أنه استطاع على نحو ما القيام بذلك بالرغم من إعاقته). ولكنه الآن أصبح يشعر بخوف عميق ومختلف، ألا وهو الخوف من الوحدة ومن كونه بلا أنيس. ما هذا الجنون؟ لا بد أن وطأة هذه العزلة الهائلة في سانت هيلانة كانت أشد عليه مما يمكنه أن يعبر عنه أو يفهمه. كان خيار لوبيز الوحيد هو أن يصرف اهتمامه إلى نفسه ويتجاهل العزلة. كان هذا هو أمله الوحيد للبقاء.

طفق آدم الأجدع يستكشف جنته الآن. في الوديان وعلى الشاطئ لم يجد لوبيز سوى الضباب، ولكنه إذا ما صعد إلى أعلى، فسوف يصبح الضباب سديمًا باهرًا للأعين وسرعان ما يتحول إلى أمطار غزيرة تهطل على المناطق المرتفعة بالجزيرة. ووجد أيضًا جداول صغيرة نمت حولها شجيرات يربو ارتفاعها على ثلاثة أمتار وتفوح منها رائحة الجوز. إذا كانت قد أغوته، فربما وجد بها المذاق الذي يرضيه: كان هذا هو الجيليكو، والسيسيوم، وهما يتبعان الكرفس. وبالقرب من الساحل، كانت تنمو نباتات وأعشاب تصلح للأكل مثل الرجلة، وهي نبات أوراقه خضراء داكنة وسيقانه تنتهي بزهور صفراء وذات قيمة غذائية عالية. وأغلب الظن أن لوبيز وهو في الهند استشار أطباءها، الذين كانوا يستخدمون النباتات والأعشاب كأدوية في طب «أيورفيدا» أو علم الحياة، وأنه جرَّب بنفسه مراهم طبيعية ركبها أحد الحكماء من أطباء الهندوس الذين ربما ساعدوه في تخفيف آلام التعذيب. لم يكن على دراية بمعظم النباتات والأعشاب الموجودة في سانت هيلانة، لأن معظمها لم يكن يوجد سوى في الجزيرة، ولكن للمرء أن يتصور أن لوبيز جرب حتمًا تناول بعض الطعام نيئًا، فيما تناول بعضه مسلوقًا، على سبيل المحاولة والخطأ. كان واضحًا أنها جزيرة خضراء. وقد وصل العديد من النباتات إلى هذا المكان المعزول والبعيد عبر تيارات الهواء التي حملت بذورها من أماكن بعيدة مثل رأس شبه جزيرة كيب، فيما كان بعضها الآخر يصل عبر الريش الذي ينمو في أقدام الطيور أو في الوحل العالق بها. كانت توجد أنواع عديدة مثل السرمق، وهو نبات مورق صالح للأكل، والحُلاب، وهو نبات عشبي غريب ذو زغب ولا يزال يُستخدم حتى اليوم في علاج التهابات العيون. وكان يوجد بها أيضًا نبات اللقلقي، وهو يفيد في تخفيف نزلات البرد، ولسان الحَمَل ويفيد في علاج التهابات المسالك البولية.

كانت الطيور تظهر في كل مكان: منها الطيور المغردة والعصافير، وأحيانًا يرى الهدهد أو الوقواق. لا بد أن لوبيز تعرف على هذه الطيور، فلا بد أنه رأى بعضها في البرتغال أو الهند. لكن سانت هيلانة كانت تحتضن طائرها الخاص الذي لم يشاهده من قبل، وهو يشبه القنبرة ولكنه في الحقيقة طائر الزقزاق. ولأنها لم تعتد وجود البشر من حولها، كانت أليفة للغاية. ولا بد أن لوبيز كان يمسك أحيانًا بطائر بحري كي يتناول لحمه فيجده ماسخ الطعم، ولم تكن تلك بالمهمة الشاقة لأنها لم تكن تحاول الطيران، ولا تعي الخطر الذي يُحدق بها.

وسرعان ما اكتشف لوبيز أن النباتات ذات التنوع المدهش في سانت هيلانة ليست سامة ولا شوكية. وكان الطقس عمومًا معتدلًا، لا يصل إلى البرد القارس أو الحرارة الملتهبة، حيث تؤدي الرياح الجنوبية الشرقية الباردة إلى خفض درجة الحرارة، وإن كان الطقس يصبح أكثر برودة في المناطق المرتفعة عمَّا هو على الشاطئ. وبعد سنوات عديدة، لخص أحد سجناء البوير في الجزيرة حالة الطقس، وكتب يقول: وهناك موسم تمطر فيه الجزيرة، وموسم مشمس يبدو أشبه بموسم المطر حتى لا يكاد المرء يميز الفرق بينهما. ولكن الرياح كانت تجعل المطر لا يسقط إلا في مناطق بعينها، فيما بقيت الأرض في المناطق الخارجية من الجزيرة أشبه بالصحراء. ولا بد أن لوبيز لاحظ أيضًا أمرًا غريبًا وهو أنه على الرغم من أن الغيوم تظهر شتاءً والأمطار تهطل بغزارة تبدو معها وكأنها سوف تجرف الجزيرة إلى البحر، فإن الجزيرة لم تكن تشهد أي رعد أو برق.

* * *

كانت الطيور تؤدي عملها اليومي في صمت. وكان لوبيز يشعر لبرهة بأنها أتت كي تحييه، فيغمره إحساس بالبهجة والرفقة. لكن الطيور كانت سرعان ما تتحاشاه وتنأى عنه.

بالقرب من الشواطئ الصخرية، كان بالإمكان اصطياد ثعبان السمك، وكان بعضه يكبر حتى يبلغ طوله ست أقدام. وعلى الرغم من لدغته الخطيرة، فإن للحمه مذاقًا لذيذًا بعد تنظيفه وطهيه. كانت المياه الضحلة تحتوي أيضًا على أسماك الملاك التي تميل إلى العزلة وتتميز بألوانها الزاهية وكذلك المئات من سمك الفراشات والماعز. وهناك أيضًا أسماك أنبوبية، يبلغ طول الواحدة منها قدمًا وأجسامها شفافة تمامًا ولكنها عديمة الطعم، وكذلك أسماك الصابون، وهي سمكة نحيفة ورمادية وغير صالحة للاستهلاك الآدمي حسبما يوحي شكلها. كان لوبيز أحيانًا يرى الدلافين الكثيرة وهي تسبح وتتقافز بهمة ونشاط، وقد سرَّها أخيرًا أن تجد جمهورًا تشاركه فرحتها. وفي البحر، كانت

الحيتان الحدباء ذات الشكل المهيب تعود كي تلد حينما يحين الموسم، وكانت تزور الجزيرة أيضًا أسماك قرش الحوت، وهي أضخم سمكة في المحيط.

يجول بخاطره يوم من تلك الأيام التي أمضاها على متن «سانكتو أنطونيو» حينما كانت السفينة تعبر رأس الرجاء الصالح، وحينما راودته فكرة أن يلقي بنفسه في الماء كي ينهي معاناته. ويتساءل الآن هل كان تيار الماء من القوة بما يكفي لحمل جثمانه كل هذه المسافة من رأس الرجاء الصالح وحتى سانت هيلانة؟ وكم المدة التي سوف يستغرقها جثمانه حتى تحمله المياه من هناك إلى هنا؟

كانت سماء الجزيرة في الليالي الصافية تبدو رائعة الجمال. وحتى يومنا هذا، لا تزال سانت هيلانة رسميًّا هي إحدى أكثر البقاع إظلامًا على وجه الأرض، ولا يوجد بها أي ضوء من صنع الإنسان على امتداد أميال. وفي الواقع كان بُعدها هو السبب الذي جعل إدموند هالي يختار الجزيرة كي ينشئ بها مرصدًا في عام ١٦٧٧، لإجراء أول تصوير علمي للسماء الجنوبية. وفي عام ٢٠١٢، قدَّرت الجمعية الدولية للسماء المظلمة أن سانت هيلانة تستحق الترقية إلى «الفئة الذهبية» ـ وهي أعلى فئة في انعدام التلوث الضوئي ـ ما يجعلها مكانًا مثاليًّا لعلم الفلك. ومنح لوبيز وقوعُ الجزيرة بالقرب من خط الاستواء، وارتفاعُها فوق مستوى سطح البحر، رؤيةً بانورامية لكل نجم تقريبًا، سواء في النصف الشمالي أو الجنوبي من الكرة الأرضية.

وحينما يحدق إلى السماء كان يرى النجوم شديدة الوضوح حتى تبدو له وكأنها شديدة القرب، ويبدو له وكأن بوسعه أن يمسكها بيده. وأحيانًا تكثر النجوم في صفحة السماء حتى تغمره بكآبة تجعله يشعر وكأنه سقط من حافة العالم. ولكنه في أحيان أخرى كان يخامره شعور بأنه ملك جاءته هذه النجوم والكواكب والشمس والقمر جميعًا كي تقدم له فروض الولاء والطاعة. كان القمر الذي يظهر فوق الجزيرة ساطعًا، وحينما يصبح بدرًا يرى لوبيز في ضوئه بوضوح وكأنه في الصباح الباكر.

تحت سماء الجزيرة المظلمة، كان لوبيز ينظر إلى أعلى، وحينما يُقلب نظره في السماء يرى درب التبانة يمتد في الأفق على هيئة قوس. وتزدان السماء فوق سانت هيلانة بآلاف النجوم والسديم، وبعد بضع درجات فوق خط الاستواء يمكن رؤية غيوم ماجلان المثيرة التي تظهر على هيئة صليب وتتدلى بوضوح في السماء. وحينما رأى أمريجو فسبوتشي هذه الظاهرة للمرة الأولى في عام ١٥١٠، أطلق عليها اسم «النجوم الأربعة»، وسرعان ما استعان بها الملاحون للاهتداء بها في أثناء إبحارهم.

وفي صباح بعض الأيام، كان يستيقظ مقتنعًا بأنه عاد إلى جوا، ولكن رؤية الكهف كانت تملأ قلبه لبرهة بالرعب من فكرة العزلة. وفي مرات أخرى تتراءى له أحلام يرى نفسه فيها وقد عاد شابًّا في لشبونة: وسيم الطلعة وبلا أي جدعات. وقد يستيقظ أيضًا بقلب مثقل بالهموم ويمسح على وجهه بجدعة يُمناه. ولكن أسوأ الليالي هي تلك التي يحلم فيها بوالديه وما لقياه من معاناة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع عشر

بقايا عالم قديم

كانت الجزيرة التي وجد لوبيز نفسه عليها تَبرز في البحر فجأة، وتبدو كتلة من صخور داكنة تخرج من المحيط وترتفع نحو السماء، وتفصل بين مناطقها وديانٌ تصنع فيها صدوعًا عميقة، وتبدو وكأنما قوة هائلة قطَّعتها إلى وديان شديدة الانحدار. كانت جزيرة تمتلئ بالمرتفعات والمنحدرات والنتوءات الصخرية والمناطق الوعرة وجداول المياه الصافية. لا بد أنه اكتشف الشعاب الصخرية والكهوف والخلجان التي تتشكل من الحصى والرمل، وكلٌّ في موئله الخاص، بداية من الشجيرات التي تنمو على المنحدرات الحادة وصولًا إلى المراعي الخضراء في الوسط والغابة الضبابية الرطبة والكثيفة فوق القمم، والمناطق المجدبة شبه الصحراوية التي تأثرت بعوامل التعرية في جنوب وشرق الجزيرة، التي لم يكن بها سوى العزلة المطلقة. ربما لاحظ أن جانبًا من الجزيرة تسقط عليه أمطار قليلة، وأن الضباب الرطب يغطي بعض أجزائها طوال اليوم، فيما تظهر بعد خطوات قليلة فقط سماء صافية تسطع فيها شمس حادة لا يتخللها سوى قليل من السحب التي تسوقها الرياح. وفي أقصى غرب الجزيرة تتناثر أجزاء كبيرة من الصخور التي تأخذ أشكالًا غريبة للغاية. فبعضها تقف منتصبة في صفوف وكأنها شواهد قبور بائسة وضخمة لآلهة قديمة طواها النسيان منذ زمن سحيق. كانت الحرارة على الجزيرة معتدلة، ولكن الحرارة التي تنعكس من جانبَي الوادي حينما تسكن الرياح تذكِّر لوبيز بحرارة الهند. وحينما تشتد الحرارة، لم يكن عليه إلا أن يمشي مدة ساعة فقط حتى يجد درجة الحرارة وقد انخفضت كثيرًا ويشعر بهبَّة ريح باردة ترتفع فوق النسيم الهادئ فيرتجف من شدة البرد.

كانت شواطئ الجزيرة تعج بالطيور البحرية التي تضع بيضها على المنحدرات. وهناك تضع أيضًا فضلاتها البيضاء حتى بدت هذه المنحدرات وكأنها أشرعة بيضاء للجزيرة. لم تكن جميع الطيور تقصد المنحدرات، ولم يكن هناك سوى نوع واحد من طيور البحر يفضل بناء أعشاشه فوق المرتفعات الوسطى في الجزيرة التي تنتشر بها الغابات. وفي أحيان كثيرة كان لوبيز يرى أحد هذه الطيور يحلق عبر الجزيرة وقد أمسك بسمكة في منقاره. وأحيانًا، كانت الطيور، إما لعدم انتباهها وإما لتشتت تركيزها، تُسقط السمكة ويراها لوبيز. وفي بعض الأحيان يصادف السمكَ الطائرَ ميتًا فوق الصخور، نتيجة فراره من خنازير البحر أو أسماك القرش. وبعض هذه الأسماك يصل طولها إلى قدمَين.

وبأصابع يده اليسرى الأربع وجدعة يده اليمنى راح لوبيز يحفر في وادٍ تشكل عبر قرون من المطر، وانفتحت به مع مرور الزمن فجوة كبيرة تكفي لأن

تكون كهفًا صغيرًا. كانت التربة رطبة وناعمة ولذلك أمكنه أن يحفر بها، وسرعان ما بدأت تزحف على يديه حشرات وخنافس سوداء. ثم وسع الكهف وبطَّن الجدران بشجيرات الجولق حتى أصبح يكفي لأن يكون مأوى له ومكانًا لنومه. وبينما كان يحفر لم يكن يعجزه أن يلحظ جوانب الحفرة التي أظهرت له مجموعة متنوعة من الطبقات الأرضية الملونة الجميلة: ألوان من الأبيض والأزرق والرمادي والأحمر، ما يكشف الأصل البركاني للجزيرة حينما تشرق الشمس عليها، وتعكس ألوانًا ذات جمال مذهل. وبالقرب من الحفرة العميقة التي صنع فيها كهفه الذي امتلأ تقريبًا بالمياه، كان يوجد شلال صغير من الماء يصب في بركة مظلمة يخرج منها جدولٌ مائي. لاحظ لوبيز أن الجدول في الطقس الجاف لا تجري به سوى مياه قليلة حتى إن هبَّة رياح واحدة تضرب الجزيرة تكفي لتحويلها إلى رذاذ ماء يغطي الصخور القريبة وكأنه غشاء في غاية الدقة والرقة. وفي أوقات أخرى حينما تهطل على الجزيرة أمطار غزيرة تتدفق شلالات المياه مثل انهيارات جليدية على السفوح الوعرة للأودية، فتدفع معها كل شيء بعيدًا بقوة هائلة يبدو معها وكأن الجزيرة سوف تُجرف بأكملها في المحيط. وراح يفكر قائلًا: ولكن لولا المطر وجداول المياه العذبة، لما توقفت أي سفن في الجزيرة.

كانت الرياح تعصف وتثور على امتداد المحيط الهائل والمفتوح، لا تعوقها أي يابسة من الأرض لأكثر من ألف ميل، فتصنع موجات متواصلة وسريعة (تتراوح سرعتها ما بين ٧٠ و٨٠ عقدة) وتسمى «موجات كبيرة». في البداية تبدو بطيئة وهي تتحرك إلى الأمام، ثم تتزايد موجاتها، وتسوق موجات أخرى حتى تضرب الجزيرة بقوة هائلة. سوف يطلق البحر الكبير، الذي بدا هادئًا قبل بضع دقائق، العنان لجام غضبه بكل شراسة وعنف على الجزيرة العزلاء، مهددًا بإغراقها. كانت هذه الموجات تتوالى بشكل متكرر واستطاع لوبيز أن ينجو بنفسه من بعضها، ولدى ارتطامها بالشاطئ تحدث صوتًا مدويًا فيما تجتاح المياه السهل الخالي. ويمكن للمرء أن يتخيل الجلال والجمال الذي يخطف الأبصار في طرف الموجة التي تبلغ ذروتها بالرذاذ والرغوة، وتواجه الرياح حتى يبدو أن قمتها تُحمل مرة أخرى عكس دوران الموجة الكبيرة كعمودٍ منحنٍ. لكن بقدر السرعة التي يضرب بها الموج، بقدر ما ينتهي غضبه سريعًا، وفي نهاية المطاف تعلَّم لوبيز كيف يقرأ العلامات، وسيكون بوسعه أن يحدد متى تضرب موجة المحيط الكبرى قبل موعدها بيوم أو يومين: كانت الموجة عادة ما تصاحب ارتفاع المد عند اكتمال القمر.

حطَّ هدهد بالقرب من كهف لوبيز. «ماذا تفعل هنا معي في هذه الجزيرة يا سليمان؟ أليس عليك أن تسلم رسالة للملكة؟» لم يرد الهدهد ولفزعه من صوت لوبيز طار بعيدًا. وأدرك لوبيز خطأه، لأن اسم الطائر لا يمكن أن يكون «سليمان». وفي اليوم التالي، أو ربما بعد بضعة أيام، أو قبل بضعة أيام،

اعتذر إلى الهدهد وسأله عن اسمه، وفي هذه المرة نظر الطائر إلى أعلى وأجاب: «اسمي «بيجابور». جئت إلى هنا قبلك بزمن. ماذا تفعل هنا؟ لا تحسبن الرحلة قصيرة، وعلى المرء أن يمتلك قلب أسد كي يسلك هذا الطريق غير المعتاد، لأنه طويل للغاية». لكن في اليوم التالي لم يأتِ الهدهد ولم يرَ لوبيز «بيجابور» مرة أخرى.

لعل لوبيز كان حينما يشعر بألم الوحدة، يشق طريقه نحو الشاطئ حيث يستحضر رسالة القبطان ولا سيما في جملتها الأخيرة: «يقطن هذه الجزيرة فارسٌ نبيل، هو الدوم فرناو لوبيز. عامله باحترام وشرف». ولكن ربما يأتي قبطان آخر ذات يوم من الأيام ويجدها ويحملها معه إلى لشبونة، وهناك سوف يبذل جهده حتى يعثر على ابن لوبيز ويسلمها له، ولا شك أن ابنه سوف يحملها إلى أمه كي يريها إياها.

قبل بضع سنوات كان أحد المغامرين البرتغاليين، لا ندري تحديدًا مَن يكون، ولكن ربما كان أحد الذين أبحروا مع دا نوفا حينما اكتشف سانت هيلانة للمرة الأولى، قد غرس بعض أشجار التين في الجزيرة، وفُوجئ لوبيز حينما رأى الأشجار مثمرة طوال العام. وفي كل شجرة تين توجد أزهار ويوجد تين أخضر وتين ناضج في آنٍ واحد. ظلت هذه الثمرة مصدرًا دائمًا لإعاشته، ولاحظ لوبيز أن التربة جيدة وخصبة.

وحينما يجتاز لوبيز الغطاء النباتي الكثيف، كان ينتهك السلام الذي تعيش به أعدادٌ كبيرة من الحشرات والفراشات. وكانت الأرض ترتفع فجأة وسط هذا الغطاء النباتي من خلال شجيرات السرخس القريبة من سطح الأرض والمنتشرة في كل مكان، التي ترتفع سيقانها الخشبية حتى أربعة أمتار، فيما تغطي أسطحها طحالب سميكة تحتفظ بالمياه، وتتساقط من أوراقها قطرات الندى، وتنبعث منها رائحة قوية ورطبة. وكان يتخلل أشجار السرخس نوع من عباد الشمس وأشجار الكرنب السوداء القديمة، التي لم يرَ لها مثيلًا من قبل. وبينما يمشي تحت السراخس، تتساقط عليه أعداد كبيرة من قمل الخشب الصغير ذي اللون الأصفر الزاهي، فيجد شبكات العناكب السوداء والبيضاء تمتد خيوطها عبر المسارات الضيقة. وتحت قدميه كانت الأرض التي يحبس الماء فيها غطاءٌ كثيف من الطحالب رطبة وزلقة. أما الأشجار المحيطة والضباب العالق في الهواء وطبيعتهما التي توحي بأنهما ينتميان إلى عالم آخر فتعطي شعورًا بالبُعد، يوشك أن يكون نذيرًا بالشر، كما لو أن لوبيز وطأ أرضًا لا تزال تعيش في حقب ما قبل التاريخ وتنتمي إلى بقايا عالم قديم.

كانت تنقضي أيام لا شيء يحدث فيها، ثم تنقضي أيام أُخر لا شيء يحدث فيها.

كانت عائلة لوبيز في لشبونة، إذا ما تذكرته، تفترض أنه مات إما في الهند أو في مكان ما عبر الطريق إليها. هل حزنوا عليه؟ هل لبسوا عليه السواد؟ هل أُضيئت الشموع في ذكراه، وهل أقيمت الصلوات على روحه التي ظن مَن في لشبونة أنها انتقلت من هذا العالم إلى النعيم الأبدي في العالم الآخر، ولكنها في الحقيقة كانت على قيد الحياة وفي حال جيدة وترفض أن تموت؟ وماذا عن الهند؟ ربما جاز لنا أن نعذر لشبونة على نسيانه، ولكن ماذا عن جوا؟ كان له فيها العديد من الأصدقاء وكذلك بعض الأعداء، سواء من البرتغاليين أو الهندوس. شارك بعضهم، ممن اعتبرهم أصدقاء مقربين، الشراب ولعب القمار، فيما لم يجفل بعضهم، وهم قليلون للغاية، أو يفزعوا حينما وقعت أعينهم عليه وهو يمر بطريقهم بجسده المعذَّب، أو على الأقل بذلوا قصارى جهدهم لإخفاء الفزع. لقد رأوه على متن السفينة العائدة إلى البرتغال، ولكن هل خطرت ذكراه ببالهم الآن ولو مرة واحدة؟ في بيجابور كان لديه العديد من الأصدقاء المقربين ممن استقبل معهم مكة وقاتل معهم. لقد أُبقي على حياته بفضل إصرار رسول خان على ألا يُقتل، ولكن ماذا لو كان قد بعث برسالة إلى رسول خان، ترى أي رد كان سيأتيه؟ هل كان الرد سيكون أي شيء أكثر من «لوبيز؟ ألم يكن واحدًا من الفرنجة الذين قاتلوا معنا؟». ولكن هل كان خوف لوبيز الأكبر هو أن يكون قد أصبح نسيًا منسيًّا، أو أن يكون غير مرغوب به؟

ترتفع سانت هيلانة مئات الأمتار فوق مستوى سطح البحر، ويزداد الضباب بها كثافة كلما ارتفع المرء، وغالبًا ما تحتجب الشمس وراء الغيوم الكثيفة. وترتفع درجة الحرارة أيضًا، وأما الهواء، الذي كان مضمخًا برائحة العسل الحلوة، فكان غالبًا لا يُطاق، ما يجعل لوبيز يشعر بالدوار والغثيان. وحينما تهب عليه الرياح من السهل أعلاه، لم يكن بوسعه إلا أن يصرخ بأعلى صوته، ليسمع رجع الصدى يرد عليه بوضوح كبير وكأن شخصًا آخر ينادي عليه من كهوف بعيدة. وفي نهاية المطاف راح المسار يستوي حينما وصل إلى التلال التي تشكل إحدى القمم الوسطى في الجزيرة، وتُعرف اليوم باسم «قمة ديانا»، التي تحيط بها غالبًا الغيوم ولكنها مع ذلك تمنحه منظرًا مهيبًا. كانت هذه هي أعلى نقطة، ليس في الجزيرة وحدها بل على مدى ١٠٠٠ ميل. وكان لوبيز، وهو بالقرب من الوهاد الهائلة، يقف مفتونًا بالمشهد البانورامي المذهل والجمال الماثل أمامه، وهو ينظر إلى المنحنى الجميل لأفق المحيط الذي يعانق السماء. وحينما ينظر غربًا، كان بإمكانه رؤية التلال الوسطى، بمنحدراتها الشديدة ذات الغطاء الخضري الكثيف. وأما من جهة الشرق فكان المشهد مغايرًا تمامًا، ويطل على مناطق صحراوية وصخور بركانية ورماد يتجمع على هيئة طبقات تشكل صخورًا متعرجة الزوايا. كان المنظر غائمًا جزئيًّا بسبب أعمدة الغبار الضخمة، التي تدفعها الرياح الأطلسية القوية إلى

أعلى نحو السماء. ومن هنا، يمكن للمرء النظر إلى الخليج الطبيعي المذهل الذي رست فيه سفينة «سانكتو أنطونيو»، ويظهر بصخوره الحمراء والبنفسجية وكذلك الخطوط البيضاء التي تشكلت من براز الخفافيش وتميز الحواف الحادة للوديان البركانية. كان البحر يبدو مضطربًا من بعيد، والأمواج ترتطم مرة تلو مرة بالحواجز، لتمنع أي عملية رسو آمنة؛ ولكن حتى من هذا الارتفاع، كان بالإمكان رؤية السلاحف الخضراء التي تبني أعشاشها على الشاطئ الرملي الأسود، فيما تحلق آلاف الطيور البحرية ببطء ومن دون عناء يُذكر.

إنه يدرك أن الجزيرة ليست معزولة وسط المحيط بأكثر من ألف ميل بعيدًا عن اليابسة، بل إن الجزيرة، بجميع مظاهر جمالها ـ من المنحدرات البركانية القديمة والوعرة وصولًا إلى ملايين الطيور البحرية، ومن مياه المحيط الصافية إلى المياه الضحلة وأسراب سمك الفراشة، ومن السماوات الصافية الزرقاء إلى الليالي المرصعة بالنجوم ـ كانت محمية بالفعل بأكثر من ألف ميل في المحيط.

كم المدة التي أمضاها لوبيز في الجزيرة؟ هذا ما لم يكن يدركه: فكيف يمكنك أن تحصي الأيام حينما يماثل كل يوم اليوم الذي يسبقه أو يليه؟ وعلى أي حال، أي أهمية لذلك ما دام أنه يحصي على الأرجح ما بقي له من أيام قبل أن يوافيه أجله؟ أليس ذلك هو ما دفعه إلى مغادرة السفينة؟ ألم يكن ما فعله انتحارًا؟ لكن الحقيقة الواضحة هي أنه لم يمت؛ بل يبدو أن صحته تحسنت لسبب ما لم يكن لوبيز يعرفه، رغم أنه استشعر ذلك، وهو أن الرياح التجارية المستمرة التي تهب على جزيرة سانت هيلانة جعلتها بيئة صحية للغاية. وأدرك البريطانيون ذلك في أواسط القرن التاسع عشر حينما كان العديد من الجنود القادمين من الهند في حال سيئة، يستعيدون كامل عافيتهم بعد بضعة أشهر يمضونها على الجزيرة. وتفيد بعض التقارير أيضًا أن رجلًا وصل إلى الجزيرة قادمًا من إنجلترا وكان في المراحل النهائية من الالتهاب الرئوي، استعاد صحته تمامًا بعد شهرين فقط أمضاهما على الجزيرة.

كان قد أسمى صديقه الهدهد الذي ظهر له ظهورًا عابرًا «بيجابور»، وبالقرب من كهفه كان يصادف يوميًّا مرعة حادة النظرات، تُشبه دجاجة شائهة الشكل بجناحيها المستديرين القصيرين وقدميها الكبيرتين ومخالبها الطويلة. لكن هذه المرعة كانت ذات روح شرسة فهي دائمة الحركة ودائمة اليقظة ولا تكف عن النقر في الأرض. كانت طائرًا غبيًّا، يظل ينقر يوميًّا قطعة قاحلة من الأرض وعلى بعد بضع خطوات فقط منها توجد قطعة أخرى تمنحها فُتاتًا أفضل. ولأن لوبيز انتبه لهذا الطائر القبيح وعناده، فقد أسماه «ألبوكيرك».

كان القمر بأطواره بداية من الهلال بشكله المنجلي وصولًا إلى البدر حيث اكتماله الرائع في الليلة الخامسة عشرة حينما يغمر ضوؤه الجزيرة، يساعد لوبيز في حساب الأيام والشهور، وإن كان لا يدري على الأرجح في أي شهر هو. كان يأتي عليه حينٌ يهطل المطر بوتيرة أكبر ثم يأتي حينٌ آخر لا يكون كذلك، ولكن كم المدة التي يستغرقها كل موسم، هذا ما لم يكن بوسعه أن يفهمه. أيكون، حينما رأى الهلال يلوح في الأفق لمدة قصيرة على استحياء، وكأنه عذراء جميلة تؤدي أول رقصة لها، تذكر شهر رمضان الذي قضاه في بيجابور؟ أصبحت لحيته، وكانت مهذبة ذات يوم، شعثاء وغير مهذبة، وطالت أظافر يده واخشنَّت. كان الوقت يمضي، ولكنه يشبه حلمًا قد تمضي فيه حياة كاملة في بضع ثوانٍ، وقد تبدو بضع دقائق وكأنها عمر كامل.

في البَدء ما كان ممكنًا أن يكون الكلمة. ما كان ممكنًا أن يكون سوى الصمت. فالكلمة كان عند الله وكان الكلمةُ الله. والله كان وحده. والله كان صامتًا.

ذات يوم، وخلال المدة التي أمضاها لوبيز على الجزيرة، لاحت له عن بُعد بقعة بيضاء في الأفق، وظلَّت تكبر ببطء حتى أضحت سفينة. ربما تنتهي الآن محنة لوبيز. ها هو قد نجا، وبوسعه أن يعود الآن إلى لشبونة. بل ويمكنه أن يحمل معه رسالة القبطان. وبينما كان لوبيز يرقُب السفينة البرتغالية في سيرها البطيء نحو سانت هيلانة، مستدلًّا عليها بآلاف الطيور البحرية، هل يمكن أن يكون قد استحضر تلك اللحظة التي رأى فيها سانت هيلانة للمرة الأولى، حينما ظن وقتها أنه ربما ينسى في هذه البقعة الموحشة والمعزولة معاناته؟ وبالنظر إلى المحنة التي مر بها، هل كان حقًّا وحده على الجزيرة؟ أغلب الظن أنه لم يكن وحده. كان أفونسو دي ألبوكيرك معه، حتمًا، طوال الوقت وكذلك جثمان روي دياز. ولا يمكن أن تكون الأيام الثلاثة التي تجرع فيها مرارة التعذيب تركته، ولا الرفاق الذين ظلوا، في لحظة الحقيقة، يقاتلون بجانبه في باناستاريم. وعلى الرغم من أن هذه الأحداث لم تقع في الحقيقة سوى مرة واحدة، فإن نسيانها محال. والأرجح أنها كانت تقع مائة مرة في اليوم داخل ذهن لوبيز، وتظل تهاجمه وتعذبه حتى يُسمع صدى صرخاته في جميع أرجاء الجزيرة، ويبدأ في الخروج من والدخول إلى هذا العالم الخفي الذي يسميه العقلاء جنونًا.

في خضم عاصفة من المعاناة، وفي لحظات الوضوح، لم يكن بوسعه إلا أن يشعر بالدهشة إزاء الطريقة التي تتوالى بها أمامه هذه الأحداث فتسبب له كل هذه المعاناة الرهيبة داخل ذهنه. وفي أثناء الظلام الذي يخيم على روحه وبينما يحتال عقله عليه، كان فؤاده يبقى مخلصًا له: فهو لم يثبته فقط بطرحه أسئلة ثاقبة ومثيرة، بل كان يرشده بعناية عبر متاهة الجنون المظلمة التي

تحيط به. «كيف يمكن أن تكون هناك روايات متعددة للقصة نفسها؟ قطعًا لا يمكن أن تكون جميعها صحيحة؟ ألا ترى كيف تهاجمك هذه الأفكار ولكنها لا تلبث سوى لحظات، ثم تمضي كما تمضي الغيوم في السماء؟». والأهم من كل شيء فقد همس له قلبه: «ألم يكفك ما عانيته؟».

والآن، وبينما تقترب السفينة أكثر فأكثر، ربما أدرك لوبيز أنه إذا صعد إليها، فسوف يحمل معه ألبوكيرك وديباز لا إلى لشبونة فقط، ولكن حتى نهاية العمر. لقد مرت به حتمًا لحظات على الجزيرة تضرَّع فيها إلى الإله حينما تملكته مشاعر الوحدة القاتلة أن يرده إلى لشبونة، حتى لو كان ذلك يعني أن يموت في شوارعها متسولًا ومعدمًا، ولكنه الآن أدرك أن رحلته لم تنتهِ بعد. بل على العكس، لقد بدأت لتوها. لن نعرف أبدًا على وجه اليقين لماذا آثر لوبيز البقاء على الجزيرة. لا بد أن ذلك تطلب قدرًا هائلًا من الشجاعة والثبات. ربما فقد صوابه واختار الاختباء مرة أخرى. ربما، ولكن هذا التفسير حسبما أرى يتعارض مع جوهر سلوكه وأفعاله في المستقبل، ولذلك ما لم يكن قد استرد بطريقة أو بأخرى صوابًا فقده، يجب أن نفترض أنه اتخذ قرار البقاء على الجزيرة بعقل سليم. وفي رأيي، اختار لوبيز البقاء على الجزيرة لأنه في هذا العام الأول من العزلة، وهو عام أمضاه ما بين سفينة غدت وأخرى جاءت إلى سانت هيلانة، أحس على الأغلب بتحول داخلي عميق، من ذلك النوع الذي قد يستغرق سنوات عديدة حتى يكتمل. وسوف أحاول لاحقًا في هذا الكتاب أن أتطرق إلى هذه العلاقة الغامضة ذات الطابع الصوفي، وهي العلاقة بين الإنسان والصمت، لكن في الوقت الحالي، إذا كانت مهمة المؤرخ هي تفسير صمت التاريخ، فأعتقد أن لوبيز اختار البقاء في الجزيرة لأنه شعر، على نحو لم يُعرف بعد، بأنه سيكون بوسعه على الجزيرة أن يفهم التسلسل الذي يربط أحداث حياته ويحرره في النهاية من عذاباته.

وبينما كان يقف في أعلى نقطة بالجزيرة بملابسه الرثة ولحيته الشعثاء، لاح بخاطره أنه أول إنسان منذ بدء الخليقة يقف في هذا المكان بجماله الساحر ـ إنه فرناو لوبيز، رجل مارق ويمكن السخرية منه. وبقي واقفًا على أعلى نقطة بالجزيرة حيث تظله الطيور. لم يكن لديه مكان آخر يذهب إليه. وحينما نظر إلى أسفل رأى تلالًا وأودية تطل على البحر. ومن بعيد رأى البحر يندفع بين منحدرين وعرَيْن يكسوان موجه باللون الأبيض الناجم عن رذاذه. وبعد زهاء ٣٠٠ عام بالضبط، سوف يقف إمبراطور فرنسي في البقعة ذاتها، يندب العزلة التي آل إليها مصيره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الخامس عشر

ظلال الماضي

كان القبطان فرانسيسكو دي تافورا يرى أن رُسوَّه في جزيرة سانت هيلانة لبضعة أيام سوف يمنحه هو ورجاله بلا شك بعض الراحة، لأن سفينته «ساو كريستوفاو»، ومنذ دورانها حول رأس الرجاء الصالح، تضررت كثيرًا بسبب الرياح التجارية فيما أنهك المرض رجاله. وسوف يجد على الأقل بعض الهدوء على سانت هيلانة غير المأهولة، ويمكن للسفينة التزود بالمياه قبل الإبحار نحو البرتغال في المرحلة الأخيرة من رحلة العودة. ومن المهم أن نلاحظ أن «سانكتو أنطونيو»، التي حملت أخبار لوبيز، وصلت إلى لشبونة في نوفمبر ١٥١٦، حينما كانت «ساو كريستوفاو» عندئذٍ قد أبحرت بالفعل إلى الهند. وهذا يعني أن تافورا ورجاله لم يكونوا يتصورون في هذه المرحلة إلا أن الجزيرة غير مأهولة. ولذلك، كان حدثًا مذهلًا، بعد بضعة أيام أمضوها على الجزيرة، حسبما تشير المصادر، حينما أخبر القبطانَ اثنان من رجاله أنهما عثرا على كهف به بعض الثياب، وأنهما عثرا على علامات تؤكد أن أحدًا ما يعيش هناك. كان واضحًا لهما أن هذا الشخص لم يمت، لأنهما عثرا على رماد نار كان لا يزال دافئًا. ولكن إذا كان ثمة شخص ما على قيد الحياة في الجزيرة، فلماذا لم يعلن عن نفسه؟ وبالنظر إلى أن الجزيرة في أقصى نقطة لها تبعد عن البحر ٤٦ ميلًا، فمن المحال ألا يكون قد علم بالسفينة لدى اقترابها، ولا بنزول طاقمها إلى الجزيرة. ربما لم يكن برتغاليًّا وخشي على حياته، ولكن ذلك ليس واردًا، لأن أي روح بعد هذه العزلة الطويلة لم تكن لتتردد لحظة في المبادرة بأي عمل تتواصل من خلاله مع البشر. ولكن تُرى مَن يكون؟ وكيف وصل إلى هذه الجزيرة وسط المحيط؟ كان هذا هو اللغز المحير.

ربما كان لوبيز يستمع، وهو مُتخفٍّ عن طاقم السفينة. وفي ظل هدوء البحر وانخفاض شدة الرياح، من المحتمل أنه كان يسمع النقاش بوضوح. وما دام بقي هادئًا، فلن يكتشف وجوده أحد. انقضى عام على آخر مرة سمع فيها صوتًا بشريًّا، واستغرق بضع دقائق حتى تتكيف أذناه مع سماعه عدة محادثات تُجرى في آنٍ واحد. ومنذ التنكيل الذي حلَّ به، ربما لم يعد يستطيع أن يحدد مصدر الأصوات، وربما وجد الأمر مزعجًا حينما حاول ذلك. ربما حاول التغلب على ردة فعل أولية كانت تدفعه إلى استقبالهم بالتحية حينما شاهد البحارة البرتغاليين ينزلون إلى الشاطئ. وعلى مدى عام عاش حياة منعزلة تمامًا يتعذر غالبًا على الآخرين أن يفهموها، ولكنه كان أيضًا عامًا نسي فيه ما تعرض له من تشويه. ماذا سيقول للبحارة وهم يُحدقون إلى وجهه؟ مَن سيبادر بالسؤال: «مَن فعل بك هذا؟»، وبعد ذلك تنهمر عليه الأسئلة ثم يُحمَل

إلى لشبونة. لم يكن يرغب في هذه الأسئلة. وتشير جميع الشواهد المتوفرة إلى أنه لم يكن يريد لشبونة.

وهكذا لم يكشف لوبيز عن نفسه للرجال ولعله شاهدهم في صمت وهم يتركون له بعض الطعام والثياب في الجزيرة. ويتساءل المرء إن كان هذا العمل قد أثر به على نحو ما أو إن كان قد رآهم من دون أن يبالي. أيًّا كان الأمر، فقد راقب لوبيز في الصباح التالي السفينة «ساو كريستوفاو» وهي ترفع شراعها وتغادر الخليج. ولو أن لوبيز كان يشاهدهم، فسوف يلحظ أن جسمًا أسود اللون سقط من على متن السفينة وارتطم بالماء. إنه ديك. ديك ضخم أسود اللون: كان متسخًا ومصابًا بدوار، ولكنه كان حيًّا حينما سقط في مياه المحيط. لعل فكرة أكل لحمه خطرت ببال لوبيز، ولكن حتى إن حدث ذلك، فقد اختار ألا يفعل. كان الديك رفقة له، حتى وإن كانت ليست بأجمل رفقة. منذ إنقاذه، أصبح الديك يتبع لوبيز أينما يذهب، وكأنه كلبه الوفي ليلًا ونهارًا. وفي الليل يصعد إلى مَجثَمه أعلى رأس لوبيز حينما ينام، وفي كل صباح يخرج الطائر من الكهف ويصيح مناديًا إياه كي يستيقظ. ها قد أصبح لدى فرناو لوبيز صديق.

حينما عاد لوبيز إلى الكهف وجد أن البرتغاليين تركوا له، فضلًا عن الطعام، رسالة ثانية. لكن ثمة شيئًا آخر لفت انتباه لوبيز، وهو أن القبطان أخذ الرسالة الأولى. الرسالة التي تحمل اسمه في طريقها إلى لشبونة (وفي نهاية المطاف، ربما تُسلَّم إلى ابنه. هل نبالغ إذا تصورنا أن ذلك غمر قلبه بدفقة من الفرح؟) شعر وكأن جزءًا منه في طريقه إلى بلاده.

حينما عثرتُ للمرة الأولى على شخصية فرناو لوبيز باعتباره مسلمًا برتغاليًّا، والساكن الوحيد في سانت هيلانة، أثارت هذه الملاحظة العابرة انتباهي وحددتُ المسار الذي سأسلكه في بحثي ووضع هذا الكتاب. ما كنت بصدد اكتشافه هو أن لوبيز ربما تمتع بعمق روحي كان يضفي عليه طابعًا يميزه، وهو عمق أظنه قد يفسر تصرفاته إلى حدٍّ بعيد. وبعبارة أخرى، لقد أراد لي فرناو لوبيز أن أكتب قصة مغايرة. كان تعليقًا عابرًا تلفظ به عجوزٌ من جنوب أفريقيا عاش في سانت هيلانة وتبادلت معه بعض الرسائل حول الجزيرة، ونبهني للمرة الأولى إلى حقيقة أن فرناو لوبيز ربما كان يهوديًّا في الأصل. وسألته بشغف مِن أين له بهذه المعلومة لأن أيًّا من مصادرنا الرئيسية التي تتحدث عن حياة لوبيز لم تأتِ على ذكرها: جاسبار كوريا لم يذكرها، وكذلك لم يفعل باروس ولا حتى رسائل أو تاريخ ألبوكيرك التي جمعها ابنه. وفي الحقيقة لم أتمكن من العثور على أي وثيقة عامة تثبت حقيقة أن لوبيز ربما كان يهوديًّا في الأصل. أوضح لي الرجل الجنوب أفريقي أنه منذ بضع سنين كان يبحث في حياة لوبيز، بعد أن علم بأمره، حينما كان في سانت هيلانة.

وخلال ذلك، تبادل المراسلات مع المؤرخ البرتغالي البارز، هارولد ليفرمور، الذي أشار على نحو عابر إلى أن لوبيز كان يهوديًّا في الأصل. ولكن، إذا نحَّينا هذا التعليق العابر جانبًا، فليس لديَّ أي معلومات أخرى أو أدلة لمتابعة هذا الطرح. طلبتُ منه أن يريني نسخة من هذه الرسالة ولكنه لم يستطع العثور عليها، لأنه لم يكن يعير الأمر برمته اهتمامًا كبيرًا، لأن لوبيز لم يكن محور بحثه. مات هارولد ليفرمور، ولم يكشف بحثي في كتبه عن شيء. ولأنني أصبحت مسكونًا بهذا الاحتمال، لم يعد بوسعي أن أتوقف عن البحث في هذا الاتجاه. تواصلت مع العديد من العلماء والمؤرخين البرتغاليين المتمكنين، لكن أحدًا منهم لم يكن على علم أو صادف أي مصدر يلمح إلى هذه الحقيقة. وأشار أحد الأساتذة الأجلاء إلى أن الأمر يشبه محاولة العثور على إبرة في كومة قش (أو كما قالها لي بالفرنسية التي اضطررنا إلى الحديث بها). وأشار آخر إلى أن تسجيل المواليد في تلك الأيام لم يكن إلزاميًّا. فيما أحالني ثالث إلى المؤرخين الذين عاصروا لوبيز، وهم جاسبار كوريا وكاستانيدا وجواو دي باروس، وكذلك رسائل أفونسو دي ألبوكيرك. لكنني كنت قد انتهيت منهم بالفعل. وعلمت أيضًا أنه من المستبعد جدًّا أن يظهر أي أثر لأصول يهودية لديه من السجلات، لأنه ما لم يكن ذلك مذكورًا بشكل واضح في وثيقة، فسيكون محالًا القبول بأن لوبيز كان أحد المسيحيين الجدد، ولا سيما في ضوء الاندماج الكامل للأسماء. وخير مثال على ذلك هو مرشد أسطول كابرال في ١٥٠٠. وكان اسمه جاسباراندا دا جاما وكان يهوديًّا. اختار جاسباراندا ببساطة اسم دا جاما حينما تحوَّل إلى المسيحية. وبالرغم من أن أصوله اليهودية مثبتة في المصادر، فإن اسمه الجديد يوضح مدى التعقيد الذي يواجه أي عملية تفكيك لأصول هؤلاء الذين ورد ذكرهم في السجلات، ولا سيما حينما لا توجد وثائق برتغالية توضح المعايير المطبقة في اختيار الأسماء. نحن نعرف أن لوبيز، وهو من سكان لشبونة، متزوج ولديه ابن صغير. ونعلم أنه، بصفته نبيلًا، وفيدالجو، ارتقى سريعًا درجاتِ السلم المجتمعي. ولكن لم يرد أي شيء يقول إن لوبيز، وهو صبي صغير، أُخذ من والديه وعُمد، ولن يكون هناك، لأنه بمجرد تعميد الشخص يُغلق باب الماضي بإحكام. يبدو أن فرناو لوبيز ظهر في التاريخ مكتملًا تمامًا باعتباره نبيلًا ضئيل الشأن في لشبونة مع زوجته وابنه.

توجهت إلى لشبونة، وبمساعدة باحثين برتغاليين فتَّشت في السجلات الرسمية بحثًا عن أي ذكر يلقي الضوء على حياة لوبيز المبكرة. علمت أن الزلزال المدمر الذي وقع عام ١٧٥٥ دمَّر معظم وثائق أبرشية لشبونة وقضى معها على أي أمل أخير في حل هذا اللغز، لكنني مع ذلك واصلت العمل آملًا في العثور على أي إشارة عابرة على الأقل. ولكن بدلًا من العثور على لوبيز الذي أبحث عنه، أظهرت لي السجلات آخرين يحملون الاسم نفسه ويتمنون

لو وجدوا من يروي حكاياتهم التي طواها النسيان. كان هناك توماس لوبيز الذي أُلقي القبض عليه عام ١٥٠١ لاستمراره في الكتابة باللغة العبرية. وكان هناك أفونسو لوبيز الذي سُجن لرفضه القاطع الزواج من عائلة من المسيحيين القدامى وبدلًا من ذلك اختار أن يتزوج مسيحية جديدة (لعلها حبيبته)، هي إيزابيلا لوبيز. وصادفتُ جوانا لوبيز، التي سُمعت وهي تصيح في العلن: «سامح الرب الملك الذي جعلنا مسيحيين!»، وبعد ذلك كان هناك المزيد من المسيحيين الجدد الذين يحملون اسم لوبيز، والأهم: كان هناك دوارتي لوبيز، وهو تاجر برتغالي توجه إلى الكونغو وأنجولا ونشر بالتعاون مع فيليبو بيجافيتا، واحدة من أقدم الخرائط وأوصاف وسط أفريقيا في عام ١٥٩١. وربما كان أشهرهم جميعًا، هو رودريجو لوبيز، وكان والده أفونسو هو أحد أطباء جواو الثالث. وأفونسو عُمد بالقوة، وعلا شأن ابنه، وكان مسيحيًّا بالولادة، ليصبح لاحقًا كبير أطباء الملكة إليزابيث الأولى ملكة إنجلترا منذ عام ١٥٨١ إلى أن اتُّهم بالتآمر لتسميمها ومن ثَمَّ أُعدم. ويُعتقد أنه ربما هو من ألهم شكسبير بشخصية شايلوك في مسرحيته «تاجر البندقية»، التي كُتبت في غضون أربع سنوات من وفاته. وحينما كتب شكسبير: «إن روحك روح ذئب قُتل شنقًا لافتراسه إنسانًا»، كان الجمهور يعرف أنه يشير إلى لوبيز («ذئب» ـ «لوبوس»). ولكن السجلات التزمت الصمت إزاء فرناو لوبيز ولم أعثر على أي سبب يمكن أن يجعل ليفرمور يقول ما قال. ولكني أيضًا تساءلت: هل يمكن في مجتمع طبقي كذاك الذي وُجد بالبرتغال في القرن السادس عشر، أن يصبح مسيحي جديد فعلًا نبيلًا؟ كان الجواب: نعم، لأنه يبدو أن مانويل خفف من قسوة الإكراه على التحول إلى المسيحية بمنح درجات النبالة إلى هؤلاء اليهود (وقد أصبحوا الآن «مسيحيين جددًا») الذين كانوا يُعتبرون نخبة في مجتمعهم، ما يتيح لهم نيل امتيازات الشرف التي تصاحب مناصب البلاط. ومن هنا تساءلت: هل جاء لوبيز، إذا افترضنا أنه كان يهوديًّا في الأصل، من عائلة ذات مكانة مرموقة، لأننا حينما التقيناه في المصادر للمرة الأولى، كان مرافق فارس. فعلى سبيل المثال، عُين بيدرو دياز كاتب توثيق في مدينة لاميجو، ويُقال إنه كان قد شغل بالفعل الوظيفة نفسها حينما كان يهوديًّا. ولدينا إشارات مماثلة إلى لورينزو فاز الذي كان يُسمى في السابق «إسحاق»، وإلى مانويل بن يهودا. وكلما بحثتُ عن الجذور اليهودية المحتملة للوبيز، يكشف لي بحثي المزيد من الغموض، حتى أدركت أن الغموض في واقع الأمر جزء من القصة وجزء من البحث. وعلى حد تعبير بنزيون كاجانوف، وهو مؤلف «قاموس الأسماء اليهودية وتاريخها»، «إن البحث في اسم عائلة يهودية يأتي مشحونًا بكل التشويق الذي يكتنف قصة بوليسية رائعة».

هل كان لوبيز يهوديًّا في الأصل؟ هل كان واحدًا من هؤلاء «الأبناء المفقودين» الذين أمر مانويل بأخذهم من آبائهم وتسليمهم إلى عائلات كاثوليكية؟ وعلى الرغم من أنني أدركت أنه ربما لن يوجد جواب نهائي ومحدد، وأن الجواب يتوقف على السياسة وعلم النفس واللغويات بقدر ما يتوقف على التاريخ، فقد انتابني شعور بالإحباط بسبب غياب الأدلة وتعليق ليفرمور المؤكد (والعابر) بأن لوبيز كان يهوديًّا. من المؤكد أنه يمكن للمرء أن يحاجج بأن بعضًا من أفعاله وهو بالغ يمكن فهمها بشكل أفضل إذا افترضنا أنه أُكره على التحول إلى المسيحية وهو طفل، ولكن ذلك يعني الخضوع لإغراء يجعلنا نستخلص معنًى ما من أشياء أبسط ما يقال عنها إنها لم تكن موجودة. ونعمد إلى تفكيك ما لم يكن له وجود في الأصل. وهناك نقطة أخيرة لا تريحني. لو أن لوبيز كان من المسيحيين الجدد، ألم يكن أحرى بالمؤرِّخين البرتغاليين أن يثيروا هذه النقطة حتمًا بعد خيانته في جوا؟ كم كان سهلًا على البرتغاليين أن يُبرزوا أصله اليهودي كي يبرروا فعلته. ومع ذلك، لا نجد سوى الصمت إزاء هذه النقطة. لكنني أعتقد أن هناك مغزًى كبيرًا يكمن وراء هذا الصمت.

الشمس مشرقة ودافئة. وثمة سحب بيضاء رقيقة تغطي السماء على امتداد الأفق. يمكنه أن يلحظ خطوطًا فاصلة بين السحب باتجاه الجنوب. والرياح ساكنة والبحر هادئ. ينعكس سطوع الأجرام السماوية في الضوء الأزرق اللامع، الذي ينبعث من المحيط ويبدو أنه يلمع من جميع الأنحاء. يرى البحر متوهجًا للغاية كما لو أن مجموعة من الشموع أضيئت تحت سطح الماء. ويرى ضوء النجوم منعكسًا على مياه المحيط. نورٌ على نور. يجلس هناك وقد غمره جمالٌ خالص.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس عشر

«روح متنازع عليها»

كان لوبيز، شأنه شأن معظم البرتغاليين، يشعر بولاء عظيم للملك مانويل الذي إليه يعود الفضل في مكانته المجتمعية التي ارتقى إليها. كان مانويل هو مَن عيَّنه مرافق فارس، ولن يكون من قبيل المبالغة القول إن لوبيز يدين له بكل شيء تقريبًا. لقد سعى الملك إلى تحقيق الوحدة الدينية القائمة على العقيدة المسيحية ـ دين واحد وكنيسة واحدة ومَلِك واحد. ولكن جهود الملك هذه لم تنبثق عنها وَحدة، بل ازدواجية، ولم تُوجد هوية واحدة، بل انقسام في الهوية. ربما كانت غاية مانويل هي صَهر كل الأعراق والأديان في بوتقة واحدة هي البرتغال الكاثوليكية، ولكن ما حدث هو أنه زاد من حدة الاختلاف وحسب، وحتى بعدما أصبحوا مسيحيين (ولم يكن هناك ما يعوق اندماجهم الكامل)، لم يفقد المتحولون عن دينهم إحساسهم بالغيرية. وفي نهاية المطاف، سوف يتجلى هذا التوتر في بدء محاكم التفتيش، التي سوف تشهد حرق آلاف المسيحيين الجُدد على العمود.

حينما نال لوبيز العفو في الهند، كانت ردة فعله الغريزية الأولى هي التفكير في العودة إلى لشبونة، لكننا نعرف أنه لم يصل إلى هناك، وأنه في نقطة ما في أثناء رحلة العودة غيَّر رأيه. لا بد أنه شعر بأن عودته لن تكون أبدًا موضع ترحيب في البرتغال، ولأسباب عديدة، ومنها قطعًا خيانة ملكه، لأن هذا ما حصل بالفعل، لن يُصفح عنه، حتى وإن نال العفو. كيف سيكون الأمر حينما يظهر بأطرافه المجدوعة التي باتت علامة تجلب الخزي؟ لكن المرء يتساءل: هل كان هناك شعور أعمق ببعض التوجس هو ما ساعده في اتخاذ قراره بترك السفينة؟ لو أن لوبيز كان يهوديًّا في الأصل لكان قد عرف على وجه اليقين أنه لو بقي على متن السفينة وعاد إلى البرتغال، فإن الذين يمرون به سوف يَلمزونه إما بألسنتهم وإما بنظراتهم، ويَعزون ما فعله في الهند إلى أصله اليهودي. سوف يتمتم الواحد منهم قائلًا: «انظروا. ألم أقل لكم إننا لا يمكن أن نثق أبدًا بأحد من هؤلاء المسيحيين الجدد. سوف ينتهزون أول فرصة لطعنكم في ظهوركم».

إنه وحيد ومتعب ومحبط ومتسخ. وفي غضون بضعة أيام سوف يموت، لا شك لديه في ذلك. إنه يَهرم. إنه عجوز.

قد يبدو التحول الديني أمرًا بسيطًا، ولكن حينما يتعلق الأمر بما هو مقدس فليس ثمة أمور بسيطة. وكان المسيحيون الجدد كلما نجحوا في حياتهم المهنية، ارتقت منزلتهم المجتمعية، ولكن يزداد شعورهم، سواء أظهروا ذلك أم أسرُّوه في نفوسهم، بالتمييز ضدهم. وظل المسيحيون الجدد يرون أن

البرتغال وإرثها ودينها تؤول حصرًا إلى قُدامى المسيحيين. إنه إرثٌ مقدس لا يمكن أن يقاسموهم إياه. وأزعم أنه إذا كان لوبيز يهوديًّا بالفعل، فإن هذا الانقسام في الهوية كان جوهر حياته. كان التحول المستمر بين قطبَي اليهود والكاثوليك يعني عمليًّا أنه لم يعد هناك مركز، بل مجرد تمظهر للمركز. لا يوجد شعور حقيقي، وإنما مجرد شعور ظاهري. إذا كان هذا هو الحال، فإن بوسع المرء أن يحاجج بأن ما فعله لوبيز، في طموحه وشعوره بالحنين وغضبه وعزمه وارتباكه، إنما يكشف عن رجل يواجه أزمة وجودية عميقة في حياته.

رائعٌ هو جمال الجزيرة ومتجدد، لكنه جمال يسجنه. ليس بإمكانه أن يغادرها. لا يزال الأفق في مكانه بعيدًا. لا يتغير ولا يقترب البتة. إنه محاصَر. يحاصره العالم الذي أحب.

حينما غادر لوبيز لشبونة في أسطول دا كونيا في عام ١٥٠٦ كانت تستحوذ عليه تمامًا روح المغامرة. كان لا يزال شابًّا علا شأنه سريعًا في المجتمع. أصبح مرافق فارس وحظي بقسط من التعليم. لم يكن البلاط الملكي مكانًا غير مألوف لديه، واعتاد مخالطة النبلاء. بل استطاع أن يجد لنفسه زيجة حسَنة. والآن ها هي الهند بثرواتها الموعودة في انتظاره، ولم يكن ثمة ما يدعوه لأن يشك في نفسه أو في قدراته. وكان من جوانب عدة يمثل رمزًا لانبلاج عصر جديد ومجيد في لشبونة. ولم يكن من قبيل المصادفة لدى البرتغاليين أن يتزامن الدوران حول رأس الرجاء الصالح مع تحويل اليهود إلى المسيحية، لأن كليهما كانا يمثلان علامة على قدَرٍ إلهي ووعد نبوئي.

فوق الجزيرة كانت السماء غائمة ومظلمة. كانت سماء غاضبة وتملؤه بلحظات رعب عابرة. البحر مضطرب، والموج يخبره أن ثمة عاصفة آتية من المحيط.

ومع ذلك، للمرء أن يحاجج بأن التفاؤل الذي حمله لوبيز معه في عام ١٥٠٦ وهو شاب، كان لا يكاد يخفي صُدوعًا عميقة في بنية المجتمع. كان ينتظره عالم جديد وفجر مشرق، وكان عازمًا على أن يأخذ مكانه الذي يستحقه. لكن لوبيز كان يعرف أن جميع النبلاء ليسوا سواء؛ فلا نبيل بإمكانه أن يقر علنًا بأن أسلافه من المسيحيين الجدد. وقبل إبحاره في عام ١٥٠٦، كان لوبيز قد سمع على الأغلب الشائعات التي ترددت في أرجاء لشبونة عن قيام اليهود بتسميم آبار المياه، ما تسبب في تفشي وباء الطاعون، ولكن ألم يلحظ الناس أن الطاعون قتل اليهود والمسيحيين على حدٍّ سواء؟

كانت المذبحة التي تعرض لها المسيحيون الجدد في عام ١٥٠٦ في لشبونة، وبعد بضعة أيام فقط من مغادرة لوبيز المدينة، مذبحة تقشعر لها الأبدان،

لأنها استهدفتهم على نحو خاص. وعلى الرغم من مبدأ مانويل الذي يقول: «كنيسة واحدة وشعب واحد»، فقد بقي المسيحيون ينظرون بحذرٍ وريبة إلى اليهود، الذين كانوا بدورهم يضمرون في أنفسهم غضبًا وحزنًا، من دون أن يظهر على وجوههم شيء من ذلك. وإذا صح زعمي أن لوبيز كان من المسيحيين الجدد، فهذا يعني أنه وجد نفسه يعيش بين إيمانين، وروحه تسكن منطقةً روحية تغمرها الظلال. ولذلك، وإلى حدٍّ ما، كان رحيل لوبيز عن لشبونة، رغم أنه جاء مغلفًا بالرغبة في جمع الثروة وخوض المغامرات، وحتى وإنْ لم يعلن ذلك لنفسه، نوعًا من المنفى، وكان منفًى روحيًّا بقدر ما كان مكانيًّا. وكما وصفه الفيلسوف الهولندي جاكوب فان براخ في القرن العشرين ببلاغة، لقد كان، شأنه شأن العديد من المسيحيين الجدد، «روحًا متنازعًا عليها».

وبينما يحدق إلى الأفق، كان يتمنى لو شاركه أحد ما هذا الجمال. كان يعتقد دائمًا أنه وحيد، ولكنه بات يدرك الآن أهمية وجود الناس على الجزيرة. ويتساءل: هل هناك ما هو أشد حزنًا من أنٍ تشاهد الجمال أو تشعر بالبهجة ثم لا تجد أحدًا تشاركه ذلك؟ كنت كنزًا مخبأً، وكنت أريد أن يجدني أحد. هذا الأفق يفصله عن جميع من يحبهم. وعن جميع الذين ربما لا يزال يحبهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع عشر

«الأعداء الذين جلبناهم على أنفسنا»

في أثناء رحلة العودة إلى لشبونة كان ذهن القبطان فرانسيسكو دي تافورا مشغولًا بالرسالة التي وجدها في سانت هيلانة وبساكنها الغامض. مَن يكون فرناو لوبيز؟ ولماذا كتب القبطان سيلفيرا ـ وهو رجل عرفه تافورا جيدًا وأبحرا معًا إلى الهند ـ عنه هذه العبارات التي تنم عن احترام جم؟ لم يكن يتصور أن لوبيز يمكن أن يبقى حيًّا على الجزيرة بمفرده. وخلص تافورا إلى أن هناك ثلاثة احتمالات فقط ممكنة: إما أن لوبيز مات في الجزيرة وأن رجاله أخطأوا بشأن الرماد، أو أنه فقدَ عقله ويعيش حياة وحشية، أو أنه هارب أدرك أنه سيُشنق إذا عاد إلى لشبونة. ولكن إذا كان لوبيز هاربًا، فكيف يمكن تفسير نبرة رسالة سيلفيرا؟ لدى وصوله إلى لشبونة، قام تافورا بتفريغ البضائع من سفينة «ساو كريستوفاو» وبحث عن سيلفيرا. لم يدرك تافورا أن سيلفيرا نفسه كان يتوق إلى معرفة مصير لوبيز. وبمجرد أن تبادل الرجلان التحية وشربا معًا، سأل سيلفيرا تافورا عمَّا إذا كان توقف في سانت هيلانة في طريق عودته إلى لشبونة، وحينما ذكر تافورا ما وجده بدأ سيلفيرا يروي له حكاية فرناو لوبيز. استمع تافورا في صمت، وأذهله ما سمع. تذكر أنه سمع على نحو غامض عن هذا الفيدالجو الذي انشق ولكنه كان يظنه مات في الهند، وحينما انتهى سيلفيرا من كلامه، أخبره تافورا كيف أن لوبيز لم يخرج من مخبئه. وأنه هو الآخر ترك له طعامًا يكفي لإعاشته حتى تتوقف السفينة التالية في الجزيرة. قرَّر الرجلان أنهما سيتحدثان عن لوبيز لجميع القباطنة الذين يبحرون، حتى يمكنهم، إذا كان لوبيز لا يزال على قيد الحياة، أن يعثروا عليه أو على الأقل يتركوا له بعض الطعام.

وعلى بُعد بضع مئات من الأميال، كان لوبيز، الوحيد في مملكته، على يقين أنه صار نسيًا منسيًّا. ولم يكن يتخيل أنه، بفضل القبطانين، سيلفيرا وتافورا، سوف يصبح الرجل الأشهر في البرتغال.

تخلى عن الاستحمام. وتخلى عن كل عاداته في النظافة. وأصبح يدرك أنه لم يعد الشخص نفسه الذي غادر جوا. فقدَ كل زهوه وغروره. إنه يأكل كما يأكل الحيوان وبطريقة كانت يمكن أن تروعه من قبل. ويحاول أن يفهم عاداته وأفعاله فيسأل نفسه: ماذا يجري؟ مَن أنا؟ هل أنا الشخص نفسه؟ أما زلت فيدالجو؟

ربما لم تكن الهند تبالي بالبرتغاليين، ولكن ذلك لم يكن شأن البرتغاليين إزاء الهند. وحينما سُئل أحد رجال فاسكو دا جاما عن سبب قدومهم إلى الهند، أجاب: «جئنا بحثًا عن المسيحيين والتوابل». إن الحماس المسيحي الذي كان

بمثابة القوة الدافعة للأشرعة البرتغالية كان يتطلب من دون شك أرواحًا في المقابل، ولكن أرواح مَن؟ في يناير ١٥٥٧، كتب الراهب اليسوعي جونسالو سيلفيرا رسالة إلى الكاردينال هنري الذي ينتمي إلى أسرة أفيس الملكية، وهو شقيق الملك جواو الثالث، تحدث فيها صراحة عن «شرور الهند» والطريقة المثلى لتخليص الإمبراطورية من «الأعداء الذين جلبناهم على أنفسنا». كان سيلفيرا يرى تشابهًا واضحًا بين اليهود والبراهمة. وبعد مرور قرن من الزمان، أعلن جوزيف مارتينيز دي لا بوينتي صراحة أن اليهود والبراهمة يجمعهم أصل مشترك، وأن هذه الجذور المتشابهة تجلّت في الرذائل المتماثلة: «جشع وازدواجية ومغالطات وارتداد عن الدين وخرافات». وعلى الرغم من أن سيلفيرا ودي لا بوينتي كانا يكتبان بعد وصول الرهبان اليسوعيين إلى الهند، فإن بوسع المرء أن يتتبع كيف كانا يقرنان طبقة النخبة في جوا باليهود منذ البداية. كان اقترانًا ينظران من خلاله إلى الطائفتين بشيء من الشك، ويجعلان تحويل اليهود في البرتغال شبيهًا بتحويل الهندوس في جوا. وتشير عبارة «الأعداء الذين جلبناهم على أنفسنا» إلى حقيقة أن المسيحيين الجدد من البرتغاليين ظلوا موضع تخوين حتى وهم بعيدون كل هذا البعد عن البرتغال. وكتب الراهب سيماو إلى ملك البرتغال يقول إنه صادف العديد من المسيحيين الجدد البرتغاليين في الهند ممن اتهمهم بأنهم «لا يتبعون تعاليم المسيحية ولا اليهودية».

وسط جو عاصف وممطر، يقف لوبيز على قمة التلال، ويراقب الأمواج العاتية تتكسر فوق الصخور في السفوح. كانت الأمواج تتكسر موجة تلو موجة على الصخور. كم هي عنيفة تلك الأمواج وكم هو ساحر ذلك المنظر! يسمع صوتًا غريبًا ويرى أربعة حيتان. اثنان كبيران للغاية وآخران صغيران. كان الصوت الذي سمعه يعود إلى أحدها. كانت تسبح ببطء شديد. وحينما يسبح الحوتان الكبيران للأمام، يبدوان وكأنهما بلا نهاية. حتى وهو فوق الجزيرة، وعلى بعد مئات الياردات منها، يمكنه رؤيتها بوضوح. وفجأة، يقفز أحد الحيتان لأعلى بمقدار ١٠ أقدام على الأقل خارج الماء، ما يتسبب في دفقة كبيرة. ثم يأتي حوت آخر فيفعل الشيء نفسه. إنهما يلعبان مثل قططٍ صغيرة. يجد نفسه يقهقه بصوت عالٍ. يتمنى لو أن ابنه يرى ذلك معه.

كانت الهند، وليست البرتغال، هي ما أحدثت تحولًا لدى لوبيز. لم يمضِ وقت طويل على وصوله إلى جوا حتى أدرك، فيما أعتقد، أولى الحقائق الكثيرة التي سوف تستحوذ عليه في نهاية المطاف وتساعد في فهم تصرفاته المستقبلية. كان لوبيز لا يعرف عن الهند سوى القليل، شأنه شأن معظم البرتغاليين. وعلى أي حال، كان فاسكو دا جاما يفترض أن الهندوس مسيحيون. وفي جوا لم يكن لوبيز موضع ترحيب، وأصبح لباسه الأوروبي وطريقته وعاداته مثار سخرية. كان يُشار إليه ببساطة على أنه «برتغالي»، أو

يُعرف وهو الأكثر شيوعًا باسم «فرنجي». لم يكن أهل جوا ـ سواءً كانوا هندوسًا أو مسلمين ـ يستطيعون التمييز، ولا يهتمون بالتمييز بين المسيحي القديم والمسيحي الجديد. وكانوا جميعًا يرون في لوبيز عدوًّا غريبًا وأجنبيًّا، ولكنه ربما اكتشف في هذه اللامبالاة تجاهه شيئًا عميقًا.

إنه يخشى تلك الليالي التي تغطي الغيوم فيها السماء وتحتجب النجوم. يتملكه شعور بالعزلة، وكأنما يعيش في ثقب أسود. وفي النجوم كان يجد الكثير من العزاء والسلوى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن عشر

مثل سترة «كاباي» جديدة

أوفى القبطانان، سيلفيرا وتافورا، بوعدهما، وأصبحت السفن التي تبحر من بيليم تعرف الآن أنها إذا توقفت في سانت هيلانة خلال رحلة عودتها من الهند، فعلى طواقمها أن يتحسسوا مِن لوبيز، وأنه لا ينبغي لأي سفينة أن تغادر الجزيرة من دون أن تترك وراءها بعض الطعام والمؤن. وإذا ما وجدت أي سفينة أن الطعام لم يقربه أحد، فهذا يعني أن لوبيز مات، وأما عدا ذلك، فيجب أن يتركوه وشأنه حتى يقرر أن يكشف عن نفسه لهم. انقضت سنوات ثلاث على ذلك وتُظهر السجلات أن سفنًا أربعًا على الأقل توقفت خلال هذه المدة في سانت هيلانة. لم يكن هناك أي أثر يدل على وجود لوبيز ولكن لم يكن ثمة شك في أنه حي يُرزق؛ إذ كان واضحًا أن أحدًا ما أخذ الطعام والثياب. وعلى الرغم من أن طواقم السفن لم تستطع رؤيته، فإن هذا لم يكن يعني أنهم لم يستطيعوا الحديث عنه، فقد أخذت حكاية فرناو لوبيز الغامضة تنتشر بين سكان لشبونة وتجار شارع روا نوفا مع كل سفينة تعود إلى بيليم. وبحسب المصادر فقد سرت أخباره أولًا بين الجنود والبحارة، وبينما كانت أخباره تُروى ثم تُعاد روايتها كان فحواها يتباين ما بين حكاية تصف شخصًا يكابد المعاناة والمنفى، وحكاية تظهره ناسكًا أصبح أسير العزلة والوحدة. وإلى حدٍّ بعيد، ساهمت منزلة لوبيز بصفته فيدالجو، وإنْ كان نبيلًا ضئيل الشأن، في انتشار القصة. وللمرء أن يتصور أنه لو كان من عوام الناس، لأصبح نسيًا منسيًّا.

السماء صافية والنجوم تتلألأ بأنوار تخلب الألباب. ومن شدة سطوعها تبدو قريبة منه وبإمكانه أن يلمسها إنْ أراد. يشعر بالخفة، وكأنه يستطيع أن يسبح في اتجاه السماء ويندفع نحو الفضاء. يخيم السكون على كل شيء. ولا يوجد سواه والنجوم والبحر.

إذا كنا اليوم نكابد كي نفهم ما تنطوي عليه نفوسنا، فكيف يمكننا حتى البدء في فهم المصير الروحي لرجل مات قبل ٥٠٠ سنة؟ ومع أخذ ذلك بعين الاعتبار والقبول بأن أي محاولة للفهم، لن تكون إلا على سبيل التخمين، وأن أي تفسير سيكون معقدًا ومتعدد القراءات، فإننا بحاجة إلى محاولة الإجابة عن السؤال التالي: لماذا تحول لوبيز إلى الإسلام؟ كل ما نعرفه، وكل ما تكشفه السجلات التاريخية، هو أنه كان ذات يوم مسيحيًّا، ثم أصبح مسلمًا في اليوم التالي. أما السؤال عن كيف ولماذا فيظل عصيًّا على التفسير. ولكن ما لم نحاول تفكيك هذا اللغز، فلن نتمكن أبدًا من الوصول إلى فهم أوضح للرجل.

أعتقد أن لوبيز حينما وصل إلى الهند وجد نفسه عالقًا بين ديانتين. ولكن لم يكن بوسعه أن يبقى في تلك الحالة مدة طويلة، لأن المفاهيم الحديثة مثل العلمانية، أو الإلحاد، أو حتى المواطنة، كانت غريبة ولا معنى لها. فاليوم يمكن للإنسان العصري أن يفخر بأن الفرد فوق الجماعة، وبذلك يجد مصطلحات مثل المسيحية أو الأمة الإسلامية مصطلحات تجاوزها الزمن. لكن لوبيز لم يعشْ في عالم علماني حديث للمسيحيين والمسلمين، ولكنه عاش في عالم كانت فيه طقوس العبادة اليومية مكونًا أساسيًّا لإثبات الهوية، وكان الغياب عن المشاركة في هذه الطقوس يعني إلى حدٍّ بعيد فقدان الهوية، سواء على المستوى الروحي أو الشخصي. كان الناس يربطون أنفسهم بدين محدد بقدر ما يفعلون مع موطن نشأتهم. كان أحدهم مسلمًا أو يهوديًّا أو مسيحيًّا ومن مكان معين، ولكنه عاش أيضًا في منطقة ذات بُنية روحية مثل المسيحية أو دار الإسلام. وبهذا المعنى، كانت للمنطقة أو للمجتمع أهمية قصوى لأنها كانت شيئًا ثابتًا تعتمد عليه العبادة الجماعية التي تضبط الإيقاع الروحي للحياة اليومية منذ ميلاد المرء وحتى مماته.

نَعلم أن لوبيز ترك جوا وتوجه إلى بيجابور، حيث ربط مستقبله بسلالة عادل شاه، ونعرف أنه أصبح مسلمًا. ولكن لا ينبغي لنا أن نفترض أنه بدأ هاتين الرحلتين ـ الرحلة الجسدية إلى بيجابور والروحانية إلى الإسلام ـ في الوقت نفسه، ولا أن نفترض أن إحداهما تبعت الأخرى بالضرورة. هنالك شيء واحد يمكننا أن نكون على يقين منه: أن لوبيز لا يمكن أن يكون قد اتخذ قراره بالانطلاق في رحلة تستغرق ٨ أيام إلى بيجابور على نحو متسرع، كما لم يكن قراره، خلافًا للآخرين، نابعًا من اليأس. ولكن لنفترض أنه فعل ذلك، وأن علينا متابعة لوبيز في كلتا رحلتيه، الجسدية والروحية، قدر المستطاع بحثًا عن أدلة.

يحسب في أول الأمر أن الطيور لا يمكنها أن تطير لمسافات طويلة، وأن هناك مسافة قصوى يمكن أن تطيرها من الشاطئ قبل أن تُضطر إلى العودة إلى الجزيرة. ولكنه يرى طيورًا تطير رابطة الجأش حتى نهاية الأفق لا يوقفها شيء. يلحظ إلى أي مدى تحب الطيور البحر حينما يصبح مضطربًا. إنها تبدو غير مكترثة بالأمواج العالية ولا بالرياح. وفي بعض الأحيان، تهبط على سطح الماء كي تستريح أو تغوص تحت سطح الماء، وتخرج بشيء تأكله. ولم يحدث ولو مرة واحدة أن نظرت وراءها في اتجاهه. إنها لا تراه.

أشرنا سابقًا إلى أن لوبيز كان يشعر بكراهية إزاء ألبوكيرك. كانت كراهية تتأجج ببطء، وفاقمتها وحشية الحاكم وإعدامه لروي دياز، وكان يُنتظر أن تظهر في صورة عنف دموي صريح. بالطبع لم يكن من غير المعتاد أن يتصارع البرتغاليون، بل إن تاريخ المملكة عبارة عن سلسلة مربكة من الطعن في

الشرف وفي الكبرياء، وغالبًا ما يؤدي ذلك إلى نهايات مأساوية ودامية. وبحلول عام ١٥١٢ حينما استرد ألبوكيرك جوا، لا بد أن العلاقة بين الرجلين انهارت تمامًا وبمجرد مغادرة ألبوكيرك للمدينة، توجه لوبيز إلى بيجابور، ويمكننا أن نفترض مطمئنين أن الكراهية والغضب رافقاه في رحلته إلى هناك. لكن في نهاية المطاف، لا أعتقد أنهما يكفيان، كسببين، لتفسير تحوله إلى الإسلام فور وصوله إلى بيجابور. فهناك برتغاليون كُثر تخلوا عن نقاط حراستهم وفرُّوا نحو الداخل الهندي، حيث أصبحوا موضع ترحيب بفضل ما يتمتعون به من مهارات، واستطاعوا أن يحققوا الثراء الذي راودهم حلمه. ولكنهم لم يتخلوا عن إيمانهم، ولم يُلزمهم بذلك سلاطين المسلمين الذين كانوا في خدمتهم، لأنهم كانوا يبتغون مهاراتهم لا أرواحهم. وكما لاحظ الرحالة الإيطالي لودوفيكو دي فارتيما حينما زار بيجابور في مطلع القرن السادس عشر، يمكن للمرء أن يجد «رجالًا من جميع الأنواع، سواء كانوا مسيحيين أو وثنيين أو يهودًا أو موريين، وما داموا كانوا يجيدون القتال، فلا يُطلب منهم شيء آخر». كان بوسع لوبيز أن يستمر في كراهية ألبوكيرك ويتآمر ضده وهو مسيحي من بيجابور، بل كان بإمكانه أن يشارك في معركة وهو في صفوف المسلمين ضد بني جلدته المسيحيين من دون أن يتحول إلى الإسلام. ورغم ذلك، فإن قلة قليلة من البرتغاليين المنشقين هم من فعلوا ذلك تحديدًا. لكن الكراهية وحدها لا تكفي حتى الآن لتفسير قرار لوبيز وأفعاله. كان لديه الكثير الذي سيخسره بتحوله عن المسيحية مثل المكانة الاجتماعية والزوجة والولد اللذين ينتظرانه في لشبونة، وطموحه إلى تقلد منصب يجني منه الربح من دون تعب لدى عودته إلى البرتغال. وفوق كل شيء، سوف يفقد شرفه. كان فيدالجو، ورسمه ألميدا فارسًا، ولم يكن مألوفًا أن يتحول فيدالجو إلى الإسلام. ولا يمكن أن يُقبل من وجهة النظر البرتغالية أن العقوبة الوحشية التي أنزلها ألبوكيرك بلوبيز تُعزى غالبًا إلى كونه تنكر لمكانته الاجتماعية باعتباره فيدالجو.

يشعر بجسده كله يؤلمه ويتنفس بصعوبة وبألم. تساقط المطر بغزارة مرة أخرى الليلة الماضية: مطر متواصل لا هوادة فيه. البحر هائج ومضطرب بموج عالٍ ترتفع الموجة الواحدة حتى عشرين قدمًا. والجو غائم وبارد. وهو يشعر بإعياء شديد.

حتى نفهم لوبيز، ونسعى لفهم التحول الذي اعتراه وهو في طريقه إلى بيجابور على غرار ما جرى مع بولس الرسول مثلًا، يتعين علينا أن ننظر نظرة عميقة تتجاوز الغضب والطموح. وأعتقد أن الطريقة المثلى لمقاربة ذلك هي إمعان النظر في انتقاله إلى الإسلام كتحول عبر ثلاثة أعمال. العمل الأول وهو ما أعتبره تحولًا علمانيًّا واجتماعيًّا إلى حدٍّ ما. ولفهم ذلك على نحو أفضل، سوف أعرج على الكتاب المرجعي ذي الأجزاء الثلاثة وهو «مغامرة

الإسلام» (The Venture of Islam) المنشور في عام ١٩٧٥، وفيه اشتق هودجسون كلمة «Islamicate» وهي ما يمكن تسميته «تأسلُم»، وعرَّفها بأنها «المزيج الاجتماعي والثقافي المرتبط تاريخيًّا بالإسلام والمسلمين... حتى حينما يوجد في أوساط غير المسلمين»، مقارنة بكلمة «إسلامي» التي تعني «المرتبط بالإسلام» بمعناه الديني الصحيح. إنه فرق مهم لأنه يتيح للشخص أن يتبنى كاملًا جميع المعايير الاجتماعية والثقافية الإسلامية ـ أي أن يعيش مع المسلمين ويلبس كما يلبسون ويأكل كما يأكلون ويتزوج مسلمة ـ ولكن من دون أن يكون مسلمًا. وبمجرد وصوله إلى الهند، أدرك لوبيز أن المنطقة المتاخمة للمحيط الهندي بأكملها، بما في ذلك المدن الساحلية ذات المرافئ، مشبعة ثقافيًّا بجوهر إسلامي مهيمن تصبح أمامه الهوية العرقية للأفراد شأنًا غير ذي بال. وما دام بقي في جوا، محاطًا ومحميًّا داخل هذا الشريط البرتغالي، فهو في أرض آمنة. أما حينما غادر جوا واتجه إلى بيجابور، ربما لم تكن لديه أي نية لأن يصبح مسلمًا، ولكن خلال تلك الرحلة التي استغرقت ثمانية أيام، اجتاز من دون علمه حدًّا غير مرئي لا رجوع عنه، ووجد نفسه في أرض الإسلام أو دار الإسلام. وبمجرد أن استقر به المقام في بيجابور، كان عليه أن يتقيد بالنظام الغذائي المتبع في السلطنة مثل عدم تناول لحم الخنزير، وإذا كان يرغب في التواصل، فعليه أن يتعلم اللغة المحلية. كان لوبيز أيضًا بحاجة إلى تغيير ملابسه، وأن يرتدي سترة تُسمى «كاباي»: وهي سترة طويلة (غالبًا بيضاء) مع وشاح ملون مربوط حول الخصر، وأحيانًا يرتدي «كالاي»، وهي قبعة مخروطية عالية من قماش مرقط. إن كل هذه الأفعال، سواء أنظرنا إليها بشكل فردي أو جماعي، بداية من الزواج ووصولًا إلى النظام الغذائي ومن اللغة وحتى الملابس، لم تجعل لوبيز مسلمًا، وربما كان ينظر إليه ببساطة باعتباره يقبل ويتبنى أشكالًا ثقافية لا علاقة لها من قريب أو بعيد بالمعتقدات الإسلامية والممارسات الرسمية للإسلام كديانة. وفي بيجابور، بعبارة أخرى، وجد لوبيز نفسه يأكل ويلبس ويعيش كما يعيش المسلم، ليس لأنه أراد ذلك، ولكن ببساطة لأن المد الثقافي كان قويًّا للغاية بما لا يستطيع معه المقاومة. وقبل كل شيء، كان كل ذلك يمثل رباطًا اجتماعيًّا وثقافيًّا، ولكنه يعبر في المقام الأول عن المنظور الديني الذي تقابله مثلًا عبارات مثل «قَبَلية» أو «قومية». واليوم، قد تبدو هذه التحولات الثقافية غريبة، ولكنها في زمن لوبيز وفي عالم كان الديني والدنيوي متلازمين لا ينفصلان، كانت أبعد ما تكون عن السطحية، مثل سترة «كاباي» جديدة ربما كان يرتديها، وتحمل مغزى ونتائج.

توقف المطر، وأمسى الجو باردًا، وظهر القمر بدرًا وساطعًا. تظهر بعض الغيوم التي تتلألأ في ضوء القمر. جسديًّا، يشعر بأنه أسوأ مما كان في أي وقت مضى. يشعر بألم في صدره وظهره وبطنه. يتعين عليه أن يدفع نفسه

دفعًا إذا ما أراد عمل أي شيء. يجب أن يواصل حياته. يتمنى الآن أن يجد من ينقذه. وأصبح يرغب في رؤية عائلته مرة أخرى.

أما العمل الثاني، الذي أسميه «التوفيقية الدينية»، فهو عمل أصبح لوبيز من خلاله لا يطيق العيش من دون هوية دينية، وفي الوقت نفسه بات محالًا عليه أن يحتفل بالأعياد المسيحية. وقبل نحو ٥٠ عامًا، واجه التاجر الروسي والرحالة أفاناسي نيكيتين تجربة مشابهة للغاية في أثناء ارتحاله وعيشه بين المسلمين في الهند. «لم أعد أعرف متى يحل أحد الفصح، أو اليوم المجيد لقيامة المسيح، ولذلك أحاول أن أستعين بالعلامات للتخمين: مع المسيحيين، يأتي عيد الفصح قبل تسعة أو عشرة أيام من عيد الأضحى. ليس لديَّ أي شيء ـ لا يوجد لديَّ كتاب»، هكذا كتب نيكيتين. «وكنت قد نسيت كل ما عرفته عن الدين المسيحي والأعياد المسيحية. ولأنني كنت محاطًا بديانات أخرى [كان نيكيتين يشير إلى الهندوسية والإسلام] كنت أصلي للرب كي يحميني». وبالمثل، وحينما وصل لوبيز إلى بيجابور، بدأ تدريجيًّا يستعين بالأعياد الدينية لدى المسلمين لمعرفة الوقت. وطوال ذلك، ربما ظل يعتقد في قرارة نفسه أنه ليس مسلمًا، حتى وإنْ صلى وصام وشارك المسلمين أعيادهم، لأنه لم يكن هناك مسيحيون آخرون يمكنه أن يحتفل معهم بالأعياد المسيحية. ولأنه كانت لديه فكرة متجذرة مفادها أن عدم احتفاله بالأعياد الدينية يعني أنه فقد إيمانه فعلًا، ومن ثَمَّ أصبح الصوم الكبير في المسيحية هو صوم رمضان. وأتصور أن لوبيز، شيئًا فشيئًا، استطاع أن يصوغ شكلًا توفيقيًّا من العبادة المسيحية ـ الإسلامية، التي تطور فيها تجاور الأعياد الدينية للمسيحيين والأعياد الدينية للمسلمين من الاحتفال بالأعياد المسيحية مع حلول الأعياد الإسلامية إلى الاحتفال بالأعياد الإسلامية بدلًا من المسيحية أو أيام الصوم. وفي كل ذلك، كان الالتزام الصارم في الإسلام بالتوحيد والتركيز على وحدانية الإله مصدرَ عزاءٍ كبير له، وربما وجد لوبيز في ذلك راحة كبيرة. ولأنه كان غير قادر على الانسلاخ عن إيمانه المسيحي، إلا كروح معزولة، وغير قادر على مقاومة رغبته في الانضمام إلى جموع المصلين، فلا بد أنه عاش في أجواء توفيقية بين الديانتين، معزيًا نفسه بأنه لا يتخلى عن دينه، ولكنه يعبد الرب بطريقة جديدة وحسب. وفي نهاية المطاف سوف يؤدي ذلك إلى ما يمكن تسميته «التحول على مضض»، حيث بات عليه أن يتقبل فكرة أن إله الإسلام هو ذاته الرب الذي تعبده الكنيسة الكاثوليكية. كان ذلك صراعًا مرهقًا ومربكًا نوعًا ما من الناحية الروحية، وهو ما انعكس مرة أخرى في كلمات نيكيتين، الذي مرَّ بالحال نفسها التي نتصور أن لوبيز مرَّ بها: «وأما الدين الحق، فالرب وحده يَعلمه، والدين الحق هو أن نؤمن بإله واحد وأن نستحضر اسمه بإخلاص... وأما الباقي فالرب وحده يعلمه».

تهدأ قوة الرياح ولكن البحر لا يزال مضطربًا. والقمر بالغ السطوع حتى إن زبد البحر الذي يخلفه الموج كان يتلألأ وكأنه ملايين من حبات الألماس. لا أحد هناك. إنه وحده، في جزيرة صغيرة وسط محيط هائل. يُكثر من الصلاة. تعينه الصلاة على مواصلة الحياة. إنه في صلاة دائمة، ينتظر الإله.

والآن نأتي إلى العمل الثالث والأخير، وهو تحول لوبيز إلى الإسلام. ومن عجيب المفارقات هنا أن ما يتوقع المرء أنه النقطة الأبرز أو نقطة التحول في رحلته الروحية سوف تأتي من دون أن يدرك تقريبًا: ففي غياب أي طقس مماثل لطقس المعمودية، كان التحول إلى الإسلام في العصور الوسطى يغاير التحول إلى أي دين آخر. وحينما تصف كتب التراث الإسلامية كيف يصبح المرء مسلمًا، فإنها تستخدم الفعل «أسلم» أي خضع لله، ولكنها تخلو من أي تفصيل للإشارة إلى المضمون الفعلي لهذا العمل. ولذلك نقرأ في مصادر كثيرة أن فلانًا وفلانًا أسلما: أي أنهما أصبحا مسلمَين بمجرد نطق الشهادتين: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله. كانت بساطة العمل مذهلة، فالتحول يتوقف في الأساس على النطق ببضع كلمات. وبعد ذلك، يصبح المرء مسلمًا، وعلى الرغم من أن هناك بعض الخلاف حول الطبيعة الدقيقة للنطق بالشهادتين، وهل يجب أن يكون ذلك نابعًا من القلب أو أن مجرد التلفظ بهما يكفي. وعلى الرغم من أن ثمة إجماعًا بين علماء المسلمين حول أن النطق بالشهادتين هو أحد أركان الإسلام الخمسة إلى جانب الصلاة والصوم والزكاة والحج، فإن بقية هذه الأركان ليست إلزامية أو شرطًا يتوقف عليه أن يصبح المرء مسلمًا. كان يكفيه أن ينطق بالشهادتين. وبعبارة أخرى، كان النطق بالشهادتين وعدم أداء أي من الأركان الأخرى يجعلك مسلمًا.

وأنا أرى أن لوبيز أصبح مسلمًا لأنه وجد في ذلك الدين ما فقده ذات يوم. وإذا كان لوبيز، كما أرى، وُلد وترعرع في طفولته كيهودي، فسوف يجد تلقائيًّا أوجه تشابه كثيرة بين الإسلام واليهودية التي عرفها ذات يوم. وكان اليهود عمومًا يجدون التحول إلى الإسلام أسهل كثيرًا من تحولهم إلى المسيحية، لأنهم، وبينما كان بعض اليهود يرون الثالوث في المسيحية مضاهيًا للوثنية، كانوا يعتبرون الإسلام دينًا توحيديًّا. وبالنسبة إلى لوبيز، فإن كلًّا من الإسلام واليهودية يستندان إلى نصٍّ سماوي هو التوراة والقرآن. وفُسرت هذه النصوص الإلهية بتراث شفوي هو التلمود والحديث. وكلاهما أولى اهتمامًا أساسيًّا بالشريعة والمحافظة على الشعائر الدينية ـ الهلاخاه والشريعة. وفي الواقع، فإن الديانتين متقاربتان للغاية في بنيتهما حتى إن الحاخام الأبرز في القرن العاشر الميلادي، سعديا جاؤون، اعتاد أن يشير إلى القوانين اليهودية بمصطلح «الشريعة»، وروى الفقيه الأندلسي أبو عمر بن سعدي، الذي زار بغداد في نهاية القرن العاشر، أنه حضر حلقات درس مع مسلمين ويهود. ولو أن لوبيز كان يهوديًّا، لأصابته الدهشة على الفور لكون الديانتين تفرضان عددًا

معينًا من الصلوات في كل يوم وليلة وأن تأدية هذه الصلاة فرض يجب على المؤمنين تأديته. أمَا وقد أصبح لوبيز مسلمًا، فإن عليه الآن أن يؤدي الصلوات الخمس (مثل الصلوات الثلاث اليومية التي ربما كان يؤديها وهو يهودي، مع تأدية الرابعة يوم السبت). كانت هناك أوجه تشابه أخرى بين اليهودية والإسلام: وهي تحريم لحم الخنزير، الذي لم يكن على أي حال معروفًا في جوا لأن الهندوس والمسلمين لا يأكلونه، أو كيف يبدأ النهار وينتهي عند غروب الشمس، وليس في منتصف الليل أو عند الفجر. أما الذين يميلون إلى الابتعاد عن حَرفيَّة النصوص الدينية، فقد قدمت الصوفية والقبالة طرقًا باطنية وروحية لمعرفة الله عن طريق الروح وليس عن طريق العقل. وفي الواقع، كانت الصوفية تبدو شديدة الجاذبية لدى كثير من اليهود ممن عاشوا في بلاد المسلمين، وعلى الأخص موسى بن ميمون الشهير الذي كان صوفيًّا، ودرس كتب الصوفية وتبحر فيها شأنه شأن كثير من اليهود.

وباعتباره مرافق فارس في سن الشباب كان قد تعلم قواعد السلوك: فلا يقبض ذراعيه أمام صدره وهو واقف، ويحرص دائمًا على أن تكون أصابع قدميه متجهة إلى الخارج. كانت هذه الأشياء الصغيرة هي ما تجعل النبيل نبيلًا. هكذا قيل له مرارًا وتكرارًا. وهو الآن يسأل نفسه: هل يجب عليه أن يقبض ذراعيه أمام صدره وهو على الجزيرة؟

في لحظة ما لم يكن لوبيز مسلمًا، وفي اللحظة التالية أصبح كذلك. ولا شك أن تبنيه للعادات الاجتماعية والثقافية الإسلامية والشعور بالانتماء إلى المجتمع ساعده شيئًا فشيئًا في التحول، كما فعلت العديد من الشعائر الدينية في الإسلام التي ذكَّرته، إذا كنت مصيبًا، باليهودية، ولكن ذلك في حدِّ ذاته ليس سببًا كافيًا يفسر لنا تحوله. وأعتقد أن عاملَين اجتذبا لوبيز في نهاية المطاف إلى الإسلام. أولًا، التزام الإسلام الصارم بالتوحيد، وهو أمر يمكن أن يدركه سواء كان مسيحيًّا أو يهوديًّا، وكان سيجد فيه عزاءً وراحةً كبيرين. كان من شأن هذا الإدراك أن يسمح له بالمشاركة بطريقة توفيقية في طقوس العبادة الجماعية في الإسلام، وأن يقر بالجزء الأول من الشهادتين وهو لا إله إلا الله، فيما يسكت عن الجزء الثاني الذي يتضمن الإقرار بنبوة النبي محمد. ولكن هذا الإدراك أيضًا كان من شأنه أن يُقنعه شيئًا فشيئًا أن التوحيد أو وحدانية الله، يجب أن يكون عالميًّا أيضًا، لأنه أدرك الحقيقة نفسها كيهودي ومسيحي ومسلم. ثانيًا، كان الإسلام يقدم له منهجًا وطريقًا يمكن لروحه أن تتقرب عبرهما من الإله. وقد ذكرت بالفعل الشعائر الدينية والصلاة والصوم والقرآن وأحاديث النبي محمد وصلاة الجماعة والزكاة. وفي جميع هذه الأشياء وجد لوبيز شعورًا هائلًا بالعزاء والقُربى. ولكن الإسلام قدم له أيضًا طريقًا، يستحق أن نستكشفه هنا، لأنني كما ذكرت آنفًا، فإن الإسلام الذي صادفه لوبيز في بيجابور كان يتجلى في أعمق الأشكال الصوفية.

ومن أبرز المظاهر اللافتة في بيجابور، والتي لا تزال ماثلة حتى اليوم، هي انتشار أضرحة الأولياء في كل مكان وفي أنواع متعددة من المباني. ولا بد أن عدد أضرحة ومقامات أولياء الله المسلمين أثار دهشة لوبيز، حيث كان الزوار يتدفقون عليها ليلًا ونهارًا كي يتضرعوا ويطلبوا حاجاتهم، وغالبًا ما يأتون في صورة شيوخ ومريديهم. كان الرجال والنساء يتجمعون بالقرب من الضريح حيث يقرأون الفاتحة، ثم يُسمون حاجاتهم، ويتحدثون بصراحة وثقة وكأنما الولي حيٌّ يُرزق وينصت باهتمام. وفي المناطق المحيطة بالأضرحة، تزدهر الأسواق التي تبيع تقريبًا كل ما قد يخطر بالبال، بداية من الحيوانات الحية إلى السلع المنزلية. وأينما ذهب كان يسمع موسيقى آلات الصنج والطبول.

حان وقت صلاة العشاء، واكتظ المسجد بالمصلين. كانت شعائر الصلاة لا تزال جديدة عليه نسبيًّا، وعلى الرغم من أن لوبيز لم يكن يفهم سوى القليل مما يردده في الصلاة نفسها، التي تُؤدَّى باللغة العربية، فقد كان يؤدي السجود، وهو من أركان الصلاة، بحذر، خشية أن يرتكب خطأً ما. ولكنه بمجرد انتهاء الصلاة بالتسليم يمينًا ويسارًا، سمع الشيخ الذي كان يؤم المصلين، يصلي ويسلم على النبي محمد بصوت منخفض، ويتلو بعضًا من آيات القرآن الكريم. وشيئًا فشيئًا كان إيقاع صوته يتسارع. وبعد نحو خمس عشرة دقيقة، أخذ الشيخ يردد بصوت عالٍ وبقوة كبيرة: «لا إله إلا الله»، وراح يردد وراءه جميع المصلين في المسجد، فيما يرفعون أصواتهم ويخفضونها مع كل شهيق وزفير. في البداية بقي لوبيز صامتًا، ثم وجد نفسه ينضم إلى هؤلاء الذين يشهدون أنه لا إله إلا الله. ثم، وبإشارة، نهض جميع الحضور على أقدامهم وشكلوا دائرة. وفي منتصف الدائرة جلس شابٌّ في صمت. وبمجرد أن جلسوا جميعًا على الأرض، بدأ الشيخ مرة أخرى في ترديد: «لا إله إلا الله»، وهذه المرة كان يحرك جسمه من اليمين إلى اليسار وتبعه في ذلك جموع المصلين الآن. ومن خلفه مباشرة، ورغم أن لوبيز لم يجرؤ على النظر، كان بوسعه أن يسمع نقرًا خفيفًا على طبلة بإيقاع منتظم. ولبضع دقائق، راح الرجال، ممن كانوا لا يزالون جالسين، يحركون أجسادهم في انسجام تام فيما يتردد صدى «لا إله إلا الله» عبر أرجاء المسجد. أغمض لوبيز عينيه وبدا وكأن هذه الكلمات المنغمة والحركة الإيقاعية لها وقع السحر عليه. «لا إله إلا الله، لا إله إلا الله، لا إله إلا الله». وفجأة، بدا أنه سمع أجمل غناء، وفتح عينيه ليرى الشاب وقد وقف الآن وراح ينشد في انسجام ويصلي ويسلم على النبي، لأنه، وعلى الرغم من كونه لا يستطيع أن يفهم، كانت كلمة «محمد» نفسها تتكرر. وبينما كان الرجال ينشدون، كان المنشد يهز رأسه ببطء من جانب إلى آخر، وهو مغمض العينين. لاحظ لوبيز أن أحدًا لا ينظر إلى المنشد لأن جميع من بالدائرة أغمضوا أعينهم فيما تشكل «لا إله إلا الله» خلفية موسيقية متناغمة للغناء. وبعد برهة بدأ الرجل يسرِّع من إيقاع إنشاده،

وبفعله ذلك، زاد الموجودون بالدائرة أيضًا من سرعة حركة أجسادهم وبدا أنها مبالغ بها، كما لو أن ثمة خيطًا غير مرئي يربط بين التناغم وبين وتيرة الإنشاد وحركة الرجال الذين يتحلقون حوله في الدائرة. لقد تغير المزاج الآن تمامًا. ارتفع صوت المنشد وأصبح أكثر حدة، فيما تعلو وتعلو درجة صوت «لا إله إلا الله» ويظهر بعض التشتت على الحركة بالدائرة. فقد ترك بعض الرجال أنفسهم لتدفق الحركة فيما أجهش واحد أو اثنان بالبكاء. ثم فجأة رفع الشيخ يده وتوقف الإنشاد وتوقفت الحركة ولم يبقَ سوى الصمت حيث كان الذين جرفتهم العاطفة التي تُولدها هذه الطقوس قد بدأوا يستعيدون وعيهم. ولمدة طويلة، بقي لوبيز جالسًا في صمت، وغشيه سكون تام حتى إن طائرًا لو دخل المسجد لربما حط فوق رأسه. إن ما خبِره الآن أوصله إلى عمقه الروحي، رغم أنه لو سُئل عن ذلك، فلن يستطيع أن يقول كيف حدث ذلك ولماذا. كان ما شعر به هو أن حجابًا قد انكشف عنه مدة وجيزة فرأى لمحة من جمالٍ أدرك أنه سوف يأسره بقية عمره.

إن علينا أن نقاوم الإغراء الذي يدفعنا إلى اعتبار لوبيز مسلمًا منذ لحظة تحوله إلى الإسلام. ربما تكون رغبته بالمشاركة في العبادات التي تُؤدَّى في إطار من الجماعية والجاذبية الخفية للثقافة الإسلامية قد اجتذبته إلى الدين، ولكن لوبيز لم يكن بالضرورة، حتى بعد تحوله، يُعرِّف نفسه بأنه مسلم. وعلى أي حال ربما كانت هويته تتجلى في الجانب العرقي أكثر مما تتجلى في الجانب الديني، ولذلك كان لوبيز، ومعه الترك والبارازيكا والتيلوغويون والأوزبك والأحباش وغيرهم ممن يمثلون العناصر الأجنبية في جيش إسماعيل عادل شاه، يُسمى «برتغاليًّا»، أو ربما يُشار إليه بالاسم العام الذي يستخدم مع الأوروبيين، «فرنجي». وبالنسبة إلى الذين كانوا من حوله، يبدو أن الانتماء الديني للوبيز لم يكن يهم كثيرًا. أما ما يهمهم أكثر فهو سجله العسكري ومدى إجادته لفنون الحرب. ولو أن لوبيز كان ينتمي إلى أي كيان يُعرِّف به نفسه، فإنها النخبة السياسية العسكرية. لم تكن هذه الطبقة تُقسَّم إلى فئات منفصلة ما بين هندوس ومسلمين، ولكنها كانت تشكل مجموعة اجتماعية واحدة عابرة للثقافات، وتتجاوز الحدود وتخترقها. ومن المؤكد أنه كان من الشائع أن يجيد أفراد هذه النخبة التحدث بعدة لغات، وإن كان مما يثير الاهتمام أن نسأل كيف كان لوبيز يتواصل في هذا الوسط، لأنه في الأصل لم يكن يتحدث لغة أهل الدكن ولا الفارسية.

راح يتذكر كيف كان الأمر حينما وقعت عيناه على سانت هيلانة للمرة الأولى. لاحت له عبر الضباب والشبورة، صخرة ضخمة بدا أنها تخرج من البحر. وحينما اقتربت السفينة منها، أدرك مدى جمال الجزيرة بتلالها الصخرية التي تبرز مباشرة من البحر. رأى غطاءً خضريًّا ونباتيًّا كثيفًا يغطي أرضها. هذا هو عالمه. لم تتغير منذ آلاف السنين. سماءٌ وماءٌ، يمتدان من الأفق إلى الأفق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل التاسع عشر

«لن ينالَك أذى»

أصبحت تكفيه في اليوم وجبة طعام واحدة، وبالرغم من فقدانه بعض وزنه في بادئ الأمر، فقد اعتاد جسمه تدريجيًّا هذه الحمية الغذائية الصارمة. ويتناول طعامًا لا تنوع فيه. يعود بذاكرته إلى حياته في لشبونة ثم جوا، ويلجأ إلى الطعام كي يخفف من رتابة الوحدة التي يعيشها.

وجد لوبيز في الإسلام الراحة والعزاء والسكينة، وكذلك في شعائره وفي الإحساس الذي تولده الصحبة والجماعة وفي قوة الإيمان بمبدأ وحدانية الإله وحب النبي محمد. اكتشف إحساسًا بالانتماء إلى مجموعة من الإخوة الذين تجمعوا في بيجابور وكانوا يأكلون معًا ويقاتلون معًا ويؤدون صلواتهم معًا. ولعل هذه كانت المرة الأولى في حياة لوبيز، حسبما أعتقد، التي لم يشعر فيها بأنه غريب، وخفَّت حدة إحساسه الداخلي بالاختلاف عنهم. أصبح الآن جزءًا من مجتمع يرتبط أفراده بغاية واحدة وتجمعهم رغبة متبادلة وشجاعة مشتركة. وتجلى تمسكه بدينه الجديد في خضم المعركة، فحينما عرض عليه جواو ماشادو فرصة التراجع عن موقفه والعودة إلى صفوف البرتغاليين، فما كان من لوبيز إلا أن يرفض بإصرار قائلًا: «أنا مسلم وسأموت مسلمًا». جاءت كلماته قوية ومعبرة عن الإخلاص والشرف والصدق، وحتى في أثناء تعذيبه وتنفيذ العقوبة، لم يتراجع قَطُّ. وقد ذكر بعد ذلك لماشادو أن هذه العقوبة وجهت إليه شخصيًّا لاعتناقه الإسلام، لأن ماشادو، شأنه شأن لوبيز، تحول إلى الإسلام ولكنه اختار العودة إلى حظيرة المسيحية.

ومع ذلك، شعر لوبيز وهو وحده في جزيرة سانت هيلانة، بأن إسلامه يتسرب من بين يديه، وببطء وشعر بأن كونه حديث عهد بالإسلام جعل جذوره ليست عميقة بما يكفي. كان بحاجة إلى المجتمع، وإلى جماعية العبادات كي تُدعِّم هذا الإيمان. لعله حاول أن يصلي وهو في الجزيرة صلاة المسلمين، ولكنه على الأغلب كان قد نسي سريعًا تلك الآيات التي حفظها من القرآن واعتاد أن يتلوها بالعربية في كل صلاة. شعر بأنه ينزلق إلى هاوية سحيقة. ولأنه ليس لدينا ما يثبت ما كان يفكر فيه، فمن الصعب أن نتصور ما كان يمر به لوبيز خلال هذه المرحلة، ولكن ربما بدا له أن الإله الذي منحه لمحة من السكينة والجمال كانت خير علاج لمشاعر الغضب التي تضطرم داخله، لكن لحكمة ما ربما أراد الإله أن يحرمه منها.

لم يكن الإسلام بطبيعة الحال دينًا يجهله لوبيز ولم يعرفه معرفة عميقة حتى وصوله إلى الهند. ففي لشبونة، لا بد أنه كان يلتقي مسلمين يوميًّا، ولكنه لم يكن يوليهم إلا ضئيل اهتمام. فقد كان العصر الذي نشأ فيه لوبيز هو عصر

فقدان الذاكرة الجماعية التي يمثلها دين الإسلام، رغم أنه كان جزءًا من مكونات الإرث البرتغالي بقدر ما كانت اليهودية والكاثوليكية. ولم يكن على المرء إلا أن يعود إلى الوراء خمسة قرون تقريبًا حتى يلمس الأثر الكبير الذي كان للثقافة الإسلامية في اللغة والطعام والملبس في البرتغال. كانت فئات المتعلمين من المسيحيين واليهود في شبه الجزيرة الإيبيرية يلبسون ويأكلون ويتنقلون كما يفعل العرب، وكانوا على دراية واسعة بأشعار العرب وأخلاقهم وعاداتهم، حتى أُطلقت عليهم تسمية «المستعربين». ولكن لم يعد لهم أثر يُذكر الآن. ومضى زمان عندما كانت البرتغال تفاخر فيه بالكثير من الفروق الإقليمية والطائفية التي تكونت عبر قرون من التاريخ والتقاليد المحلية. كان عصرًا حافلًا بثقافة فنية غنية، وفيه كانت المؤثرات تأتي وتغدو بسلاسة، وكان بوسع المرء أن يجد فيه سَجَّادة صُنعت لكنيس يهودي ولكنها صُممت على غرار السجادة التي يفترشها المسلمون لصلاتهم ونُقشت على أطرافها عبارات باللغة العربية، أو قد نجد كتاب موسى بن ميمون «هداية الحيارى» مترجمًا من العربية إلى العبرية فيما تظهر على المخطوطة رسوم تستلهم الطراز القوطي الإيطالي. وفي ظل حكم المسلمين، أُسندت إلى اليهود والمسيحيين أدوارٌ مهمة في إدارة شؤون الدولة. لقد ظلوا خاضعين لسلطان المسلمين وفُرضت عليهم ضرائب باهظة، لكنهم كانوا أيضًا يحظون بحماية الخليفة ويمارسون شعائرهم الدينية بحرية ويحتكمون لقضائهم. وبالغ المؤرخون كثيرًا في إشادتهم بـ«العصر الذهبي» للتسامح الذي ساد الأندلس خلال هذه الحقبة، وذلك أن هذا العصر هو الآخر قد شابهُ كثير من الاضطهاد والتعصب، ولكن كما يقول الفيلسوف والمفكر يرمياهو يوفيل، بالرغم من أن التسامح الديني ربما لم يكن يستند إلى توجيه أخلاقي فقد كان بلا شك مفهومًا يقوم على النفعية. وإذا كان هناك عصر ذهبي لليهود في أوروبا، فإنه تلك الحقبة التي عاشها اليهود في ظل حكم المسلمين. ولا سيما حينما ينظر المرء إلى الأهوال التي تعرضوا لها عقب انتهاء هذه الحقبة.

لم توجد ذات يوم حرب استرداد برتغالية، لأنه لم يكن هناك برتغال أو شعب برتغالي أو لغة برتغالية قبل الوجود العربي في الأندلس، بل كانت من نواحٍ عدة غزوًا وليست استردادًا. وفي جوهرها كانت تقوم على فرض الكاثوليكية باعتبارها قوة توحيدية وقانونًا لمملكة البرتغال. ومن الآن فصاعدًا، أصبح هناك إلهٌ واحد ودينٌ واحد، وأصبح يتعين طرد أو تحويل الذين لم يلتزموا بالكاثوليكية. حافظت هذه العقيدة، التي يحكمها القانون الديني، على النظام المستقر وفرضت هوية «المسيحي القديم» على الفضاء السياسي الذي يتسم بالتنوع والتعقيد. أصبحت البرتغال بلدًا لا يلتزم رعاياه بالهوية الكاثوليكية فحسب، بل يمكن أن ينالهم العقاب أيضًا إذا ما انحرفوا عن هذه الهوية. كان عصرًا يُنظر فيه إلى المرأة المسلمة في البرتغال التي تلتزم

بطقوس الإسلام الدينية ولباسها الذي يتألف من عباءة بيضاء تصل حتى قدميها وتغطي نصف وجهها، بأنها عائق كبير أمام الاندماج في هذه العقيدة الجديدة.

سيكون مثيرًا للدهشة ألا يعود لوبيز بذهنه وهو في الجزيرة، مرة تلو مرة إلى تلك الأيام الثلاثة التي عُذِّب فيها بوحشية عقب حصار باناستاريم، وببطء بدأ يفهم لماذا عاقبه ألبوكيرك وعذبه (رغم عفو الملك عنه)، ولماذا كان عليه أن يُنزل به ذلك العقاب أمام حشد من الناس. وشيئًا فشيئًا بدأ يدرك أن ما حدث معه في جوا ترك أثرًا عميقًا في نفسه. وعلى نحو خفي، أصبح لوبيز يرمز إلى كل ما كانت تخشاه الأصولية الكاثوليكية، ويمثل تذكيرًا مخيفًا بهاجس العدو الداخلي. كان الأمر كما لو أن لوبيز في حضوره المسلم (وربما أيضًا في حضوره اليهودي)، الذي هدد بتقويض كل ما هو كاثوليكي، أصبح يرمز إلى كل ما كانته البرتغال ذات يوم أو يمكن أن تكونه، أو ربما حتى ما ينبغي أن تكون عليه، وكل ما كانت تخشاه الآن أعظم خشية. لذلك كان يجب تعذيبه لإخضاع الجسد والروح، وإدخاله في حالة من الأسف الدائم لهذه الأصولية الجديدة. وسواء أكان لوبيز فهم أو لم يفهم محنته بهذا المعنى، فلا شك أن تعذيبه كان أداة لمحق الشعور بالكرامة الإنسانية لديه. كان أيضًا أداة تأديبية، ليس فقط للمذنب، ولكن تحقيقًا للمصلحة الجماعية، وهذا هو السبب وراء ضرورة أن يكون العقاب أمام حشد من الناس، لأن العمود الذي يعذَّب عليه المهرطقون كان لإرساء دعائم العقيدة الدينية بقدر ما هو لغرس مشاعر الخوف والرهبة. كان لوبيز رجلًا وقع في شرك عصر متناقض، ولكن ألبوكيرك، وإن كان يرمز، عن غير قصد ومن دون أن يدرك، إلى الكابوس البرتغالي، فقد جسَّد عقيدة رفضت القبول بأن الهوية اليهودية أو الإسلامية تمثل جزءًا من الروح البرتغالية بقدر ما تمثلها الهوية الكاثوليكية. وفي واقع الأمر، كان أفونسو دي ألبوكيرك وفرناو لوبيز يمثلان وجهين لعملة برتغالية واحدة.

لكن الطريقة التي «أمسك بها» البرتغاليون لوبيز أخيرًا بعد سنوات عديدة من العزلة هي واحدة من أكثر الفصول غموضًا في هذه القصة الرائعة. نعلم أنه مكث في الجزيرة عدة سنوات أخرى، ربما أربع أو خمس سنوات، كان يتوارى خلالها من السفن التي ترسو هناك. وفي الواقع، فإن المصادر التي تتحدث عن كيفية عثور البرتغاليين عليه في نهاية المطاف يعتريها التناقض والاضطراب، ولكنها جميعًا تتحدث عن مجموعة من الأحداث المثيرة حقًّا. ومصدرنا الرئيسي هو جاسبار كوريا، الذي ذهب إلى أن لوبيز مكث بالفعل مدة أطول في الجزيرة: «مكث عشر سنوات في الجزيرة، ولم يره أي أحد لأنه كان يختبئ». ولكن كوريا يتحدث بعد ذلك بكلام يبعث على الدهشة: «على هذه الجزيرة، مكث صبيٌّ كانِ قد فر إليها بالفعل، وقضى معه سنوات

عديدة. وكان هذا الصبي هو مَن دلّ عليه طاقم سفينة رست هناك». يصعب علينا أن نعرف ماذا يجب أن نفهم من هذه الرواية لأن كوريا، ومن خلال جملتين، يبدو أنه نقلنا إلى أرض «روبنسون كروزو»، عبر تقديمه شخصية جديدة، هي شخصية فرايداي. وهناك مصدر آخر، وهو باروس، الذي يذهب إلى حد الادعاء بأن العبد الأسود كان مع لوبيز منذ البداية، ما يعني أيضًا أنه كان يتوارى على مدى سنوات. لكن هذا القول يتناقض مع ما قاله كاستانيدا، الذي أكد أن لوبيز «غادر السفينة وحده». ويمكننا أن نثق ونحن مطمئنون بأن باروس جانبه الصواب لأنه يقول إن لوبيز ظل وحده لسنوات في الجزيرة، ولكن هذا لا يوضح كيف ظهر هذا «الصبي» فجأة في أحداث القصة. فمَن يكون وكيف وصل إلى الجزيرة؟

ووفقًا لكوريا، وجد الصبي نفسه على الجزيرة وهو مَن كشف للبرتغاليين في النهاية عن مكان اختباء لوبيز، ولكنه لم يوضح كيف وصل إلى سانت هيلانة. ومع ذلك، إذا أمعنا النظر، فسوف نجد تناقضًا أساسيًّا في رواية كوريا. فقد كتب أن لوبيز «مكث عشر سنوات في الجزيرة، ولم يره أي أحد لأنه كان يختبئ». والآن بما أننا نعلم أن لوبيز وصل إلى سانت هيلانة في عام ١٥١٦، فهذا يعني أن هذا الصبي الغامض لم يظهر حتى عام ١٥٢٦ في الجزيرة، ولكن كوريا يزعم بعدئذٍ أن الصبي كان «معه لسنوات عديدة»، وهي سنوات يجب أن نفترض أنها لا تقل عن ثلاث سنوات، وربما أكثر. إن رواية كوريا تشوبها العديد من الإشكاليات. أولًا، إذا كان لوبيز بقي على الجزيرة لعشر سنوات لم يرَ فيها أحدًا، ثم أصبح معه «الصبي» لسنوات عديدة، فهذا يأخذنا إلى عام ١٥٣٠ على الأقل قبل أن يمسك به البرتغاليون. ولكننا نعلم علم اليقين أنه عاد إلى لشبونة في عام ١٥٣٠، وأنه بحلول ذلك التاريخ كان لوبيز قد أحدث تحولًا في الجزيرة، وهو أمر في حدِّ ذاته يتطلب عدة سنوات. وهناك ما يغري المرء أيضًا أن يسأل ما الملابسات غير المحتملة التي يمكن أن يكون الصبي تُرك خلالها أو تقطعت به السبل في هذه الجزيرة المعزولة؟ يُصر كوريا على أن هناك «صبيًّا» وأنه هو مَن كَشَف عن مكان لوبيز للبرتغاليين، لكنني أعتقد أن الادعاء بوجود صبي في الجزيرة كان خطأً من جانب كوريا، لأن المصادر الأخرى باستثناء باروس تصر على أن لوبيز كان وحده على الجزيرة. ولكن حقيقة أن كوريا هو مصدر هذه المعلومة هو أمر مهم، كما سيتَكشف لاحقًا.

وبينما كانت السفينة «سانتا كاتارينا دو مونتي سيناي» في سانت هيلانة، لمح أحد صبيان السفينة لوبيز وهو مختبئ أو الأرجح أنه عثر على كهفه عن طريق المصادفة. والأرجح أن هذا هو الصبي الذي افترض كوريا خطأً أنه كان على الجزيرة من قبل. ومع ذلك، فإن قصة فرناو لوبيز المحيرة كانت معروفة في البرتغال، وربما كان ذلك الصبي ممن عزموا على العثور عليه. بل وربما أعلن

عن مكافأة لمن يعثر عليه، أو ربما كان رهانًا قام به بحارٌ كي يخفف من وطأة الملل. ويروي كوريا أن الصبي حينما لمح لوبيز، سارع إلى إبلاغ الآخرين بمكان اختبائه. وبحسب رواية كل من كوريا وباروس، لم يضيع الرجال وقتًا وأسرعوا من فورهم إلى الكهف، حيث فاجأوا لوبيز وأحاطوا به حتى لا يتمكن من الهرب. وحالما رأى لوبيز الرجال، أُصيب بالذعر وبكى بصوت عالٍ. ولإدراكه أنه سوف يُحمل إلى لشبونة، بدأ يقاوم هؤلاء الرجال ويركلهم. لم تخرج من فِيه أي كلمات، ولكنه توسل إليهم أن يتركوه. لا بد أن الذهول انتاب هؤلاء الرجال لدى رؤيتهم لوبيز؛ كانت لحيته شعثاء تتدلى حتى صدره، وظهرت على بشرته حروق الشمس، واستطالت أظافر يده الوحيدة حتى تلوَّت. أما عن الثياب، إذا جاز أن يسميها المرء كذلك، فكانت أثمالًا ممزقة وخشنة. كان لوبيز يرتدي سروالًا مشدودًا حول خصره بحبل فيما وَضع على جذعه قميصًا فُقد أحد كُمَّيه. ولكن لم تكن لحيته أو أظافر أصابعه هي ما لفتت انتباه الرجال، وإنما ذلك الوجه مجدوع الأنف الذي كان يُحدِّق إليهم الآن. مَن هذا الرجل؟ أحقًّا هو برتغالي؟ ولماذا مُثِّل به إلى هذا الحد؟ لمدة من الوقت، بقي الرجال على مسافة من لوبيز ولم يقربوه، فيما ظل هو مقرفصًا وقد شخص بعينيه نحوهم.

وتحدثنا المصادر أن بيرو جوميز تيشيرا، وهو كبير قضاة الهند البرتغالية، كان عائدًا إلى لشبونة حينما توقفت السفينة التي كان على متنها، وهي «سانتا كاتارينا دو مونتي سيناي»، في سانت هيلانة. كان تيشيرا عالمًا بالكتاب المقدس وبحوزته مخطوطة إثيوبية ثمينة كُتبت على رقٍّ من جلود الحيوانات، وكان يُعتقد أنها كتاب صلاة بالقبطية. قضى زمنًا يبحث عن الكاهن يوحنا، ملك إثيوبيا المسيحي الأسطوري، وكان الآن في طريق عودته إلى لشبونة لإطلاع ملك البرتغال الجديد، جواو الثالث، ابن مانويل الذي وافته المنية في عام ١٥٢١. وحالما سمع بالجلبة وأُبلغ بخبر العثور على فرناو لوبيز الغامض، شق طريقه إلى حيث يتجمع الرجال من حوله. وكان قد سمع على مدى سنين أحاديث تُتداول عن برتغالي بَرِّي يعيش في جزيرة سانت هيلانة منذ سنوات ولم يره أحد. كانت هناك العديد من الآراء حول مَن يكون؛ فادعى البعض أنه مجنون يمشي على أربع ويعوي وهو ينظر إلى القمر، فيما أصر آخرون على أنه كان عاشقًا خاب سعيُه فانسلخ من عقله وهجر حياة الجماعة. وربما تهامس البعض بأنه الابن غير الشرعي للملك ونُفي سرًّا. ولا تتحدث المصادر عمَّا حدث بالضبط بين تيشيرا ولوبيز في الجزيرة، ومع ذلك بإمكاننا أن نتخيل الحوار الذي دار بينهما، ولكن ما لا شك فيه هو أن ثمة حوارًا دار بينهما وترك أثره فيهما.

أتصور أن تيشيرا أمر الرجال بالابتعاد عن لوبيز والإفساح له. وخلافًا للرجال الذين صُعقوا لما شاهدوه بأعينهم، بقي هادئًا رابط الجأش، حتى لا يستثير

رجاله ولا يزعج لوبيز: «هذا هو فرناو لوبيز، من فضلكم ابتعدوا عنه وامنحوه بعض الاحترام». عرَّف تيشيرا بنفسه، ولعله شعر بأن لوبيز جفل لدى سماعه بأنه قاضي القضاة في البرتغال وما وراء البحار فقال له: «لا تفزع، لن ينالَك أذى. هذا وعدٌ».

لزم الرجلان الصمت لمدة من الوقت جيء لهما خلالها بقدحين من الماء. شعر تيشيرا بأن عينَي لوبيز مثبتتان عليه لكنه آثر أن ينظر إلى أسفل. وبعد فترة طلب تيشيرا من الرجال بإشارة من يده أن يتركوهما. في البداية تردد واحد أو اثنان، خشية أن يكون في ذلك خطر على كبير القضاة، لكن إشارة ثانية من يده جعلتهم يذهبون في طريقهم. شعر بأن حدة التوتر خفَّت مع رحيل الرجال، وقدم إلى لوبيز المزيد من الماء. لست مضطرًّا إلى الكلام. ولكن ثق بأنك آمن. أكرر: «لن ينالَك أذى. هذا وعدٌ من نبيل إلى نبيل آخر». لم تظهر استجابة واضحة للكلمات التي تلفظ بها ولكن تيشيرا لاحظ أن لوبيز لم يُظهر أي حركة تنم عن رغبة في الهرب. وحينما رفع عينيه فيه، انتبه للوجه الذي لا أنف له والجدعة، حيث كانت يده اليمنى ذات يوم، وتساءل في نفسه حول المصير القاسي الذي لحق بهذا الرجل المسكين. بدا لوبيز مستكينًا ولا يُتوقع منه أذى وراح يتصرف بجمود كما لو أن تيشيرا غير موجود. لم ينبس بكلمة ولم يتحرك بعد اللحظات القليلة الأولى التي بدا عليه خلالها الهلع، ولكن هل كان سليم العقل؟ لا شك أن عزلة الجزيرة يمكن أن تدفع أرجح الناس عقلًا إلى الجنون؟ عرف تيشيرا أن عليه أن ينتقي كلماته بعناية إذا أراد أن يصل إلى أي شيء. أبلغ لوبيز الآن أنه سيتركه، واعتذر إليه بالنيابة عن رجاله الذين أفزعوه؛ وعلى أي حال: فهذه جزيرته.

في اليوم التالي كان لوبيز هناك. لم يكن تيشيرا واثقًا بأنه سيظهر له، لكنه جلب معه بعض الكعك. وسرعان ما وجد الرجلان نفسيهما يفترشان الأرض مرة أخرى. كان أي أثر للتوتر الذي شاب اليوم السابق قد تبدد منذ مدة، ورغم أن لوبيز لم يتحدث، فقد أحس تيشيرا بأنه يستمد شعورًا بالراحة من جلوسه بالقرب من إنسان آخر. وآثر هو الآخر ألا يتكلم، وجلس الرجلان لا يؤنسهما سوى الصمت. وبعد لحظات طويلة، نهض تيشيرا وغادر في صمت. لم يجد حاجة إلى الكلام، لأنه أدرك أن لوبيز سوف ينتظره في اليوم التالي. ولكن تيشيرا كان لا يزال يتساءل عمَّا إذا كان لوبيز سليم العقل.

في اليوم الثالث، وحينما اتخذ مكانه على الأرض بالقرب منه، لاحظ تيشيرا أن لوبيز كان يحمل شيئًا في يده اليسرى وراح يمد يده به الآن. كان يمد يده بثمرتَي تين. وفي هذا اليوم، بدأ فرناو لوبيز، بعد لحظة صمت طويلة أخرى، يحكي قصته إلى تيشيرا، وتلعثم في البداية، ثم انطلق لسانه بسيل من الكلمات. في البداية، جاهد تيشيرا كي يفهم الكلمات التي ينطق بها لوبيز

لأنها كانت تخرج منه ملتبكة ومتسارعة، وكان صوته يخرج مبحوحًا وأجشَّ. ولم يكن هناك معنى لما يقوله لأنه طفق يحكي القصة كما لو أن تيشيرا على دراية بالأشخاص الذين يذكرهم والأحداث التي يصفها. تدفقت الأسماء من فم لوبيز، وكان تيشيرا قد سمع ببعضها ولم يسمع بأكثرها. لكنه كان من الحكمة بدرجة جعلته لا يقاطعه حتى يسمح بتدفق الكلمات والانفعالات. سكت لوبيز عن الكلام وراح يبكي، ومسح عينيه بجدعة يده اليمنى، وحتى ذلك الحين التزم تيشيرا الصمت، وكان يميل بتعاطف نحو رفيقه ولكنه يحرص أن تظل عيناه مثبتتين على الأرض. بعد موجة الانفعال الأولى والمفهومة، أصبحت كلمات لوبيز منضبطة ومتزنة بدرجة أكبر. لم يستطع تيشيرا أن يخفي صدمته بسبب نبالة أصله. وحينما وصل إلى المكان للمرة الأولى، كان يتخيل أن رجل سانت هيلانة المتوحش هو شبه إنسان وشبه حيوان مسكين أصابه مسٌّ من الجنون: رجل فقدَ عقله وروحه. ولكن، وبينما كان يجلس في صمت على الأرض، وجد نفسه في حالة من الذهول وراح يستمع باهتمام حينما بدأ لوبيز يتحدث عن جوا وعن نجوم الليل، وعن روي دياز الذي لم يتعرف عليه، وعن الرب الذي كان يعرفه.

بعد ساعة أو نحو ذلك، وبعد أن منح لوبيز فرصة كاملة كي يفضي بما في نفسه، تحدث أخيرًا إليه وسأله هل يرغب في العودة إلى لشبونة، فأجابه لوبيز بأنه لا رغبة لديه في مغادرة الجزيرة لأن بها كل ما يحتاج إليه. ثم مال تيشيرا نحو لوبيز وتحدث إليه بنبرة حازمة: «لن أرغمك على ركوب السفينة. إذا كنت لا ترغب في العودة إلى لشبونة فسأحترم رغبتك. بل وسأترك رسالة موقعة بخاتمي الشخصي هنا، أوجهها إلى جميع القباطنة، بأنه لا يجوز لأحد أبدًا أن يرغمك على مغادرة الجزيرة، ولكن إذا حدث وغيَّرت رأيك في أي وقت، فعليهم أن يستقبلوك على متن السفينة. سأفعل كل هذا، أيها الدوم فرناو، ولكنْ لي شرط وحيد». وفي أثناء حديثه كان تيشيرا ينظر إلى لوبيز الذي بدا شارد الفكر. ولكن حينما توقف تيشيرا عن الكلام، نظر إليه لوبيز نظرة مستفسرة. تابع تيشيرا: «شرطي هو أن تعدني الآن بألا تختبئ حينما ترسو السفن هنا، بل تُظهر نفسك للجميع وتتحدث بحرية، لأنه لن ينالَك أي أذى. كلمتي هي عهدي إليك». وللمرة الأولى منذ سنوات عديدة، ابتسم فرناو لوبيز.

لم يُقدَّر لسفينة «سانتا كاتارينا دو مونتي سيناي» أن تغادر لبضعة أيام، ولأنه حظي بحماية وثيقة من تيشيرا، وافق لوبيز الآن على مرافقته إلى الشاطئ والاختلاط بطاقم السفينة، على الرغم من الأوامر الصارمة بألا يَقرَبه أحد وأن يتركوه في سلام. وفي واقع الأمر كانت الاحتمالية ضئيلة لأخذ هذه الأوامر على محمل الجد، لأن الرجال كانوا يتجمعون حول لوبيز من هنا وهناك كي يوجهوا إليه العديدِ من الأسئلة: «لكن كيف لم تمت جوعًا؟»، «هل أنت

مجنون؟»، «كيف أمكنك العيش كل هذه المدة من دون امرأة؟»، وسرعان ما أصبح يرتدي ثيابًا جديدة وهذَّب لحيته. ولكن حينما قُص شعره، ران الصمت على الرجال لأنهم لاحظوا أن أذنيه مقطوعتان. كان الرجال سمعوا جميعًا الآن عن حياته في جوا، ثم عن هروبه وانشقاقه، وبالرغم من رغبتهم في طرح المزيد من الأسئلة، فقد أسكتتهم أوامر تيشيرا الصارمة. وعلى مدى الأيام القليلة التالية، راح لوبيز وتيشيرا يجوبان الجزيرة ويتحدثان عن كل شيء، وكان أهم حديث لهما عن الصلاة والرب. كلما عرف تيشيرا لوبيز أكثر، زاد انبهاره به. كان جليًّا أنه يرافق شخصًا شديد الذكاء واليقظة. بدت ملامح وجهه مرهقة نوعًا ما، وهي حقيقة لا يمكن إنكارها، ولكن تيشيرا أرجع ذلك إلى العزلة التي عاشها لوبيز. بدا لوبيز أيضًا غير عابئ تمامًا بما يجري في لشبونة لأنه لم يطرح أي أسئلة حولها، ولم يُظهر أي علامات على الفضول بشأنها. وحينما سأل تيشيرا لوبيز ذات مرة عمَّا إذا كان يعرف مَن هو الملك، لم يجد منه سوى ملامح وجه حائر وقرر عدم متابعة ذلك.

حان وقت إبحار السفينة «سانتا كاتارينا دو مونتي سيناي». وصدرت الأوامر للرجال كي يودعوا لوبيز. صافحه بعضهم بيده فيما عانقه آخرون. لا بد أنه ذرف الدموع ذاك اليوم. تركوا له طعامًا وثيابًا، ووفاءً بما وعد، كتب تيشيرا رسالته ووقعها ومهرها بخاتمه الشخصي ثم تركها في مكان آمن. وأخيرًا، ودَّع تيشيرا بنفسه لوبيز وسأله عمَّا إذا كان يرغب في إيصال أي رسالة، أو عمَّا إذا كان يرغب في أي شيء، ومرة أخرى بدا لوبيز شارد الفكر، وإن كان تيشيرا قد أصبح يعرف الآن أن هذه ببساطة طريقته في التفكير في السؤال الذي طُرح عليه، ولذلك انتظره بصبر.

طلب لوبيز بذورًا. ولعله أخبر تيشيرا بمدى خصوبة التربة في سانت هيلانة. وإذا كان تيشيرا فُوجئ بطلب لوبيز، فربما لم يُظهر ذلك، وأجابه بأن لديه أشياء كثيرة بالسفينة قد يجدها لوبيز نافعة. ولذلك أمر بعض الرجال بالتجديف حتى يصلوا إلى السفينة ويجلبوا بعض السلع التي تضمنتها قائمة أعدها تيشيرا. وبعد ساعتين عاد الرجال يحملون أكياسًا من البذور والشتلات. لكنهم كانوا يحملون أيضًا خنازير وماعز ودجاجًا. غادر تيشيرا ومعه الرجال الجزيرة وجدَّفوا في القوارب حتى بلغوا السفينة ثم سرعان ما امتلأت أشرعتها وانسابت خارجة من الخليج، تاركة فرناو لوبيز رفقة الخنازير والماعز والدجاج. ويا للأسف، لم نعرف ماذا جرى للديك الذي كان معه.

الرحلة الرابعة

«يجب علينا أن نزرع حديقتنا»

فولتير، «كانديد»

«انظري إلى الشجرة، كيف كبرت وترعرعت
ولكن يا صديقتي لم يمضِ عليها زمن طويل،
لم يكن لها وجود».
بوبي جولدسبورو، «حبيبتي»، ١٩٧٣

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العشرون

شجر المانجو والتوت

كان فرناو لوبيز على صواب، فجزيرة سانت هيلانة تتميز بخصوبة تربتها. ولأن التعهد الذي حصل عليه بأن أحدًا لن يرغمه على العودة إلى لشبونة حفَّزه، وأصبح بحوزته الآن أكياس البذور التي يحتاج إليها، فقد تغيرت حياة لوبيز تمامًا وأضحى إنسانًا آخر. ويمكن للمرء أن يتصور بسهولة كيف أن عودته إلى رفقة البشر بعد سنوات من العزلة ربما أربكته في أول الأمر. كان قد أَلِف الصمت حتى بات وقع الكلمات يزعجه بل وربما يستثير غضبه. وكان روَّض نفسه على حياة التقشف ويتوارى كلما رست سفينة بالجزيرة. ولكن حالما وقع خرقٌ في سد الصمت، تدفق الكلام. وأن يصبح بإمكانه الكلام ويجد مَن يستمع إليه، ويجد رفقة شخص آخر، فإن هذا مما يعين على احتمال ثقل الوحدة. كان الكلام مهمًّا، ولكن الأهم، هو ما كان يفتقر إليه لوبيز أكثر، وهو الإحساس بدفء المشاركة.

على مدى سنوات العزلة على الجزيرة، أدرك لوبيز أن الفاكهة ستنمو هناك. ومع ذلك، فإن أحد الألغاز في حياة لوبيز هو كيف تمكن من غرس البذور ورعايتها. ربما كان يعرف شيئًا عن الزراعة منذ كان في البرتغال، ولكن ذلك يبدو أمرًا بعيد الاحتمال، لأن مرافقي الفرسان ما كانوا ليشغلوا أنفسهم باستزراع الأرض وفلاحتها. كما لا ندري كيف تمكن من العمل بمفرده ومن دون مساعدة من أحد. نعرف أن شجر التين زرعه برتغاليون حينما اكتشفوا الجزيرة للمرة الأولى وأن هذه الزراعة أثرت في لوبيز. وحينما وصل إلى الجزيرة للمرة الأولى، كان يعتاش غالبًا على عطايا الطعام والثياب التي اعتادت طواقم السفن البرتغالية العابرة تركها له رغم أنهم لم يكونوا يعرفونه. في البداية، ربما كانت حالته الذهنية هي أنه لم يكن يأبه بشيء، ولكن تدريجيًّا يمكن للمرء أن يفترض أن أفعال البر المتفرقة التي يقومون بها نحوه أثرت في نفسه كثيرًا. والآن وقد شعر بأنه يكتسب قوة في جسده وعقله، أصبح مصممًا على أن يرد هذا الصنيع، ولأنه لم يكن بحوزته شيء، فسوف يحاول أن يزرع ويوفر الغذاء لجميع الذين يمرون بجزيرة سانت هيلانة. لقد شهدت حياة لوبيز العديد من التحولات المثيرة، والآن، ومن حيث لا يحتسب، وقع تحول كبير آخر ومفاجئ. وتكشف المصادر أن لوبيز تحول ما بين عشية وضحاها تقريبًا من إنسان لا يكشف عن نفسه ويختبئ من السفن المارة إلى شخص يصادق الآن طواقم هذه السفن من البحارة ويطلب منهم العون في الزراعة.

ولأنه بدأ بالقرب من أشجار التين، التي يُفترض أنها كانت تنمو في القسم الأكثر خصوبة من الجزيرة، لا بد أن لوبيز بدأ الزراعة، ربما من دِون إتقان

ولكن بهدوء، ولدهشته فعلت الطبيعة فعلها. لم تكن خصوبة التربة أمرًا يمكن أن تخطئه عينه، فالبذور التي تسقط من الأشجار تنبت من بين العشب فور سقوط المطر. كانت التربة الواقعة في الأسفل شديدة الخصوبة حتى إن أكوامًا من فتات الصخور والأحجار غطتها مجموعة متنوعة من الشجيرات والأشجار في اثني عشر شهرًا. لم تكن الجزيرة صخورًا جرداء. ومن بين الأشجار التي زرعها كانت شجرة التفاح هي أول فاكهة تثمر، وليس مرة واحدة في السنة، بل مرتان، لأنه حينما تنضج ثمرة الصيف، كانت ثمرة الشتاء في الشجرة نفسها تبدأ في الإزهار. وكانت تثمر ثمارًا كبيرة الحجم، ثم تبعتها أشجار أخرى أثمرت سريعًا وبوفرة. كانت أشجار التوت والمانجو، وهي أشجار دائمة الخضرة في سانت هيلانة، بأوراقها اللامعة والكثيفة وأزهارها الوردية الكبيرة التي تنمو في أطراف فروعها، تمد جذورها سريعًا، أما أشجار الكرز والكمثرى، ورغم أنه كان يُفترض بها ذلك، فإنها لسبب من الأسباب لم تحذُ حذوها. نمت أشجار الموز ولكنها لم تثمر جيدًا، وكانت توجد أشجار فاكهة أخرى أفضل كثيرًا مثل الرمان وأشجار النخيل والبرتقال وأشجار الليمون بأزهارها ذات الرائحة العطرية الجميلة. ومما يثير الدهشة أن أشجار الخوخ كانت هي الفاكهة الأكثر إثمارًا وتنمو بشكل أفضل كلما نبتت في تربة رملية عميقة. وبعد أن زرع نواة خوخ، لاحظ لوبيز في غضون بضعة أشهر أنها أنبتت براعم، وأن شتلات خوخ جديدة نمت. كانت الأشجار تحمل ثمارًا كثيرة حتى إنها تتساقط أرضًا فتتناولها الخنازير التي خلّفها طواقم البحارة وراءهم. كان يبدو تقريبًا وكأن الخوخ شجرة متوطنة في الجزيرة.

مرت السنون وأصبحت جزيرة سانت هيلانة أرضًا يألفها البرتغاليون. وبينما مضى وقت لم تكن تتوقف بالجزيرة سوى سفينة واحدة أو اثنتين في السنة خلال رحلة عودتها من الهند، أضحى هناك الآن، في عشرينيات القرن السادس عشر، ما بين سبع أو ثماني سفن تتوقف بالجزيرة.

دُهش البرتغاليون لما رأوه من تحول في حال الجزيرة بأسرها في بضع سنين فقط، وسُر طواقم البحارة بالفاكهة الطازجة التي أصبحت الآن موجودة بوفرة. أصبح لوبيز يُهرع الآن إلى الشاطئ للترحيب بالرجال، واستقبالهم بحرارة قبل أن يسألهم بشغف عن البذور التي يحملونها معهم على متن السفينة. لعل لوبيز طلب من القبطان أن يترك معه بعض الرجال كي يعينوه على حرث المزيد من الأرض أو زراعة الأشجار، وعلى الرغم من أن الرجال كانوا متعبين ولديهم نفور من العمل، فقد رأوا أنه من المحال أن يخذلوه لأنهم كانوا يشعرون بالامتنان لجهده الذي بذله، وبالذهول مما أنجزه هذا الرجل ذو اليد الواحدة وهو يهرول في ذهابه وإيابه، ويرشدهم إلى المواضع التي يجب أن تُغرس فيها البذور. وفي مقابل ما قام به لأجلهم، بنى له الرجال مبيتًا صغيرًا يصلح لسكناه حتى لا يُضطر إلى المبيت بالكهف، وقدموا له

الطعام وأواني الطهي والثياب. حاول بعضهم من دون شك أن يقنعه بالعودة معهم إلى لشبونة، وبعبارات من قبيل: «هناك نبيذ! وهناك نساء! هناك نساء ونبيذ!»، لكن لوبيز لم يعبأ بإغراءاتهم: كان عازمًا على البقاء في سانت هيلانة. وكلما تحدث إلى الرجال الذين يمرون بالجزيرة، انتشرت قصة رجل سانت هيلانة الغريب في أرجاء لشبونة أكثر فأكثر، حيث اعتاد الرجال أن يقصوا حكاياتهم معه لدى عودتهم. وشيئًا فشيئًا أصبح لوبيز مثار حديث الناس في لشبونة. ورغم أن ذلك كان يجري بشكل غير محسوس تقريبًا، فإنه لم يقلل من إثارته للدهشة. وقد مضى زمن، قبل سنوات قليلة، كان اسم لوبيز لا يُذكر في البرتغال إلا ويُوصم بالمنشق الذي انقلب على الملك. كان هذا من دون شك أحد الأسباب التي جعلته وهو على متن السفينة العائدة من جوا إلى لشبونة، يغير رأيه ويبحث عن ملاذ في الجزيرة. ولكن خلال عشرينيات القرن السادس عشر (١٥٢٠) بدأت قصة لوبيز تشهد تحولات خفية ولكنها مثيرة. بدا كما لو أن هناك لوبيز جديدًا يتشكل في وعي لشبونة مع كل بذرة يغرسها في سانت هيلانة. ويبدو من غير المرجح أنه كان على علم بذلك، لأنه بقي عازمًا خلال هذه الفترة على ألا يغادر الجزيرة أبدًا.

وهكذا كانت السفن ترسو في سانت هيلانة ثم تغادرها، وبقي لوبيز في الجزيرة ومرت السنون، فيما كانت البذور تنبت والأشجار تُزهر. لم يكن الرجال الذين يغادرون الجزيرة ينسونه، وفي لشبونة تحدثوا عن الفاكهة التي أكلوها على هذه الصخرة المعزولة، التي يسيطر عليها نبيلٌ اسمه فرناو لوبيز. وكلما أتوا على ذكر لوبيز، كما كانوا يفعلون بشكل متكرر مع أصدقائهم، كانت كلمة واحدة تتردد كثيرًا. كانوا يؤكدون «هناك ناسك يعيش على الجزيرة». لا شك أن لوبيز ترك انطباعًا عميقًا لدى من قابلوه. وما بين الزرع والحصاد، كان زوَّار الجزيرة يتحلقون حوله، يدفعهم الفضول للتعرف على حياته. وكانت معظم أسئلتهم تدور على الأرجح حول التشويه الذي لحق بجسده والمدة التي أمضاها في الهند.

مرت السنوات وتابع لوبيز نشاطه الزراعي. كان القباطنة الزائرون يسألونه أحيانًا عمَّا إذا كان يرغب في العودة إلى لشبونة وبحسب المصادر، لم يكن رده يتغير وهو أنه لديه في الجزيرة كل ما يريده. ولاحظ القباطنة أيضًا أنه لم يُبدِ قَطُّ أي فضول لمعرفة ما يحدث في البرتغال أو الهند أو العالم. وبدلًا من ذلك، كان لا يتحدث إلا عن الجزيرة وكيف أن وديانها القريبة من البحر قاحلة تمامًا ولا يكاد يوجد بها أي أثر للنباتات، وأن ذلك بحسب رأيه يعود إلى ارتفاع ملوحة الأرض. ومع ذلك كان يوضح بصبر وأناة للرجال الذين يتحلقون حوله أن أشجار النخيل في الوديان القريبة من البحر، رائعة ولا تقل في ذلك عن تلك التي تنمو في الهند وتوجد بوفرة، وتنتج أجود أنواع التمر. وقرر أيضًا أن يزرع في الوديان بذور الفلفل، التي أنتجت أجود أنواع الفلفل الأحمر التي

تُحصد مرتين أو ثلاثًا في السنة. وهناك أيضًا، كان ينمو اللفت والفجل. هل ذاق طعمهما الرجال؟

كانت تلك طبيعة الرجال الذين ظلوا يسألون لوبيز حول التشوه الذي لحق به وأي سبب جلب عليه ذلك، ولذلك روى حكايته مرارًا وتكرارًا، رغم أن ذلك كان يبدو له وكأنه يروي قصة بطل إغريقي قديم في حرب طروادة، لأن الأحداث التي يرويها تبدو الآن بعيدة كل البعد عن الرجل الذي كانه الآن.

ولهؤلاء المهتمين بمعرفة الجزيرة، كان لوبيز يصر على اصطحابهم بكل فخر إلى سهل كبير يقع على ارتفاع ٢٠٠٠ قدم تقريبًا فوق مستوى سطح البحر وينحدر انحدارًا خفيفًا جهة الجنوب الشرقي. كانت مساحة الأرض هناك لا تقل عن ٢٠٠٠ فدان، وهي الأخصب في الجزيرة. كانت هذه هي الغابة الكبيرة، التي وصفها حاكم سانت هيلانة البريطاني في عام ١٧١١ بأنها «سهل رائع، بل وأروع ما رأته عيناي، في أي مكان». وبينما يرافق لوبيز الرجال عبر السهل، كان يحدثهم كيف أن الأرض تخلو من أي حجارة يتجاوز حجمها ثمرة جوز. وأشار أيضًا إلى نوع ناعم من حجر الحديد يتفتت بسهولة ويمتزج بسلاسة مع التربة. وأوضح للرجال الذين اعتبرهم ضيوفه في الجزيرة أن ذلك جعل الأرض أخصب، وإن كان لا يدري ما السبب وراء ذلك. وأخبرهم أنه سوف يزرع في هذا السهل أشجار الليمون والبرتقال التي تنتج ثمارًا وفيرة على مدى سنوات، كي تكون طعامًا أو حتى علاجًا للذين يمرون بالجزيرة.

هل كان لوبيز يعرف أن سانت هيلانة تعرضت قبل ملايين السنين لنار بركانية؟ وبالنظر إلى اللون الأسود الدخاني الذي كانت عليه الصخور والأحواض الشاسعة من الحجر الذي تلاصق بسبب الحمم البركانية، لا بد أن ذلك كان واضحًا. وفي بعض أحواض البازلت، كان يصادف صخورًا أصبحت أشبه بجذوع خاوية لأشجار متآكلة، ولا توجد عليها سوى طبقة رقيقة من الحجر الخارجي، مما يضفي عليها مظهرًا هشًّا لجمال منحنٍ ومتموج. ويتضح لعين الرائي أن هذا ما كان ليحدث لولا أن الصخور وصلت إلى هذه النعومة بسبب تعرضها لحرارة شديدة. لا بد أن لوبيز كان يعرف أن الجزيرة موجودة منذ زمن سحيق. فقد تعرضت ذات مرة لثوران بركاني هائل أثَّر بوضوح في تركيبتها، ما يعني أنها ظلت على مدى آلاف السنين لا يمكنها أن تغذي أي نباتات أو حيوان. كانت التلال سوداء وخشنة ولا أثر بها لشجرة أو شجيرة أو نبات من أي نوع، مما أضفى على الجزيرة مسحة من الكآبة والبؤس. وقد خففت من قسوة الصخور البازلتية السوداء طبقات أفقية من الطين الأحمر أضفت عليها مظهرًا جميلًا لخطوط متسقة من الأسود والأحمر تتقاطع عبر الجزيرة. وأحيانًا كان اللون الأحمر تصاحبه ألوان أخرى: مثل الأصفر والأزرق والبنفسجي والظلال ذات اللون النيلي للطين. كانت الصخور والأحجار

والأجراف، التي تأخذ أشكالًا غريبة وتختلط معًا بأشكال متمددة تشبه السحابة، تمنح لوبيز شعورًا بأنه ارتحل إلى عالم قديم، أو حتى كوكب آخر، كل ما فيه نقيض لكل ما رآه من قبل.

في هذه الأثناء في لشبونة، لم يكن تيشيرا قد نسي لوبيز والأيام القلائل التي أمضياها معًا، ومع مرور السنين، سوف يسمع بشكل متواتر اسم فرناو لوبيز ـ «ناسك سانت هيلانة» ـ في شوارع لشبونة وبلاطها.

والأهم، فقد راح البحارة الزائرون يتحدثون عن الأشجار والفاكهة التي لم يروها هناك من قبل. وتحدثوا عن البط والحمام والدجاج التي أصبحت تجوب الجزيرة الآن، وعن اللحوم الطازجة التي بإمكانهم تناولها فيها، ما جعلهم يشعرون نحوه بالامتنان. كانت توجد أيضًا أبقار وكلاب وقطط. وكذلك خراف وماعز تنتشر في كل مكان. وعلى مدى سنوات، تحدَّث الرجال عن الأرانب ولا سيما الطيور التي جُلبت إلى الجزيرة مثل الطاووس وطائر التدْرُج والحمام ودجاج غينيا. وألمحوا إلى كيف يبدو أن طائر الحجل على وجه الخصوص يكبر بين التلال الصخرية الجرداء رغم أنها لم يكن بها ما يتناوله. وكان الرجال يجزمون قائلين: لم يكن بالجزيرة أي شيء، والآن بها نِعَم كثيرة، والفضل في كل ذلك يعود إلى فرناو لوبيز.

إذا أراد المرء أن يستزرع الأرض، فسيكون بحاجة إلى سماد لتخصيب التربة، ولكن لحسن حظ الجزيرة أن روث طيور البحر كان يوجد بكميات وفيرة في كل مكان، وهو سماد ممتاز. لعل لوبيز اكتشف ذلك بنفسه عن طريق التجربة: حينما تمتزج التربة بسماد طيور البحر، كانت تصبح، بعد مطر خفيف لأسبوعين فقط، عالية الخصوبة، وفي غضون شهرين، تغطيها حشائش ونباتات كثيرة. وفي هذه الأيام، كان الرجال الذين يتوقفون في الجزيرة يُطلب منهم جمع أكبر قدر ممكن من الروث.

هل ذكر لوبيز البرتغال بأي شيء؟ هكذا كان تيشيرا يسأل الرجال العائدين من الجزيرة. وهل ذكر الهند بأي شيء؟ وكان جوابهم أنه لم يُبد أي اهتمام أو فضول إزاء ما يحدث في لشبونة ولم يكن يتحدث عن نفسه قَطّ إلا بعد أن يتوسل إليه الرجال كي يفعل. وحتى حينما قيل له إن الملك مانويل، طيَّب الرب ثراه، مات، لم يظهر على وجهه أي تعبير. وبدا وكأنه لم يسمع باسمه من قبل. وخلص أحد الرجال إلى أن لوبيز ربما كان في الجزيرة منذ مدة طويلة ولم يعرف حتى بالملك مانويل. ولكن تيشيرا كان يعرف خلاف ذلك، فقد جمع عنه على مدى سنوات أكبر قدر ممكن من المعلومات. لقد عرف فرناو لوبيز الملك مانويل، بل وعرفه معرفة جيدة.

في الجزيرة، زرع القليل من الشعير في صف واحد. وفي أقل من أسبوعين ظهرت نباتات صغيرة وفي غضون شهرين من البذر، نمت الأوراق حتى أصبحت بطول قدمين. وبعد شهر واحد ظهرت السنابل. وأحصى لوبيز نحو مائة حبة في السنبلة الواحدة. وفي غضون أربعة أشهر من الزراعة، كان الشعير يوشك أن ينضج وراحت الطيور تلتهمه بشراهة. أصبحت الجزيرة تنبض بالحياة.

هل كان الرجال يُصلون معًا في الجزيرة؟ هكذا سأل تيشيرا، فأجابوه أنهم كانوا بالطبع يُصلون معًا؛ وعندئذٍ، تذكروا أنهم يخاطبون كبير القضاة، فأكدوا أنهم كاثوليك صالحون. ولكن حينما سألهم عمَّا إذا كان لوبيز يصلي معهم، لم يكن جوابهم قاطعًا وتباينت ردودهم. لكن نفرًا قليلًا منهم، وربما أقدرهم على الملاحظة، أعادوا عليه ما قاله لوبيز حول حديثه إلى الرب، وحينما راح الرجال يروون حكايتهم، اتكأ تيشيرا في جلسته وراح يصغي إليهم باهتمام. وقال الرجال: لقد ذكر لوبيز أنه يتحدث إلى الرب، وحينما سُئل عن كيف يفعل ذلك، أجاب بأن الأمر يختلف من شخص إلى آخر. ومهما يكن، لا يُتوقع من صديقين أن يتحدثا بالكلام نفسه في كل مرة يتحدثان معًا، وكذلك الحال مع الرب. أليس هذا هو السبب الذي جعل المسيح يحذرنا من تكرار باطل الكلام حينما نتحدث مع الرب؟ فابتدر أحد الرجال لوبيز متسائلًا: هل تركع حينما تتحدث إلى الرب؟ فأجاب أنه حينما يتحدث المرء مع صديق له فإنه يجلس حينًا ويقف في أحيان أخرى. ألم يكن جابي الضرائب واقفًا وهو يخاطب الرب؟ ألم يكن داود جالسًا وهو يخاطب ربه؟ ثم تحدث لوبيز عن الحاجة إلى التعرف على الرب، وأن الأمر في غاية البساطة، لأنه يتجلى لنا من خلال اسمه. في البداية، أوضح لوبيز أنه مثلما يحدث في أي حديث مع صديق جديد، مرت به لحظات لم يكن يعرف ماذا عليه أن يقول، وأحيانًا يشعر بالحرج وبأنه يتكلف في كلامه. ولكن علينا أن نتعلم أن نتحدث إلى الرب بالطريقة نفسها التي يتحدث بها طفل مع أبٍ محب لأنه هكذا يكون الرب. كان الرجال يسمون لوبيز «ناسك سانت هيلانة»، وبينما كان تيشيرا يستمع إليهم، راح يفكر بإمعان فيما سمع منهم، وحينما انتهى من التفكير، خلص إلى استنتاج وحيد وهو أن حياة فرناو لوبيز باتت في خطر كبير.

لا يزال في القصة حتى الآن خيطان يفتقران إلى الحبكة اللازمة. الأول يتعلق بأسطورة كانت معروفة ومتجذرة بقوة في العقلية البرتغالية خلال هذه الحقبة. وكانت تدور حول الأحداث التي أعقبت هزيمة آخر ملوك القوط الغربيين، وهو رودريجو، أمام جيش المسلمين في جودااليتي في عام ٧١١ ميلادية. وعلى الرغم من أنه، وفقًا لبعض المصادر العربية مثل ابن القوطية وابن الأثير، مات رودريجو غرقًا في أحد الأنهار، فإن الأسطورة تقدم قصة مغايرة. بعد الهزيمة، فرَّ رودريجو مع رئيس أساقفة بورتو ومعه ستة أساقفة

آخرين، يتبعهم حشد من رعيتهم، غربًا وعززوا وجودهم في جزيرة مجهولة في مكان ما في المحيط الأطلسي حيث أسسوا مدنًا سبعًا. وانطلاقًا من هذه الجزيرة، المعروفة باسم «أنطيلة»، وهي تحريف لكلمة «أطلنطس»، أو جزيرة المدن السبع، اعتقد المخيال البرتغالي أن الملك «المفقود» أو «المختبئ» سوف يظهر وينقذ البرتغال ويسترد مجدها الضائع ويهزم المسلمين ويحول العالم إلى المسيحية، ويؤسس أورشليم جديدة. ولكن ما بدأ كخرافة سرعان ما ترسخ كحقيقة واقتناع. وفي خريطة تعود إلى عام ١٥١٣ وضعها رسام الخرائط العثماني الشهير أحمد محيي الدين بيري (والشهير باسم «بيري رئيس»)، يجد المرء جزيرة أنطيلة قبالة ساحل العالم الجديد، وهي جزيرة غير مأهولة يعيش فيها الكثير من الببغاوات مختلفة الألوان. وأضيفت قصص أخرى إلى أسطورة الملك المفقود في جزيرة، وأهمها أن الجزيرة، التي تُرى من بعيد، كانت تختفي لدى الاقتراب منها. ولكن الحديث عن جزيرة غير مأهولة هو ما ترك أعمق الأثر في العقلية البرتغالية، مما يفسر جانبًا من السبب الذي جعل قصة فرناو لوبيز وجزيرته المهجورة يتردد صداها بقوة في لشبونة، حتى وإن كان ذلك لا شعوريًّا.

كانت للجزر، سواء في البرتغال أو عبر أوروبا، أهمية خاصة خلال حياة لوبيز. وكانت التخمينات تتواتر حول موقع الفردوس على الأرض. وبحث كريستوفر كولومبوس في العالم الجديد عن التجلي المادي لجنة عدن، فيما وافق جيرونيمو دي ميندیتا وأمريجو فيسبوتشي، رغم أنهما كانا أكثر تشككًا من كولومبوس في وجودها، على أن الجنة الأرضية توجد في منطقة بحر الكاريبي. أما علماء اللاهوت في كنيسة العصور الوسطى فتكهنوا بأن جنة عدن توجد في فلسطين والأرض المقدسة وبلاد ما بين النهرين. وأكد القديس توما الأكويني، على سبيل المثال، أن جنة الفردوس هي مكان فعلي على الأرض، وأنها لم تُكتشف بعد، وأن هناك جبالًا أو بحارًا لا سبيل لاجتيازها تفصلها عن العالم المعمور. وفي عام ١٥٢٦، حينما كان لوبيز في سانت هيلانة، انطلقت رحلة استكشافية بحثًا عن جزيرة سانت بريندان، التي سميت باسم راهب أسس في القرن السادس ديرًا في أيرلندا ويُفترض أنه زار هذا الفردوس الأرضي. ويُظهر أقدم مجسم للكرة الأرضية في العالم الذي صنعه الألماني مارتن بيهايم عام ١٤٩٢، جزيرة سانت بريندان في مكان ما بين يابسة أوروبا الرئيسية وجزر آسيا. وإذا كانت هذه التخمينات والمعتقدات قد تبدو اليوم غريبة أو وهمية، فهل تختلف تمامًا عن افتتان الإنسان الحديث باكتشاف الحياة على كواكب أخرى؟ ما يلفت النظر هو أن صورة عدن كجنة ارتبطت في مرات كثيرة بصورة جزيرة مفقودة أو أسطورية، حيث كانت كلتاهما مساحات مغلقة ومكتفية ذاتيًّا ومعزولة ولا يمكن الوصول إليها. كانت كلتاهما أيضًا بعيدتين ومنفصلتين عن خيبات الحياة اليومية. فعلى الجزيرة

يشبه الإنسان بوضوح الرب، وعلى الجزيرة تتحول الصورة الذهنية الشائعة عن جنة عدن إلى واقع مُعاش. ولكن سانت هيلانة كانت نائية للغاية، وتكمن أهميتها الدينية الرمزية في عزلتها وكونها غير مأهولة، ولذلك رأى فيها البرتغاليون استنساخًا للنموذج التوراتي لتجربة الحياة في البرية. بالنسبة إليهم، كانت قصة لوبيز التي تسربت وعادت إلى لشبونة قد تأثرت بالرمزية التوراتية. وفي مسوحه الممزقة، كان لوبيز يشبه يوحنا المعمدان، وأما في سنواته الأولى على الجزيرة التي شابها الاضطراب فكان يشبه آدم.

وأما عن الخيط الثاني، فنحتاج إلى الرجوع خطوة للوراء وربط القصة بالعالم والطبيب الأندلسي المسلم الذي عاش في القرن الثاني عشر وهو أبو بكر بن طفيل، وروايته التي تحمل اسم «حي بن يقظان». تبدأ «حي بن يقظان» حينما يوضع طفل، هو «حي»، في جزيرة غير مأهولة (تختلف الروايات حول كيفية وصوله إلى هناك). وفي الجزيرة، تتولى غزالٌ رعاية حي، «تُعنى به وتربيه وتحميه من الأذى». وفي هذه البيئة التي لا يوجد بها أي إنسان، يكبر حي ويتعلم التواصل مع الحيوانات، كما سيفعل ماوجلي في قصص روديارد كيبلنج وطرزان في رواية إدجار رايس بوروس. وحينما يبلغ حي السابعة، تموت الغزال. ولأنه أصبح بلا حام يحميه، أصبح عليه الآن أن يدافع عن نفسه، ويستخدم يديه لصنع الأدوات والأسلحة. ثم يتعلم الصيد لاحقًا، ويستأنس الحيوانات ويزرع النباتات، وفي حين كانت جميع الكائنات الأخرى تفر هاربة من النار، بدأ حي يستخدمها لطهي طعامه. ويصبح أيضًا مدركًا لاختلاف الليل والنهار ويربطهما بحركة الشمس والقمر، ومن ذلك أصبحت لديه معرفة بالرياضيات وعلم الفلك. وفي نهاية المطاف، يدرك عبر رحلته التأملية، ضرورة وجود إله هو «مسبب كل الأسباب».

أصبحت «حي بن يقظان» حدثًا أدبيًّا كبيرًا، وحينما جلس ديفو كي يخط «روبنسون كروزو» في القرن الثامن عشر، كانت قصة ابن طفيل من بين الكتب الأكثر رواجًا في زمنها، حيث قرأها كثير من المفكرين والشعراء والكُتَّاب في عصر التنوير مثل بيكون وملتون ولوك وسبينوزا وفولتير وروسو. وليس من المستغرب أن يقرن العارفون بالأدب بين كروزو وحي. وكتب ألكساندر بوب، إلى صديقه اللورد باثورست في سبتمبر ١٧١٩ ـ بعد مضي خمسة أشهر على نشر ديفو «روبنسون كروزو» ـ حيث قارن مازحًا بين عزلة باثورست في مزرعته في جلوسترشر بعزلة ألكسندر سيلكيرك، أو «الفيلسوف الذي علم نفسه»، والأخير هو عنوان ترجمة إنجليزية لـ«حي بن يقظان». وقد أعجب القراء المثقفون أن ابن طفيل جعل «حي» يتعلم كيف يبقى على قيد الحياة من دون مساعدة أو تدخل بشري وكيف يكدح بصبر لحرث أرضه وتحويل البرية إلى حديقة. بالنسبة إليهم، لم تكن حكاية «حي بن يقظان» مجرد حكاية مغامرات، ولكنها رؤية مجازية لمقاربة عقلانية وتجريبية

لفهم الكون والتطور الطبيعي للعقل في سعيه لاكتشاف الحقيقة، كما أن كيفية وصول «حي بن يقظان» إلى أوروبا والبرتغال هي قصة باهرة في حدِّ ذاتها.

ولأنه كان يجيد اللغة اللاتينية والقشتالية وفرنسية إقليم بروفانس، ويستطيع القراءة باللغتين العبرية والعربية، فقد بدأ العالم اليهودي موسى ناربوني دراسة موسى بن ميمون وهو في الثالثة عشرة من عمره، ثم تابع دراسة الطب وكتب تعليقات حول التوراة والفلسفة. وفي عام ١٣٤٨، انتقل من مسقط رأسه في بربينيان إلى برشلونة، حيث بدأ يكتب تعليقًا حول «حي بن يقظان» كي يدرس كيف يمكن أن يصبح «نظام العزلة» وسيلة «للاتصال بالإله». وكان أحد الذين قرأوا له فيلسوف إيطالي يهودي (ذو نزعة إنسانوية) من القسطنطينية يُدعى يوهانان أليمانو، وجد نفسه في فلورنسا في أواخر القرن الخامس عشر يبحث عن عمل ورعاية لدى إحدى عائلات فلورنسا الغنية. وفي أثناء ذلك، استطاع أليمانو أن يجمع بعض المال من مهنة التعليم، وكان أحد طلابه بيكو ديلا ميراندولا. وبعيدًا عن مارسيلو فيسينو، كان ميراندولا أعظم فيلسوف في عصر النهضة. ففي سن العاشرة، بدأ ميراندولا دراسة القانون الكنسي، ثم أتبع ذلك بتعليم مدرسي تقليدي، تعلم خلاله اللغتين اللاتينية واليونانية ودرس فلسفة أفلاطون وأرسطو، وبعد ذلك تعلَّم العربية والعبرية. كان مفكرًا لامعًا وذكيًّا وجريئًا. كان أيضًا فيلسوفًا متبحرًا يبحث عن الحقيقة أينما وُجدت.

قرأت في سجلات العرب، يا آبائي المبجَّلين، أن عبد الله السراسني [يقصد المسلم بصفة عامة إذ كانت لفظة «Saracen» يشار بها إلى المسلم في أوروبا خلال العصور الوسطى]، حين سُئل عن أي مرحلة من مراحل العالم أجدر بالإعجاب، فأجاب بأنه لا يرى شيئًا أكثر إبهارًا من الإنسان.

ولأن ميراندولا كان صوفي الهوى، فقد انجذب إلى معتقدات القبالة لدى محاولته جمع تراث الحكمة في العالم. وقد عرَّفه معلمه أليمانو على حكاية «حي بن يقظان»، وسرعان ما أصاب سحرُها هذا الإيطالي، الذي أُعجب بالطريقة التي تنتهي بها عزلة حي إلى تحقيق الذات عبر التأمل والنبرة الصوفية التي عبر بها عن ذلك. وفي عام ١٤٩٣ ترجم ميراندولا الكتاب من العبرية إلى اللاتينية، وسرعان ما انتشرت نُسخه في جميع أنحاء أوروبا. وفي إنجلترا، اعتمد الفيلسوف ورجل الدولة توماس مور على افتتان ميراندولا بحكاية حي حين أراد أن يصوغ نظرياته حول علاقة البشر بالإله، وذلك عبر جزيرة معزولة أسماها «يوتوبيا». وبينما كان فرديناند وإيزابيلا في إسبانيا ومانويل في البرتغال يطردون المسلمين ويُحولون اليهود قسرًا إلى المسيحية، فإن ترجمة بيكو ديلا ميراندولا لقصة «حي بن يقظان» ـ برسالتها

الصوفية الجميلة حول العقل البشري الذي يمكنه أن يقدم للإنسان دليلًا على وجود الإله وصفاته ـ كانت تشق طريقها عبر أرجاء أوروبا، تاركة في أثرها اللاتيني صورةً مؤثرة ومرهَفة لإنسانٍ يعيش وحيدًا في جزيرة معزولة.

بدأ الآن يطرأ تطور ملحوظ على المشهد، فقد تزامن مع طرد اليهود أو إجبارهم على التحول إلى الكاثوليكية، تدفق مفاجئ من الترجمات العبرية لـ«حي بن يقظان» في جميع أنحاء أوروبا. وكان يهود كُثر في عهد مانويل، ولأنهم حُرموا من الوصول إلى نصوصهم المقدسة ولم يعد بمقدورهم ممارسة شعائرهم الدينية، انطووا على أنفسهم ولجأوا إلى الصلاة سرًّا وتمسكوا بقيمهم الروحية وهويتهم الدينية في عالمهم الخاص. وآثر معظمهم العيش في منفى من صُنع أيديهم وأعادوا اكتشاف القصة التي كتبها ابن طفيل، وكانت قد اجتذبت المفكرين من اليهود والمسيحيين الجُدد لكونها في جزء منها قصة في العلوم الطبيعية والصوفية والميتافيزيقا، والأهم من ذلك أنها كانت قصة لا تُقدم الإنسان من منظور ديني توراتي، ولكن من منظور فلسفي.

أثار كل ذلك انزعاجًا شديدًا في أوساط الكنيسة. لقد قدَّمت «حي بن يقظان» بديلًا صوفيًّا للساعين للخلاص في زمن لم تكن الكنيسة تُشكك في التجارب الصوفية وحسب، ولكن أيضًا تراقبها عن كثب. ودفعت الكنيسة بأن الرؤى والتعابير الصوفية ربما تكون من تجليات النعم الإلهية ولكنها أيضًا قد تكون من أعمال الشياطين. ولأنه لا يوجد معيار يمكن تطبيقه للتمييز بينهما، فقد احتفظت الكنيسة بحقها في الشك والارتياب. وبينما كان المسيحيون الجدد يقرأون قصة «حي بن يقظان» باهتمام كبير (كما يتضح من الترجمات العديدة التي ظهرت خلال هذه الفترة) باعتبارها قصة رمزية لمقاربة صوفية وفلسفية لمفهوم الألوهية، فقد ظلت الكنيسة تعتبر الحقيقة التي يتم الوصول إليها من دون وساطة كهنوتية حقيقة يكتنفها الغموض وتنطوي على خطورة. وبينما كان هذا السجال دائرًا ـ وهو سجال سوف يتجلى في نهاية المطاف في صورة محاكم التفتيش ـ بدأت تُتداول في لشبونة قصصٌ حول برتغالي صوفي يعيش في جزيرة معزولة. وبعبارة أخرى، نشأ حي حقيقي فجأة من حيث لا يدرون.

وبينما كانت كل سفينة برتغالية عائدة من الهند ترسو في بيليم، كان القادمون على متنها يتحدثون عن صوفي غريب الطباع يعيش وحيدًا في جزيرة. وبسبب أجواء لشبونة المحمومة، سرعان ما أصبح اسم فرناو لوبيز اسمًا معروفًا بين كثير من الناس. وكان ظهور صوفي في جزيرة أمرًا مثيرًا للاهتمام من الناحية الفكرية في أوساط المسيحيين الجدد ممن اطلعوا على قصة «حي بن يقظان». أما الكنيسة، وكانت تخشى ظهور أنبياء أدعياء

ومُسحاء كَذَبة، فقد رأت ذلك من منظور مغاير، واعتبرت الشهرة التي بات يحظى بها لوبيز سببًا يدعو إلى القلق. مَن هو بالضبط، وهل لديه أتباع؟ والأهم من ذلك، سألت الكنيسة: ماذا يفعل فرناو لوبيز في جزيرة منعزلة وماذا يبتغي؟ لا شك أنه كان من الخطورة بمكان في ذلك الزمان أن يكون المرء صوفيًّا في البرتغال. وكان المزاج العام الذي يمكن تلمسه في أنحاء البلاد هو الشعور بقرب زوال العالم، وهو ما يمكن للمرء أن يسميه تفشيًا لحُمى نهاية العالم.

كان العصر عصر الأنبياء والمُسحاء الكَذبة، وهو ما أثار انزعاجًا كبيرًا في أوساط الكنيسة. وفي غضون عام أو عامين من إعلان مانويل تحويل اليهود إلى المسيحية، ظهرت أولى هؤلاء الأنبياء وهي إينيس هيريرا. وعلى الرغم من أنها كانت أقرب لادعاء النبوة منها إلى انتحال صفة «المسيح المخلص»، فقد ادعت إينيس أنها رأت النبي إيليا في منامها وأنه أخبرها أن المسيحيين الجدد سوف يدخلون جنة لهم فيها نعيم مقيم. إن كون إيليا هو مَن تراءى لها في منامها لهو أمر ذو مغزى، لأنه وفقًا للتراث اليهودي لم يمت، بل رُفع مباشرة إلى السماء، كي يعود مبشرًا بالمسيح الحق. وبعد فترة وجيزة، كشفت إينيس أن المسيح سوف يظهر عمَّا قريب كي يُنهي الشتات ويدشن مجد المملكة المستعادة. انتشرت كلمات إينيس انتشار النار في الهشيم، وبحماس تشبث العديد من أتباعها من المسيحيين الجدد بأمل قرب الخلاص. وبسبب معتقداتها، أُحرقت إينيس هيريرا. ثم ظهر لويس دياز، الذي عُرف بين معاصريه والعديد من أتباعه في جنوب البرتغال باسم «مسيح سيتوبال». ولأن دياز كان يتمتع بكاريزما كبيرة، فسرعان ما أصبح له أتباع بين المسيحيين الجدد ممن صدقوا أنه يُوحى إليه. ومع انتشار دعوته في أرجاء البلاد، سارعت السلطة بالتدخل وأُحرق مسيح سيتوبال أيضًا وهو حي. وهناك أيضًا باندارا، الذي اشتُهر بآياته النبوئية التي كُتبت في الفترة ما بين عامَي ١٥٢٠ و١٥٤٠. وقد حُوكم هو الآخر ولكن لحسن حظه لم يكن مصيره الحرق. ولكن أشهر المُسحاء الكذبة والأنبياء الأدعياء الذين ظهروا خلال هذه الحقبة المضطربة، وربما أخطرهم جميعًا، هو بلا شك ذلك الشخص الغامض المُسمَّى «ديفيد روبني».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الحادي والعشرون

ماذا يريد؟

في عام ١٥٢١ مات الملك البرتغالي مانويل وخَلفه ابنه جواو الثالث. ولأن جواو كان شديد الورع وصاحب رؤية دينية صارمة، وُصِف بأنه رجل يحمل «كراهية عميقة للعبرانيين» وشاركته فيها زوجته كاثرين النمساوية. وحينما كان أميرًا، تلقى جواو تعليمه بحسب ما تمليه معايير عصر النهضة التي سادت أوروبا في مطلع القرن السادس عشر، ونشأ في زمن ساده السلام بين الممالك الإيبيرية المتمايزة بفضل سياسة والده الخارجية التي توثَّقت عُراها عبر سلسلة من المصاهرات كان من بينها الزواج بين جواو وكاثرين، حفيدة الملكين الكاثوليكيين فرديناند وإيزابيلا. لكن السلطة غيَّرت جواو من الأمير المسيحي المؤمن بأفكار إرازموس، حسبما وصفه باروس، إلى رجل متشكك ومنطوٍ ويتحسب للخيانة من كل مكان، كما وصفه مؤرخ برتغالي عاش في القرن التاسع عشر بأنه «متعصب شرير». ربما يمكن للمرء أن يعزو هذا التحول إلى حظه العاثر، حيث صادف مصيرًا مشؤومًا بإنجابه تسعة أطفال شرعيين لولاية العهد، ولكنه فجع فيهم جميعًا ورآهم يموتون أمام عينيه واحدًا تلو الآخر.

كان البطء والتريث جزءًا من طبيعة الملك الجديد. كان يمعن في كل كلمة ويُطيل التفكير على نحو كان مثار حرج في عديد من المناسبات الملكية. وبالمثل، ومما تسبب في خيبة أمل لرجال البلاط والسفراء، كان جواو نادرًا ما يتخذ قرارات سريعة. وغالبًا ما كان السبب في ذلك هو أنه يُبقي السفراء ينتظرونه فيما يخرج هو للتجول في أنحاء مملكته، ولكنه إلى حدٍّ بعيد كان يجد عناء في عمل ذلك، ويختار المراوغة بدلًا من اللقاء. بالتأكيد لم يكن ذلك لنقص في المستشارين، الذين كان من بينهم نبلاء وأعضاء في العائلة المالكة وكبار المسؤولين في التاج البرتغالي. وكان من عادة الملك أن يأتمن عضوين أو ثلاثة من أعضاء مجلسه الملكي الأعلى غير الرسمي، وكان من بين الأعضاء ذوي الحظوة لديه أنطونيو دي أتايد، وهو كونت منطقة كاستانييرا، وشقيقه «الإنفانتي» لويس، وكذلك فرانسيسكو دي برتغال وهو كونت منطقة فيميوسو. ومع ذلك، كانت زوجته الملكة كاثرين النمساوية هي الصديق المقرَّب له، واعتاد الاعتماد عليها أكثر من أي أحد آخر. وُلدت كاثرين النمساوية في توركيمادا بإسبانيا في عام ١٥٠٧، وهي الابنة الصغرى لفيليب ذا فير وجوانا لا لوكا، ما جعلها من سلالة العائلات الملكية في بورجوندي وقشتالة وليون والبرتغال والنمسا. وُلدت كاثرين بعد وفاة والدها، ولكنها خلافًا لإخوتها وأخواتها، بقيت مع والدتها في توردیسیلاس في ملجأ منعزل. وللمرء أن يتخيل أنها عاشت طفولة مضطربة لأن والدتها المصابة بالجنون

كانت تبقيها في غرفة نوم بلا نوافذ خوفًا من تعرضها للاختطاف. وحتى خطبتها من جواو، عاشت حياة معزولة عن البلاط الإسباني. ومع ذلك، سوف تبرهن سريعًا على جدارتها به، بعد أن تصبح المستشارة صاحبة الدهاء لزوجها. وسوف يسمح لها جواو بأن تشارك في مجلس الملك، وكان كثيرًا ما يطلب مشورتها في الأمور المهمة. وكما نوَّه السفير القشتالي، «يعتمد الملك كليًّا على الملكة، ولا يوجد شأن مَهما كبر أو صغر لا يمر عبر يديها». كانت تتقن اليونانية واللاتينية، وضمَّت مكتبتها العديد من مؤلفات الحركة الإنسانية (ورغم أننا لا ندري للأسف هل كانت تضم نسخة من «حي بن يقظان»، فإن بإمكان المرء أن يتصور أن كاثرين كانت على دراية بالقصة). لا شك أنها كانت صاحبة ذوق ما، ففي إحدى المرات، أقامت كاثرين مأدبة للسيدات في حفل زفاف وقدمت لهن بطريقة مثيرة مياه شرب من أربعة أنهار في الإمبراطورية هي الجانج والسند وسال بالقرب من جوا ونهر آخر في مولوكاس. وحينما حاول عم العروس أن يرد بالمثل، وأقام مأدبة (هذه المرة للرجال) كان طهاة الطعام من الهند فقط، جاءت النتيجة أقل إيجابية، حيث اعتل الكثيرون بسبب القيء واضطراب المعدة.

لم يمضِ وقت طويل حتى وصلت قصة الناسك فرناو لوبيز إلى البلاط الملكي، لأن معظم سكان لشبونة أصبحوا على علم بها. في البداية، لم يُبدِ الملك اهتمامًا كبيرًا، ورفض تصديقها متعللًا بأنها لا تعدو أن تكون قصة اختلقها البحارة لتمضية الوقت. لكن رغم مرور الأشهر والسنوات لم تختفِ القصة.

كانت كاثرين شخصية فضولية بطبيعتها، وتهوى اقتناء الأشياء. استدعت الآن تيشيرا وسألته عمَّن يكون لوبيز هذا الذي أصبحت سيرته حديث الجميع: هل التقاه ذات يوم؟ أجاب تيشيرا بأنه التقاه بالفعل، ورغم أن اللقاء به كان وجيزًا، ولم يستمر لأكثر من بضعة أيام، ومضى عليه ثماني أو عشر سنوات، فإنه يتذكر ما جرى بوضوح، لأن لوبيز أثَّر به. وحينما سألته كاثرين عن أي نوع من التأثير ذلك، قصَّ تيشيرا عليها حكايته الغريبة. وبينما يتحدث، كانت الملكة تصغي إليه، ومن حين لآخر تقاطعه بسؤال حول خلفية لوبيز: هل قاتَل في الهند؟ وهل انقلب على جلالة الملك مانويل؟ ومنذ متى يعيش وحيدًا على الجزيرة؟ هل هو من المسيحيين الجدد؟ هل أنت واثق بأنه ليس مجرد مجنون؟ كان بإمكان تيشيرا أن يخبرها أنه قاتَل في الهند، وأنه انقلب على جلالة الملك مانويل وهو ما عُوقب عليه قبل أن ينال العفو، وأنه قضى في الجزيرة أربعة عشر عامًا تقريبًا، وأن بإمكان جلالتها أن تكون على ثقة بأن لوبيز سليم العقل تمامًا. وبعد بضعة أيام استُدعي تيشيرا إلى البلاط مرة أخرى؛ وفي هذه المرة كان الملك هو من طلب سماع قصة لوبيز. وحينما انتهى تيشيرا من سردهِا، وجه إليه الملك سؤالًا واحدًا: «ماذا يريد؟».

كان ذهن الملك مشغولًا بأمر آخر، فقد كان يقيم حاليًّا في بلاطه بعدما حل عليه فجأة ذلك الشخص الملغز وهو ديفيد روبني، الذي كان الغموض يحيط بأصله. كان يهوديًّا صاحب بشرة داكنة ويرتدي دائمًا ثيابًا بيضاء ولا يتحدث سوى العبرية والعربية، ويزعم أنه أمير قادم من مملكة بعيدة، وأن اسمه «ديفيد». كان ينتمي إلى قبيلة «روبن» العبرانية القديمة وشقيقًا لملك يهودي قوي. كان مقترحه الذي قدمه للملك، وهو مزيج من الخطاب المستند إلى نبوءة المسيح المنتظر، يقوم على التحالف بين الممالك المسيحية و«قوات» شقيقه لانتزاع أورشليم والأراضي المقدسة من أيدي المسلمين. كان ديفيد روبني قد سافر أولًا إلى روما، وهناك تجرأ وطلب مقابلة البابا كليمنت السابع. ورغم أن قصته مدهشة ولا تكاد تُصدق، فقد استمع إليه البابا بصبر وكتب له رسالة تزكية إلى جواو الثالث ملك البرتغال، وشعر بالارتياح لأنه خلَّص نفسه من هذا المسيح الذي قد يصبح مصدر خطورة. وفي لشبونة، استُقبل روبني استقبالًا يليق بالملوك وأُنزل منزلًا فخمًا. تسبب وصوله في ضجة كبيرة، صحبها مزيج من الثناء والشك. فهنا يهودي يعلن صراحة عن إيمانه في بلدٍ لم يعد لليهودية فيه وجود. وبالنسبة إلى كثير من المسيحيين الجدد، استقبلوا نبأ وصول روبني في الغالب بحماس مفعم بروح انتظار المخلص. وكان شاب في بلاط الملك جواو يُدعى «ديوجو بيريز»، قد قرر أن يختتن متأثرًا بروبني، وأطلق على نفسه اسم «شلومو» أو «سولومون مولكو» وادعى أنه المسيح اليهودي. انتابت جواو الحيرة. لماذا أرسل إليه البابا روبني؟ هل هو صادق أم مجنون ومصدر خطر؟ ولعجزه عن اتخاذ قرار، بسبب بطئه المعهود، أبقاه في بلاطه. والآن أصبح لوبيز حديث المدينة في لشبونة، وبات يُشار إليه بأنه الناسك الذي يعيش في جزيرة معزولة. كانت أيامًا غريبة حقًّا.

في أثناء ذلك، كيف يجب التصرف مع فرناو لوبيز، وماذا كان يريد؟ كان جواو يرى المؤامرات في كل ما يحيط به. ألم يتمرد لوبيز رغم كل شيء ضد الملك مانويل والد جواو؟ ألا يُحتمل أنه لا يزال يسعى سرًّا لتقويض مصالح البرتغال؟ كانت سانت هيلانة محطة توقف مهمة للسفن ـ ماذا لو كان لوبيز يعمل لحساب الفرنسيين؟ ماذا لو كان يخطط لتسليم الجزيرة إلى الفرنسيين؟ ربما كان صوفيًّا زاهدًا، ولكن جواو كان يحمل نظرة ارتياب إزاء الزُّهَّاد والنُّسَّاك. لم يكن يثق بكون التصوف، شأنه شأن الفلسفة، يدفع حدود المعرفة بما هو معلوم وبما هو غير معلوم، حتى إنه يتجاوز اللغة نفسها. وفوق ذلك، كان جواو لا يثق بالطريقة التي اختارها الصوفيون للتعبير عن أنفسهم بصمت، ولذلك أزعجه صمت لوبيز، لأنه لم يكن التقى بعد أحدًا لا يريد شيئًا.

وكتب جاسبار كورِيا: «وهكذا أمر الملك بأن يُطلب منه القدوم إلى المملكة بمحض إرادته».

وهكذا أمر الملك بإعادة فرناو لوبيز، «ناسك سانت هيلانة»، إلى لشبونة، لأنه هو وزوجته كاثرين يرغبان في التحدث إليه. لا ندري لماذا رغب الملك في إخراج لوبيز من جزيرته، هذا ما لا نعرفه، لأن نزوات الملوك غالبًا ما تنطوي على طيش. ربما لم يكن الأمر يتجاوز الفضول الذي شابه بعض جنون العظمة الذي لدى جواو. وكانت كاثرين معروفة في جميع أنحاء أوروبا بأنها تهوى بشدة جمع التحف واقتناءها وربما رأت في لوبيز مجرد أداة للتسلية. وبغض النظر عن ذلك، كانت أوامر الملك واجبة النفاذ، فأُرسلت سفينة في رحلة تستغرق شهرين لجلب لوبيز. لم يكن لوبيز على دراية بكل هذا بالطبع، ولم يكن يدري شيئًا عن الشهرة التي اكتسبها اسمه في لشبونة ومدى ابتهاج بحارة السفن التي تمر بالجزيرة بالفاكهة والخضراوات التي اجتهد حتى زرعها لأجلهم. ومن دون أن يدري كانت حياته توشك أن تأخذ طورًا جديدًا.

كانت سانت هيلانة هي الحياة بالنسبة إلى لوبيز. تُرى كيف كانت ردة فعله حينما أبلغوه بأنهم سوف يصطحبونه إلى لشبونة؟ ومهما يكن، مَن سيجني ثمار الأشجار في الجزيرة؟ استمع القبطان (لا تذكر المصادر التاريخية اسمه) في صبر إلى استعطافات لوبيز المحمومة، وأوضح له أن الأمر قُضي، وأن أوامر الملك واجبة النفاذ، وأن لوبيز ليس لديه خيار.

لكن لوبيز أصر على أنه لا يستطيع المغادرة. هل سيُسمح له بالعودة بمجرد رؤيته للملك، وعلى أي حال لماذا يرغب الملك في رؤيته؟ ذكَّر القبطان بأنه نال عفوًا ملكيًّا، ولكنه لم يحظَ بأي طمأنة، ولم يحصل على أي وعود بأنه سوف يُسمح له بالعودة. مرة أخرى، أخبره القبطان أنه لا خيار له في مسألة العودة، قبل أن يعلن له بحزم بأنه سيكون على متن السفينة القادمة حينما يحين موعد إبحارها، حتى لو اقتضى الأمر شد وثاقه وربطه وكأنه حيوان.

يمكننا أن نتصور أن لوبيز غادر الجزيرة وهو في حيرة وخوف وارتباك. لم يكن يدري ماذا يخبئ له المستقبل أو لماذا يرغب الملك في رؤيته. هل كان ذلك كي ينزل به العقاب مرة أخرى جزاء ما فعل في باناستاريم؟ وأستطيع أن أتصوره فيما كانت السفينة ترفع أشرعتها، يقف على سطحها، وقد ولَّى وجهه شطر الجزيرة في ثبات. لقد تركه الرجال من تلقاء أنفسهم بمفرده، بعدما أحسوا أنه على الرغم من صيحات البحارة وصراخ الأوامر والعمل على الأحبال، كان في لحظة صمت مفعمة بالاستغراق والتأمل. بالنسبة إلى لوبيز، كانت هذه هي المرة الأولى التي يغادر فيها الجزيرة منذ أربعة عشر عامًا وراح ينظر الآن إلى سانت هيلانة من جميع أطرافها، وبكل خضرتها الزاهية وألوان براكينها السوداء. إلى يساره، يرى دلافينه المحبوبة وهي تتراقص

وتسبح بجانب السفينة وكأنها أتت كي تودعهم. وفوق رأسه، تحجب عنهم السماء، كما حدث منذ عدة سنوات، طيور البحر وهي تحوم فوق رؤوسهم بسلاسة ومن دون جهد. هل يبدو ذلك، للحظة، أنه كان مجرد حلم؟ هل كان يحاول أن يتخيل فرناو لوبيز الذي جاء الجزيرة أول مرة، وهو في ريعان شبابه ويعتريه الارتباك ويتملكه الغضب، وبلا أي أمل؟ ولو سُئل كم لبث في الجزيرة، لقال سنتين أو ثلاثًا، لكن لا بد أنها كانت تبدو له وكأنها دهر. سوف يكون عمَّا قريب في لشبونة، التي لم يرها منذ ٢٤ عامًا. كانت هناك فروق كثيرة طرأت على الرجل الذي ذهب باسم فرناو لوبيز، وكل فرق منها له حكاية خاصة من المعاناة. لقد دفن هذه الحكايات في الجزيرة، واحدة تلو أخرى، وشبحًا تلو آخر، ولكن الآن لا بد أن الذكريات بدأت تتدفق عليه من جديد. وإذا كان لوبيز، في سانت هيلانة، أقنع نفسه بأنه فهم حياته بالكامل، فلا بد أنه أدرك الآن أنه لم يفهم منها سوى القليل. وبينما كانت السفينة تشق طريقها إلى لشبونة، لم يكن لوبيز يدري شيئًا عمَّا ينتظره هناك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني والعشرون

شوارع لشبونة

يخبرنا جاسبار كوريا أن لوبيز «نزل سرًّا في منزل قبطان السفينة ومن هناك ذهب ليلًا كي يتحدث إلى الملك والملكة وأنهما أعطياه صوامع وبيوت الرهبان كي يقيم فيها».

انتشرت كلمات ديفيد روبني بين اليهود والمسيحيين الجدد انتشار النار في الهشيم، بالرغم من أن روبني كان في جميع تصرفاته يلتزم أقصى درجات الحذر والتحفظ. كان يعلم أنه يسير على حبل مشدود، وأنه وإنْ كان يحظى حاليًّا بدعم الملك البرتغالي على الأقل، فإن أي كلمة أو إشارة طائشة منه يمكن أن تشجع المسيحيين الجدد على العودة إلى اليهودية، سوف تعني موته. أما بالنسبة إلى الشاب ديوجو بيريز، الذي أصبح يتسمى الآن باسم «سولومون مولكو»، فقد اعتبر ظهور روبني بمثابة الصاعقة. تلقى مولكو، الذي ولد في عام ١٥٠١ تقريبًا، تعليمًا جيدًا وارتقى سريعًا على سلم طبقات المجتمع، حتى شغل منصب سكرتير في المحكمة العليا. ظلت الأحلام والرؤى تزعجه لسنوات عديدة ولكن لقاءه مع روبني كان بمثابة الحافز الملهم. فبعد فترة صوم وأحلام، كشف مولكو عن رؤيتين رآهما. الأولى هي أن فيضانًا مدمرًا سوف يجتاح روما، مقر البابوية، والثانية هي أن زلزالًا سوف يضرب البرتغال. بالنسبة إلى العديد من اليهود، كان يمكن لكلمات مولكو أن تؤدي إلى كارثة، لأن طبيعتها الملهبة للمشاعر سوف تستثير حتمًا غضب الملك. وفي هذه الأثناء، وفي ظل أجواء محمومة تسودها نبوءات غيبية تبشر بقرب ظهور المسيح، وشائعات واضطرابات تنتشر في لشبونة، عاد لوبيز إلى المدينة.

على مدى ربع قرن من الزمان غاب خلالها لوبيز عن المدينة، تضاعف عدد سكان لشبونة. لا بد أن الضجيج الذي استقبله كان يصم الآذان: صوت حوافر الخيل وعجلات العربات التي تشدها في الشوارع المرصوفة بالحصى، وصوت وضراوة منشار الأخشاب وأصوات الطُّرق في أحواض بناء السفن، والواجهة البحرية في ريبيرا داس ناوس، وصوت أحاديث الناس المتواصلة وصياحهم. لدى وصوله إلى لشبونة، أنزل لوبيز في أول الأمر بالقرب من القصر، ولكن كان واضحًا منذ البداية أن ضجيج المدينة أصابه بحالة من الارتباك، وكذلك المتطفلون الذين لم يتركوه وشأنه بدافع الفضول، ولذلك أصدر الملك أوامره بنقله إلى صومعة. وهناك تُرك لوبيز بمفرده تقريبًا، وشعر بمتعة كبيرة في حديقة النباتات والبستان، التي ضمت زهورًا عطرية وافرة. سُرعان ما انتبه إلى وجود الأشجار المستوردة وزهور الزينة في الحديقة، ولاحظ أن هناك أشياء تثير الدهشة جيء بها من العالم الجديد مثل الطباق والفلفل الحار

وعبَّاد الشمس. وفي الأعم الأغلب تركه الرهبان وشأنه في انتظار تعليمات الملك المرتقبة. وفي الدير لاحظ لوبيز أن هناك آخرين غير الرهبان يسكنون الدير، ومن بينهم العديد من النبلاء ضئيلي الشأن ممن كانوا ذات يوم في خدمة الملك، لكن أحوالهم تردَّت الآن ولم يعد لديهم ما يعتاشون منه. ربما سيكون هذا هو المكان الذي سينتهي به المطاف إليه، إذا لم يقفز إلى إحدى السفن التي تغادر البرتغال.

كان يدرك أن لشبونة حتمًا تغيرت، لكنه لم يتصور قَطُّ أن تحولها بلغ هذا الحد الرهيب. حينما غادر ضفاف نهر تاجا في طريقه إلى الهند كانت المدينة لا تكاد تظهر من غموضها الأطلسي الذي فرضته عليها الجغرافيا. لقد اتسعت لشبونة التي ينظر إليها لوبيز الآن بعد سنوات عديدة من مغادرتها، وأصبحت مركزًا تجاريًّا مزدهرًا يتفوق على البندقية وغيرها من مدن البحر المتوسط التجارية. وفي سنوات غيابه، أصبحت المدينة مركزًا حيويًّا للمشروعات العالمية في أعالي البحار، وباتت تبحر منها السفن إلى الإمبراطورية البرتغالية، وبها يتم تفريغ البضائع القادمة من أفريقيا والهند والصين. في عام ١٥٠٦ حينما غادر البرتغال، كانت بيليم هي بيليم ولا شيء غير ذلك. وكانت تُعرف عندئذٍ باسم «ريستلو»، ولم تكن أكثر من قرية تقع على الواجهة البحرية ضمن الضواحي الغربية في لشبونة، حيث ترسو السفن إلى حين وصول طواقمها إلى الشاطئ. وجد كنيسة صغيرة بُنيت وكُرست باسم «سيدتنا نجمة البحر». كان الاسم يشير بالطبع إلى حامية الذين ينطلقون إلى أعالي البحار وأيضًا إلى قصة الحكماء الثلاثة، الذين أرشدهم النجم إلى بيت لحم، أو «بيليم» بالبرتغالية، وهو الاسم الذي أصبحت تعرف به القرية. وفي كنيسة «سيدتنا نجمة البحر» صلى فاسكو دا جاما عشية إبحاره في رحلته التاريخية، وهناك أيضًا سهر لوبيز الليل قبل إبحاره. ولكن لوبيز كان يشعر الآن بالذهول إزاء هذه المتغيرات والتحولات: كان مانويل قد أمر ببناء دير جديد هناك، ووضع حجر أساسه في ٦ يناير ١٥٠٢. كان تاريخًا يحمل قيمة رمزية، فهو يوافق عيد الغطاس، ذلك اليوم الذي يُحيي ذكرى قدوم الحكماء الثلاثة، وكان مانويل مصممًا على بناء بيت لحم جديد في ريستلو مدفوعًا في ذلك برؤيته المسيحانية المنبثقة عن عقيدة قرب ظهور المسيح.

أثار دهشة لوبيز العدد الكبير من الرجال والنساء من ذوي البشرة السوداء الذين يمشون في شوارع لشبونة. وبحسب أحد المعاصرين لتلك الفترة، «أصبحت المدن البرتغالية تضم كثيرًا من العبيد السود حتى بدت وكأنها رقعة شطرنج يوجد فيها من السود ما يساوي عدد البيض»، وزعم البعض، ربما ببعض المبالغة، أنه لم يعد في لشبونة منزل لا يضم جارية من «الموريين». وفي لشبونة، كان بإمكان لوبيز أن يرى أفريقيًّا أسود يجدف في قارب، فيما يضرب آخر على الدف في عرس لزوجين أبيضين يتعانقان في وضع

رومانسي، وأن يرى نساءً سوداوات البشرة يحملن حاويات فوق رؤوسهن ـ بعضها جِرار من الماء وبعضها دِلاء تمتلئ بالغائط. وسواء كان ذلك من العربات التي ركبها أو في المرات القليلة التي مشى فيها عبر الشوارع، كان يصادف سوداوات البشرة يعملن بائعات جائلات يبعن الأرز والكُسكسي والحمص والفاصوليا والخوخ والمأكولات البحرية. ومثلما لاحظ لوبيز بهدوء الأفارقة السود وهم يجدفون في القوارب أو يحملون الغائط أو يبيعون أدواتهم، فقد أدرك سريعًا أنهم وباعتبارهم آخر الوافدين إلى لشبونة، يؤدون أحط الأعمال، رغم أن بعضهم، مثل العبيد الذين يعملون في المنازل، كانوا يرتدون ثيابًا مبهجة. أما ما لم يكن يعرفه في البداية فهو أنه على الرغم من أن معظم الأفارقة يُعمَّدون لدى وصولهم إلى لشبونة، فإنهم حينما يموتون لم يكونوا يُدفنون في مقابر مسيحية، ولكن تُلقى جثامينهم في حفرة جماعية للعبيد في أرض لم تتم مباركتها.

ولعله تذكر على نحو مبهم أن قصر الملك كان على وشك الاكتمال حينما غادر لشبونة، ولكن ها هو قصر «باسو دا ريبيرا» يقف بكل روعة على ضفاف نهر تاجا الذي يمتلئ بالقوارب والسفن. ومن القصر الملكي، الذي رُوعي في تصميمه أن تتوزع المباني الحكومية حول باحتين، كان بإمكان الملك أن يطل من قصره كي يرى عمليات تفريغ البضائع وإنزال الحيوانات، مصدر ثروة البرتغال، وأن يبدي إعجابه بالبضائع والتوابل والسلع الكمالية التي تصل إلى لشبونة من جميع أركان الأرض. في الطوابق السفلية من القصر التي بنيت لغاية استراتيجية أسفل مقر الملك، توجد مكاتب الجمارك الخاصة بأفريقيا والهند، وكانت تصطف بامتداد الجدران الداخلية للباحة. وتحت درجة كبيرة من السرية والحراسة كانت تُحفظ مفاتيح هذا الكنز العظيم، ألا وهي خرائط العالم وكتب إرشادات الإبحار والمخططات البحرية. وهناك كان يعمل رسَّامو الخرائط والكوزموغرافيون، الذين يرسمون معالم البلدان الأجنبية بأكبر قدر من التفاصيل. هنا كان مقر السلطة. وهنا كان يعيش ملك البرتغال، الملك التاجر.

هل تغيرت أمور كثيرة، أو لعل لوبيز هو مَن تغير؟ لاحظ لوبيز على وجوه معظم البرتغاليين ملامح حزن، وأصبحت أجواء المدينة مشحونة بحالة من الجدية التي تكاد تصل إلى حد الكآبة، وتجلى ذلك في مظهر الرجال وهم يرتدون ثيابًا سميكة وداكنة من الصوف وقبعات داكنة مزينة بالشرائط، وذلك لأن ارتداء الحرير كان مستهجنًا بل وسيُحظر عمَّا قريب. وهكذا كانت الحال دائمًا، ولكن بعد التعرف على ألوان الهند أصبح اللباس الكئيب للبرتغاليين يمنح مواطنيها هيئة رجال يمشون في جنازات لا تنتهي. وفي بعض الأحيان، ربما شعر لوبيز بالدهشة حينما وقعت عيناه على سيدة برتغالية ترتدي عباءة هندية مطرزة، ولكن ما كان ينبغي له أن يندهش لذلك، فخلال السنوات التي

ابتعد فيها عن البرتغال، سافر برتغاليون كُثر إلى الهند بحثًا عن حظهم من التجارة حتى إن كل لشبوني تقريبًا كان لديه قريب أو أحد المعارف قد ذهب ذات يوم إلى آسيا.

ولو أن لوبيز بحث عن المسجد، لما وجده قائمًا في مكانه حيثما كانت ذاكرته تصر على وجوده: فقد أمر مانويل بهدم المبنى.

وفي ٨ أكتوبر ١٥٣٠، غمرت روما فيضانات كبيرة حوَّلت المدينة إلى بحيرة: وهكذا تحققت نبوءة مولكو الأولى.

لقد تغيرت لشبونة بالفعل. حينما غادرها لوبيز لأول مرة إلى الهند، كانت البضائع القادمة من آسيا ترفًا يثير الدهشة، ولكنها باتت الآن في كل مكان، وغالبًا ما تُشترى وتباع مستعملة في مزادات تقام يوميًّا في ميدان روسيو، حيث يتسكع الأغنياء والفقراء بحثًا عن الصفقات. كانت تُباع أساور يستطيع لوبيز أن يدرك من فوره أنها قادمة من بيجابور. وكانت توجد أقراط على هيئة بجعات ومسابح مصنوعة من بلورات صخرية. ويمكن للمرء أن يشتري عظم ظهر سلحفاة في إطار من الذهب، ويمكن أن يكون، إذا رغبت، من الياقوت الأزرق والياقوت الأحمر، أو لوحات ألعاب أو مكاتب تُستخدم في الكتابة ويمكن حملها أو خِزانات كبيرة، وجميعها مغطاة بأم اللؤلؤ. لم تكن البضائع القادمة من آسيا هي وحدها ما تدفقت على لشبونة، فقد وُجدت في متاجر السوق مشغولات أفريقية قادمة مما يعرف الآن بـ«سيراليون»، ومن مملكة الكونغو (الكونغو)، ومن بنين، وُجدت في أكشاك السوق بضائع مثل الجلود والخشب والريش وبالطبع العاج، الذي نُحتت منه العديد من الأشياء الجميلة مثل الملاعق الصغيرة التي كان يشتد عليها الطلب. كان التجار في لشبونة يبيعون أيضًا كميات كبيرة من بورسلين مينج، وأصبح طلاء اللاكيه القادم من الشرق الأقصى يحظى برواج كبير للغاية. وأصبح الصيدلانيون يحققون أرباحًا كبيرة في شارع روا نوفا، وتعرَّف لوبيز على العديد من العقاقير التي عرفها في الهند مثل الكافور. وكانت قرون وحيد القرن، بعدما تُطحن حتى تصير مسحوقًا يُمزج بالنبيذ، تُستخدم كعلاج للطاعون والصرع والكآبة، وكذلك تُستخدم سُمًّا؛ بل وكان يشيع اعتقادٌ بأنها ذات قوة خارقة.

كانت حيوانات وحيد القرن موجودة بالفعل في لشبونة، استوردها الأثرياء والذين يدفعهم الضجر والفضول، ومن بين مجموعات الحيوانات في لشبونة صادف قرودًا من غرب أفريقيا تم شراؤها كي تكون حيوانات أليفة أو تذكارات حيَّة، والديك الرومي الأمريكي المستأنس والببغاوات التي تنتشر في كل مكان. ووجد أيضًا الفيلة التي أصبحت مصدر شغف كبير في لشبونة. وفي عام ١٥١٤، شهد رحَّالة فلامندي وهو يان تاكون فيلين ذكرين ومعهما فيل أنثى، ووصف الفيلة بأنها «ضخمة وقبيحة ورمادية اللون ولها آذان

عريضة وكبيرة، وذات طبيعة هادئة»، وتشرب من ينبوع ماء في لشبونة، فتملأ خراطيمها بالماء ثم تنثره على الناس المتجمعين حولها. لقد تغيرت لشبونة بالفعل، هذا ما أدركه لوبيز.

في شوارع لشبونة راح يبحث عن ذاته وعن الصبي الذي كانه ذات يوم. كان يأمل أن يجد الشوارع نفسها المرصوفة بالحصي التي كانت مرتع لهوه وصباه، أو المدخل المقوس المنقوش حيث اعتاد الاحتماء من المطر، أو حتى الشجرة التي اعتاد أن يتسلقها في ساعات ما بعد الظهيرة الطويلة خلال الصيف، وإذا استطاع على نحو ما أن يجد هذه الأماكن ويقف في نفس البقعة، نفس البقعة بالضبط، فلربما أمكنه أن يتواصل مع ذاك الصبي الصغير ويفهم ما جرى أخيرًا. بالطبع كانت هناك العديد من الشوارع في لشبونة التي تعرَّف عليها ولكنها لم تكن تهمه كثيرًا، لأن تلك الشوارع كانت تخص الشاب الذي كان يمشي فيها معتدًّا بنفسه. كان يريد أن يعود إلى الماضي وينظر عبر الغيوم الكثيفة الموجودة بذهنه ويعيد الاتصال بالصبي الصغير. ولكن حتى في أثناء بحثه، كان يشعر بالفعل بأن زمنًا طويلًا قد انقضى، وأن الهوة التي تفصل بينه وبين ذاته أضحت شاسعة. لا تزال الشوارع والمداخل والأشجار موجودة، ولكنها لم تعد كما كانت: أصبحت أصغر وأكثر صخبًا. أصبحت رائحتها مغايرة، لم يعد يجد بها رائحة طفولته ولكن رائحة عصر آخر. لقد تغيَّر كل شيء. أصبحت الغيوم أشد كثافة. انكسرت الدائرة. كان نادرًا ما يغادر الدير إذ يزعجه صخب الشوارع وضوضاء جموع الناس. كان كثيرًا ما يلفت الانتباه، وأصبح تشوهه رغم كل شيء بطاقة تهنئة خاصة، وحالما يميزه أحد يوقفه الغرباء الذين يرغبون في التحدث معه. كان معظمهم يطلبون منه أن يحكي لهم عن محنته، ويصرون على التفاصيل؛ وسأله بعضهم هل كان من بين الذين حاولوا قتل ألبوكيرك، وسأله قليلون هل كان بمقدوره أن ينقذ أرواحهم. لهذا السبب، آثر البقاء في حديقة الدير، ولكن الآن، وربما مدفوعًا بنزوة ما، قصد شارع روا نوفا وسرعان ما عثر على ما كان يبحث عنه. حينما كان صبيًّا كان يقف دائمًا يحدق إلى منزل التاجر الفلورنسي الثري بارتولوميو ماركيوني، وهو رجل كان يُشاع أنه فاحش الثراء ولا يمكنه حتى أن يحصي أمواله. وبالنسبة إلى لوبيز الصبي، كان ماركيوني يمثل كل ما كان يأمل أن يكونه: ثريًّا وصاحب نفوذ (وكان معروفًا بأنه صديق مقرب للملك)، وأن يكون منزله في شارع روا نوفا. حاول أن يتذكر أين اعتاد بالضبط الوقوف حينما كان يطيل النظر إلى المنزل، وقد اتخذ الآن الوضعية نفسها، ولكنه أصبح رجلًا عجوزًا في مكان الشاب الحالم. قيل له إن ماركيوني مات منذ مدة طويلة، وإنه أورث منزله لابنة أخته إيلينا كوربينيلي. كان هناك ما يغريه بأن يطرق الباب ويبلغ إيلينا كوربينيلي، ابنة شقيقة التاجر الفلورنسي بارتولوميو

ماركيوني، بأنه، فرناو لوبيز، وأنه عاد إلى لشبونة. ولكن بدلًا من ذلك، استدار وقفل عائدًا إلى حديقة الدير.

وبحسب كوريا كان اللقاء مع الملك والملكة قد تقرر له أن يتم في منتصف الليل وفي غرفتهما الخاصة. ولكن قبل اصطحابه إلى القصر، كان يتعين أن يصبح لائقًا للمثول بين يدَي الملك والملكة. فيجب أن تُقلمَّ أظافره، ويُقص شعره ولحيته البيضاء. كان لوبيز الآن في الخمسين من عمره.

لكن جميع المصادر تلتزم الصمت حيال ما جرى خلال اللقاء. ربما وُجدت سجلات ولكنها تعرضت للتلف في الزلزال المدمر الذي ضرب لشبونة عام ١٧٥٥، وتظل دائمًا احتمالية كشف الأرشيف البرتغالي عن وثائق جديدة قائمة. ولكن حتى ذلك الحين سوف نظل في مواجهة الصمت الرهيب. وهذا الصمت في حدِّ ذاته (وبافتراض أن هذه السجلات لم تُفقد أو تتعرض للتلف)، يجب التوقف أمامه لكونه ليس بالأمر الشائع. فعادة ما يحضر اللقاءات الملكية كَتَبة الملك وحاشيته، ولكن كل ما أخبرتنا به المصادر هو أن الملك والملكة التقيا لوبيز في غرفتهما الخاصة، وبعد ذلك تتواصل أحداث القصة (بحسب رواية كوريا) بطريقة دراماتيكية للغاية. إذن كيف يمكن للمرء أن يفسر هذا الصمت؟ لسبب ما، يمكننا أن نفترض أن عقد اللقاء في حدِّ ذاته يعني أن بإمكاننا الحكم بأن لوبيز كان يتمتع بسلامة العقل: فما كان للملك ولا للملكة أن يقابلا رجلًا فقدَ عقله. إن سلامة عقل لوبيز حقيقة تدعمها الآن أفعاله، ولكن عقد اللقاء يؤكد ذلك قطعًا. أما الحقيقة الوحيدة الأخرى التي يمكننا التشبث بها فهي أنه لم يعد إلى الجزيرة فور انتهاء اللقاء، ولكنه بقي في لشبونة، لأن الملك الآن، على ما يبدو، اتخذ أكثر القرارات غرابة فيما يتعلق بمصير فرناو لوبيز (قرار كان له أبلغ الأثر على مصير لوبيز).

ونأتي الآن إلى الحدث الأكثر غموضًا في حياة فرناو لوبيز العجيبة، وهو أمر مدهش بقدر ما هو محير. بعد انتهاء لقائه مع الملك، يروي جاسبار كوريا أن لوبيز عاد إلى الدير الذي نزل به أول مرة حيث سُلِّم إلى الرهبان الذين تلقوا تعليمات صارمة بأن يتركوه وشأنه في سلام. كان يأمل أن يعود قريبًا إلى سانت هيلانة، ولكن مضت أيام، وبعد ذلك أسابيع، ولم تأتِ من القصر أي إشارة وبقي لوبيز في لشبونة. وأخيرًا، وحينما جاءت أوامر جواو، لم تكن بمغادرة لوبيز إلى الجزيرة ولكن بدلًا من ذلك أمر باصطحابه إلى روما للقاء البابا كليمنت السابع. لم يتضح السبب وراء قرار جواو: لعله تأثر بالكلام مع لوبيز أو لعل كاثرين هي من أقنعته، كونها أكثر فطنة في إدراك طبيعة لوبيز. هل حدث شيء مؤثر خلال اللقاء جعل الملك يتخذ هذا القرار؟ ومهما يكن، فإن المرء لا يرسل شخصًا آخر هكذا لمقابلة البابا من دون سبب، ولكن أوامر الملك كانت بأن يسافر لوبيز إلى روما للمثول بين يدَي البابا. لم تخبرنا

المصادر بردة فعل لوبيز، وخلال أيام حان موعد السفر حيث ذهب على متن سفينة نقلته إلى نابولي ومنها إلى روما. وهناك استُدعي لوبيز إلى الفاتيكان للمثول بين يدَي البابا الذي منحه الغفران وركع بين يديه واعترف بردته.

من المهم في هذه المرحلة أن ننقل كلام كوريا كله، رغم أنه وجيز. فقد كتب كوريا عن لوبيز يقول:

لم يكن يرغب في قبول أي شيء، ولكنه ذهب إلى روما بأمر من الملك، وقدَّم اعترافه للبابا الذي ابتهج لرؤيته، وبعث رسالة إلى الملك يطلب منه فيها أن يأمر بإعادته إلى الجزيرة.

يا لها من قصة رائعة حقًّا، ولقاء جمع بين ناسك برتغالي مشوَّه، وربما لا يزال مسلمًا، كان يعيش حتى قبل بضعة أشهر في عزلة تامة، وبين الرجل الأقوى في العالم المسيحي. في غضون أسابيع وفي سلسلة من الأحداث المحيرة، التقى لوبيز ملكَ البرتغال والبابا، وكلاهما استمع إلى قصته ومنحاه بركاتهما. حدثٌ مذهل بجميع المقاييس، وإن كنت لست واثقًا إن كان وقع بالفعل أو لا. في المرة الأولى التي قرأتُ فيها رواية كوريا عن لقاء لوبيز مع البابا، غمرتني ضخامة الدراما في القصة، التي تكاد تكون ملحمية. لقد تأثر ملك البرتغال بالحكمة التي رآها لدى لوبيز فقرر أن يرسله إلى البابا الذي منحه الغفران وسط أجواء مؤثرة قبل أن يَصرفه. ما يهمنا هنا هو أن البابا هو من طلب من الملك أن يأذن بعودة لوبيز إلى الجزيرة. لكني كلما طالعت المزيد عن القصة، زاد انزعاجي مما وُصف. وببساطة، لم يكن ذلك يبدو لي صحيحًا. بدا وكأنه نغمة نشاز في مقطوعة موسيقية، لم تبرز إلا بسبب نشازها.

إن المشكلة في رواية كوريا هي أن المرء حينما يمعن النظر في الحياة العجيبة للعزلة والصمت المتسامي الذي أحدث تغييرًا هائلًا لدى لوبيز، يجد أن كلمات مثل الردة والغفران لا تنسجم مع ذلك. هل من المفترض أن نصدق أنه وبعد قضائه ١٤ سنة من العزلة في سانت هيلانة، لا تزال فكرة الغفران الذي يمنحه البابا تحمل أي مغزى عند لوبيز؟ ربما جاز للمرء أن يجادل بأنه كان يشعر بأنه يفتقد شيئًا ما في حياته وأنه اغتنم فرصة غفران البابا. ومهما يكن، فإن مثل هذا الغفران لم يكن يُمنح لأي أحد والسلام. وبالإضافة إلى ذلك، فإن رواية كوريا لم توضح السبب الذي جعل لوبيز يرغب في الاعتراف بالردة. وفي اعتقادي الشخصي فإن لوبيز أكره على التحول إلى الكاثوليكية وهو صبي، وإنه عاش لبضع سنوات، شأنه شأن العديد من المسيحيين الجُدد، في منطقة وسطى بين عقيدتين. في الهند، نعلم أنه أصبح مسلمًا وبدا أنه وجد ما كان يبحث عنه في هذا الإيمان. وبحسب كلامه، فقد أخبر جواو ماشادو بأنه سيموت مسلمًا. لقد اختار ألا يعود إلى الإيمان الكاثوليكي بعد باناستاريم، ولا حتى في أثناء تنكيل ألبوكيرك به، ولا حتى حينما كان يعيش

في فقر مدقع. فهل يُفترض أن نصدق أنه في جزيرة سانت هيلانة استحوذت عليه فجأة الرغبة في نيل الغفران؟ وإذا كانت لدى لوبيز أي أمنية حينما وطأت قدماه لشبونة مرة أخرى بعد سنوات طويلة من مغادرتها، فإنها العودة إلى سانت هيلانة.

ومع ذلك، تخبرنا المصادر أن لوبيز التقى البابا. وعلى الرغم من أن القساوسة في لشبونة أو روما يقبلون اعترافات التائبين، فقد صُنفت بعض التجاوزات بأنها «حالات محجوزة للبابا»، وفي هذه الحالات لم يكن للقساوسة العاديين أو حتى الأساقفة سلطة منح الغفران. وكان لوبيز، على ما يبدو، أحد هذه الحالات. ومع ذلك، حينما قررتُ أن أتتبع هذه القصة حتى مصادرها، سواء في لشبونة أو في الفاتيكان، فوجئت بما وجدته، أو للدقة، بما لم أجده. لم أجد أي دليل على لقاء جمع بين لوبيز والبابا. ونظرتُ في سجلات السفير البرتغالي لدى الفاتيكان بين عامَي ١٥٣٠ و١٥٣١، وهي السنوات التي يُفترض أن اللقاء جرى خلالها، ولا سيما أيام عيد الفصح في عام ١٥٣٠ حينما يكون البابا كليمنت السابع في روما. وبصفته ممثلًا للملك في روما، من المؤكد أن السفير سجَّل مثل هذه الزيارة، لا سيما وأنها جاءت بناءً على توجيهات من الملك. ومع ذلك لم يرد ذكر لأي زيارة أو أي لقاء. انتقلت بعد ذلك إلى أرشيف الفاتيكان نفسه، وهو يتميز بدقته الشديدة في تسجيل لقاءات البابا، ظنًّا مني أني سوف أجد بُغيتي. ولكن حتى هناك لم أجد وثيقة واحدة تشير إلى هذا اللقاء. لا يوجد ما يشير إلى أن البابا قابل لوبيز. كان لغزًا. ربما عُقد اللقاء سرًّا، ولكن لا بد أن هناك سجلًا ما في مكان ما؟ كان الاستنتاج الوحيد الذي استطعت الوصول إليه هو أن كوريا اختلق قصة هذه الزيارة، وأن لوبيز لم يطأ بقدميه روما.

إن السؤال الذي يتعين علينا طرحه هو: لماذا؟ إذا كان لوبيز لم يقابل البابا قَطُّ، فلماذا قرَّر كوريا اختلاق هذه القصة؟ قبل الإجابة عن هذا السؤال، يجدر بنا التنويه ببعض الملاحظات الأولية: في عام ١٥١٢، سافر كوريا إلى الهند ومكث في الشرق ٣٥ عامًا. وهذا يعني أنه، حينما كان لوبيز في أوروبا، كان كوريا على بعد بضعة آلاف من الأميال من الأحداث التي كان يكتب عنها. ومن المهم أيضًا ملاحظة أن «ليندا‌س دا إنديا»، وهو كتاب كوريا، لم يُطبع حتى عام ١٨٥٩، أي بعد مرور ما يقرب من ٣٠٠ عام على وفاته، وهو وقت كافٍ لأن يقحم أحدهم، في مرحلة لاحقة، قصة لقاء لوبيز مع البابا. كان كوريا يعرف لوبيز. كان موجودًا في الهند في الوقت نفسه، وكان شاهد عيان على معركة باناستاريم وما أعقبها من أحداث. ولكنْ هناك أمر مهم للغاية وهو أن كوريا كان سكرتيرًا لدى ألبوكيرك وشديد الولاء له. ولا ندري هل كان يشاطر الحاكم وجهات نظره، وإذا افترض المرء ذلك، فمن الطبيعي أن يكون غير راضٍ بالمرة عن خيانة لوبيز. وحينما غادر لوبيز الهند، لم يعد هناك أي اتصال

بين الرجلين، لكن كوريا لم ينسه، واعتمد في بحثه على روايات غير مباشرة، كي يكتب عن حياة لوبيز في سانت هيلانة. وكتب كوريا أيضًا عن عودة لوبيز إلى لشبونة ولقائه مع الملك، وتؤكد مصادر أخرى أن هذا اللقاء وقع بالفعل. هل من الممكن أن يكون كوريا استوحى بضعة أسطر من خياله حول اعتراف لوبيز أمام البابا؟ ربما أراد أن يحسم مسألة عالقة ويمنح لوبيز ما اعتبره نهاية مسيحية لائقة، أو ربما كان شعوره بالولاء نحو ألبوكيرك لا يزال يحركه، ومن ثَمَّ لم يدع لوبيز يفلت من دون اعتراف علني بالذنب. باختصار نحن لا نعرف، ولكن في تلك المرحلة من بحثي كنت واثقًا دائمًا بأن اللقاء بين البابا ولوبيز لم يحدث قَطُّ. وعلى أي حال، لماذا يهتم ملكٌ برتغالي تحدى سلطة البابا علنًا وأصر على عقد محاكم التفتيش، بإرسال ناسك من جزيرة معزولة إليه؟

وتكمن المشكلة في أن استبعاد رواية كوريا لقصة البابا يعني أن على المرء أن ينظر بعين ناقدة لقصة لوبيز بأكملها. وبعبارة أخرى، إذا كان كوريا اختلق هذه القصة، فلماذا لم يختلق قصصًا أخرى؟ ولذلك قررتُ إعادة قراءة قصة فرناو لوبيز حسبما أوردتها المصادر الأصلية بنظرة ناقدة للتركيز على أجزاء القصة التي وردت في معظمها لدى كوريا أو تلك التي يكون هو وحده من أوردها ولم تؤكدها أي مصادر أخرى. ذكرتُ آنفًا قصة كوريا عن الصبي العبد الذي «اكتشف» وجود لوبيز وكيف كتب كوريا، بالرغم من الأدلة، أن الصبي كان موجودًا بالجزيرة منذ عدة سنوات. كان ذلك مثالًا، يشبه قصة لقاء البابا، ولكني صادفت أيضًا قصة أخرى نظرت إليها الآن من منظور مختلف، وهنا يتعين علينا العودة إلى قصة الديك في الجزيرة. إن القصة في حد ذاتها آسرة للغاية حتى إن المرء يتمنى لو كانت صحيحة؛ ولكن ماذا لو كان كوريا أقحمها لسبب آخر غير تأثيرها الدرامي؟ بالتأكيد، إذا كان يقدم دليلًا عليها، فإن اختياره الديك كان اختيارًا محملًا بالرمزية، لأن البرتغاليين في ذلك الزمن كانوا على دراية بالرمزية التي يحملها. لقد أدى الديك دورًا في آلام المسيح، فحينما أكد بطرس للمسيح أنه لن يُنكره أبدًا، أجاب المسيح قائلًا: «الحق أقول لك: إنك اليوم، وحتى قبل أن يصيح الديك مرتين، تنكرني ثلاث مرات». وقد حدث بالفعل أن بطرس أنكر المسيح، وبعد أن فعل ذلك تاب وقُبلت توبته. وهكذا فإن الديك يُذكِّر المؤمنين بأن المسيح يفتح ذراعيه لجميع الذين أنكروه. ويأتي ذِكر الديك أيضًا حينما قال المسيح: «اسهروا إذن، لأنكم لا تعلمون متى يأتي رب البيت، أمساءً، أم نصف الليل، أم صياح الديك، أم صباحًا...».

كان البرتغاليون يعتبرون الديك من الطيور ذات القيمة الكبيرة ويجب محاكاته، لأنه يرقب طلوع الصبح، ويترقب المسيحيون طلوع الفجر حينما يعود المسيح ليقضي بين الأحياء والأموات. إنكار ثم توبة، يتساءل المرء هل اختلق كوريا قصة الديك باعتبارها دليلًا خفيًّا على إنكار لوبيز للمسيح (حينما

تحول إلى الإسلام) ثم خلاصه النهائي على يد البابا؟ ربما ذلك، أو ربما كان هناك بالفعل ديك رغم كل شيء.

ومن نواحٍ كثيرة كان ينبغي أن يكون الأمر كذلك. إن عدم وجود أي أدلة وثائقية على اللقاء الذي جمع البابا ولوبيز قادني تدريجيًّا إلى استنتاج مفاده أن كوريا أقحم هذه الحكاية لسبب أو لآخر في روايته. ومع ذلك، وبعد أن خلصت إلى هذا الاستنتاج، أخذت الأمور منعطفًا مثيرًا للاهتمام حينما صادفتُ مصدرًا آخر عاصر هذه الفترة، وهو أحد أعظم المؤرخين البرتغاليين، الذي أكد بوضوح أن لوبيز التقى البابا كليمنت السابع. وفي أواخر ثلاثينيات القرن السادس عشر، كلَّف جواو دي باروس بكتابة سرد تاريخي للنصف الأول من القرن لإمبراطورية البرتغال في آسيا على غرار «تاريخ روما» للمؤرخ الروماني تيتوس ليفيوس، وهو ما جاء في كتاب «عقود من الزمان في آسيا» (Décadas da Ásia) حيث عثرتُ على الفقرة التالية:

بعد أن أمضى سنوات طويلة يُكفِّر فيها عن ذنوبه، عاد إلى هذه المملكة [البرتغال]. ومن هنا أُرسل إلى روما كي يطلب المصالحة والغفران التام لخطاياه. وبعد أن تحقق له ذلك، أُعيد إلى هذه الجزيرة [سانت هيلانة] حيث لا يزال يُكفِّر عن ذنوبه في أثناء تدويني هذا الكلام.

كان المحتوى مشابهًا لما كتبه كوريا، عدا أن كوريا أضاف أن البابا كتب رسالة إلى ملك البرتغال يطالبه فيها بأن يأمر بإعادة لوبيز إلى سانت هيلانة. وهذه هي نسخة كوريا:

لم يكن يرغب في قبول أي شيء، ولكنه ذهب إلى روما بأمر من الملك، وقدم اعترافه للبابا الذي ابتهج لرؤيته، وبعث رسالة إلى الملك يطلب منه فيها أن يأمر بإعادته إلى الجزيرة.

يمكننا أن نستبعد رواية كوريا، لكن الأمر يختلف مع باروس. إن كتابه «عقود من الزمان في آسيا» يمثل إنجازًا أكاديميًّا رائعًا، وهو من جوانب عدة سابق لزمنه. فقد جمع باروس بطريقة علمية ودقيقة الكتب والمخطوطات الآسيوية التاريخية والجغرافية، بل بلغ به الأمر أن اشترى عبيدًا متعلمين كي يترجموها له. ويستشهد بسجلات تاريخية عربية وفارسية ومؤلفات جغرافية وكذلك بسجلات تاريخية هندوسية استطعنا من خلالها معرفة الكثير عن مملكة فيجاياناَجار. بل إنه يستشهد بمؤلفات جغرافية صينية ويذهب إلى أن الإنجازات الصينية تتفوق على تلك التي يُنسب الفضل فيها إلى الإغريق والرومان في العصور القديمة. وكان أيضًا أول كاتب يصف حياة وعادات الشعب التايلاندي.

إن حقيقة أن باروس، وفي خضم كل هذه التواريخ والسلالات الحاكمة، اختار أن يذكر قصة لوبيز تعني أنها كانت مشهورة في عصره. ويرى باروس أن

وجود لوبيز في سانت هيلانة كان تكفيرًا عن خطاياه، ما يشير إلى أن هذا هو السياق الذي يجب أن نفهم من خلاله روايته (على الرغم من أنه لا يقدم أي دليل على أن هذا هو الحال). ومع ذلك، فإن تعليق باروس التالي هو مما يثير الاهتمام: «ومن هنا أُرسل إلى روما كي يطلب المصالحة والغفران التام لخطاياه». ما يثير الاهتمام هو أن الجملة جاءت في صيغة الأمر. ولا يوجد ما يشير إلى أن لوبيز نفسه طلب الذهاب إلى روما. وبالنظر إلى الكلمات التي انتقاها باروس للتعبير عن ذلك، يبدو أن لوبيز لم يكن لديه خيار في هذا الأمر. والشيء الذي لا يقل إدهاشًا هو أنه لم يتم إخبارنا عن السبب الذي لأجله كان عليه أن يُكفر ولا عن الخطايا التي كان يحتاج لها إلى غفران تام. ربما بقي ذلك افتراضًا، لكنه لم يُصرح به فعلًا. هل كان لتمرده على الملك؟ إن ذلك، في حد ذاته، لم يكن يتطلب تدخلًا من البابا، ولذلك يتعين على المرء أن يفترض أن خطيئته هي أنه أصبح مسلمًا. يمضي باروس بعد ذلك إلى القول: «أُعيد إلى هذه الجزيرة [سانت هيلانة] حيث لا يزال يُكفِّر عن ذنوبه في أثناء تدويني هذا الكلام». والشيء المذهل هو أنه حينما كان باروس يكتب هذا الكلام، ربما في السنوات الأخيرة من ثلاثينيات القرن السادس عشر (١٥٣٠)، كان لوبيز على قيد الحياة ويعيش في الجزيرة. لكن باروس يصر بعد ذلك على أن لوبيز بعد عودته إلى الجزيرة استمر في التكفير عن ذنوبه، رغم حصوله بالفعل على الغفران التام! وللمرء أن يدهش بسبب صيغة البناء للمجهول التي ورد بها ذكر لوبيز في رواية باروس، التي تصوره وكأنه بيدق في مباراة شطرنج. قد يكون من المغري قراءة الكثير في الأسطر القليلة للغاية التي تروي هذه القصة، ولكن بالمثل لا يمكن للمرء أن يتجاهلها في صمت.

إن رواية باروس لا تتطرق إلى النقطة التي يشير إليها كوريا، وهي أن البابا «أرسل رسالة إلى الملك يطالبه فيها بإعادته إلى الجزيرة». ومرة أخرى، نجد أن الصياغة تثير التساؤلات. من الأسئلة التي تثير الاهتمام هي: لماذا كان يتعين على البابا أن يبعث برسالة إلى الملك، يطالبه فيها بإعادة لوبيز إلى الجزيرة؟ قطعًا لم يكن الملك بحاجة إلى مثل هذا الطلب من البابا كي يفعل ذلك. إن الملك هو من أمر بإبقاء لوبيز في لشبونة ثم بإرساله إلى روما، فلماذا يضيف كوريا هذا السطر؟ لماذا، بعبارة أخرى، قرَّر البابا أن يكتب رسالة يطلب فيها السماح بعودة لوبيز إلى جزيرته؟ ربما لا يكون لتعليق كوريا سوى أهمية ضئيلة، لكن من المهم أن نضع في اعتبارنا نقطة واحدة: أن الملك أصدر أمرًا خلال هذه الفترة منع بموجبه المسيحيين الجدد من مغادرة البرتغال، وإلا تعرضوا للموت وصودرت ممتلكاتهم. كانت هذه، كما أوضحنا سابقًا، هي الخطوة الأولى التي ستؤدي في النهاية إلى الخضوع لمحكمة التفتيش، ولكن ذلك كان يعني أنه إذا كان لوبيز، كما قلت، أحد

المسيحيين الجدد، فإن الأمر الملكي كان سيحول بينه وبين العودة إلى سانت هيلانة. ومن هنا كانت الحاجة إلى رسالة البابا، التي كانت بمثابة عفو. وفي مواجهة هذه الجمل المشفرة التي تضطرُّنا إلى التخمين، هل يمكن أن يكون لوبيز، ولسابق معرفته أنه لن يُسمح له بمغادرة البرتغال، طلب خطابًا من البابا كوسيلة للعودة؟

وما بين الساعة ٤ و٥ من صباح يوم ٢٦ يناير ١٥٣١، ومع عودة لوبيز إلى لشبونة وفيما كان يستعد لرحلته إلى سانت هيلانة، ضرب المدينةَ زلزالٌ مدمر. وغمرت مياه نهر تاجا وسط مدينة لشبونة، والعديد من المساكن القائمة عند مصب النهر. رست السفن فوق الخط المائي. وتعرضت المدينة لأضرار جسيمة ودُمِّر ثلث مبانيها. وتهدَّمت العديد من بيوتها، وتركزت معظم الأضرار في وسط المدينة. وفي أثناء ذلك تعرضت الكاتدرائية وكذلك الدير في بيليم لأضرارٍ في بنيانيهما، رغم أن أيًّا منهما لم يصل إلى حد الانهيار. وفي ذلك اليوم قضى زهاء ١٠٠٠ شخص.

وأشار أحد المؤرخين البرتغاليين ممن عايشوا تلك الفترة إلى أنه «في مملكة البرتغال هذه كان هناك الكثير من العمل الذي ينبغي إنجازه، فقد تعرضت للطاعون وكذلك لهزات أرضية، كانت الأرض خلالها تهتز فتتهدم المنازل والمباني ويموت كثير من الناس». وقد دوَّن ريزيندي، وهو أحد كُتَّاب الملك، قصيدة وصف بها ذلك اليوم المشؤوم:

صباح الثلاثاء

ضرب البرتغال

زلزال كبير

لم يرَ أحد له مثيلًا

ارتفع الموج من دون رياح

ولامست السفن الأرض

وبلغت أسافلها القاع

وكما هي الحال مع غيرها

فُقد كل ما هو حي

ولكن ريزيندي كان في واقع الأمر يصف شيئًا يتجاوز الزلزال. ووصف مؤرخ آخر وهو كوتو اضطراب البحر بالقرب من لشبونة:

في البحر كانت العاصفة عاتية حتى إنها ردمت وحطّمت جميع السفن الراسية في ميناء لشبونة، ويقول البعض إن نهر تاجا انفتح في منتصفه وانشطرت المياه فيه إلى ممر أظهر الرمال المترسبة في مجراه.

إن الوصف الذي تتضمنه روايات شهود العيان ممن عاصروا الكارثة لعمليات «التدفق والارتداد»، وكيف كانت المياه المتراجعة ذات قوة هائلة حتى إنها كشفت مناطق كبيرة من مجرى النهر، يرجح أن الزلزال أحدث تسونامي في المصب الداخلي لنهر تاجا.

وكتب جيل فيسينتي، وهو أبرز كُتَّاب البرتغال في ذلك الزمن، من فوره إلى الملك يحثه على إعلان أن الزلزال ظاهرة طبيعية وأن يمنع الكهنة من استخلاص الآيات من الدمار الذي لحق بالبلاد. هل كان فيسينتي يفكر في سولومون مولكو؟ بالنسبة إلى البرتغاليين، فإن الرؤيتين اللتين أعلنتا، بشكل مثير، وكما يعتقد كثيرون، بشكل جنوني، تحققتا. لكن مولكو أطلق تصريحًا، جاء أكثر إثارة من التصريحين الأولين، وهو أن المسيح سوف يظهر في عام ١٥٤٠. وبينما راح كثيرون الآن يفكرون في هذه النقطة، تساءل آخرون، عمَّا كانت عليه ردة فعل الملك، وماذا يجب عمله بشأن الرجل الذي أسمى نفسه «سولومون مولكو».

خلال هذه الفترة، انتهز جواو هذه الفرصة وكتب إلى البابا يطلب منه الحصول على إذن لبدء محاكم التفتيش في البرتغال، ثم أتبع ذلك بعام واحد بمرسوم يحظر على أي مسيحي من فئة المسيحيين الجدد مغادرة البلاد وإلا تعرَّض للقتل وصودرت ممتلكاته. كان ذلك إيذانًا بعصر من الظلمات يوشك أن يحل على البرتغال. ربما كان جواو يرغب في إطلاق محاكم التفتيش، ولكن البابا كليمنت السابع كان أقل حماسة لذلك. لم يقتنع بالحجة التي ساقها ملك البرتغال واستشعر أن جواو سوف يستخدم محاكم التفتيش في جزء منها (على نحو غير مباشر) لتعزيز هيمنة الدولة على حساب صلاحيات الكنيسة، حتى يُسمح له بالتدخل في القضايا الدينية. ولم يتأخر الأثرياء من المسيحيين الجدد في ممارسة الضغط على البابا كي يوقف محاكم التفتيش، وساقوا حجة بسيطة لذلك، وهي أن جواو يريد إطلاق محاكم التفتيش لتعزيز ثروته، لأن مصادرة الممتلكات سوف تكون شكلًا من أشكال الضرائب وتدعم الخزانة الملكية. وأكدوا أن المسيحيين الجدد أصبحوا مسيحيين مخلصين، وأن ملك البرتغال لا يهدف إلا إلى استصفاء أموالهم مباشرة. نعم كان هناك عدد كبير من أدعياء النبوة في البرتغال، ولكن كما حاجج ميستري جورج لياو، وهو طبيب بارز كان بمثابة المتحدث باسم المسيحيين الجدد، بشدة كيف يمكن معاقبة المسيحيين الجدد في البرتغال على أفعال مجانين: «ستون ألف نفس يُحكم عليها بالإدانة [أو تعيش مهدَّدة بالإدانة] بسبب بعض المهرطقين الذين

يجب أن يعاقبوا باعتبارهم كانوا ذوي عقول سليمة ثم أصابهم الخبل؟ لأنه لا أحد سوى المجانين يمكن أن يصدق مثل هذا الهراء». بالإضافة إلى ذلك، كان البابا محاطًا بالعديد من الذين تشبعوا بروح النزعة الإنسانية وأفكارها، وصدمهم مطلب الملك البرتغالي بإجراء محاكم التفتيش، ولا سيما أنها جاءت في أعقاب محاكم التفتيش الإسبانية التي كانت مثالًا آخر للوحشية الإيبيرية. كان كليمنت السابع يدرك أن هذه التقوى ما هي إلا ستار يجري من ورائه صراع مكشوف على السلطة بين الملك والكنيسة في البرتغال. وبهذا المعنى، اعتبر الفاتيكان موقف جواو من محاكم التفتيش مشابهًا لموقف الملوك الآخرين المزعجين في العالم المسيحي، ممن كانوا على استعداد للدخول في صراع مفتوح مع البابا من أجل الاستيلاء على ثروة الكنيسة. ومن المؤكد أن كليمنت السابع كان يعرف هؤلاء الملوك المزعجين، لأنه كان منشغلًا تمامًا بقضية طلاق الملك هنري الثامن ملك إنجلترا من زوجته كاثرين الأراجونية، وهو الطلاق الذي أصر البابا على عدم إجازته. وفي ذلك الوقت، تأثر البابا بالحجج التي ساقها المسيحيون الجدد، وأصدر على مدى السنوات القليلة التالية سلسلة من النشرات البابوية المتضاربة التي كان هو وخلفاؤه يجددون ويراجعون ويلغون أعمال بعضهم بعضًا، فكان البندول يتأرجح في هذا الاتجاه تارة وفي الاتجاه الآخر تارة أخرى، وفي مرحلة ما ذهب كليمنت السابع إلى حد التصريح بأن تحول اليهود إلى المسيحية عمل باطل في الأصل، لكونهم أُكرهوا على ذلك إكراهًا.

وفي نهاية المطاف، أفلح الضغط الذي مُورس على البابا للإذن بإجراء محاكم التفتيش من قبل جواو العنيد الذي لم يكل أو يمل وكذلك من قبل الرأي العام في البرتغال، ولا سيما حينما تدخل إمبراطور هابسبورج تشارلز الخامس بالنيابة عن صهره. لم يستطع البابا أن يصم آذانه عن مناشدة تشارلز، لأنه لم يكن أقوى ملوك زمانه فحسب، ولكن ربما لأن قواته كانت تتمركز في إيطاليا. ولئلا ينسى البابا، فقد أقدم القادة العسكريون لدى تشارلز ذات يوم على نهب روما. وجازف جواو الآن بكل شيء ولم يكتفِ بتهديد مقنَّع، بل ألمح في رسالة إلى البابا بأنه سيحذو حذو الملك هنري الثامن ملك إنجلترا وينفصل رسميًّا عن كنيسة روما. وهكذا، انطلقت في عام ١٥٣٦، محاكم التفتيش في البرتغال ولم يعد لأحد أن يوقفها. وكان هدفها، رسميًّا على الأقل، هو محاربة الهرطقات اللوثرية والإسلامية وكذلك اليهودية، رغم أنه لم يكن بالبرتغال وقتئذٍ أتباع للقس الألماني مارتن لوثر أو مسلمون يمكن الحديث عنهم.

وليس هذا هو الكتاب الذي نورد فيه تفاصيل التحولات والانعطافات التي حدثت حتى دخلت محاكم التفتيش حيز التنفيذ في النهاية، ولكنها حينما أقيمت، كانت أشد قسوة وأكثر وحشية من المحاكم الإسبانية. وعلت سلطتها

سلطات جميع المحاكم الأخرى، بما في ذلك المحاكم المدنية (وكما خشي البابا) والكنسية، ولم تكن تخضع إلا للملك وحده. وقد أدانت وقضت بسجن أكثر من ٢٠ ألف برتغالي ومات في السجن المئات وربما الآلاف ممن حوكموا أمامها. وأُحرق ما لا يقل عن ١٣٧٩ شخصًا أحياء. كانت محاكم التفتيش شديدة الوحشية، مما اضطر البابا بولس الثالث، بعدما عجز عن التدخل، إلى اتخاذ إجراء حاسم وأمر «بتعليقها»، ولكن من دون جدوى، فلم يكن هناك من أحدٍ يصغي إليه في البرتغال. واشتهرت محاكم التفتيش البرتغالية بأجوائها المسرحية؛ فكانت حدثًا عامًّا يهدف إلى ردع الذين يشهدونها وكانت تارة تستخدم أكباش فداء وتارة أخرى تستعرض القوة وتلجأ إلى التسلية. كانت مشهدًا مدهشًا رُسم بعناية وإتقان، إذ كان المتهمون يسمعون منطوق الأحكام الصادرة بحقهم، وقد تستغرق تلاوة الحكم الواحد نصف ساعة، فيما هم راكعون أمام المذبح. وبينما يُظهر بعض الذين تصدر بحقهم الأحكام علامات اللامبالاة، كان آخرون يجثون على ركبهم أو يضربون صدورهم أو يُصلُّون أو يبكون أو يطأطئون رؤوسهم خزيًا. وكثيرًا ما كانوا يعترضون ولكن من دون جدوى. كان الهدف من محاكم التفتيش هو القضاء على الهرطقة في أوساط المسيحيين. وهذا يعني أن أكبر وأفظع المفارقات بها هي أنها لم تكن ذات اختصاص أو حتى اهتمام باليهود في حد ذاتهم. كانت محاكم التفتيش لا تحقق إلا مع الذين عُمدوا على الإيمان الكاثوليكي. ولكن نظرًا لأن جميع السكان في البرتغال عُمدوا، فإن ذلك كان يعني في واقع الأمر وبطريقة مشينة أن الجميع كانوا عرضة للمساءلة. وهكذا، إذا وُجِد أن مسيحيًّا من المسيحيين الجدد يمارس، أو مارس، شعائر يهودية، فإن هذا لا يعني أنه يهودي، وإنما يعني أنه هو أو هي «متهود»، أي كاثوليكي يؤدي شعائر يهودية. ومنذ عام ١٥٣٦ فصاعدًا، كان الكهنة يطلبون من رعاياهم، تحت طائلة التهديد بالطرد من الكنيسة، نبذ أي أحد يظنون أنه يشارك في مثل هذه الأعمال، مما سوف يحوِّل أهل البلاد بشكل بشع إلى متواطئين ويُرهب الشعب البرتغالي على مدى ٢٥٠ عامًا قادمة.

لم تتسبب محاكم التفتيش في إثارة المشاعر المعادية لليهود. ولكنها شرعنت الكراهية وخلقت بيروقراطية أدامت هذه الكراهية. وأصبح أي اختلاف ثقافي، مهما صَغُر، علامة على الاختلاف العرقي. بل إن الطريقة التي تمشط بها الأم شعر ابنتها يمكن أن تُبلغ محاكم التفتيش بها باعتبارها سلوكًا يثير الشبهات. كان كل شيء يوضع تحت المجهر: إذا تخلّف مسيحي جديد عن قداس، وحتى إذا حضر القداس، فقد يُتهم بأنه لم يظهر من الذوق أو الورع ما يكفي. كان هناك شيء أساسي في محاكم التفتيش وهو أعمق بكثير من الدين أو حتى المكاسب الاقتصادية أو المالية. كانت محاكم التفتيش في مستواها الأعمق تتعلق بأسباب وجودية، لأن هدفها كان وضع تعريف يحدد مَن

هو البرتغالي ومن ليس كذلك. ولهذا السبب لم يكن الدين إلا جانبًا واحدًا فقط منها، في ظل تركيزها أيضًا على اختلافات العرق والثقافة واللون. إن الشيء الذي كان في طور التكوين، بفضل محاكم التفتيش، هو الشعور البرتغالي بالذات وتشكل هوية برتغالية، صاغتها عقيدة دينية كاثوليكية موحَّدة وملكية تتناقض بشكل حاد مع التسامح النسبي الذي أظهره الملوك السابقون. وحددت محاكم التفتيش أيضًا بوضوح مَن ليس برتغاليًّا، ولم تستبعد اليهود والمسلمين وأتباع القس الألماني مارتن لوثر فقط، ولكن أيضًا المثليين ومتعددي الزوجات والخارجين عن طاعة الكنيسة. وإذا وُجدت حاجة إلى التعذيب لتأكيد، وأحيانًا فرض، هذه الهوية الجديدة وتعزيز هيمنتها على العقلية البرتغالية، فليكن ذلك، لأن مشيئة الرب لا بد من إنفاذها. وفي تناقض صارخ مع رثاء وأسف الشاعر بيسوا الذي عاش في القرن العشرين، فقد أكدت محاكم التفتيش عبر الإرهاب المسرحي الذي بثته أنه يتعين على البرتغاليين من الآن فصاعدًا أن يعيشوا ضمن الحدود الضيقة لبرتغال واحدة، أمة واحدة، وقبل كل شيء دين واحد. من الطبيعي أن يفزع المرء من المظالم التي ارتُكبت باسم محاكم التفتيش، ولكن سيكون من الخطأ الاكتفاء بالقول إنها تتماشى مع سياقات العصور الوسطى، لأنها ومن نواحٍ عدة في أساليبها وفي الطبيعة البيروقراطية للرعب الذي تبثه، وفي تجسسها السري، وفي مخبريها، وكذلك في قضاتها الذين كانوا على ما يبدو منفصلين عن الواقع، كانت إرهاصًا بالاستبداد الذي سوف تنتهجه الأنظمة الديكتاتورية في العصر الحديث.

غرقت روما في الفيضان واهتزت الأرض من تحت أقدام أهل لشبونة، لكن سولومون مولكو لم يعش حتى عام ١٥٤٠ كي يرى هل تتحقق رؤيته الثالثة عن ظهور المسيح أو لا تتحقق، لأن جواو وتشارلز الخامس، الإمبراطور الروماني المقدس، كانا قد سئما من هذا الشاب وأمرا بحرقه حيًّا على العمود. وكذلك لم ينجُ من هذا المصير ديفيد روبني الغريب والغامض، فقد أُحرق هو الآخر حيًّا.

في تلك الأثناء، كان لوبيز قد عاد إلى سانت هيلانة حيث سيمضي بقية حياته. وبحسب المعلومات المتوفرة، فإن لوبيز وروبني لم يلتقيا قَطُّ، اللهم إلا في خيال الملك، ولكن ذلك كان عصرًا ومكانًا يمكن فيهما أن يظهر انتهازيون مثل روبني من العدم، ويطلقوا مزاعم غريبة حول ظهور المسيح، ويصبحوا موضع احتفاء كبير ثم يُحرَقوا أحياء على العمود. كانت حقبة زمنية غريبة ومحفوفة بالمخاطر في البرتغال. ولو أن لوبيز، الموجود الآن في الجزيرة، أُبلغ بالمحاكمات التي بدأت تُعقد، لربما لم يعلق بشيء، ولكنه كان سوف يلمس من دون شك اتجاه أحاديث الناس بعد وقوع الزلزال، وكيف يلومون المسيحيين الجدد على وقوعه. كان سوف يِدرك في دخيلته أن شيئًا لم يتغير.

قبل سنين عديدة، كان قد غادر لشبونة شابًّا وتوجه إلى الهند، محملًا بمشاعر من عدم الارتياح لأن كل شيء في مملكته الحبيبة لم يكن على ما يُرام. وشعر حينئذٍ بالغضب الموجه ضده، سواء كان مضمرًا أو مكشوفًا، ومن وجهة نظري فإن أسوأ مخاوفه ربما تحققت مع وقوع مذبحة المسيحيين الجدد في عام ١٥٠٦. ولدى عودته القسرية إلى لشبونة، بقي شعوره بعدم الارتياح كما هو لم يتغير. كانت تخيم على البرتغال ظلال قاتمة تنذر بالويل والثبور. ولكن لوبيز في دخيلته وفي صمته، كان يعلم أيضًا أن التعذيب الذي أنزله به ألبوكيرك وكراهيته له، لإجباره على القبول بما ينبغي له أن يكون عليه، وليس ما كان عليه، كان يُعتبر بطريقته الخاصة صورة مصغرة للتعذيب الذي كان ملك البرتغال ينزله الآن باليهود.

من المغري أن نسأل هل التقى لوبيز، في أثناء وجوده في لشبونة، زوجته وابنه. لقد انقضت ٢٤ سنة منذ رؤيته لهما آخر مرة. أصبح جسده الآن مشوهًا، ومن المؤكد أنه يختلف تمامًا عن ذلك الشاب الذي أبحر من بيليم. لا شك أن أفعاله التي اقترفها في الهند جلبت العار على عائلته، ولم يكن ولده ليتعرف عليه على أي حال، لأنه كان رضيعًا حينما غادر لوبيز. لكن المصادر تلتزم الصمت حيال هذه المسألة، وهو أمر طبيعي من نواحٍ عدة، فما الذي يدعو إلى تدوين شيء في ضآلة أهمية لقاء رجل وزوجته النافرة منه؟ أو ربما قضت في إحدى النوبات الكثيرة التي تفشى فيها الطاعون خلال السنوات التي مضت. وربما قضى ابنه هو الآخر في الطاعون. ولكن في قلوبنا على الأقل، دعونا نتجاهل صمت المصادر ونأمل ألا يكون أيٌّ منهما قد مات ونرجو أن يكون شملهما التأم عبر صيغة ما من المصالحة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث والعشرون

مملكة غامضة

«خارج ما هو صواب

وما هو خطأ، هنالك مكان.

وفيه سوف ألقاكِ».

جلال الدين الرومي

بحلول عام ١٥٣٢، كان لوبيز قد عاد إلى سانت هيلانة. ومرة أخرى، تلاشى اسمه من السجلات ولم يرد ذكره إلا لمامًا. وفي تقرير لا يحمل عنوانًا ويعود تاريخه إلى عام ١٥٣١ تقريبًا، ورد ذكر سانت هيلانة على لسان مسؤول برتغالي لم يُعلَم اسمه إلى جواو الثالث. وذهب صاحب التقرير إلى أن الجزيرة يجب استيطانها لتحصينها من السفن الفرنسية التي تتعدى عليها على نحو متزايد. ومضى التقرير إلى القول بأن الذين سوف يستقرون في الجزيرة «سوف يجدون أنها تنتج قمحًا من نوعية جيدة وسيجدون دجاجًا، وأن بها صخورًا تشبه الملح ولَبانًا مثل البَخُور أو المستكة». وبعد ذلك، يقدم المسؤول بيانًا يبعث على الفضول: «لقد طلب مني فرناو لوبيز، الناسك، أن أذكر جلالتك بأن ترسل إليه عبدًا». ربما كان الملك وعد لوبيز بعبدٍ خلال لقائهما. وجاءت المرة التالية التي نسمع فيها عن لوبيز بعد ذلك ببضع سنوات في رسالة مؤرخة بيوم ٢٣ مايو ١٥٣٨، وهي الوثيقة الوحيدة التي تحمل خط يده وتوقيعه. ومرة أخرى تدور الرسالة حول أحد العبيد، ومن الواضح أن لوبيز هو مَن أملاها وأنها موجهة إلى جواو، ولأنه لم يكن يستطيع الكتابة، فقد صاغها شخص آخر بخط يدوي أنيق. كتب لوبيز أن إحدى سفن الملك وصلت إلى الجزيرة وأن قبطانها هو لوبو فاز فوجادو، وكان على متنها أحد فرسان الملك، ويدعى جونسالو فرناندیز فيريرا. ويتابع لوبيز قائلًا إن فيريرا وافق على أن يترك له عبدًا من عِرق مختلط وهو بنَّاء، حيث كان لوبيز يريد أن يبني مساكن للبرتغاليين في الجزيرة وبحاجة إلى المساعدة. ثم يمضي إلى القول بأن العبد سيكون «رفيقه في هذا العمل» ويوضح للملك أن فيريرا وافق على ترك العبد مع لوبيز لمدة سنة واحدة يتم خلالها العمل. ثم يطلب لوبيز من الملك أن يدفع لفيريرا تكلفة العبد عن تلك السنة. وفي نهاية الرسالة، وبخط يدوي مختلف ومتعرج بشكل ملحوظ ولا يكاد يُقرأ، يكتب لوبيز بخط سيئ، بيده اليسرى، داعيًا للملك ثم يوقع باسمه. إنها رسالة مثيرة للاهتمام لأسباب عديدة. للمرة الأولى، يمكننا أن نسمع صوت لوبيز. ربما لم يكن هو مَن خطَّ الجزء الأول، لكنه أملاه من دون شك، ربما على فيريرا. وهي تستحق أن تُقتبس هنا كلها:

مولاي

وصلتْ إلى هذه الجزيرة سفينة تابعة لجلالتك وقبطانها هو لوبو فاز فوجادو، وعلى متنها جونسالو فرناندیز فيريرا، وهو أحد فرسانك؛ وبناءً على طلبي، ترك لي [يشير لوبيز هنا إلى جونسالو] عبدًا من عرق مختلط ويعمل بنَّاءً كي يتولى بناء مساكن للذين يصلون إلى هنا على متن سفنك. سوف يخبرك بذلك الدوم جواو بيريرا [أحد النبلاء الذين أرسلهم الملك إلى الجزيرة] والأشخاص الآخرون الموجودون على السفينة؛ وبوجوده هنا بعد مغادرة السفينة، سوف يكون هذا العبد، بموجب شروط معينة تتماشى مع خدمة الرب وخدمتك، رفيقي في هذا العمل، وأطلب من جلالتكم أن تدفعوا تكلفة هذا العبد إلى جونسالو فرناندیز، الذي تركه هنا شريطة أن أرده [العبد] إليه في غضون عام واحد، حتى يمكنني إبقاؤه هنا بالرغم من أنه مملوك لك [في النهاية، فإن العبد كما كل شيء تؤول ملكيته للملك]، والاستفادة من وجوده، وفي آخر أيامي؛ أدعو الرب أن يعزز دولتك ومُلكك وأن يجعلك تُتم عملك في سبيله.

جزيرة سانت هيلانة / ٢٣ مايو ١٥٣٨

يخاطب لوبيز جواو بلغة رسمية ولكنها مباشرة وعملية وتخلو من التملق. إنه بحاجة إلى المساعدة لبناء بعض المساكن (كان لوبيز يبلغ من العمر ٦٠ عامًا تقريبًا)، ويمتلك الثقة الكافية كي يطلب من جواو أن يعوض فيريرا عن الاستعانة بعبده لأن الملك يعلم أنه لا يمتلك مالًا. وفي الوقت نفسه، يندهش المرء من التواضع الذي يسود الرسالة: لا يقول لوبيز إن العبد سوف يقوم بالعمل، ولكنه سيكون «رفيقي في هذا العمل». وبالإضافة إلى ذلك، وكما حدث حينما التقى لوبيز الملكَ في لشبونة، فإنه لا يطلب لنفسه شيئًا، ولا يطلب بقاء العبد معه أكثر من عام واحد لإتمام المهمة الحالية.

خلال السنوات المذكورة، كان القباطنة البرتغاليون يعودون إلى لشبونة ويتحدثون عن ترحيب لوبيز بهم، وكيف أن طواقم البحارة كانوا يتناولون البرتقال وغيره من الفاكهة التي أصبحت الآن موجودة بكثرة وتتساقط على الأرض بوفرة، أو كيف كانوا يستمتعون بلحم الماعز والأغنام والخنازير التي تجوب الجزيرة بحرية. يبدو أن لوبيز كان موجودًا في كل مكان، فهو يهرول بين الأشجار، ويشير إلى ثمار جديدة زرعها قبل بضعة أشهر، ويُذكر بعض أفراد طواقم البحارة ممن زاروا الجزيرة سابقًا كيف نمت هذه الأشجار. وعلى هذا المنوال مضت سنوات، سنة بعد أخرى، حتى جاء عام ١٥٤٦ حينما أبلغ قبطان برتغالي، في بضع كلمات موجزة، أن فرناو لوبيز قد مات في الجزيرة وأنه دُفن هناك. وبما أنه لا توجد أي إشارة إلى أي مرض ألمَّ به سابقًا، فللمرء أن يتخيل أنها كانت وفاة طبيعية، لأنه في ذلك الوقت كان يبلغ من العمر ٦٦ عامًا، وهي سن متقدمة في ذلك العصر. لا توضح مذكرةِ

القبطان هل عُثر على لوبيز ميتًا أو أنه تُوفي في أثناء وجود السفينة. وإجمالًا، فقد أمضى في الجزيرة أكثر من ثلاثين عامًا، لم تتخللها سوى مدة قصيرة أمضاها في لشبونة. كان فيها وحيدًا معظم الوقت، يحرث الأرض بصبر وينمي روحه.

كانت حياته من نواحٍ عدة حافلة بالتناقضات. وُلد لوبيز خلال العصر الذهبي للبلاد، وهو عصر بدأ فيه، للحظة عابرة، أن كل شيء ممكن في هذا الفجر البرتغالي، وفي هذا العالم الواسع. عاش خلال الأربعين سنة أو نحو ذلك التي فصلت بين إجبار مانويل لليهود على التحول قسريًّا إلى الكاثوليكية وبين محاكم التفتيش التي عُقدت في عهد جواو الثالث، حينما أصبح اليهود يُعرفون بالمسيحيين الجدد، وتكون صدمتهم حينما يكتشفون أنهم ليسوا جددًا ولا مسيحيين. لقد عاد إلى لشبونة لفترة وجيزة، لكن هذه العودة لم تكن باختياره، وزاد تصميمه على العودة إلى الجزيرة بعد كل ما رآه هناك، وآثر الانسحاب فيما كانت الأحداث الجارية تلقي بظلال قاتمة على روح البرتغال. كان من الممكن أن أسمي هذا الكتاب «حيوات فرناو لوبيز». فهناك حياة لا ندري عنها شيئًا، وفيها حمل لوبيز اسمًا آخر وعبد إلهًا آخر (حينما يحدث ذلك مرة في حياة المرء، فيجب أن يُعتبر ذلك حدثًا غير عادي، لكنني أرى أنه في حالة لوبيز حدث مرتين). في حياته التي كان فيها مسلمًا لا بد أنه تسمى باسم مسلم (لم يصل إلينا) وعبَد إلهًا آخر. وهناك حياته في الهند التي عاش فيها مرافق فارس قبل أن يترقى إلى رتبة فارس، وكانت حياة مفعمة بالبهجة والمغامرة والثروة والطموح، ثم عاش حياة أخرى في جزيرة غير مأهولة، وهي حياة من العزلة والتأمل، وإدانة الذات والبحث عن الخلاص. ومع ذلك، كان هناك فرناو لوبيز واحد تعرض عقله وروحه للعديد من التصدعات والتشظيات. وكما عاش حياة غامضة، مات ميتة غامضة، ومن المغري أن نسأل مَن هو فرناو لوبيز الحقيقي بين هؤلاء؟ أي هذه الشخصيات أقرب إلى الأصل؟ هذا سؤال عبثي. كان لوبيز في مراحل حياته المختلفة شخصًا يبحث عن هوية وروحًا تبحث عن نقطة ارتكاز.

كيف نحاول فهم التحول الروحي الذي خاضه لوبيز في الجزيرة؟ إن حقيقة أن لوبيز لم يترك وراءه، إذا استثنينا الرسالة المذكورة آنفًا، أي كتابات أو لم يكن له رفاق ينقلون قصته، تجعل هذه المهمة شبه مستحيلة لأننا لا نستطيع رؤيته إلا عبر أعين الآخرين، بل وحتى في هذه لا نراه إلا بشكل عابر. بالنسبة إلى لوبيز، مثَّلت الجزيرة مفارقة أساسية: كانت منفى لا مهرب منه حيث يمكن أن يأتيه الموت في أي وقت أو يصيبه الأذى، وهي مكان كان فيه عاجزًا. وفي الوقت نفسه، كانت مكانًا للتصالح مع الذات والرضا والحياة والسلام. وكما هو كهف أفلاطون، كانت الجزيرة «نقطة تحول للروح» و«ارتقاء لبلوغ الحقيقة». وطالما شغلت الجزر دائمًا مكانًا مؤثرًا في مخيلة

الأشخاص، وإن كان واضحًا أن الجزيرة كموقع لمثل هذا التحول الشخصي لم توجد قَطُّ بهذه الطريقة المباشرة كما في حالة فرناو لوبيز. إن الطبيعة الخاصة بتلك البقعة من الأرض التي تفصلنا عنها المياه تجعلها رمزًا قويًّا للغاية، وهو رمز لا يوجد ولا يمكن تصوره إلا في الأدب الشعبي. وفي «أسطورة الملك آرثر»، تجد الأرواح مستقر راحتها الأخير في جزيرة أفالون، وأما في «أورلاندو فوريوزو»، كما كتب لودوفيكو أريوستو في عام ١٥٣٢، فإنها تستحضر جزيرة يفترض أنها في المحيط الهندي، وتسكنها ساحرة. كانت الجزر أماكن يلجأ إليها الأبطال حينما ينشدون الراحة، وتجتذب الناس إليها ثم لا تدعهم يغادرونها، وبها تُخبأ الكنوز ويُعثر على أعمال السحر. كانت جزر مثل عدن وأركاديا، بمثابة جسور بين عالم وآخر. لقد تحدثنا بالفعل عن جزيرة أنطيلة الأسطورية التي تجذرت بشدة في المخيال الجمعي للبرتغاليين.

وصل لوبيز إلى سانت هيلانة محطَّمًا ويتملكه اليأس والحزن، جسديًّا وروحيًّا. كان قد قام برحلته إلى الهند بجسده وهو شاب (وفي ظني كانت روحه جريحة). وفي بيجابور وفي ظلال الإسلام، وجد سلامًا داخليًّا كان بمثابة البلسم لجرحه («أنا مسلم وسأموت مسلمًا») ولكن القَدر شاء أن يُنتزع منه هذا السلام مؤقتًا. لقد وفرت له الجزيرة مكانًا يتيح له أن يشك في نفسه وفي عالمه وفي كل شيء صدَّق وآمن به ذات يوم. من المهم أيضًا أن نؤكد أن لوبيز لم يكن منبوذًا. كان وجوده على الجزيرة اختياره، وعلى الرغم من أن المرء قد يقبل بأنه فعل ذلك في البداية إما خوفًا وإما رغبةً في تدمير الذات، فإن ذلك لا يفسر اختياره البقاء بها لسنوات عديدة. كما لا يفسر بالطبع السبب وراء اختياره العودة إلى الجزيرة. وهنالك شيء غير معلوم في دخيلة لوبيز وهو ما جعله يختار البقاء في الجزيرة. كان ذلك هو نفسه اليقين الذي شعر به حينما منحه جواو ماشادو فرصة العودة إلى المسيحية كي يستنقذ نفسه، ولكنه رفض ذلك. وإذا كان لي أن أستخدم صورة كنقطة انطلاق فإنني أفعل ذلك بحذر، لأنه وإن كان للمرء أن يكتب عن رحلة لوبيز الروحية بمعنى من المعاني، فإن الحقيقة هي أن لوبيز، وفيما عدا طوافه حول الجزيرة، بقي في مكان معزول. كانت هناك بالطبع رحلات «أصغر»: من لشبونة إلى جوا إلى سانت هيلانة، من دين إلى آخر، ولكنها كانت من نواحٍ عدة رحلات انطلق فيها عبر مياه ضحلة، وفي بحار تؤمن بإله واحد فيما كان الشاطئ يقع في مرمى البصر. أما الرحلة الحقيقية فهي الرحلة الداخلية، الرحلة التي لا شاطئ لها، ولا تتطلب رحلة مادية موازية لها. كانت تتطلب سكونًا وصمتًا. إن الأمر غير العادي في تجربة لوبيز الروحية هو أنه عاش في عزلة تامة لسنوات عديدة، وانقطع عن العالم بكل ما تعنيه الكلمة. وكان الصمت، الصمت التام، الذي عاشه لوبيز يمكن أن يدفع أي أحد غيره تقريبًا

إلى الجنون، ولكن ذلك لم يحدث مع لوبيز. بل إنه وعلى نحو غامض كان سر شفائه وساعده في تحوله. إن اللغز الكبير هو كيف حدث ذلك. لا شك أن المصادر المعاصرة اعترفت بهذا التحول، وغالبًا ما وصفت لوبيز بكلمات مثل «ناسك» و«متصوف». وبالإضافة إلى ذلك، لا بد أن رغبة الملك في رؤية لوبيز لم تكن مجرد رغبة يدفعها الفضول، لأن شرف مقابلة الملوك لم يكن يُمنح لأي أحد. وإذا كان لقاؤه البابا حدث بالفعل، فإن هذا يؤكد وحسب أن لوبيز كان يتمتع بسمات روحية جعلته موضع تقدير واحترام في عصره، ولكننا اليوم لا نقدر على استيعابها أو فهمها.

واليوم ترتبط كلمة الانعزالي دائمًا بالانحباس، وهي حالة تؤدي غالبًا إلى الهلوسة وتقلبات شديدة في المزاج إلى جانب نوبات من الهلع والاكتئاب. ربما يكون لوبيز اختبر بعض هذه الأعراض، هذا ما لن نعرفه أبدًا بالطبع، بالرغم من أن الأمر سيكون مدهشًا إذا لم يكن تعرض لذلك، لأن العزلة تؤدي إلى الكآبة. ولكن ما نعرفه هو أن تيشيرا وجده سليم العقل، وكذلك وجده ملك البرتغال والبابا. إن درجة العزلة المطلقة التي أخضع لوبيز نفسه لها تكاد لا تُفهم بالنسبة إلى الإنسان المعاصر، وذلك بالأساس لأننا نعيش اليوم بشكل حصري تقريبًا مرتبطين بالآخرين، ونريد دائمًا أن نحظى بالتقدير، وأن نكون في حالة اتصال. والأهم من كل ذلك، أن يُشهد لنا بالصدق. وعلى نحو متزايد فإن واقعنا لا يعتمد على مَن نكون بقدر ما يعتمد على كيف يرانا الآخرون. كم عدد مَن يتابعونني على تويتر؟ كم عدد الأصدقاء على فيس بوك؟ كم عدد النتائج التي يصنعها اسمي على جوجل؟ إذا كان هناك ما نخشاه، فإنه الانفصال عن مجموعتنا الاجتماعية ولو للحظة واحدة، والخوف من الفوات. ولكن الخوف لا يتضاءل أبدًا، والكآبة لا تنحسر. وبالكاد يستطيع الشباب اليوم أن يفهموا معنى العزلة، بل لا يمكنهم حتى أن يتخيلوا لماذا ينبغي للمرء أن يكون وحيدًا. ومع ذلك، فهم يخشونها: ليست العزلة في حد ذاتها، ولكن الوحدة وما يقترن بها من قلق وحزن، وما الاستخدام المتواصل للتكنولوجيا إلا جهد مستمر لدرء ما يتولد عنها من كآبة. وقد مضى زمن كنا نتصل بأصدقائنا مرة واحدة في اليوم، ولكننا الآن نتصل بهم أو نتواصل معهم مائة مرة، ليلًا ونهارًا، وبذلك فقدنا قدرتنا على أن نكون وحدنا وقدرتنا على أن نكون في عزلة. ومع ذلك، فإن للعزلة جلالًا، فهي فرصة يمكن للمرء أن يلتقي فيها نفسه في لحظة من الصمت، وندرك أننا لسنا مجرد كائنات اجتماعية، وأن كلًّا منا منفصل ومنعزل وفريد، ويحمل داخل نفسه مسارًا مبهمًا، يفضي إلى كَنز مخبوء يعبر عن نفسه عبر مستويات عديدة. وإذا شئنا الدقة فإن درجة العزلة التي عاشها، وأثرها في تحوله، هي ما يجعل قصة فرناو لوبيز بهذه الجاذبية.

وحتى إذا اتبعنا نهجًا متواضعًا في فهم رحلة لوبيز الروحية، فإن علينا أن نفهم أولًا كيف تصوره مَن عاصروه. حينما كان الناس يشيرون إلى لوبيز باعتباره زاهدًا، ماذا كانوا يعنون بذلك؟ لا يمكن أن نجد دليلًا أفضل في هذه المهمة من كتابات القديس يوحنا الصليب، وكان صبيًّا حينما مات لوبيز، وهو أحد أعظم كُتَّاب المسيحية في التصوف والروحانيات فضلًا عن أنه هو نفسه كاهن وباحث وزاهد. وقد كرَّس حياته وكتاباته لغاية واحدة وهي أن ينقل تجربته الخاصة مع «سر الرب» إلى غيره من الناس حتى يتمكنوا من معايشة التجربة نفسها والتحول بفضلها. وفي صميم هذه التجربة مبدأ أساسي وثابت يحكمها هو أن الصمت لغة الرب. وفي إحدى مقولاته المثيرة للدهشة، كتب القديس يوحنا الصليب يقول إن الرب يتكلم دائمًا بصمت أبدي، وإن الروح يمكنها أن تسمع هذا الصمت. وبالنسبة إلى لوبيز، يمكن للمرء أن يتصور أن الصمت كان في أول الأمر فراغًا رهيبًا اندفع عقله كي يملأه بالذكريات، التي كان بعضها حقيقيًّا وكثير منها زائفًا، ومعه عدد لا يحصى من الأحكام المسبقة والأحكام الكاذبة والنوائب والقلق. وفوق كل شيء، والأفكار وذكريات الانتقام. ولكنه حينما أصبح في مواجهة العزلة تَعرَّى كل ما يهمه على حقيقته وأصبح عديم القيمة، مثل مظهره الجسدي بالتأكيد، وكذلك تصرفاته باعتباره نبيلًا. فقدت الأفكار أهميتها وكذلك التفكير. وحتى الشعائر الدينية التي حاول لوبيز أن يتشبث بها طوال حياته أضحت الآن فائضة عن الحاجة. نسي صلاته الإسلامية التي كان يؤديها بالعربية، على الرغم من أنه داوم مدة على السجود، ولكن للمرء أن يتخيل أنه سرعان ما توقف عن ذلك. بالنسبة إلى لوبيز، وهو في الجزيرة، لم يكن للعالم ولا لحياته معنى. لقد تداخلت أيام اليأس التي شعر فيها بأنه سقط من على وجه الأرض مع الأيام التي شعر فيها بأنه مركز الكون وأنه وحده مَن يحظى بعناية الإله.

إنها الجزيرة هي ما أنقذه من الجنون، لأنه لولا ذلك قطعًا لارتكب إثمًا وقتل نفسه. لقد علَّمته الجزيرة أن ما يهم ليس ما يكسبه المرء ولكن ما يخسره، لأن المرء حينما يخسر كل شيء لا يبقى له إلا مَن يكون. علَّمت الجزيرة لوبيز أن الصمت صعب ومربك، ولكن من الضروري أن نعيش واثقين بالإله. علمته أن الإله لغز، وأن الصمت مفتاح هذا اللغز، لأنه في عمق هذا الصمت وحده يمكنه سماع المطلق. كان وحيدًا على الجزيرة، وحيدًا تمامًا. مضت عليه شهور وسنوات لم يرَ فيها أحدًا، ولم يتحدث إلى أحد، فيما عدا الذين كانوا يتوقفون في الجزيرة. كان منقطعًا عن العالم. ومع ذلك، وفي الضوء الصافي ووسط الهواء النقي وتحت الغيوم المندفعة والليالي ذات النجوم الزاهرة ربما لم يشعر قَطُّ بأنه وحده. ومن الطبيعي الاعتقاد بأن عزلته على الجزيرة كانت تعني أنه على نحو ما معزول عن العالم، ولكن في الواقع كان هناك دائمًا ما يمكن رؤيته، وما يمكن الاستماع إليه. ربما غادر العالم لكن

العالم لم يغادره مطلقًا. في الجزيرة كان لا يزال بوسعه أن يحب كل مَن كان يحبه. وسواء كان القمر ينعكس على المياه المحيطة بالجزيرة أو مياه نهر تاجا، فلا يزال القمر هو نفسه، وكذلك هو لا يزال الشخص نفسه.

في الجزيرة، أدرك أنه هو وحده مَن يستطيع أن ينقذ نفسه. لم يكن يومًا من الذين يعملون بأيديهم، ولكنه فاجأ نفسه بحسن تدبيره، ورغم أنه مرَّت عليه أوقات شعر فيها بأنه سيموت، وأصابته الحمى، وفي تلك اللحظات التي فكر فيها بالموت، فإن الأرجح أنه لم يخف الموت. وبدلًا من ذلك، تعلم حرث الأرض وصيد السمك، وهي مهارات لم يحسب يومًا أنه يمتلكها. كيف كان يُمضي وقته على الجزيرة؟ ربما كان أحيانًا يغني الأغاني التي لا يزال يذكرها من سنوات طفولته، أو يرقص. وفي بعض الليالي، ربما كان يحصي النجوم حتى يأتيه النوم. وفي ليالٍ كثيرة كان حتمًا يبكي. لقد بدأ يزرع الأرض.

كان للصمت وجوه كثيرة. كان هناك صمت الاستماع إلى موجات تتحطم على الصخور وصمت العنكبوت التي تنتظر فريستها. كان هنالك صمت العقل وصمت القلب. ثم كان هنالك الصمت الأعمق: حينما لم يكن الصمت يأتي مما يحيط به ولكن من الكينونة والمضمون. وفي مرات سيره الطويل والمتعرج أو فيما كان يشاهد الدلافين وهي فرِحة في المحيط وذاهلة عن كل شيء، أو حتى حينما كان يغمره ويسحقه تأثير النجوم، كان لوبيز يلوذ بالصمت، ولكن هذا الصمت كان حضورًا إيجابيًّا ومكتملًا في ذاته. لا تظنوا أن الصمت لا يمتلك قوته الخاصة، وسلطته، لأن التعبير عنه لا يمكن أن تسعه الكلمات. الصمت حي ونابض بالحياة، وله مملكته الغامضة. على الجزيرة، كان يشعر بأنه منفصل عنها وجزء منها في آنٍ واحد. وكانت دائمة التحول، مع لحظات من الصمت المبهج حينما يبدو وكأن قلبه يوشك أن يطير فرحًا وحينما يشعر بأنه في تلك اللحظة لديه كل ما يرغب به. لكن الصمت سوف يُريه عمَّا قريب رؤية مختلفة، وهي رؤية مشوبة برعب شديد كان يُثقل قلبه حتى يُقعده عن الحركة ويَشعر بأن عليه أن يهز نفسه كي ينبض قلبه من جديد. كان الصمت مصحوبًا بالرعب، رعب مفعم بذكريات تلازمه، وباليأس الناجم عن معرفته بأن كل ما يمكنه التطلع إليه هو استبداد الرعب به. ولكن تلك اللحظة أيضًا مرَّت.

في الجزيرة، احتمل لوبيز ليل العزلة المظلمة، وخاض المراحل الروحية التي كتب عنها القديس يوحنا الصليب بشكل مؤثر للغاية، وخلال رحلته عبر هذا الليل وصل إلى أحط مراحل حياته، التي اقتنع خلالها بأنها حياة من الهجر والنبذ، وخاض تحولًا في رؤيته للعالم والإله. وحينما كان يتملكه اليأس، كان يشعر بالصمت في ذهنه، حيث تخلو ذاكرته من كل شيء، ويشعر بسكون داخلي وحرية تعجز الكلمات عن وصفها. لقد أدرك تدريجيًّا أنه لا يوجد ما

يخشاه وأن الإله لم يكن إلهًا مجردًا، ولكنه كان لغزًا لا يمكنه التعبير عنه وأقرب إليه من حبل الوريد، ولكنه مع ذلك يتجاوز قدرته على التصور. ببطء بدأ لوبيز يدرك أنه لم يكن وحيدًا. كان وحده. وحده في رحاب الصمت المقدس للإله. في العزلة التي عاشها، وفي العزلة التي بنى فيها عشه، وبصمت أرشد الإله روحه، وطهرها بهدوء وسرية من دون أن تعرف روحه كيف، ومن دون صوت الكلمات. كان هذا هو اللغز الأعظم. لغز الصمت، لغز المقدَّس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع والعشرون

من فردوس إلى صحراء

«وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا»

يثير تاريخ سانت هيلانة في السنوات التي تلت وفاة فرناو لوبيز الأسى والحزن. وبينما أستعرض هنا بإيجاز المصير المفجع الذي آل إليه هذا الفردوس المفقود على مدى الخمسمائة سنة الماضية، يمكن للمرء أن يرى غيومًا متراكمة من الكآبة تزداد كثافة فوق الجزيرة بما لا يمكن معه حتى للطائرات التي يؤمل في وصولها إليها أن تبددها. وبالرغم من تجدد الآمال المعقودة على المطار، فإن التاريخ يأبى أن يخفف من شدة قبضته، وحتى حينما كان المطار قيد الإنشاء في أواخر عام ٢٠١٤، أبَت أرض الجزيرة إلا أن تذكرنا مجددًا بأبشع طريقة ممكنة بإرث سانت هيلانة الذي يبعث على الحزن والأسى.

ظلت سانت هيلانة في الأغلب غير مأهولة خلال السنوات التي تلت وفاة لوبيز. وتذكر السجلات أن العديد من العبيد فروا إليها بعد عشر سنوات أو نحو ذلك من وفاته، حيث كانوا يغادرون سفنهم التي تتوقف بالجزيرة ويعتاشون على «لحوم الماشية شبه البرية والماعز والخنازير ومزارع الخضراوات والفاكهة». ومضت عشر سنوات أخرى أو نحو ذلك قبل أن يُقام في الجزيرة أول بناء دائم، وهو بطبيعة الحال كنيسة صغيرة على مذبحها «مائدة كبيرة وُضعت في إطار به صورة للمسيح الذي خلَّصنا على الصليب، وصورة للعذراء وهي تُصلي». وفي عام ١٥٨٨، زار الملاح الإنجليزي توماس كافنديش الجزيرة ورأى فيها طيور التدْرُج والحجل والدجاج الغيني. وسجَّل أيضًا وجود «آلاف الماعز... وهي في حالة برية للغاية، ويمكن للمرء أن يرى كل مائة أو مائتين منها معًا، وفي بعض الأحيان قد تراها تمشي في قطيع طويل يبلغ طوله ميلًا تقريبًا... وقد أمسكنا وقتلنا الكثير منها بالرغم من سرعتها، لأن آلافًا منها موجودة فوق الجبال». وذكر أن الخنازير «في حالة برية شديدة وذات أبدان سمينة للغاية وضخمة». كانت رؤية الجزيرة بالنسبة إلى الذين يجتازون جنوب المحيط الأطلسي هي رؤية تهفو إليها قلوبهم دائمًا. وأشار يان هيخن فان لينسخوتن، وهو رحالة هولندي كان يسافر على متن سفينة برتغالية، إلى أن رؤية سانت هيلانة كانت تُشيع «في السفينة فرحًا كبيرًا، وكأننا وصلنا إلى الفردوس... إنها فردوس أرضي». وبخلاف الماعز، لاحظ لينسخوتن أن بالجزيرة كميات وفيرة من الأسماك والفواكه والأخشاب. ومع ذلك، لا يبدو أنها نالت إعجاب جميع زوارها، حيث أشار أحد المؤرخين في عام ١٦٠٠ إلى أن الجزيرة «ليست فردوسًا أرضيًّا، كما يقال عنها»، ولكنه وعلى نحو يبعث على الحيرة لم يورد أي تفاصيل أخرى. وبعد ست سنوات، أي في

عام ١٦٠٦، أشار الملاح جون ديفيس إلى وجود الماعز والخنازير، بالإضافة إلى «أعداد كبيرة من طيور التدْرُج والرومي والديكة والدجاج الغيني». وأضاف ديفيس ملاحظة أخرى: «وهذه الجزيرة غير مأهولة». لكن ذلك كله كان في سبيله للتغير؛ ففي عام ١٦٣٤، ذكر تقرير أنه إلى جانب الكنيسة الصغيرة كان بالجزيرة نحو ٤٠ أو ٥٠ مسكنًا بناها البرتغاليون.

كان التغيير يلوح بالأفق فعلًا، وهذا ما لاحظه زوارٌ كُثر للجزيرة. وعلى الرغم من أن الرحالة الفرنسي بيرار دي لافال أثنى على مزايا سانت هيلانة حينما زارها في عام ١٦١٠، وكتب يقول إن «الرب حباها بأفضل هواء وأفضل أرض وأفضل مياه، ولا أحسب أنك سوف تجد في أي مكان آخر بالعالم جزيرة في حجمها تقارنها بها»، وأضاف أيضًا أن أشجار الفاكهة التي كانت توجد ذات يوم بوفرة اختفت تمامًا ولا بد من البحث عنها. ألقى لافال باللوم على الهولنديين، ولكن يبدو أن البرتغاليين والإنجليز يلحقهم الذنب أيضًا، لأن كل طواقم السفن التي تتوقف بالجزيرة كانوا يقطعون أشجار الفاكهة قبل أن تثمر كي لا يتركوها لأحد غيرهم. كانت هذه أعمال تدمير وتخريب عن عمد، كما أوضح تافيرنيه حينما زار سانت هيلانة في عام ١٦٤٩:

يوجد عدد كبير من أشجار الليمون وقليل من أشجار البرتقال، التي زرعها في الأصل البرتغاليون. وهؤلاء الناس يميزهم شيء واحد، وهو أنهم حيثما حلوا يبذلون جهدهم لجعل المكان أفضل حالًا لمن يأتي بعدهم. أما الهولنديون فيفعلون العكس تمامًا حيث يدمرون كل شيء حتى لا يجد من يأتي بعدهم أي شيء. صحيح أن هذا مما لا يُلام عليه قادتهم ولكن يُلام عليه البحارة الذين كانوا حينما يدركون أنهم لن يعودوا على الأرجح إلى المكان مرة أخرى، يعملون معًا على تقطيع الأشجار حتى يحصلوا على الفاكهة كلها بأقل جهد.

من المهم أن نخص بالذكر الماعز، لأنها ومن بين جميع الحيوانات التي جُلبت للجزيرة، أحدثت تدميرًا هائلًا وكانت العامل الأبرز في إزالة الأشجار وتغيير المناظر الطبيعية. ربما جُلبت الماعز إلى الجزيرة حينما كان لوبيز لا يزال هناك، كي تكون مصدرًا للحوم الطازجة للسفن التي تمر بالجزيرة، ولكنها سرعان ما انتشرت في جميع أنحاء الجزيرة واجتاحتها، وراحت تلتهم النباتات الصغيرة وأوراق الشجر التي في متناولها، مما أعاق أي تجدد في هذه الغابات. وفي عام ١٥٨٨، أكد الحاكم، الكابتن كويندول، ما سجله الملاح الإنجليزي توماس كافنديش بأن هناك الآلاف من الماعز وأن بإمكان المرء أن يرى «كل مائة أو مائتين منها معًا، وفي بعض الأحيان قد تراها تمشي في قطيع طويل يبلغ طوله ميلًا تقريبًا». وحينما عاد المستكشف الإنجليزي لانكستر في زيارة ثانية للجزيرة في عام ١٦٠٣ للتزود باللحوم الطازجة والمياه، ألمح إلى أن الماعز أصبحت ذات طبيعة برية شديدة ويصعب

السيطرة عليها، وفي عام ١٦١٠ سجَّل الفرنسي لافال أنه «سيكون محالًا صعود التلال ثم نزولها» من دون أن تطأها أو تطأك بأقدامها. ولم يكن للماعز ذلك التأثير المدمر طويل الأمد للغطاء النباتي ولقدرة الغابات على التجدد فحسب، ولكنها شكلت أيضًا تهديدًا مباشرًا على بقاء الماشية المحلية. وبحلول تسعينيات القرن السابع عشر، بلغت أعدادها مستويات خطيرة، وفي عام ١٨١٦ أشارت سجلات بريطانية رسمية «إلى أن التدمير الشامل الذي لحق بالغابات يجب أن يُنسب إلى الماعز وحدها، وكذلك الضرر الذي يشعر به بشدة الآن كل فرد يعيش على أرض الجزيرة».

وتبعت الجرذان الماعز سريعًا في انتشارها عبر أرجاء الجزيرة، وسرعان ما أعلنت عن حضورها المميز. وفي ١٦٦٦، أشار رحالة إلى أن هناك «أعدادًا هائلة من الجرذان يشن الحاكم عليها حربًا دموية». وأنها كانت «شديدة الإزعاج»، و«آفة مؤذية»، وفي عام ١٦٩٨ قدَّر ليجوت أن «سكان هذه الجزيرة قليلو العدد ربما كانوا سوف يعيشون حياة أفضل كثيرًا أو أيسر كثيرًا، لولا وجود عدد هائل من الجرذان التي تتلف ثمارهم وحبوبهم». ويبدو أن القطط لم تعد تعبأ بها، ويُشار إلى أن الجرذان في عام ١٧١٧ أكلت كل البذور بمجرد غرسها في الأرض، على الرغم من وجود «عدد هائل من القطط التي ابتعدت عن المنازل وأصبحت ذات طبيعة برية، واختارت العيش بين الصخور حيث وجدت طعامًا أفضل عبر افتراسها صغار طيور الحجل، ما جعلها آفة لا تقل ضررًا عن الجرذان». وكانت الفئران هي الأخرى توجد بأعداد كبيرة، ولا سيما في المناطق المنخفضة المجدبة، وكانت تتسم بالكسل وبالبطء الشديد في الحركة إلى حد يمكن معه الإمساك بها باليد بسهولة. وفي مواجهة الجرذان والقطط والكلاب (التي جُلبت تدريجيًّا إلى الجزيرة)، وجدت الطيور المحلية وطيور النوء نفسها بلا حول ولا قوة، ولذلك كان ما شهدته سانت هيلانة هو إبادة نفذتها الحيوانات المستجلبة ضد الحيوانات المتوطنة ومنها الطيور، وتغذت على النباتات والشجيرات الصغيرة. وبالإضافة إلى ذلك، أحدثت ضررًا بالغًا بالغطاء النباتي المحلي حتى أصبح الجزء الوحيد المتبقي منه اليوم، وهو سرخس الأشجار، لا يوجد سوى في منطقة صغيرة بالتلال الوسطى المرتفعة بالجزيرة، وهناك العديد من أنواع النباتات المتوطنة التي تتعرض لانقراض متسارع. ربما يضفي إلقاء اللوم على الماعز أو الجرذان في تدمير الغابات في الجزيرة بعض الإثارة على القصة، ولكنه لا يقدم الصورة الكاملة. إن المذنب الحقيقي الذي تسبب في تدمير الموئل الطبيعي الذي كانته سانت هيلانة ذات يوم هو الإنسان. وكي نفهم ذلك على نحو أفضل، فلا بد أن نلقي نظرة سريعة أولًا على التاريخ المؤلم للجزيرة مع شركة «الهند الشرقية»، وهو تاريخ عنوانه الرئيسي إزالة الغابات وحرقها بشكل عشوائي.

تزايدت أهمية الجزيرة مع مرور السنوات بالنسبة إلى شركة «الهند الشرقية» اللندنية وأصبحت محطة تتزود فيها سفنها بالإمدادات الطازجة وتتوقف بها سفن الشحن العائدة إلى البلاد. ولا بد أن فكرة استعمار الجزيرة بقيت على رأس أولويات الشركة التي أصبحت تطمح إلى تحويلها لما يُعرف بـ«اقتصاد المزارع». ولذلك، أشار أحد محاضر اجتماعات الشركة في ديسمبر ١٦٥٨ إلى أن هناك ٤٠٠ رجل سوف يبقون «في الجزيرة ومعهم الأدوات اللازمة لتحصينها وبدء استزراع الأرض». بدا كل ذلك مبشرًا ونافعًا. وحاولت الشركة تأسيس نموذج للزراعة يعتمد على نمط المزارع على غرار النموذج المُطبَّق في مستعمرات أمريكا الشمالية وجزر الهند الغربية. لكن ذلك لم يكن إلا في جزء صغير من منطقة مرتفعة للغاية تهطل عليها الأمطار بدرجات متفاوتة. وبالإضافة إلى ذلك، كانت الشركة مقتنعة بأن إزالة الغابات وزراعة المحاصيل سوف تؤدي إلى «تَحسُّن يحقق نفعًا كاملًا». ولكن الشركة لم تكن تدرك قطعًا أن التخلص من الغابات من أجل المزارع يمكن أن يؤدي إلى كوارث بيئية مدمرة. ولا يعني ذلك أن الشركة كانت تفتقر إلى المعلومات، فقد مولت في عام ١٦٧٦ بعثة إلى سانت هيلانة استغرقت ستة أسابيع وقام بها السير إدموند هالي بهدف رصد عبور كوكب الزهرة، وخلال هذه الرحلة أُجري بحث حول مدى قدرة التربة والصخور في الجزيرة على تخزين المياه، ولكنها يا للأسف لم تصل إلى نتائج ذات شأن.

كان يبدو أن الشاغل الأول للشركة هو إقناع الذين أُرسلوا إلى الجزيرة بمزاولة بعض أعمال الزراعة بالفعل لأن «العديد من الأشخاص أهملوا في مرات عديدة الزراعة ولم يُحسنوا الأرض التي خصصت لهم وأطلقوا لأنفسهم العِنان في صيد وقتل الكثير من الماعز». لكن وبحلول عام ١٧٠٠، بدأت تظهر بالفعل مخاطر التخلص من الغابات والجفاف وما تمخض عنهما من عواقب لم تكن بالحسبان. ومع نهاية القرن أصبحت طواقم السفن تشكو من نقص المياه في الجزيرة. وأشار الفلكي الملكي السير إدموند هالي بنفسه إلى الخطر الذي يتهدد الجزيرة بعد زيارته الثانية في عام ١٧٠٠، حينما أشار إلى أن «الأمطار المستمرة جعلت المياه تمتلئ بالطين المائل للملوحة ويصعب شربها حتى حينما يترسب الطين في القاع». كان التخلص من الغابات يعني أيضًا أن المحاصيل أصبحت عرضة بشكل متكرر للرياح التي تتلفها خلال فترات الجفاف، وسرعان ما ظهرت قضايا أخرى مثل حرق كميات كبيرة من الخشب لتقطير العرق الذي كان المشروب الكحولي الرئيسي في الجزيرة. وفي حالات أخرى، كان التخريب يُعزى ببساطة للإهمال واللامبالاة. فقد دمَّر أشجار السيكويا وأشجار الأبنوس دباغو الجلود الذين «كانوا بسبب كسلهم لا يكلفون أنفسهم أبدًا عناء تقشير لحاء الشجرة بأكملها ولكن يكتفون بالجسم». وبالتأكيد، ومع وصول الحاكم الجديد، جون روبرتس، بدا أن نتائج

التخلص من الغابات أصبحت واقعًا ملموسًا. وألمح الحاكم بحزن إلى أنه في غضون عشرين عامًا، سوف تتعرض الجزيرة «للتدمير التام بسبب انعدام الخشب، لأنه لا يمكن لأي رجل في سانت هيلانة أن يقول إن هناك شجرة واحدة في الغابة الكبرى أو في أي غابة أخرى، يقل عمرها عن ٢٠ سنة، وسوف تموت لاحقًا لكبر سنها». وعلى الرغم من المخاوف الصريحة التي عبر عنها الحاكم، فقد تمت تهيئة أرض الوادي المسطح لزراعة أشجار الفاكهة والخضراوات وقُطع المزيد من الأشجار لحرق الجير ودباغة الجلود، وهما عمليتان تسببتا في تبديد كميات كبيرة من الأخشاب. كانت مخاوف الحاكم روبرتس لها ما يبررها. وبحلول عام ١٧١٣، تعرضت الجزيرة لجفاف شديد أدى إلى نُفوق أكثر من ٢٠٠٠ من رؤوس الماشية، فيما أشارت سجلات الشركة بشكل صريح إلى أن الجزيرة «في حال بالغة السوء ويُرثى لها».

كان للشركة هدف واحد لا غير وهو كسب المال. وكان هذا يعني أن كل شيء في سانت هيلانة أصبح ملكًا للشركة. فالشخص الذي يمتلك خنزيرًا لا يستطيع ذبحه حتى يحصل على ترخيص منها، وإذا رغب في بيع لحمه فهو بحاجة إلى ترخيص آخر. ولا يجوز قتل الطيور ولا الماعز، وأصبحت جميع الطيور البحرية مملوكة للشركة. وكان سكان الجزيرة يعملون لدى الحاكم ـ في أول الأمر كان هناك ٧٠ رجلًا وامرأة هم أول من وصل إلى الجزيرة لاستيطانها. وكانوا قد وُعدوا بفكرة الجنة التي في انتظارهم لإغرائهم بمغادرة إنجلترا وقطع هذه الرحلة إلى الجزيرة، ولكن الحقيقة هي أن الفقر الذي حملوه معهم ظل يرافقهم ويثقل كواهلهم. أصبحوا أفضل قليلًا من العبيد، وسُرعان ما تبين لهم أن الرجل منهم إذا لم يكد في عمله بالقدر الكافي (أي لم يُدر مالًا كافيًا للشركة) فسوف تُصادَر أرضُه ويُعاد إلى إنجلترا خالي الوفاض. وأصبح الذين سكنوا الجزيرة يعتبرون أنفسهم في منفى لم يكن إلا لقلة منهم أي أمل في الخلاص منه. وبالرغم من أن العزلة عادة ما تدفع الأشخاص للتقارب فيما بينهم طلبًا للرفقة والتسرية عن النفوس، فقد كتب أحد زوار الجزيرة في مطلع القرن التاسع عشر، أن معظم السكان «يمضون ما بقي من السنة بعيدين عن بعضهم بعضًا».

وبحلول عام ١٧٠٠، كانت سانت هيلانة قد جُردت في معظمها من أشجارها وتآكلت تربتها وانتشرت بها الأخاديد العميقة. وحينما زار السير جوزيف بانكس، الذي سيصبح فيما بعد رئيسًا للجمعية الملكية، الجزيرة في عام ١٧٧١، تملكه الشعور بالصدمة مما رآه، وقارنها مستهجنًا بالأوضاع في مستعمرة كيب. فهناك، على حد زعمه، أخرج المستعمرون الهولنديون «فردوسًا من الصحراء»، فيما أحال الإنجليز سانت هيلانة «من فردوسٍ إلى صحراء».

كان نابليون بطبيعة الحال هو أشهر الزوار الذين حلّوا بالجزيرة، وقد نُقل جزء من إدارة الجزيرة مؤقتًا إلى الحكومة البريطانية منذ عام ١٨١٥ حتى عام ١٨٢١ وذلك حينما أصبحت الجزيرة منفاه. وبالرغم من وفرة الكتابات التي تتحدث عن نفي نابليون، فإنها غالبًا ما تتجاهل الجزيرة تجاهلًا تامًّا، وكأنها لم تكن سوى مسرح خالٍ أدى عليه الكورسيكي آخر فصول حياته. لقد قرأنا أن نابليون اغتم قلبه حينما وقعت عيناه للمرة الأولى على مستقره الأخير بالجزيرة، فقد كان قاتمًا قليلًا ويبعث على الكآبة. كان يتوقع أن يجد الترف الذي توفره أشجار الفاكهة والغابات الغنية. ولكنه بدلًا من ذلك وجد نفسه في أرض مقفرة تُسمى سهل «ديدوود بلين» ويخيم عليها ضباب دائم من الكآبة. ونحن نعلم أن نابليون كان على دراية بقصة فرناو لوبيز، ذاك المنفيُّ الآخَر، ولكنه لم يكن سوى حكاية مسلية بالنسبة إلى الإمبراطور. على أي حال، فقد كره هذه الجزيرة المعزولة التي نُفي إليها.

في السنوات التي تلت وفاة نابليون مباشرة في الجزيرة، كانت سانت هيلانة تستقبل نحو ١٠٠٠ سفينة في السنة الواحدة. ولكن الأسباب التي تدفع السفن للتوقف بها بدأت تتناقص سنةً بعد أخرى. ومثلما زادت سرعة السفن، تحسنت القدرة على حفظ الأطعمة، ما يعني أنه لم يعد ثمة سبب حقيقي يضطر السفن إلى التوقف والحصول على الأطعمة الطازجة والمياه العذبة. وفي عام ١٨٣٤ انتقلت السيادة على الجزيرة إلى الحكومة البريطانية حينما أصبحت إحدى مستعمرات التاج البريطاني. ولكن ذلك لم ينتزع ملكية الجزيرة وإدارتها من شركة «الهند الشرقية» فحسب، ولكنه أيضًا تسبب في إيقاف الدعم المالي الذي اعتادت الشركة أن توفره للجزيرة. وبدأت نتائج ذلك تتضح شيئًا فشيئًا، وتغيَّرت حال الجزيرة من ذلك الاقتصاد الحيوي الذي كانته إلى فقر وانعدام الاقتصاد تقريبًا. وفي أثناء زيارته للجزيرة في عام ١٨٣٦، أي بعد عامين من نقل السيادة عليها، علَّق تشارلز داروين على الفقر الشديد الذي بات يعانيه سكان الجزيرة. وألمح أيضًا إلى أن الماعز أتلفت الغابات، مضيفًا أن الجزيرة ظل بها العديد من الأشجار حتى عام ١٧١٦، وبحلول عام ١٧٢٤ كانت معظم الأشجار القديمة قد تساقطت، ووصف سانت هيلانة بأنها «صحراء خالية ولا شيء يمكن أن يجعلني أصدق أن أشجارًا كانت تنمو بها». وفي عام ١٨٦٩، مع افتتاح قناة السويس، تناقص عدد السفن التي تتوقف في الجزيرة بمعدل أكبر، وتقلص بشدة عدد الحامية العسكرية المتمركزة في سانت هيلانة. ولاحقًا، تراجع عدد السفن التي تتوقف في الجزيرة من ١٠٤٤ في عام ١٨٦٠ إلى ٥١ في عام ١٩١٠. وسُرعان ما انعكس انخفاض عدد السفن على عدد ساكنة الجزيرة الذي تراجع بدوره من ٥٨٣٨ في عام ١٨٧١ إلى ٣٤٣٤ في عام ١٩٠١. وفي عام ١٩٠٠ منحت حرب البوير اقتصاد الجزيرة دفعة مؤقتة حينما استقبلت ٦ آلاف أسير حرب، كان من

بينهم رئيس قبائل الزولو دين زولو الجنوب أفريقي، وأودعوا جميعًا في الجزيرة إلى جانب حراسهم. وبُني معسكران كبيران بالجزيرة وأصبح البوير على مدى ثلاث سنوات جزءًا من الحياة بها. عمل العديد من هؤلاء بنَّائين ومزارعين ونجارين، ولكن قلة قليلة منهم بقيت فيما غادر معظمهم في عام ١٩٠٣. وعلى مدى سنوات ظل هناك أناس يُمنون أنفسهم بالثروة التي يمكن تحقيقها في الجزيرة، ولكنها لم تكن عمومًا سوى أحلام المغفلين. رجلٌ واحد اقتنع بأنه عثر على الذهب بالجزيرة، رغم أنه لم يكن يوجد منه شيء في الجزيرة، وتبين أنه لم يكن سوى ذهب كاذب. جُربت زراعة البن وقصب السكر والنيلة بالجزيرة ولكن أيًّا منها لم يترعرع. وفي عام ١٨٧٤، جُلب إليها الكتان النيوزيلندي وأنشئ مصنع صغير للكتان، ولكنه سرعان ما أُغلق في عام ١٨٨١. ومضت محاولة أخرى لإحياء الصناعة بخطى متثاقلة ولكنها تعثرت في عام ١٩٦٧ وأوقفت في نهاية المطاف، وهي نتيجة يقال إن السبب وراءها هو تحول مكتب البريد البريطاني من الأوتار إلى الأشرطة المطاطية، ولكن ذلك على الأرجح كان نتيجة للمنافسة التي لقيتها هذه الصناعة من الألياف الصناعية.

وفي الوقت الحاضر، يعتمد الاقتصاد على بعض الأغذية المحلية والخشب الذي يُستخدم في الحصول على الوقود، والأسماك التي تستهلك محليًّا فيما يُصدَّر بعضها، وكذلك بعض الحرف اليدوية. وبطبيعة الحال يظل منزل نابليون خلال منفاه وقبره بالجزيرة هو قطعًا المَعلم الرئيسي لاجتذاب أي سياحة مستقبلية. وتوجد بالجزيرة متاجر لبيع الهدايا والأعمال الفنية والحرفية، وفي بعض الأحيان تتوقف البواخر السياحية بالجزيرة. ووفقًا للقيمة الحقيقية، فقد ارتفع الناتج المحلي الإجمالي في سانت هيلانة سنويًّا بنسبة ٠.٧ في المائة فقط في المتوسط بين أعوام ١٩٩٩/٢٠٠٠ و٢٠٠٩/٢٠١٠، ما يُعزى لانعدام وجود أي عائدات تصدير كبيرة ولضعف الإنتاجية وقلة الاستثمارات وكذلك انخفاض عدد السكان. إن سانت هيلانة التي كانت تضم ذات يوم مجتمعًا مزدهرًا، أصبحت الآن تبحث عن الهجرة وتعتمد على التحويلات والمساعدات المالية. ولا تزال البطالة مرتفعة بها وتعتمد على المساعدات المالية فيما لا يزال الحل التاريخي لمشكلاتها الاقتصادية هو الهجرة. وفي عام ١٩٨١، سُحبت حقوق المواطنة البريطانية من سكان الجزيرة (وكانت قد مُنحت لهم بموجب الميثاق الملكي لعام ١٦٧٣) ومن ثَمَّ فقدوا حق الدخول إلى المملكة المتحدة وأي حق في الحصول على جواز سفر بريطاني. وكان القانون قد صدر لمنع المهاجرين من هونج كونج من دخول المملكة المتحدة بعدما سُلمت إلى الصين في عام ١٩٩٧ (ومع ذلك، تجدر الإشارة إلى أن اثنين من أقاليم ما وراء البحار البريطانية وهما جبل طارق وجزر الفوكلاند أعفيا من القانون). وفي ظل حرمانهم من جواز السفر البريطاني، لم يعد خيار الهجرة

الذي ظل متاحًا منذ مدة لسكان الجزيرة قائمًا، وأصبح السفر بدون تأشيرة أو تصريح محالًا أو يكاد بالنسبة إلى سكان سانت هيلانة، الذين يُعرفون باسم «السانتس» («القديسين»). ولكنهم منذ أن أعيدت إليهم حقوقهم، في ظل حكومة حزب العمال التي ترأسها توني بلير، في عام ٢٠٠٢، أصبح سكان الجزيرة يستحقون مرة أخرى جواز السفر البريطاني وحق الإقامة في المملكة المتحدة. أدى ذلك ببساطة إلى مغادرة المزيد من السكان جزيرة سانت هيلانة. في عام ١٩٨٧ بلغ عدد سكانها ٥٦٤٤. وبحلول عام ٢٠٠٣ تناقص هذا العدد إلى ٣٩٠٠. وبحسب إحصاءات أحدث فقد سجل العدد زيادة طفيفة حيث بلغ ٤٠٣٠. ويسود اعتقاد قوي بين سكان الجزيرة مفاده أنه «كي يُحسن المرء أحواله، فلا مناص له من مغادرة الجزيرة». وعلى الرغم من وجود إحساس حقيقي بالولاء وحب لنوعية الحياة الفريدة التي توفرها الجزيرة والشعور بالانتماء إليها، وكذلك أجواء الرفقة والأمان التي تسود سانت هيلانة، فما زال كثيرون يشعرون بالحاجة إلى مغادرتها وتقدير هذه النوعية من الحياة من بعيد. وفي أعقاب إعادة حقوق المواطَنة البريطانية لسكان الجزيرة كاملة، انتقل ربع السكان إلى بريطانيا، وكانوا في معظمهم من الشباب من ذوي المهارات والتدريب. ولم ترغب سوى حفنة قليلة منهم في العودة.

وحتى يومنا هذا، لا يزال يخيم على الجزيرة شعور بالعزلة والكآبة. وفي ٣ سبتمبر عام ١٩٩٤، كتب روس كلارك بشيء من الإحباط في مجلة «السبكتيتور» يقول: «ليس من السهل أن تعرف أي شيء عن سانت هيلانة. فمن المستحيل الذهاب إليها ما لم تتوفر لديك ستة أشهر فترة فراغ» ويبلغ الإحساس بالإحباط الذي لا مفر منه في هذه المحطة السياحية المعزولة حدودًا خيالية. «كان الشريان الرئيسي، وهو شارع نابليون، مهجورًا، فيما عدا امرأة تقف خارج متجر للأجهزة ومجموعة من ركاب السفينة». وكتب المؤلف هاري ريتشي في عام ١٩٩٧ في كتابه «آخر المستعمرات: رحلات عبر بقايا الإمبراطورية البريطانية» (The Last Pink Bits: Travels Through the Remnants of the British Empire): «كانوا يمشون عبر الشارع وكأنهم فرقة استكشافية نزلت من سفينة فضائية كي تتفقد مستوطنة وسط شكوك بأنها مهجورة».

* * *

في عام ٢٠١٦ كان يُفترض أخيرًا أن يُفتتح مطار سانت هيلانة الذي طال انتظاره وتأجل مرة تلو مرة، ما كان يعني جلب أكثر البقاع التي يتعذر الوصول إليها على الأرض إلى العالم الحديث. كان الهدف هو الترويج لسانت هيلانة باعتبارها وجهة سياحية ذات قيمة عالية وبقعة خضراء، وكان يُؤمل أن

يأتي إليها ٣٠ ألف زائر سنويًّا. سوف يتطلب ذلك بطبيعة الحال تحسينات كبيرة في المعايير بالجزيرة، علمًا بأن هناك خططًا لإنشاء قطاعات اقتصادية محلية تعتمد على الصيد والزراعة والقهوة والتقطير. كان الافتتاح المقرر للمطار يجلب معه بطبيعة الحال شعورًا مثيرًا بالأمل في أن سانت هيلانة سوف ترتبط أخيرًا بالعالم، وإن كان لا ينبغي أن نفترض أن المطار سيؤدي تلقائيًّا إلى زيادة عدد السياح. فقد استغرق الأمر عدة سنوات حتى ازدهرت السياحة في جزيرتَي إيستر وجالاباجوس بعد بناء المطارات بهما، فيما في مونتسيرات لم يرتفع عدد الزوار، حتى بعد افتتاح مطارها في عام ٢٠٠٥. ويسود بين البعض أيضًا شعور بالخشية ليس من نمط الحياة بالجزيرة، ولكن الأرض نفسها والمياه والموارد البحرية يمكن أن تكون عرضة للتهديد من مجموعة من الآفات والأمراض. إن بيئة صغيرة ومعزولة مثل سانت هيلانة، ومَواطنها الطبيعية المحدودة، سوف تواجه حتمًا مخاطر متزايدة على أمنها الحيوي. وهذه المخاطر يمكن أن تأتي في أشكال كثيرة مثل الفقاريات والأمراض النباتية والمائية. ويمكن أن يؤدي فقدان الحجر الصحي الطبيعي الذي كانت تتمتع به الجزيرة إلى جعل سانت هيلانة عرضة لمخاطر أكبر. ولا يوجد ما يؤكد إن كانت لديها القدرة على مواجهة هذا التحدي البيئي المحتمل والاستجابة له بشكل سريع.

لم يُفتتح المطار بعد، ومن المدهش أن نجد أنه في عام ٢٠١٧، تمامًا كما كانت الحال في عام ١٨١٥ حينما نزل نابليون إلى الجزيرة، وكما كانت الحال في عام ١٥١٦ حينما وصل إليها لوبيز للمرة الأولى، كان البحر هو السبيل الوحيد للوصول إلى سانت هيلانة. والمأمول أن يجدد المطار الأمل لدى ما يقل قليلًا عن ٥ آلاف نسمة هم ساكنة الجزيرة، حيث يأمل بعضهم أن تصبح وجهة سياحية لها مكانتها. ولكن للمرء أن يتساءل: هل تكفي وسيلة السفر وحدها لإزاحة الحجاب الكثيف من العزلة والكآبة المتوغلة في نسيج هذه الجزيرة القديمة التي تَعتبر العزلة جوهرها؟ وفي أثناء كتابة هذا الكتاب، أُعلن عن إرجاء افتتاح المطار الذي كان مقررًا في عام ٢٠١٦ إلى أجل غير مسمى لأن الرياح المتعامدة جعلت هبوط الطائرات غير آمن. وبدت الجزيرة غير مستعدة للتخلي عن عزلتها بسهولة. وفي النهاية، افتُتح المطار أمام الرحلات التجارية في أكتوبر ٢٠١٧.

لم تعد الجزيرة تنتج طعامها. وقد مضى زمن كانت سانت هيلانة، بفضل البذور التي غرسها لوبيز، تمتلئ ببساتين من أشجار الليمون والبرتقال والرمان والتمر والمانجو وغيرها من الفاكهة الاستوائية الأخرى، وظلت تقدم ما يكفي من الفاكهة خلال القرن الثامن عشر لـ٨٠٠ سفينة كانت تتوقف بها سنويًّا. أما الآن فتستورد طعامها ولا يمكنها إطعام سكانها الذين يبلغون ما يقارب ٥ آلاف نسمة.

* * *

في عام ١٨٤٠، جلبت السفن، التي تصل إلى الجزيرة وتتعطل بها، النمل الأبيض الذي انتشر سريعًا في أرجاء الجزيرة، ما تسبب في أضرار هائلة في المباني الخشبية. ثم وصل أيضًا نمل الخشب، ليقضي على ما تبقى من الأشجار. في نهاية القرن الثامن عشر، أتت حشرة مصدرها جزيرة موريشيوس، وكانت دقيقة للغاية ولا تُرى بالعين المجردة، على جميع أشجار الخوخ تقريبًا، وغطت جذوعها طبقة بيضاء قبل أن تذبل وتموت.

* * *

وفي عام ٢٠٠٨ في أثناء حفر الأرض لإنشاء طريق جديد كان يتعين أن يمر عبر وادي روبيرت في سانت هيلانة للوصول إلى مطار المستقبل، عُثر على اكتشاف رهيب تقشعر له الأبدان حيث راحت الأرض تكشف ببطء عن أسرارها، وكانت آلاف الهياكل العظمية التي دُفنت على عَجل، وكُدست في طبقات بعضها فوق بعض. وفي بعض المقابر، دُفن ما بين أربعة وسبعة جثامين حيث رُص بعضها فوق بعض. سارع علماء الآثار إلى الجزم بأن ما عُثر عليه لم يكن مقبرة بل تخلص جماعي من جثث الموتى. كان عدد قليل من الجثث قد وُضع بعناية، فيما وُضع بعضها الآخر جنبًا إلى جنب أو في هيئة متعاكسة يقابل فيها الرأس القدمين أو كُدِّس بعضها فوق بعض. قُدِّر عدد الهياكل العظمية المدفونة بما يتراوح بين ٨ آلاف إلى ١٠ آلاف هيكل. إن السؤال عمَّن كان هؤلاء وما سبب موتهم في هذا المكان المعزول يكشف عن واحدة من أحلك الصفحات في تاريخ سانت هيلانة. ومع ذلك، تجدر الإشارة إلى أن الحديث عن «اكتشاف» مقابر دفن هو حديث مضلل نوعًا ما، لأن وجود هذه الأرواح البائسة لم يُنسَ قَطُّ في الجزيرة نفسها.

يعود تاريخ دفن العبيد في سانت هيلانة إلى قانون ١٨٣٩ لحظر تجارة الرقيق الذي أجاز للسفن الحربية البريطانية احتجاز السفن البرتغالية الخاصة بتجارة الرقيق. كانت الجزيرة هي مكان النزول للكثير من العبيد الذين كانت سفن البحرية الملكية تلقي القبض عليهم في أثناء عملياتها لحظر هذه التجارة بين عامَي ١٨٤٠ و١٨٧٢. في البداية كانت فكرة أن سانت هيلانة يمكن أن تصبح مستودعًا للعبيد المحررين، ممن يُعاد أسرهم، ريثما يُشحنون بالسفن إلى مستعمرات الهند الغربية، قد قوبلت برفض البريطانيين، حيث قال اللورد راسل، وزير الحرب والمستعمرات: «إنني واثق بأنه من المستبعد إنزال أي أفارقة تأسرهم السفن الحربية التابعة لصاحبة الجلالة في سانت هيلانة». لكن الأحداث كانت تثبت خطأ اللورد راسل فيما قال. تمت أول عملية أسرٍ كبيرة تُرسل إلى سانت هيلانة في ديسمبر عام ١٨٤٠ حينما أرسلت السفينة الملكية «ووترويتش» سفينة برتغالية إلى الجزيرة وعلى متنها ٢١٥ من العبيد،

وكان كثير منهم مصابًا بالجدري. بعد ذلك جاءت السفينة «لويزا» وعلى متنها ٤٢٠ من العبيد، مات منهم ٨٢ في أثناء الرحلة. واصلت الأرقام معدلاتها المتزايدة، وكذلك عدد الموتى. وبحلول أغسطس من عام ١٨٤١، استقبلت الجزيرة ما مجموعه ١٨٢٤ شخصًا بعدما حُرروا ومات منهم ٤٦٧.

كان الموتى يُلقَى بهم في أول الأمر في مياه المحيط، ولكن بحلول شهر ديسمبر عام ١٨٤٠، كَتب الدكتور ماكهنري، أحد الأطباء الممارسين الذين عملوا بلا كلل من أجل العبيد المحررين، أن كثيرين من هؤلاء يدفنون في البحر حتى إن الجثث يجرفها الموج إلى الشاطئ، وأن الصيادين كانوا يصطادون أسماكًا تتغذى على الجثث. واصلت أعداد العبيد المحررين الذين ينزلون الجزيرة ارتفاعها بعد السماح للسفن الحربية البريطانية بالقبض على تجار الرقيق البرازيليين شمال خط الاستواء وجنوبه، واستقبلت سانت هيلانة ٦٢٥٨ من العبيد المحررين في الفترة ما بين عامَي ١٨٤٧ و١٨٤٩، وكانوا يموتون فور وصولهم. وفي عام ١٨٤٩، وصف أسقف كيب تاون روبرت جراي الرجال والنساء قائلًا: «كانت هيئتهم رثة وملامحهم منهكة، ونُقلوا إلى القوارب وكأنهم حزمٌ من البضائع خلافًا على ما يبدو لإرادتهم... ولم أرَ في حياتي مشهدًا يُرثى له أكثر من هذا المشهد». ووصفت رواية شاهد عيانٍ آخر مشهدًا أكثر ترويعًا:

صعدتُ إلى متن إحدى تلك السفن في أثناء رسوها... وكان سطح السفينة كله، وأنا أجتازه من بدايته وحتى نهايته بحذر كي لا أطأهم، يتناثر فوقه بكثافة الموتى والمحتضرين والذين يتضورون من الجوع... كان الهذال قد أصاب أذرعهم وسيقانهم حتى أضحت في حجم عصا مشي تقريبًا. قضى كثيرون منهم في أثناء انتقالهم من السفينة إلى القارب، وفي الواقع، كان يتعين مباشرة التفريغ على وجه السرعة حتى إنه لم يكن ثمة وقت لفصل الموتى عن الأحياء.

وليس بالمستطاع إحصاء عدد مَن كانوا يهلكون مِن بينهم إلا على نحو تقريبي. وفي الفترة ما بين أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن التاسع عشر، غادر معظم العبيد المحررين الجزيرة وعادت سانت هيلانة مرة أخرى إلى سُباتها الذي كانت عليه. قصد بعضهم جزر الهند الغربية فيما ذهب آخرون إلى سيراليون. وإجمالًا، استقبلت الجزيرة أكثر من ٢٦ ألفًا من العبيد المحررين، وعلى الرغم من أننا لا نستطيع تقدير عدد الوفيات على وجه الدقة، فإننا نستطيع أن نُقدر ونحن مطمئنون أن الـ٢٦ ألفًا قضى منهم ما لا يقل عن ٨ آلاف في الجزيرة. والأرقام في واقع الأمر أسوأ من ذلك بكثير لكونها لا تشمل الذين ماتوا في أثناء الرحلة. وبحلول نهاية القرن، كان العبيد جميعهم قد غادروا الجزيرة وفي منطقة روبرتس فالي، التي كان يسكنها

الآلاف، أشار تقرير يعود تاريخه إلى عام ١٩٣٨ إلى أنه «لا يوجد سوى شخص واحد مصاب بالجذام في الجزيرة».

لكن أعداد الوفيات لا تكشف إلا جانبًا بسيطًا من هَول ما جرى. من بين الهياكل العظمية التي اكتُشفت، كان ٥ في المائة فقط منهم أشخاص ماتوا وهم فوق الـ٤٥ عامًا، فيما كان واحد من بين كل ثلاثة هياكل دُفن أصحابها على عجل هي لطفل دون الثانية عشرة. كانت الأمراض الرئيسية التي أصيبوا بها هي الجدري والحمى الصفراء والزحار والالتهاب الرئوي والحصبة. لكن هناك من الرجال والنساء والأطفال مَن ماتوا لأسباب أخرى كثيرة. فبعضهم مات بسبب ما وصفه الأطباء بأنه «كآبة» دفعتهم إلى الانتحار. وهناك حقائق أخرى تلفت الانتباه وهي أن الهياكل العظمية المكتشفة تؤكد أن عددًا كبيرًا كان يعاني داء الإسقربوط الذي، وإن لم يكن يُسبب الوفاة، كان يصيبهم بالوهن. قد يبدو وجود داء الإسقربوط مفاجئًا لأول وهلة، نظرًا لأنه عادة ما يصيب فقط الذين يبحرون في رحلات طويلة، فيما كانت الرحلة إلى سانت هيلانة لا تستغرق سوى ثلاثة أسابيع على الأكثر. ولكن ما قد يثبته ذلك لم يكن طول الرحلة بقدر ما كانت الصعوبات والصدمة التي تسببها الظروف التي تصاحب نقل العبيد. كانت سفن الرقيق شديدة الحرارة وكانت جثث كثيرة على متنها تبلغ حدًّا متقدمًا من التحلل.

لا تكاد التقارير المعاصرة لتلك الفترة تخفي هول ما كان يجري. في عام ١٨٤٩، وصف دكتور فاول، وكان جراحًا في الجزيرة، «شراسة الجرذان التي تهاجم المحتضرين والموتى». لكن هذه التقارير تتيح لنا أيضًا التعرف على هؤلاء العبيد، ليس باعتبارهم أعدادًا من الموتى، ولكن باعتبارهم بشرًا، وتكشف صورًا محزنة لأشخاص محطَّمين من الرجال والنساء والأطفال الذين قُدر لهم أن يُستعبدوا ثم يموتوا في جزيرة نائية لم يعرفوا قَطُّ أنها موجودة. ولاحظ جورج ماكهنري في كتابته عن وصول العبيد المحررين إلى سانت هيلانة أنه على الرغم من أن غالبيتهم كانوا عراة، فقد حرص كثيرون منهم على التحلي ببعض مظاهر الكرامة عبر تضفير شعورهم بعناية وتزيينها بخيوط من الخرز والعملات المعدنية وقطع المعدن. وكان بعضهم يرتدي القلائد والأساور حول أعناقهم وأذرعهم فيما وضع آخرون حول أرجلهم حلقاتٍ نحاسية كبيرة ومتلألئة كخلاخيل. وفي عام ٢٠٠٨ حينما اكتشفت الهياكل العظمية، عُثر على العديد من أدوات الزينة بالقرب من الجثث. وعثر على كثير من حلي الخرز الزجاجي متناثرًا في المقابر. ولوحظ أيضًا أن انعدام الترتيب في وضعية الأطراف يعني أن الجثث كانت تُلقى كيفما اتفق في القبور. وفي بعض الحالات، دُفنت أمهات رفقة أطفالهن المفترضين، وفي بعض الأحيان كانت الجثث تتقارب بشدة تجعل المرء يفترض أنها عائلة يتشبث كل فرد فيها بالآخر. ولم تكُن تُستخدم أي أكفان.

وما زالت جزيرة سانت هيلانة تكشف لنا عن ماضيها المرعب والمضرج بالندوب. ففي ١٢ ديسمبر ٢٠١٤، أقصَّت بعض أعمال الطرق مضجع الموتى في قبر يضم عدة هياكل عظمية. أوقف مقاول المطار العمل فور العثور على هذا الرفات. وبعد ذلك بفترة وجيزة صدر بيان رسمي: «تشير جميع الأدلة إلى أن هذا الرفات هو لعبيد أفارقة آخرين حُرروا». ولم يكن اكتشاف ماضي الجزيرة المفجع يمثل خبرًا بالنسبة إلى سكانها. ورغم كل شيء، فإن الحكايات والذكريات التي كانوا يحملونها في نفوسهم وبين أفراد مجتمعهم ويتناقلونها من جيل إلى جيل لا تتحدث عن أسلاف برتغاليين وإنجليزيين وهولنديين فحسب، ولكن أيضًا عن أسلاف عبيد من الملايو وجوا وأفريقيا ومدغشقر والعمال الصينيين ومن أسرى حرب البوير. وحسبما استحضر أحد سكان الجزيرة من كبار السن، كانت الجزيرة جزيرة أشباح:

اعتادت جدتي أن تخوِّفنا، وكنَّا إذا أردنا الخروج ليلًا تقول لنا إن الرجل الصيني سوف يمسك بكم. هل تعرف المكان المسمى «حارة الصين»، كانت توجد هناك مقبرة. حسنًا، لم تكن تُبنى فيها منازل، وإذا تجرأ أحدنا وذهب إلى هناك، فسوف يعود من فوره إذا ما وجد الرجل الصيني جالسًا على المقبرة، وكانت تُسمى «حارة الصين»، لأنها مقبرة صينية. وحينما ينتشر بها الضباب وتهبط عليها الغيوم تصبح الجزيرة أشبه بمدينة أشباح ويخيم عليها الظلام وتتعذر الرؤية إلا من قريب ويبدو كل شيء رطبًا. واعتاد الناس أن يقولوا وهم يجتازون الطريق من لونجوود جيت إلى ديدوود، إنك سوف تسمع صليل سلاسل الخيول في أثناء سيرها مصحوبة بصرخات العبيد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خاتمة

للعزلة إحداثياتها الخاصة. فعند خط عرض ١٥.٢٥ درجة، و٥٥ دقيقة جنوبًا، وخط طول ٥.٢٥ درجة، و٤٥ دقيقة غربًا، وإلى الغرب من أنجولا بـ١١٤٣ ميلًا، و١٨٠٠ ميل شرق البرازيل، تقع صخرة نائية وسط محيط لا متناهٍ.

في «روبنسون كروزو المسلم»، قررتُ أن أكتب قصة رجل واحد ورحلته عبر الحياة، وهي رحلة عاشها على عدة مستويات، دنيوية وروحية، ولكنني لم أكن أعرف يقينًا أي نوع من الكتب سوف يتمخض عنه ذلك الجهد. كان السبب بسيطًا: على الرغم من أن المغامرة التي خاضها «روبنسون كروزو البرتغالي» الحقيقي كانت قطعًا مغامرة حافلة بالإثارة والمكيدة والخيانة والبطولة، فقد كنت أشعر بأن القصة الحقيقية تكمن في مكان آخر، وأن أهميتها تكمن في ما لم يُقل. في النهاية لم تكن مجرد قصة عن رجل أو مغامرة أو حتى جزيرة. كانت قصة عنَّا وعمَّا يجعلنا بشرًا. ولكن إن كان يمكن للمرء أن يكتب عن جغرافية رحلة لوبيز المكانية، فكيف يعبِّر عن جغرافية رحلته الروحية؟ الكلمات وحدها تقف عاجزة والأوصاف الروحية لا تقدم أي معنى حقيقي أو عميق. كيف يمكن للمرء التعبير عمَّا هو باطني حينما يتعذر على الكلمات وصفه بسبب طبيعته الخاصة؟ ومن نواحٍ عدة، قررت أن أكتب قصة لوبيز في جزء منها باعتبارها مغامرة لأنني لولا ذلك ما كنت لأتمكن من وصف الرحلة الروحية، ولكني أيضًا كنت آمل أن تكون المغامرة هي نقطة الانطلاق التي يمكن للقارئ أن يلج منها إلى قصة تحولات الروح.

في أي نقطة تتلاقى الرحلتان المادية والروحية اللتان قام بهما فرناو لوبيز؟ قرأنا في قصة «حي بن يقظان»، وهي تقترب من نهايتها، أن حي قد اقتنع بمغادرة الجزيرة آملًا أن يكون في ذلك هداية للناس. ومع ذلك نجده يفزع مما يراه ويخشى جهالة الناس وهوسهم بالمظاهر، وحتى لا يلهيه شيء عن سعيه الروحي، يقرر العودة إلى جزيرته حيث يُمضي بقية حياته. يدرك أنه لم يكن بحاجة إلى السفر، ويُقر بأنه أخطأ حينما قام بهذه الرحلة القصيرة. وهكذا كان الأمر مع لوبيز، لأنه حينما قام على مضض برحلته الأخيرة إلى لشبونة، سرعان ما أدرك أنه لا حاجة إليه بها، لأنه إذا كان العالم بكل سحره، والذي تجلى له في أعظم أشكاله أبهةً وهو رؤية الملك والبابا، لم يُغرِه، فلن يغريه شيء إذن. وهكذا، اختار لوبيز، شأنه شأن حي، العودة إلى الجزيرة. وعلى هذا النحو يجب أن نفهم تلك الرحلة الأخيرة، لأنها وخلافًا لكل الرحلات الأخرى التي حملت لوبيز تدريجيًّا، عبر المحاكمات والمحن، من الهامش إلى المركز، فإن رحلته التي انتقل فيها من سانت هيلانة إلى لشبونة كانت أشبه

بموجة في عمق المحيط الذي ابتلعه، تبلغ الشاطئ قبل أن تعيده إلى حيث كانت بدايته. وفي هذه المرة لم تكن ثمة عودة.

تعرفت على فرناو لوبيز مصادفة وفي أكثر مكان يُستبعد أن أتعرف عليه فيه. في أثناء مطالعتي لورقة بحثية عن احتجاز الرهائن في بيروت في ثمانينيات القرن العشرين، عثرتُ على كتاب كتبه فرنسي هو جان-بول كوفمان، كان قد اختُطف على يد الميليشيات واحتُجز ثلاث سنوات في لبنان، ثم سافر لاحقًا إلى سانت هيلانة كي يؤلف كتابًا تأمليًّا عن الأسر. كان موضوع الكتاب، بطبيعة الحال، هو نابليون، ولكن في منتصف الكتاب أشار كوفمان إلى أنه في أثناء وجوده في سانت هيلانة علم بمنفيٍّ آخر نزل بالجزيرة قبل ٣٠٠ سنة من بونابرت، وألمح من دون تفاصيل إلى أنه كان «مسلمًا برتغاليًّا» والساكن الوحيد للجزيرة. كانت إشارة عابرة، ولكنها بمثابة فاتحة شهية تاريخية، وانشغلت بإشارة كوفمان، ولكن ليس طويلًا. في ذلك الوقت، كنتُ قد كُلفت للتو بكتابة سيرة صلاح الدين الأيوبي، وخلال السنوات القليلة التالية انغمستُ في عالم السلاطين والرجال ذوي الشجاعة والبأس. وبدا الأمر لي كذلك. لكنه لم يكن كذلك. ففي بعض الأحيان، وحينما أكون منشغلًا بالبحث في أحد الجوانب الغامضة في الحملة الصليبية الثالثة، كنت أجدني أتساءل: ما الذي يمكن أن يأتي بـ«مسلم برتغالي» في القرن السادس عشر إلى جزيرة مهجورة في جنوب المحيط الأطلسي؟ وهل يمكن أن يكون هو حقًّا الإنسان الوحيد على الجزيرة؟ ويا للدهشة، كان الجواب هو نعم.

ذات مرة سمح له الإنجليز، وهم قوم ليس من ديدنهم التهاون في أي شيء، بالفرار، ولكن الرأي استقر لديهم الآن على جزيرة بركانية تقع وسط عزلة شديدة في جنوب المحيط الأطلسي، ولا يتجاوز طولها عشرة أميال ونصف وعرضها ستة أميال، بما لم يدع حاجة إلى السجن. منذ اللحظة التي وطأ فيها نابليون سانت هيلانة بقدميه، أدرك أن مصيره بات محتومًا، ولكن ذلك كان من نواحٍ عدة مصير الجزيرة أيضًا. ومن الآن فصاعدًا، لم يعد ممكنًا تخيل الجزيرة من دون استحضار بونابرت وهو غاضب أشد الغضب ويتذمر من المصير الذي آل إليه، مصير جعله أشبه بـ«لير» كورسيكي على مسرحٍ خاوٍ. ولكن، إذا كانت هيلانة، الأم القديسة للإمبراطور قسطنطين العظيم، والتي أسمى البرتغاليون المكان باسمها في عام ١٥٠٢، يمكن أن تتدخل بطريقة أو بأخرى لإسكات الكورسيكي، وإقناع الجزيرة بلطف بأن تروي حكايتها، فربما تختار حكاية مختلفة: وهي حكاية ليست بالقدر نفسه من الإثارة، ولكنها أكثر إيلامًا وعمقًا. سوف تروي قصة منفيٍّ آخر سابق في وجوده بالجزيرة على نابليون، ولكنها ذات طبيعة مختلفة: لم تكن نفيًا قسريًّا، ولكنْ نفي ذاتي؛ وليست نفيًا عقابيًّا، ولكنْ نفي خلاصي. وفي حكايتها الغريبة والمؤلمة عن

فرناو لوبيز، ربما تساعدنا جزيرة سانت هيلانة في فك طلاسم أحد أعظم أسرار الحياة، ألا وهو سر العزلة.

انتهيت من العمل على سيرة صلاح الدين الأيوبي، وكي أُرضي فضولي، وجَّهت انتباهي لفترة وجيزة إلى هذا المسلم البرتغالي الذي يكتنفه الغموض. وبعد أن أمضيت سنوات في قراءة مئات الوثائق عن صلاح الدين الأيوبي، هالني أنه لا توجد سوى حفنة قليلة من الوثائق التي تأتي على ذكر لوبيز. دخلت في صراع مع المصادر: كانت توجد بالقصة تناقضات وثغرات، وانتابني شعور بالإحباط لعجزي عن الاطلاع على الوثائق الأصلية باللغة البرتغالية. ولكن كنت كلما قرأت أكثر، جذبتني القصة إليها: وكانت تمتد من لشبونة إلى جوا، ومن مجتمع الفيدالجو إلى الراقصات الهندوسيات، ومن أبشع أشكال التعذيب والمثلة إلى نفي يسترد فيه المرء روحه ويصنع تحوله في جزيرة معزولة. وفوق كل ذلك، كانت صورة لوبيز في جزيرة معزولة هي ما استحوذ عليَّ منذ القراءة الأولى، وبقيت كذلك. وهكذا عقدتُ العزم على كتابة قصة فرناو لوبيز.

هذه هي قصة فرناو لوبيز. ولم أدرك إلا لاحقًا، بعد أن عثرت عليه للمرة الأولى باعتباره «مسلمًا برتغاليًّا» يعيش في عزلة في جزيرة مهجورة على بعد آلاف الأميال من أي أحد في العالم، وبعد أن قررت الكتابة عنه، أنني أصبحت من دون قصد في منتصف قصته. إذا كان فهم حياة شخص ما يتطلب فهمها في مجملها، فقد وجدت أنني كي أمضي قدمًا، فمن المهم أن أبدأ الرحلة بالعودة إلى الوراء. وبهذه الطريقة وحدها يمكن أن نحاول الإجابة عن السؤال عن سبب وجود فرناو لوبيز في الجزيرة. واليوم أصبحت قصة فرناو لوبيز منسية إلى حدٍّ بعيد، بالرغم من أنها كانت ذات يوم معروفة على نطاق واسع، وإذا كان هذا الكتاب يهدف إلى بعث لوبيز من جديد، فإن ذلك لغاية واحدة فقط، ألا وهي إتاحة الفرصة له كي يروي حكايته. ويطرح الشاعر البرتغالي فرناندو بيسوا، ولعله أشهر شخصية أدبية في القرن العشرين في البرتغال، سؤالًا ماكرًا في كتاباته: مَن الذين يمكنهم، إذا كانوا برتغاليين، أن يعيشوا في نطاق الحدود الضيقة لشخصية واحدة فقط، ودولة واحدة فقط، ودين واحد فقط؟ وُلد لوبيز في العصر الذهبي للبرتغال، عصر المستكشفين من أمثال فاسكو دا جاما وبارتولوميو دياز، ولكن حياته ربطت أيضًا بين حدثين كبيرين كان لهما أبلغ الأثر في التحول الذي شهدته البرتغال والصدمات التي تلقتها خلال هذه الحقبة. وكلاهما مثَّل تحديًا أساسيًّا لما تعنيه الهوية البرتغالية. وحينما يروي المرء حكاية فرناو لوبيز، يجد نفسه تلقائيًّا مشدودًا لحكاية تاريخ هذه الحقبة الرائعة.

في أي نقطة قرأ الآخرون حياة لوبيز بدلالتها الرمزية؟ يوجد بين أيدينا دليل يرشدنا في بحثنا في هذه النقطة، ولكن علينا مرة أخرى العودة إلى قصة «حي بن يقظان»، وإنْ في شكل مغاير هذه المرة. في منتصف القرن السابع عشر، كتب الفيلسوف الإسباني اليسوعي بالتاسار جراثيان حكاية رمزية أضحت فيما بعد أحد أعظم أعمال الأدب الإسباني، وهو «الكريتيكون». ويصف جراثيان في هذا العمل حياة كريتيلو وأندرينيو، اللذين يلتقيان عندما تغرق سفينة كريتيلو أمام الجزيرة التي يعيش بها أندرينيو، الذي تولت تربيته حيوانات برية ولم يرَ في حياته إنسيًّا. لا شك أن أندرينيو هو النظير المماثل لحي بن يقظان. ولأنها تتألف من سلسلة من المشاهد التي تصور حياة أبطال مغامرين من الطبقات الدنيا مصحوبة بإيماءات فلسفية ذات طبيعة تهكمية وتشاؤمية، فقد حظيت رواية «الكريتيكون» بإعجاب كبير من فولتير. ومن المؤكد أن رواية «كانديد»، التي يدور موضوعها حول المسافر الساذج ومعلمه الواقعي، تنهل كثيرًا من عمل جراثيان. ولكن الأمر الذي لا محل للنزاع حوله هو أن جراثيان تأثر برواية «حي بن يقظان» لابن طفيل. فقد كان على دراية بحكاية الفيلسوف الذي علَّم نفسه بنفسه لأنه كان على دراية بكتابات بيكو ديلا ميراندولا، ويشير إليه في مراسلاته، وللمرء أن يفترض أنه كان على دراية بترجمة ميراندولا لقصة «حي بن يقظان» التي ذكرناها سابقًا. ويستخدم جراثيان قصة «حي بن يقظان» كنقطة انطلاق لروايته الرمزية، وإن نقطة الانطلاق تحديدًا ـ اكتشافنا أندرينيو في جزيرة منعزلة ـ هي ما يهم موضوعنا أكثر من أي شيء آخر. وإذا كان جراثيان على دراية بقصة حي، فيبدو أنه كان أيضًا على دراية بقصة فرناو لوبيز، ذلك الناسك البرتغالي، لأنه عند اختياره جزيرة تجري فيها أحداث قصة أندرينيو، وهو عنده نظير حي بن يقظان، اختار جزيرة يصفها في كتابه بأنها تقع عند ملتقى الشرق والغرب.

اختار جراثيان جزيرة سانت هيلانة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شكر وتقدير

قدَّم كثيرون لي العون في أثناء تأليفي هذا الكتاب سواء بأفكارهم أو بمقترحاتهم، وأنا مدينٌ لهؤلاء جميعًا بفضلٍ كبير. كان انعدام معرفتي باللغة البرتغالية يعني أن عليَّ الاعتماد بشدة على جواو باولو أوليفيرا إي كوستا، الذي عرَّفني مشكورًا على جواو لويس فيريرا، الذي بدوره راح ينقِّب من دون كلل أو ملل في سجلات الأرشيف بحثًا عن لوبيز. وأود أيضًا أن أشكر أنجيلا خافيير وهيلدر كارفاليال، وكذلك آن ماري جوردان جشوند، ممن احتملوا في صبر أسئلتي المتلاحقة وأجابوا عنها فيما كنت أحاول فهم حقبة تاريخية كانت معرفتي بها محدودة للغاية. والشكر موصول أيضًا إلى سيمونا كتابياني التي ظهر الكتاب باللغة البرتغالية أيضًا بفضل تشجيعها وإيمانها بالمسودات الأولى.

وأسعدني الحظ بإجراء بعض الحوارات مع بو رولاندز الذي يمتلك خبرة ودراية بشؤون سانت هيلانة ويُعتبر أحد الأشخاص الأحياء القلائل الذين كتبوا عن لوبيز. ويعود الفضل إلى رولاندز في الكشف عن بعض التطورات المثيرة في حياة لوبيز التي تتبعتها في كتابي هذا.

وينبغي لي أن أوجه شكرًا خاصًّا إلى وكيلتي إيزوبيل ديكسون في وكالة «بليك فريدمان»، التي كانت أول مَن قرأ مسودتي الأولى. وحينما تبينت لها مقومات القصة، قدمتني إلى توم ويبر في دار «آيكون بوكس». وكان لتحديات توم المتواصلة، ولتشجيعه، ولتحريره المخطوطة، أبلغ الأثر في تطوير الكتاب بشكل هائل.

وأخيرًا، أخص بالذكر موجي، لأنها سوف تظل موجي دائمًا وأبدًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقفة مع المصادر

في عيد جميع القديسين من عام ١٧٥٥، ضرب زلزال مدمر لشبونة، ومن شدته امتدت آثاره إلى بلدان بعيدة بعد إسكتلندا وتركيا. وفي ست دقائق فقط، محا الزلزال ثلثَي المباني في لشبونة التي كان من بينها قصر «ريبيرا» وأتلف سجلات الأبرشية وبدَّد معها أي أمل في العثور على مزيد من الوثائق حول فرناو لوبيز. وبالتالي، أصبحت حياة لوبيز بالنسبة إلى المؤرخ الذي يحاول تتبعها مليئة بالثغرات. ولا تزال المصادر الأصلية موجودة وهي لا تأتي على ذكر لوبيز إلا لمامًا، ولكنها أيضًا تنطوي على اختلافات طفيفة في رواية الأحداث. وقبل أن ننظر في هذه الاختلافات، من المهم أن نحدد هذه المصادر:

١- «Corpo Cronológico»، مجموعة مخطوطات توجد في «توري دو تومبو»، وهو الأرشيف الرئيسي للبرتغال. تنقسم هذه المجموعة إلى ثلاثة أجزاء، ويمكن الاطلاع على الجزأين الأولين منها عبر الإنترنت من خلال الموقع الإلكتروني: (http://digitarq.arquivos.pt). هذه المجموعة، التي جمعها مانويل دا مايا، أمين المخطوطات في الأرشيف البرتغالي الرئيسي «توري دو تومبو» بعد زلزال لشبونة المدمر، تغطي فترة زمنية تمتد من القرن الثاني عشر وصولًا إلى عام ١٦٩٩، وتحتوي على جميع أنواع المخطوطات، مثل الرسائل الواردة من المسؤولين في البرتغال والإمبراطورية البرتغالية والأوامر التي يصدرها الملك والمعلومات الدبلوماسية والدفاتر المالية وما إلى ذلك. وهذه المخطوطات تضم قدرًا كبيرًا من المعلومات حول أفونسو دي ألبوكيرك.

٢- «Cartas de Affonso de Albuquerque seguidas de documentos que as elucidam»، مجموعة من الوثائق المتعلقة بأفونسو دي ألبوكيرك، نشرها رايموندو أنطونيو دي بولياو باتو وهنريكي لوبيز دي ميندونسا خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، وتضم جميع الرسائل التي كتبها أو استلمها أفونسو دي ألبوكيرك، بالإضافة إلى جميع أوامره، بل وحتى الوثائق التي تشير مجرد إشارة إلى الحاكم.

٣- «Gavetas da Torre do Tombo»، مجموعة من اثني عشر مجلدًا من الوثائق المنقولة الموجودة في مجموعة «توري دو تومبو» وتحمل الاسم نفسه. نشرها الأب أنطونيو دا سيلفا ريجو خلال القرن العشرين. وعلى غرار «Corpo Cronológico»، تغطي الوثائق جميع أنواع الموضوعات مثل المعلومات الدبلوماسية والإدارية والمالية.

٤- يرصد كتاب «Lendas da India» لجاسبار كوريا مغامرات البرتغاليين في آسيا بين رحلات فاسكو دا جاما خلال الفترة ما بين عامَي ١٤٩٧ و١٥٥٠. ولم يُنشر الكتاب إلا في القرن التاسع عشر. وُلد جاسبار كوريا في عام ١٤٩٢ وذهب إلى الهند في عام ١٥١٢، حيث عمل سكرتيرًا لدى أفونسو دي ألبوكيرك حتى عام ١٥١٥. ونتيجةً للصلة الوثيقة، تمكن من الوصول إلى العديد من الوثائق. وبعد وفاة الحاكم، واصل أسفاره عبر معظم الشواطئ الهندية خدمةً للتاج البرتغالي. ولا يُعرف متى توفي، ولكنه كان على قيد الحياة في الهند حتى عام ١٥٦٣. وتكمن أهمية كتاب «Lendas da India» في أن جاسبار كوريا كان موجودًا في الهند، ولذلك فهو نفسه يُعتبر شاهد عيان على بعض الأحداث الواردة في مروياته.

٥- يتناول كتاب «História da Conquista da Índia» لفرناو لوبيز دي كاستانيدا الوجود البرتغالي في آسيا، وعلى غرار كتاب جاسبار كوريا، تنبع قيمته من أن كاستانيدا حضر بنفسه بعض الأحداث. وُلد كاستانيدا في البرتغال وذهب إلى الهند في عام ١٥٢٨. وكان حاضرًا في أثناء الهجوم على ديو في ١٥٣١ إلى جانب جاسبار كوريا، ولذلك من المحتمل أن يكون الرجلان قد التقيا هناك. بقي كاستانيدا في الهند حتى عام ١٥٤٨، وذلك حينما عاد إلى البرتغال حيث توفي في عام ١٥٥٩. وكان من المفترض أن توجد عشرة مجلدات من الكتاب ولكن فُقد آخر مجلدين منها.

História da Conquista da Índia. Ed. M. Lopes de Almeida, Porto: Lello& Irmão 1979, 2 vols.

٦- يشكل كتاب «Comentários do grande Afonso de Albuquerque Capitão Geral que foi das Índias Orientais em tempo do muito poderoso Rey D. Manuel o primeiro deste nome» (Academia Real das Ciências de Lisboa 1884-1935)، وهو من تأليف براس دي ألبوكيرك، مصدرًا مهمًّا للغاية، وهو استكمال لـ«Cartas de Affonso de Albuquerque». وبراس دي ألبوكيرك هو ابن طبيعي لأفونسو دي ألبوكيرك، وقد كتب هذه الأقوال استنادًا إلى الرسائل التي كان والده يرسلها إليه وإلى الملك. ويظهر لنا من خلال هذا المصدر جانبًا أوضح من الحياة الخاصة لأفونسو دي ألبوكيرك.

٧- لعل جواو دي باروس هو المؤرخ الأشهر لـ: «الإستادو دا إنديا». وُلد في عام ١٤٩٦ تقريبًا، وكان يشرف على مؤسسة «كازا دا إنديا»، وهي مؤسسة كانت تتولى جميع شؤون الإمبراطورية البرتغالية. وعلى النقيض من جاسبار كوريا وفرناو لوبيز دي كاستانيدا، فإن جواو دي باروس لم يذهب قَطُّ إلى الهند وجمع معلوماته عن البرتغاليين في آسيا من مصادر غير مباشرة، سواء

من خلال الوثائق الرسمية في مؤسسة «كازا دا إنديا»، أو تقارير العائدين من الهند. وكتب باروس كتاب:

Dos Feitos que Os Portugueses Fizeram no Descobrimento e Conquista dos Mares e Terras do Oriente. Eds António Baião and Luís F. Lindley Cintra, Lisbon: Imprensa Nacional-Casa da Moeda, 1932-1974, 2 vols.

بالإضافة إلى كتاب: «Décadas da Ásia».

على الرغم من أن باروس لم يكتب إلا عن العقود الأربعة الأولى للوجود البرتغالي في آسيا، فقد استكمل جهوده كلٌّ من ديوجو دو كوتو وأنطونيو بوكارو، اللذين أكملا الكتاب حتى عام ١٦١٧.

٨- يوجد مؤرخ آخر لم يذهب إلى الهند قَطُّ: دامياو دي جويز. ولد في عام ١٥٠٢، واشتهر بأنه إنساني النزعة وصديق لإرازموس. وفي عام ١٥٤٥، أصبح أمين أرشيف «توري دو تومبو». وبسبب أفكاره حوكم أمام محاكم التفتيش. ومن بين الكتب التي ألفها: «Crónica do Felícissimo Rei D. Manuel».

كان تتبع قصة لوبيز عبر المصادر المذكورة أعلاه عملًا شاقًّا، لما حوته من اختلافات كانت هناك حاجة ما إلى تبريرها. وسوف أورد أدناه بعضًا من الاختلافات والتناقضات التي تظهر في هذه المصادر:

١- وفقًا لكاستانيدا، لم يلجأ لوبيز إلى بيجابور إلا بعد حصار جوا حينما تعرضت المدينة لمجاعة كبيرة، وهرب وقتها رفقة ٦٠ برتغاليًّا إلى صفوف المسلمين. لكن مصادر أخرى، مع ذلك، تشير إلى أنه انشق في وقت سابق.

٢- يدَّعي كوريا أن لوبيز رفض مرافقة ماشادو والعودة معه إلى المعسكر البرتغالي خشية أن يُهان ويتم الحط من شأنه. ويذهب حتى إلى حد القول إن ماشادو عرض على لوبيز أن يوفر له الحماية ولكنه رفض ذلك العرض.

٣- يشير كاستانيدا إلى أن مجموعة المنشقين حينما جيء بهم في حضرة ألبوكيرك، احتجوا قائلين بأنه لا يجوز حتى عقابهم لأن العقاب يناقض الاتفاق مع رسول خان.

٤- كتب كلٌّ من باروس وكاستانيدا أن لوبيز حُمل على الفور إلى البرتغال بعدما نال عقابه.

٥- كتب كلٌّ من باروس وكاستانيدا أن لوبيز طلب أن يُترك على الجزيرة وتوسل إلى القبطان أن يتركه بها كي يطهر نفسه من خطاياه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

قراءات أخرى مقترحة

Boxer, CR, The Portuguese Seaborne Empire 1415-1825, New York: Alfred Knopf 1969

Crowley, R, Conquerors, London: Faber & Faber 2015

Disney, AR, A History of Portugal and the Portuguese Empire, Cambridge: CUP 2009, 2 vols

Earle, TF & Villiers, J, eds and trans., Albuquerque, Caesar of the East: Selected texts by Afonso de Albuquerque and his son, Teddington 1990

Jordan Gschwend, A & Lowe, KJP, The Global City: On the streets of Renaissance Lisbon, London: Paul Holberton 2015

Nayeem, MA, The Heritage of the Adil Shahis of Bijapur, Hyderabad: Hyderabad Publishers 2008

Newitt, M, A History of Portuguese Overseas Expansion, 1400-1668, London: Routledge 2005

Pearson, MN, The New Cambridge History of India, Vol. I, Part I: The Portuguese in India, Cambridge: CUP 1987

Ravenstein, EG, A Journal of the First Voyage of Vasco da Gama 1497-99, ed. and trans., London 1898

Russell-Wood, AJR, The Portuguese Empire, 1415-1808, Baltimore: Johns Hopkins Press 1992

Schulenburg, AH, ‘Transient Observations: The Textualizing of St Helena Through Five Hundred Years of Colonial Discourse’, PhD Thesis, St Andrews 1999

Soyer, F, The Persecution of the Jews and Muslims in Portugal, Leiden: Brill 2007

Subrahmanyam, S, The Portuguese Empire in Asia, 1500-1700: A Political and Economic History, London: Wiley 1993

إذن بالطباعة

١- الاقتباس في صدر هذا الكتاب مأخوذ من كتاب «ملك القلعة» لتشارلز لو جاي إيتون، وأعيدت طباعته هنا بإذن من جمعية النصوص الإسلامية في كامبريدج بالمملكة المتحدة.

٢- أبيات الشعر التي تظهر في الصفحة ١٧٩ هي من «النظر في عينَي دون فرناندو»، وأعيدت طباعتها هنا بإذن من رالف بيترز.

٣- أبيات الشعر التي تظهر في الصفحة ٢٤٩ مأخوذة من:

«Honey», © Russell Cason Music, Nashville TN.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المترجم

أنور الشامي، مترجم مصري من مواليد عام ١٩٧٥، تخرج في كلية الألسن بجامعة عين شمس، مارس الصحافة لعدة سنوات وكتب في بعض الصحف والمجلات العربية، ترجم عن الإنجليزية العديد من الأعمال الأدبية والسير الذاتية، من بينها: رواية «١٩٨٤» لجورج أورويل، وروايتا «ما بعد الظلام» و«رقص رقص رقص»، وثلاثية «Q841» لهاروكي موراكامي، و«اقتصاد الفقراء» لأبهجيت بانرجي وإستر دوفلو، و«أنا ملالا» للناشطة الباكستانية ملالا يوسفزاي. صدرت له لدى دار الكرمة ترجمة «ظلام مرئي: مذكرات الجنون» لوليام ستايرون وترجمة رواية «احتضان» لكلير كيجن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الكتاب..

إهداءٌ..

مقدمة لا بُدَّ منها

الرحلة الأولى

الفصل الأول

مملكة في أقاصي الأرض

الفصل الثاني

«ادهن نفسك بالزيت واحفظها في خزانة»

الفصل الثالث

أبناء البرتغال المفقودون

الفصل الرابع

الانتظار في بيليم

الفصل الخامس

«القمر يكذب»

الفصل السادس

«سوف أقيم أسوارًا من عظام المسلمين»

الفصل السابع

بحيرة إسلامية

الفصل الثامن

«ومن شدة عناده ودَّ لو يموت ويقتلهم أجمعين»

الفصل التاسع

«حمقى غارقون في العطر»

الفصل العاشر

«إكسير البهجة واللذة»

الفصل الحادي عشر

باناستاريم

الفصل الثاني عشر

ومات القيصر

الفصل الثالث عشر

روبنسون كروزو البرتغالي

الفصل الرابع عشر

بقايا عالم قديم

الفصل الخامس عشر
ظلال الماضي
الفصل السادس عشر
«روح متنازع عليها»
الفصل السابع عشر
«الأعداء الذين جلبناهم على أنفسنا»
الفصل الثامن عشر
مثل سترة «كاباي» جديدة
الفصل التاسع عشر
«لن ينالَك أذى»
الفصل العشرون
شجر المانجو والتوت
الفصل الحادي والعشرون
ماذا يريد؟
الفصل الثاني والعشرون
شوارع لشبونة
الفصل الثالث والعشرون
مملكة غامضة
الفصل الرابع والعشرون
من فردوس إلى صحراء
خاتمة
شكر وتقدير
وقفة مع المصادر
قراءات أخرى مقترحة
المترجم

Notes

[1←]
(1): «مور»، «موريون»، والصفة «موري» كان يطلقها الأوروبيون على سكان شمال أفريقيا. (المترجم).